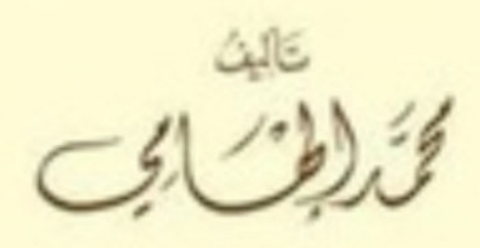




تأليف





في

أروقة التاريخ

الجزء الأول

محمد إلهامي



إلى أخي أحمد..

أسأل الله أن يجعلك من خير الأبناء وخير الآباء

وخير الأزواج وخير الأشقاء

وأن يطيل عمرك في رضاه

أخوك

فهرس المحتويات

مُقَدِّمَة

ثمة قاعدة أصولية شهيرة للإمام يحيىٰ بن أبي كثير تقول: «السنة قاضية علىٰ القرآن، وليس القرآن بقاض علىٰ السنة»، والمعنىٰ -كما بيَّنه الشاطبي في الموافقات والسيوطي في مناهل العرفان- أن السنة إنما تقضي بين أفهام الناس في القرآن، فلو أن عددا من الناس قرأ الآية المُجملة، ففهم منها كل واحد فهما، فإن السنة تأتي بالتبيين والتفصيل، ومن ثم تقضي بين الأفهام فَتُقِرُّ فهمًا وتحكم عليه بالصحة وتقضي علىٰ الأفهام الأخرىٰ بالبطلان.

وهذا شأن كل شيء مجمل، يحتاج إلىٰ مذكرة تفسيرية، تُبَيِّن ما تشابه منه وتفصل ما أجمله.

وفي مجال العمل الإسلامي، ترجع الحركات والتيارات الإسلامية إلىٰ القرآن والسنة تستقي منهما منهجها في الرؤية والحركة والإصلاح، وكلهم يصدر عن هذين المصدرين غير أن الأفهام أيضا تختلف، فمنها ذات اليمين وذات الشمال، وكما قال الشاعر:

وكلٌّ يدّعي وصلا بليلى وليلى لا تُقِرُّ لهم بذاكا

ويمكن حل كثير من هذا الخلاف بالنظر إلىٰ مصدر ثالث، نص عليه أيضًا كتاب الله وسنة رسوله.. ذلك هو التاريخ!

فالتاريخ هو التجربة الإنسانية العملية، ومنه نعلم هل نجحت الأفكار أم فشلت؟ فكل فكرة لم تستطع أن تجعل نفسها تطبيقًا عمليًا فهي فكرة فاشلة، وكل فكرة صنعت لنفسها نموذجًا عمليًا في وقت من الأوقات فقد أدركت جانبا من النجاح، وأثبتت أنها استطاعت إدراك ظروف الزمان والمكان

والتعامل مع الإنسان فتحققت في كيان عملي يمثل فكرتها! هذا الكيان يمكن أن يكون دولة صغيرة علىٰ ضفاف نهر، أو امبراطورية عظمىٰ تمددت علىٰ مساحة واسعة وأخذت من عمر الزمان قرونًا وأحقابًا!

ومن هذا المنطلق، فالنظر في التاريخ هو الوسيلة التي تختبر عليها التيارات الإسلامية مدىٰ نجاح رؤيتها وتصوراتها عمليًا، وهل سيؤدي منهجها هذا إلىٰ النجاح أم لا، وهل تستطيع عبر هذا المسار تحقيق أهدافها أم لا..

النظر في التاريخ يحكم علىٰ الأفكار التي تراود العقول، وبقدر العمق في النظر إلىٰ الماضي وتحليله واستكناه أسراره بقدر ما تتوفر الفرصة لمزيد من اليقين في المنهج أو لتصحيح المسار، تصحيحه علىٰ المستوىٰ الكبير (الفكري والاستراتيجي) أو علىٰ مستوىٰ التفاصيل والأولويات والمراحل والترتيبات.

وهذا المعنىٰ هو نفسه مأخوذ من كتاب الله تعالىٰ، فقد ساق الله في الدلالة علىٰ صحة القرآن وصحة نبوة محمد ﷺ دلائل من تاريخ الأقوام السابقة ليصحح مسارهم في مستواه الفكري والاستراتيجي فينقلهم من الكفر إلىٰ الإيمان ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].. كما ساق دلائل من التاريخ أيضا لتصحيح المسار في مستوىٰ التفاصيل والأولويات والترتيب حين قصَّ الله علىٰ نبيه قصص الأنبياء السابقين وكيف تكلموا وكيف أجابهم قومهم ثم كيف حاولوا وأوذوا وصبروا ثم كيف أنجاهم الله، فكان النبي ﷺ يتذكر التاريخ حتىٰ في المواقف الصغيرة «رحم الله أخي موسىٰ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر» ويُذَكِّر صحابته كذلك بالرجل «فيمن كان قبلكم...».

ولا بأس أن نعترف بأن الحركة الإسلامية، وإنتاجها المعاصر يعاني قصورا في دراسة التاريخ وقراءته قراءة متعمقة تبتغي أن تستشرف منه سبيل المستقبل، فهذا الاعتراف أول طريق التعلم.

لقد دخلت إلىٰ باب التاريخ من طريق عجيبة، لعلي أرويها في مقام آخر، ولما دلفت وجدت الباب واسعًا والمجال رحبًا والمدىٰ ممتدًا، فدخلت ذات اليمين وذات الشمال، وطوفت بعدد من الساحات، ورتعت في بعض تلك الحدائق، وقد يسر الله تبارك وتعالىٰ ونشرت عددًا من الكتب والمقالات والأبحاث، ثم ما لبث أن وجدت أرشيفًا كبيرًا من الكتابة، بعضه مقالات وبعضه بحوث قدمت في مؤتمرات علمية أو ضمن مشروعات بحثية أوسع أو نحو ذلك، وقد عرفت بالتجربة أن هذه الأشياء إن لم تجمع فهي أقرب إلىٰ الضياع، فانتثارها في المؤتمرات والبحوث الموسعة والصحف والمجلات والمواقع المتنوعة ليس ضمانًا ولا أمانًا، وإن كان لكل شيء عمر، فالكتاب أطولها عمرا، فالصحف والمجلات والمواقع تتوقف أو تصادر أو تعدو عليها الأيام، وقد رأينا أن كثيرًا من أئمتنا وعلمائنا ضاع كثير من تراثهم في تلك الأنحاء، ورأينا كثيرًا منهم يهتم بجمع ما كتب فأفدنا من هذا الجمع أمورا عظيما ورأينا من فكر الشخصية وروحها ما لم تكن كتبه وحدها تدل عليه.

لهذا كله، قدَّرت أن من الخير جمع ما تفرق مما كتبتُ، مما لا يجمعه كتاب آخر.. وأسأل الله تعالىٰ أن يكون عملًا نافعًا خالصًا لوجهه الكريم، كما أسأل إخواني من القارئين ألا يحرموني من دعوة بظهر الغيب.

محمد إلهامي

صفر ١٤٣٨هـ= نوفمبر ٢٠١٦م

الباب الأول

والفضل ما شهدت به الأعداء

حين كنت صغيرًا، كنت أستمع إلىٰ الشيخ محمد متولي الشعراوي، ضمن العادة الأسبوعية لأهل البيت، ومنه عرفت لأول مرة لفظ «المستشرقين»، فكنت أحسبهم صنفا من الناس تخصصوا فقط في محاولة إيجاد ثغرات في القرآن الكريم، ثم لما كبرت قليلًا واتسعت آفاق القراءة عرفت أن المستشرقين هم من تخصصوا في العلوم الإسلامية ولكنهم القوم الذين يحاولون إيجاد ثغرات في الإسلام كله لا القرآن فقط، الإسلام ونبيه وحضارته، الفقه والتفسير والعقيدة.

ولم تزل الصورة تتصحح شيئًا فشيئًا فتزداد دقة حتىٰ قدَّر الله لي عملًا يستلزم قراءة الكثير من كتب المستشرقين أنفسهم في أول دخولي إلىٰ مجال البحث، فطفقت أقرأ كتبهم مباشرة، وانفتح لي عالم المستشرقين، فاجتمع لدي من حصيلة القراءة في كتبهم مادة صالحة استعملتها في كتابة الأبحاث والمقالات التي تكون أبلغ حجة إن سيقت من أقوالهم علىٰ نحو «وشهد شاهد من أهلها» أو كما قالت العرب «والفضل ما شهدت به الأعداء».

هذا الباب هو مجموعة من البحوث التي تنطق بالحجة البالغة في فضل الإسلام وحضارته وبعض رجاله، علىٰ ألسنة المستشرقين.

- الفتوحات الإسلامية كإعجاز تاريخي.
- اليهود في ظلال الإسلام.

- شخصية صلاح الدين الأيوبي.
- الأندلس المفقود.. ترىٰ كيف كان؟
- الفاتح، وفتح القسطنطينية.

الإعجاز التاريخي في الفتوحات الإسلامية

يطلق لفظ «الإعجاز التاريخي» في دراسات الإعجاز العلمي فينصرف معناه إلىٰ واحد من هذه المعاني الثلاثة[١]:

الأول: أن يأتي في القرآن خبر في التاريخ القديم، ثم تسفر الآثار والنقوش والبحوث العلمية الحديثة عن صحة هذا الخبر الذي كان يستحيل معرفته علىٰ بشر مثل نبينا محمد ﷺ، ولهذا أمثلة عديدة؛ كما في قصص نوح وعاد وثمود وموسىٰ عليهم السلام، لا سيما إن كانت الرواية القرآنية مخالفة لما جاء في التوراة والإنجيل، هذا مع قيام الاستحالة الأصلية لكون محمد ﷺ أخذ علمًا عنهما.

والثاني: أن يذكر القرآن أمرًا لم يقع لحظة نزول الآية مخبراً أنه سيقع، فيكون كما ذكر، فيكون هذا إعجازًا تاريخيًا بمعنىٰ التنبؤ بالحدث التاريخي، وأشهر الأمثلة في هذا الوعد بعودة الانتصار إلىٰ الروم بعد بضع سنين كما في قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم:١-٤]، أو الإخبار باجتماع اليهود قبل يوم القيامة ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ۝١٠٤﴾ [الإسراء:١٠٤] وغير ذلك كثير.

والثالث: أن يقع في تاريخ هذه الأمة من الظواهر والأحداث العظيمة ما لا يكون عادة في تاريخ الأمم، فيثير الدهشة والفخر، وهنا يكون وصف هذه

(١) بحث مقدم للمؤتمر الدولي السادس للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، المنعقد في مدينة تطوان بالمغرب، إبريل ٢٠١٦، لكن حالت ظروف خاصة دون الحضور.

الظاهرة بأنها «إعجاز تاريخي» من قبيل خرقها للعادة التاريخية لا للسنة الكونية الطبيعية.

وموضوع حديثنا في هذه الورقة ينتمي لهذا المعنىٰ الثالث، وقد اخترنا أن نرصد فيه موضوع «الفتوحات الإسلامية» باعتبارها ظاهرة تاريخية متفردة ومثيرة للدهشة وتخالف عادة الأمم في التوسع والانتشار. وقد اخترنا في هذه الورقة أن نسكت عن الكلام كله، مكتفين بالنقل عن المستشرقين والمؤرخين الغربيين وصفهم لظاهرة الفتوحات الإسلامية، لتكون الدلالة أبلغ، علىٰ طريقة (وشهد شاهد من أهلها)، والموضوع التاريخي وإن كان لا يحتاج بذاته النقل عن الغربيين فالحقائق ظاهرة والتاريخ فوق الجميع، إلا أن شهادة غير المسلم في هذا المقام أولىٰ وأحسن أثرًا.

الاستثناء التاريخي

يعد كتاب «دراسة التاريخ» للمؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي(١) من أعظم ما كُتب في بابه علىٰ الإطلاق، وقد قضىٰ في تأليفه نحو أربعين سنة (١٩٢١ - ١٩٦١م)، وصدر أول الأمر في اثني عشر مجلدات، ثم اختصرت تعميمًا للفائدة، ونُشر المختصر مترجمًا إلىٰ العربية في أربعة مجلدات.

وقد ابتكر توينبي في هذه الدراسة -ضمن كثير من نظرياته ونظراته العميقة- قاعدة تاريخية تفيد بأن الغزاة يستطيعون تأسيس إمبراطوريات كبرىٰ

(١) أرنولد توينبي (١٨٨٩ - ١٩٧٥م)، ولد في لندن، تقلد عدة مناصب منها: أستاذ الدراسات اليونانية والبيزنطية في جامعة لندن، ومدير دائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية، ويعد رائد مدرسة «التفسير الديني (أو الروحي) للتاريخ»، وصاحب نظرية «التحدي والاستجابة» في تفسير سقوط الأمم ونهوضها، وممن أدانوا فكرة تفوق العنصر الأبيض أو أن الغرب هو أصل الحضارة، وله مواقف مشهودة ضد الصهيونية ودعما للقضية الفلسطينية.

ويظفرون برضا ومحبة الشعوب المحكومة إن هم كانوا من ذات ثقافتهم أو اعتنقوها دون شوائب دخيلة، فأما إن اعتنقوا ثقافة أخرىٰ أو كانوا ممثلين لحضارة أخرىٰ فإنهم يصيرون مكروهين منبوذين من الشعوب المحكومة مهما طال زمن سيطرتهم ولا بد سيأتي يوم يتدمر سلطانهم علىٰ يد هذه الشعوب، يقول: «وفي وسعنا في الواقع أن نقدم علىٰ صياغة شيء يماثل قانونًا اجتماعيًا عامًا مداره:

إن الغزاة البرابرة الذين يتبدون أحرارًا من شائبة أية ثقافة دخيلة، في وسعهم كفالة مصائرهم. ويختلف الأمر بالنسبة لهؤلاء الذين اصطبغوا خلال مرحلة هجراتهم بصبغة أجنبية أو بنزعة ضالة، فهؤلاء يجب أن يحيدوا عن طريقهم ليطهروا أنفسهم من هذه الصبغة أو تلك النزعة، حتىٰ يقيض لهم اجتناب المصير الآخر: أي الطرد والإبادة»(١).

إلا أنه بعدما ضرب الأمثلة علىٰ صدق نظريته، سارع ليرصد هذا الاستثناء، فقال: «وثمة استثناء من قاعدتنا يمثله العرب المسلمون الأوائل. إذ كان العرب جماعة من العشائر من خارج المجتمع الهليني، أنجزوا مرتبة سامية من النجاح إبان مرحلة هجراتهم التي صاحبت تحلل ذلك المجتمع. وتمَّ هذا النجاح رغمًا عن حقيقة قوامها أن العرب قد تشبثوا بمنحاهم الديني الأصيل عِوَضًا عن اعتناقهم المذهب المسيحي المينوفيستي الذي كان يعتنقه رعاياهم في الأقاليم التي انتزعوها من الإمبراطورية الرومانية. بيد أن الدور التاريخي للعرب المسلمين الأوائل، يعتبر دورًا استثنائيًا تمامًا... وبالأحرىٰ؛ يعتبر تاريخ الإسلام حالة خاصة، لن تنسخ نتائج بحثنا العامة»(٢).

---

(١) أرنولد توينبي، **مختصر دراسة التاريخ**، ترجمة: فؤاد محمد شبل، (القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١) ٢/ ٢٤٨.

(٢) السابق ٢/ ٢٤٨، ٢٤٩ بتصرف بسيط.

يفسر جاك ريسلر[١] هذا بأن الإسلام لم يكن «الغالب» وإنما كان «الفاتح»، فيقول: «يُظهر التاريخ أن الشعوب المغزوَّة تتبنىٰ نظامًا سياسيًا جديدًا بسهولة أكثر مما تبدل لغتها ولسانها. ولقد برهن علىٰ ذلك مرة أخرىٰ فشل اليونان والرومان في المشرق. فماذا يمكن أن تكون، بعد الآن، لغة الشعوب الخاضعة للإسلام؟ لا يمكنها إلا أن تكون اللغة العربية، المميزة بكونها لغة الفاتح لا الغالب»[٢].

أصل الظاهرة

لهذا ينبغي أن ننظر في مسألة الفتوحات باعتبارها فرع من أصل، فالأصل هو الإسلام نفسه، فظاهرة الفتوحات المدهشة هي فرع عن الإنجاز الإسلامي المدهش، وعلىٰ حد ما نعلم فإنه لم يتعرض أحد قط بالبحث في تاريخ الإسلام إلا وأقر بأن ما فعله محمد ﷺ كان أمرًا مدهشًا في مسار التاريخ.

كتب مايكل هارت[٣] كتابًا حول أعظم مائة شخصية في التاريخ الإنساني، وعلىٰ الرغم من أنه مسيحي لا يؤمن بالإسلام ولا بمحمد ﷺ إلا أنه جعل النبي ﷺ علىٰ رأس هذه المائة، وقال: «لقد اخترت محمدًا ﷺ ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ، ولا بد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار، ومعهم حق في ذلك، ولكن محمدًا ﷺ هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحًا

---

(١) جاك ريسلر: باحث فرنسي، عمل أستاذا بمعهد باريس للدراسات الإسلامية، حصل كتابه «الحضارة العربية» علىٰ جائزة الأكاديمية الفرنسية بوصفه دراسة أساسية لمعرفة الإسلام.

(٢) جاك ريسلر، **الحضارة العربية**، ترجمة: خليل أحمد خليل، ط١ (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٩٣م) ص٥٢.

(٣) مايكل هارت (١٩٣٢ - ...) عالم في الفيزياء الفلكية والرياضيات ومؤرخ أمريكي، يعمل في هيئة الفضاء الأمريكية.

مطلقًا علىٰ المستوىٰ الديني والدنيوي. وهو قد دعا إلىٰ الإسلام، ونشره كواحد من أعظم الديانات، وأصبح قائدًا سياسيًّا وعسكريًّا ودينيًّا، وبعد ثلاثة عشر قرنًا من وفاته فإن أثر محمد ﷺ ما يزال قويًّا متجددًا»[١].

نفس هذا القول يردده البريطاني رونالد فيكتور بودلي[٢]، في كتابه «الرسول» فيقول: «قد أنجز كل هذا رجل واحد في الإسلام، وتم كل هذا التبدل في جيل واحد... إن عمل محمد ﷺ كان جبارًا، حتىٰ إن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يمكن أن يسجل له شيء يقارب ما أتاه محمد ﷺ، ولا حتىٰ بولس»[٣]. ويردده كذلك المستشرق الأمريكي -اللبناني الأصل- فيليب حتي[٤]، إذ يقول: «لقد تسنىٰ لمحمد ﷺ -في سحابة عمر غير طويل- أن يهيئ الوسائل الفعالة في تكوين أمة متراصة من قبائل مختلفة متناحرة في بلاد لم تكن لذلك العهد إلا تعبيرا جغرافيا، وأن يقيم دولة فاقت بانتشارها السريع إلىٰ أبعد أقطار العالم كلتا الديانتين اليهودية والنصرانية، وفضلا عن ذلك فقد وضع محمد ﷺ حجر الأساس لإمبراطورية ضمت بين أطرافها فضلىٰ مقاطعات العالم المتمدن

---

(١) مايكل هارت، **الخالدون مائة أعظمهم محمد** ﷺ، ترجمة أنيس منصور، ط٦ (القاهرة: المكتب المصري الحديث، ١٩٨٥م)، ص١٣.

(٢) ر. ف. بودلي (١٨٩٠ - ١٩٧٠م) عسكري بريطاني، وصل إلىٰ رتبة كولونيل، عمل بالعراق والأردن، ثم مستشارا لسلطنة مسقط (١٩٢٤م)، وكان أول من عبر الربع الخالي، وكشف عن أسراره بين عامي (١٩٣٠ - ١٩٣١م)، ولما ترك الخدمة عاش في صحراء المغرب العربي بين البدو وتأثر بهم وكتب عنهم، ويعد كتابه «الرسول» واحدا من ثمار هذا التأثر.

(٣) ر. ف. بودلي: **الرسول حياة محمد**، ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، (القاهرة: مكتبة مصر، بدون تاريخ)، ص٨٩.

(٤) فيليب حِتي (١٨٨٦ - ١٩٧٨م): مستشرق أمريكي من أصل لبناني، مؤسس قسم اللغة العربية بجامعة برنستون التي هي عُش الاستشراق وحاضنته الكبرىٰ، وأنشأ مطبعة بالعربية لنشر التراث العربي، وظل رغم تقاعده أستاذا زائرا بهارفارد وبرنستون والأكاديمية الأمريكية للعصور الوسطىٰ.

يومئذ، واليوم يدين جزء كبير من العالم بالإسلام، وينادي بتعاليم هذا الرجل الأمي، الذي كان الواسطة في إخراج كتاب لا يزال سبع سكان المعمورة يعتبره القول الفصل في العلم والحكمة والدين»[١].

وهذا أمر يطول استقصاؤه وهو من حقائق التاريخ التي لا ينكرها أحد كواقع، ولا ينكر عظمتها من له الحد الأدنىٰ من العقل والإنصاف، وإنما ذكرناه هنا كمدخل لموضوعنا.

الاتساع مع الرسوخ

جرت عادة التاريخ في الفتوحات العظيمة أن تكون علىٰ طريقة من اثنتيْن: فتوحات قوية تُسفر عن حكم راسخ لكنها تتم في زمن طويل، أو فتوحات سريعة صاعقة تهيمن علىٰ مساحة كبيرة في وقت قصير لكنها ما تلبث أن تزول دون أن تترك أثرًا كبيرًا في صفحة التاريخ. ويُضرب المثل علىٰ الفتوحات القوية الطويلة بالدولة الرومانية، كما يضرب المثل بالفتوحات السريعة الزائلة بالحروب المغولية.

لقد خرقت الفتوحات الإسلامية هذه العادة التاريخية، فقد حققت الطريقتيْن معا: فتوحات قوية وسريعة هيمنت علىٰ أجزاء واسعة في وقت قصير، ثم إنها ظلت راسخة مكينة لمئات السنين، فمثلت بهذا لحظة تاريخية فارقة، بل إن بعض المؤرخين -كالبلجيكي هنري بيرين- رآها «النقطة التي تميز النهاية الحقيقية للحقبة القديمة في التاريخ» فيما رآها مؤرخون آخرون كالألماني فلهاوزن والأمريكي بيكر والإيطالي كايتاني علىٰ أنها «العامل الرئيسي في تاريخ العالم»[٢].

(١) فيليب حتي، **العرب تاريخ موجز**، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩١م)، ص٤٦.

(٢) فرانشيسكو جابرييلي، **الإسلام في عالم البحر المتوسط**، ضمن «**تراث الإسلام**» بإشراف: = =

بنىٰ هؤلاء المؤرخون أقوالهم لما رسخته الفتوحات الإسلامية من واقع جديد، ذلك أن ثبات الخرائط بعد عصر الفتوح هو أبلغ دليل علىٰ الرسوخ والتمكن، وفي هذا يقول المستشرق النمساوي جوستاف جرونيباوم[(١)]: «كانت السرعة الفائقة التي فتح الإسلام بها ما فتح من البلاد، ولم يُضف إليها بعد ذلك أو يفقد منها شيئًا كبيرًا، كانت هذه السرعة نفسها هي التي جعلت توزيع العالم المتحضر نهائيًا ثابتًا منذ زمن باكر يرجع إلىٰ منتصف القرن الثامن»[(٢)].

رسمت الفتوحات الإسلامية مصائر التاريخ، أو بعبارة إليسكي جورافيسكي[(٣)]: «ظهور الدين الإسلامي وترسخه السريع والقوي علىٰ أراض آسيوية وإفريقية واسعة في أثناء مسيرة الفتوحات العسكرية الدينية للعرب، حدَّد بصورة حاسمة مصائر المسيحية الشرقية التي قابلت الدين الجديد (الإسلام) دون أي مقاومة، بل وبالترحاب في كثير من المناطق»[(٤)].

وذات المعنىٰ يصوغه بعبارة أجمل إدوارد بروي إذ يقول: «ظهر الإسلام كالشهاب الساطع، فحيَّر العقول بفتوحاته السريعة القاصمة، وباتساع رقعة الإمبراطورية التي أنشأها. نحن أمام شعب كان للأمس الغابر مجهول الاسم،

= جوزيف شاخت وكليفورد بوزوروث، ترجمة: د. محمد زهير السمهوري وآخرون، سلسلة عالم المعرفة ١١ (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٧م)، ١/ ٨٨، ٨٩.

(١) جوستاف جرونيباوم (١٩٠٩- ١٩٧٢م) مستشرق نمساوي هاجر إلىٰ أمريكا بعد ضم ألمانيا للنمسا، وهناك حصل علىٰ الجنسية الأمريكية وترك ديانته اليهودية إلىٰ الكاثوليكية، وكان أستاذا لقسم الدراسات الشرقية بجامعة كاليفورنيا.

(٢) جوستاف جرونيباوم، **حضارة الإسلام**، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤م)، ص١٥.

(٣) أليسكي جورافيسكي: متخصص في تاريخ العلاقات الحضارية بين الشعوب، يعمل في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية.

(٤) أليسكي جورافيسكي، **الإسلام والمسيحية**، ترجمة: د. خلف محمد الجراد، سلسلة عالم المعرفة ٢١٥ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، نوفمبر ١٩٩٦م)، ص١٤٩.

مغمور الذكر، فإذا به يتحد ويتضامّ في بوتقة الإسلام، هذا الدين الجديد الذي انطلق من الجزيرة العربية، اكتسحت جيوشه ببضع سنوات الدولة الساسانية وهدت منها الأركان، ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للإمبراطورية البيزنطية في آسيا وإفريقيا، باستثناء شطر صغير منها يقع غربي آسيا الصغرىٰ، ولم تلبث جيوشه أن استولت بعد قليل علىٰ معظم إسبانيا وصقلية وأن تقتطع لأمد من الزمن، يقصر أو يطول، بعض المقاطعات الواقعة في غربي أوروبا وجنوبيها، ودقت جيوشه بعنف شديد أبواب الهند والصين والحبشة والسودان الغربي وهددت غاليا والقسطنطينية بشر مستطير. وقد تهاوت الدول أمام الدفع العربي الإسلامي كالأكر، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها النظيم، وهذه الأديان التي سيطرت علىٰ الشعوب والأقوام الضاربة بين سيرداريا والسنغال، ذابت كما يذوب الشمع أمام النار»[1].

التفنن في وصف الدهشة!

يتابع جوستاف جرونيباوم وصفه للفتوحات فيقرَّ بأنها تمت في سرعة لا يصدقها عقل، يقول: «استطاع الإسلام أن يقتطع رقعة دولته في مدىٰ قرن واحد بالضبط، وذلك بين وفاة النبي ﷺ في ٦٣٢ ومعركة تور وبواتييه (بلاط الشهداء)، وكان النبي قد أسس في السنوات العشر الأخيرة من حياته دولة حاضرتها المدينة، قوية الهيمنة علىٰ الحجاز وبعض أجزاء نجد وتفرض سلطانها بدرجة أقل، علىٰ الأجزاء الأخرىٰ من الجزيرة العربية ذاتها. وكأنما كانت وفاته إيذانا بردة الأعراب الذين لم يتمكن الإسلام من قلوبهم. حتىٰ إذا

---

(١) إدوارد بروي، **القرون الوسطىٰ**، ضمن «**تاريخ الحضارات العام**» بإشراف: موريس كروزيه، ط٢ (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٨٦م)، ٣/ ١٠٩.

سُحِقَتْ هذه الحركة النافرة عن مركز الإسلام، بدأ في التوسع في سرعة لا يكاد يصدقها عقل»[١].

لذلك وصفها ويلز[٢] في تاريخه الموجز للعالم بأنها «أعجب قصص الفتوح التي مرَّت علىٰ مسرح تاريخ الجنس البشري»[٣]، وتعجب كذلك مؤرخ الحضارة الأشهر ول ديورانت[٤] فقال: «أصبحت الفتوح العربية -التي كانت أسرع من الفتوح الرومانية، وأبقىٰ علىٰ الزمان من الفتوح المغولية- أعظم الأعمال إثارة للدهشة في التاريخ الحربي كله»[٥]، ويتابع: «لقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة، ويتحملوا قيودها، بلا شكوىٰ ولا ملل، وبعثهم في الوقت نفسه إلىٰ التوسع توسعًا كان أعجب ما شهده التاريخ كله»[٦].

وذات العجب يردده الزعيم الهندي المعروف جواهر لال نهرو[٧] في قوله:

---

(١) جوستاف جرونيباوم، **حضارة الإسلام**، ص١٦.

(٢) هربرت جورج ويلز (١٨٦٦ - ١٩٤٦م) روائي ومؤرخ بريطاني رغم أن دراسته في مجال العلوم، أصدر عددًا من الروايات ثم اتجه إلىٰ التاريخ وأصدر عددًا من المؤلفات، ثم اتجه إلىٰ التنبؤ بما يكون في المستقبل.

(٣) هـ. ج. ويلز، **موجز تاريخ العالم**، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧م)، ص٢٠٤.

(٤) ول ديورانت (١٨٨٥-١٩٨١م) مؤرخ الحضارة، أمريكي، بدأ حياته صحفيًا، وشغف بالفلسفة ثم عكف علىٰ دراسة تاريخ الحضارة حتىٰ أخرج موسوعته الأشهر «قصة الحضارة» بعدما أمضىٰ في تأليفها أربعين عامًا، وصدرت طبعتها العربية في ٣٢ مجلدًا، بالإضافة إلىٰ كتب أخرىٰ مثل «قصة الفلسفة» و«مباهج الفلسفة».

(٥) ول ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة مجموعة، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م). ١٣/ ٧٣.

(٦) ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ١٣/ ٦٩.

(٧) جواهر لال نهرو (١٨٨٩ - ١٩٦٤م) أحد زعماء حركة الاستقلال في الهند وأول رئيس وزراء بعد الاستقلال، ومن مؤسسي حركة عدم الانحياز، أنجب ابنة وحيدة هي أنديرا غاندي التي أصبحت بعد ذلك رئيسة للوزراء.

«المدهش حقًا أن نلاحظ هذا الشعب العربي -الذي ظل منسيًا أجيالًا عديدة، بعيدا عما يجري حوله- قد استيقظ فجأة ووثب بنشاط فائق أدهش العالم، وقلبه رأسًا علىٰ عقب، وإن قصة انتشار العرب في آسيا وأوربا وإفريقيا، والحضارة الراقية، والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم، هي أعجوبة من أعجوبات التاريخ! إن الإسلام هو الباعث والفكرة لهذه اليقظة العربية؛ بما بثه في أتباعه من ثقة ونشاط»[(١)].

وهكذا انتشر العجب بين الباحثين والمؤرخين حتىٰ ليشعر المرء أحيانًا أنهم يتفننون في وصفهم للفتوحات الإسلامية:

فيصفها الفيلسوف الشهير برتراند رسل[(٢)] بأنها خارقة لكل مألوف فيقول: «يبدأ العصر الإسلامي بالهجرة، سنة ٦٢٢م، ومات محمد ﷺ بعدها بعشر سنوات؛ فبدأت الفتوحات العربية بعد موته مباشرة، وسارت بسرعة خارقة لكل مألوف»[(٣)].

ويصفها مؤرخ الفلسفة إميل برهييه[(٤)] بأنها أمرٌ صاعقٌ، يقول: «تحددت مصائر الغرب في العصر الوسيط جزئيًا بالفتح العربي الذي امتد من الهند إلىٰ إسبانيا وتقدَّم وصولًا إلىٰ جنوبي إيطاليا والجزر اليونانية ليقيم ما يشبه الحاجز

---

(١) جواهر لال نهرو، **لمحات من تاريخ العالم**، ترجمة: عبد العزيز عتيق، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨م. ص٢٣، ٢٤.

(٢) برتراند رسل (١٨٧٢ - ١٩٧٠م) من أشهر فلاسفة العصر الحديث، ومن مؤرخي الفلسفة، له إسهام كبير في تطوير المنطق الرياضي، عُرف بمواقفه الداعية للسلام ونزع السلاح النووي، نال جائزة نوبل ١٩٥٠.

(٣) برتراند رسل، **تاريخ الفلسفة الغربية**، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م). ٢/ ١٨١.

(٤) إميل برهييه (١٨٧٦ - ١٩٥٢م) فيلسوف فرنسي، تخرج من السوربون، اهتم بالفلسفة الكلاسيكية وتاريخ الفلسفة، ووضع تاريخًا واسعًا للفلسفة، وهو من أشهر أتباع الفيلسوف الفرنسي الشهير برجسون.

بين أوروبا وآسيا؛ وليس يجهل أحد كيف انبسطت في قرن واحد (ابتداء من سنة ٦٣٥) هيمنة العرب علىٰ نحو صاعق، فلم تتوقف، وقد خارت قواها المتقدمة إلا عند أبواب بواتييه [شمال فرنسا] سنة ٧٣٢ والتركستان الصيني سنة ٧٥١. وقد حمل العرب معهم لغة وديانة صارتا منذئذ لغة وديانة لأصقاع شاسعة»[١].

ويصفها الباحث الأمريكي مايكل هارت بأنها «أعظم غزوات عرفتها البشرية»، يقول: «استطاعت جيوش المسلمين الصغيرة المؤمنة أن تقوم بأعظم غزوات عرفتها البشرية، فاتسعت الأرض تحت أقدام المسلمين من شمالي شبه الجزيرة العربية وشملت الإمبراطورية الفارسية علىٰ عهد الساسانيين وإلىٰ الشمال الغربي واكتسحت بيزنطة والإمبراطورية الرومانية الشرقية. وكان العرب أقل بكثير جدًا من كل هذه الدول التي غزوها وانتصروا عليها... ورغم ذلك فقد استطاع هؤلاء البدوء المؤمنون بالله وكتابه ورسوله أن يقيموا إمبراطورية واسعة ممتدة من حدود الهند حتىٰ المحيط الأطلسي. وهي أعظم إمبراطورية أقيمت في التاريخ حتىٰ اليوم»[٢].

ويصفها المستشرق الأمريكي فيليب حتي بأنها شيء من الجنون: «لو تجرأ أحدهم علىٰ التنبؤ في أوائل القرن السابع المسيحي بظهور قوة لم يسبق لها نظير تقوم في مجاهل الجزيرة العربية التي لم يكن لها قبلا شأن تاريخي، وتدفع بنفسها علىٰ الدولتين العالميتين الوحيدتين في ذلك العصر، فتحلّ محل الواحدة -الساسانية- وتجرد الأخرىٰ -لبيزنطية- من أغنىٰ ولاياتها، أقول: لو تجرأ أحد علىٰ مثل هذه النبوءة لعدّه الناس مجنونًا»[٣].

---

(١) إميل برهييه، **تاريخ الفلسفة**، ترجمة: جورج طرابيشي، (بيروت: دار الطليعة، بدون تاريخ)، ٣/ ١١٥.

(٢) مايكل هارت، **الخالدون مائة**، ص١٥، ١٦.

(٣) فيليب حتي، **العرب تاريخ موجز**، ص٦١.

ويصفها المؤرخ والمفكر البريطاني إ. ه. جومبريتش[١] بالنار المنتشرة، يقول: «بدا كأن الناس قد أصيبوا بالشلل في مواجهة هذه الحماسة الدينية الجامحة. وفي خلال ست سنوات من وفاة محمد ﷺ، كان العرب قد حققوا فتوحات في فلسطين وبلاد الفرس، كما كدسوا كميات ضخمة من الغنائم. بعض جيوش العرب الأخرىٰ هاجمت مصر... وفي خلال أربع سنوات كانت قد سقطت في يد الجيوش. لاقت مدينة الإسكندرية العظيمة المصير نفسه. تنقلت الإمبراطورية العربية من قوة إلىٰ قوة، تنتشر نيرانها من مكة وفي كل الاتجاهات. وكأن محمدًا قد ألقىٰ شرارة متوهجة علىٰ الخريطة»[٢].

ويصفها المستشرق الإيطالي فرانشسكو جابرييلي[٣] بأنها أمر لم يسبق له مثيل، يقول: «كانت انتصار الإسلام في مرحلته الأصلية تلك، إقامة للإمبراطورية العربية، وكان توسعا لشعب كان حتىٰ ذلك الحين حبيس إرثه الصحراوي، امتد علىٰ قارتين، واتسم بطاقة ونجاح لم يسبق لهما مثيل»[٤].

ويصفها المستشرق البريطاني الخبير مونتجمري وات[٥] بالمذهلة، يقول:

---

(١) إ. ه. جومبريتش (١٩٠٩ - ٢٠٠١م)، مؤرخ ومفكر بريطاني، نمساوي المولد، له العديد من المؤلفات في تاريخ الفن والثقافة.

(٢) إ. ه. جومبريتش، **مختصر تاريخ العالم**، ترجمة د. ابتهال الخطيب، سلسلة عالم المعرفة ٤٠٠، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مايو ٢٠١٣م)، ص١٦٤.

(٣) فرانشسكو جابرييلي (١٩٠٤ - ١٩٩٧م) كبير أساتذة اللغة العربية وآدابها في جامعة روما، برز في دراسة الشعر العربي وتحقيق نصوص التراث الإسلامي، ومقارنة النصرانية بالإسلام، وهو مترجم للعديد من نصوص الفكر الإسلامي إلىٰ الإيطالية، انتخب عضوا مراسلا في المجمع العربي بدمشق وغيرها.

(٤) فرانشيسكو جابرييلي، **الإسلام في عالم البحر المتوسط**، ضمن «**تراث الإسلام**» بإشراف: شاخت وبوزوروث ١/ ٨٨.

(٥) مونتجمري وات (١٩٠٩ - ٢٠٠٦م) مستشرق بريطاني قدير، وكان عميدا لقسم الدراسات العربية في جامعة أدنبرا، عرف بكتابيه في السيرة «محمد في مكة» و«محمد في المدينة» وهما =

«كان الفتح العربي، بين سنتي ٧١١ - ٧١٦م مفاجأة مذهلة لسكان إسبانيا. أما العرب أنفسهم، فلم يكن اجتياح إسبانيا في نظرهم سوىٰ مرحلة من عملية التوسع الكبرىٰ. كانت مرحلة عظيمة الفائدة وناجحة جدًّا، ولقد تحقق النجاح بسرعة قصوىٰ... لم يكن التقدم هنا تدريجيا، بل في سلسلة من الوثبات كانت تتخللها فترات من الهدوء والتوطيد»[(١)].

ويصفها جاك ريسلر بالباهرة، يقول: «تقوم انتصارات العرب الباهرة علىٰ أمور متنوعة، يكمن أهمها في الروح الأخلاقية الرفيعة التي كانوا يستمدونها من الدين الجديد؛ فقد كان الإسلام قد علمهم الشجاعة وازدراء الموت اللذين جعلاهم أشداء لا يُقهرون. إلىٰ هذه الفضائل الأخلاقية ينبغي تُضاف تقنية حربية كانت تحترم تشكيل وحدة القبيلة»[(٢)].

ويصفها المفكر والقانوني الفرنسي دومينيك سورديل[(٣)] بالمهيبة المدهشة، يقول: «هذه الفتوحات التي يبدو ذكرها مهيبًا ومدهشًا، لا بد من معرفتها لأنها هي التي سمحت للإسلام بالانطلاق كدين عالمي انتشرت معه بذات الوقت وتنامت الحضارة المرتبطة به. عندها ظهر المجتمع العربي الإسلامي الذي كان مكان ازدهاره امبراطورية متعربة ومسلمة. ولكن الظاهرة التي يمثلها هذا المجتمع وهذه الحضارة، لم تكن إلا لتذهل العديد من المؤرخين: كيف

= من أقوىٰ وأعمق ما كتب المستشرقون في السيرة ويدلان علىٰ مجهوده ودأبه العظيم، بالإضافة إلىٰ مؤلفات أخرىٰ في التاريخ الإسلامي والعلاقة بين الإسلام والمسيحية.

(١) مونتجمري وات، **في تاريخ إسبانيا الإسلامية**، ترجمة: د. محمد رضا المصري، ط٢ (بيروت: شركة المطبوعات، بيروت، ١٩٩٨م)، ص٢٠.

(٢) جاك ريسلر، **الحضارة العربية**، ص٤٦.

(٣) دومينيك سورديل (١٩٢١ - ٢٠١٤م) فرنسي، متخصص في تاريخ الحضارة الإسلامية، أستاذ مقيم في المعهد الفرنسي بدمشق سابقًا، وأستاذ في جامعة السوربون بباريس، ومدير مجلة الدراسات الإسلامية.

استطاعت حركة بمثل هذه الضخامة وبمثل هذه السرعة أن تكون ممكنة؟»[١]، ويتابع بقوله: «النجاح الذي لاقته هذه الغزوات... يدل ويفسر كيف تضخمت الحركة بهذه السرعة. ويبقىٰ إذن، أن نفسر كيف استطاع فرسان رُحَّل، ذوو أسلحة خفيفة، وبسرعة عجيبة، النجاح في الاستيلاء علىٰ قسم من آسيا، وعلىٰ إفريقيا الشمالية وإسبانيا، وفي احتلال القسم الأبر من الممتلكات البيزنطية -ما فيها الأناضول الذي تعرض من ذل الحين، وحتىٰ أسوار القسطنطينية لعدة غزوات- ثم القضاء تمامًا علىٰ الإمبراطورية الساسانية التي قُتِل ملكها الأخير بعد انهزام جيوشه بصورة نهائية»[٢].

ويقول ألبرت حوراني[٣] أن التغيير كان مفاجئا وغير متوقع، يقول: «عند نهاية حكم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (٦٣٤ - ٦٤٤م) كانت قد فُتحت الجزيرة العربية كلها وجزء من الإمبراطورية الساسانية والولايات السورية والمصرية من الإمبراطورية البيزنطية ولم تلبث بقية أراضي الامبراطورية الساسانية أن فتحت هي الأخرىٰ. وفي غضون سنوات قليلة بعد ذلك كانت الحدود السياسية للشرق الأدنة قد تغيرت، وانتقل مركز الحياة السياسية من أراضي الهلال الخصيب الغنية والآهلة بالسكان إلىٰ مدينة صغيرة قابعة علىٰ طرف العالم الغني ذي الثقافة العالية، وقد كان التغير مفاجئًا وغير متوقع بحيث يحتاج إلىٰ شرح»[٤].

---

(١) دومينيك سورديل، **الإسلام: العقيدة السياسة الحضارة**، ترجمة: سليم قندلفت، ط٢ (دمشق: دار حوران، ٢٠٠٣م)، ص٣٥.

(٢) السابق ص٣٧.

(٣) ألبرت حوراني (١٩١٥- ١٩٩٣م) مؤرخ بريطاني من أصل لبناني، أستاذ التاريخ في جامعة أكسفورد، ودرَّس في جامعات بنسلفانيا وشيكاغو وهارفارد، عرف لدىٰ قراء العربية بكتابه المهم «الفكر العربي في عصر النهضة»، وتسود كتبه لغة هادئة وبحث جاد وعميق.

(٤) ألبرت حوراني، **تاريخ الشعوب العربية**، ترجمة: أسعد صقر، ط١ (دمشق، دار طلاس، ١٩٩٧م)، ص٥٦.

إعجازات أخرى

لقد ذهب المستشرقون والمؤرخون الغربيون كل مذهب في محاولة تفسير هذه السرعة المذهلة في الفتوح، فمنهم من أنصف ومنهم من أجحف، ومنهم من جمع بين هذا وذاك، فتنوعت تفسيراتهم، فذكروا: الحالة الاقتصادية السيئة للجزيرة العربية والتي تضغط علىٰ العرب فتدفعهم إلىٰ الفتوح طمعًا في الغنائم، والحماسة الدينية التي سيطرت علىٰ العرب، والضعف العسكري الذي عانت منه الإمبراطوريتان الفارسية والبيزنطية بعد حروبهما الطويلة المهلكة، والضعف الحضاري للإمبراطوريتين في المناطق التي فتحها المسلمون، وعدم تقدير الإمبراطوريتين لقوة العرب واستخفافهم بهم حتىٰ أفلت الأمر منهما، والظلم الذي عانت منه الشعوب المحكومة بسلطتي فارس والروم مما جعلهم يعينون الفاتحين ويستقبلونهم مرحبين أو حتىٰ يستدعونهم لفتح بلادهم، وغير هذا من الأسباب التي التمستها العقول لتفسير شيء عجيب لم تجر به عادة التاريخ والفتوح، فجاءوا بالمنطقي المعقول كما جاءوا بالأكاذيب والغرائب، وأما تفنيد ذلك فهو مما يخرج عن نطاق بحثنا هذا.

إلا أن أمورًا ينبغي الإشارة إليها، إذ إنها جديرة بأن تكون حاضرة في الأذهان لدىٰ قراءة تاريخ الفتوح الإسلامية، وإن كان كل منها يستحق أن يُفرد بورقة بحثية خاصة، غير أن المقام لا يتسع لها، فنحن نشير إليها هنا إشارة سريعة عابرة، سائلين الله أن يكتب لنا إفرادها في مناسبة قادمة إن شاء الله.

يمثل كل واحد من هذه الأمور إعجازا تاريخيا في حد ذاته، باعتبارها خرقا للعادة التاريخية في توسع الأمم وانتشارها. منها:

١- انهيار ميزان القوة لصالح الخصوم:

ولقد أجمل هذا الأمرَ المستشرقُ الأمريكي اليهودي المتعصب، وأحد المعروفين بالعداء للإسلام، برنارد لويس[١]، إذ قال: «خلافا لبناة الإمبراطوريات الآخرين، لم يكن لدىٰ العرب أي وسيلة خاصة تكتيكية أو فنية من شأنها أن تعلهم يتفوقون علىٰ خصومهم، فلم يكن عندهم ما يشبه الكتيبة المقدونية أو الفيلق الروماني أو جياد غزاة أمريكا الـ conquistedores أو القوة النارية للمستعمرين (الغربيين). بل إنهم، باعتبارهم دخلاء جاءوا ليهاجموا الإمبراطوريتين العظيمتين في ذلك الوقت، كانوا -علىٰ العكس- يعانون من نقص في المهارات والتسلح، وكذلك في العدد، ولم تكن لديهم خبرة قتالية في تشكيلات كبيرة. وفي الأيام الأولىٰ لم تكن لديهم معدات الحصار ولا أسلحة الحصار، ومن ثم كان كل ما يمكنهم هو أن يطوقوا المدن المحصنة لا أن يحاصروها. ولم يكن لديهم أي أسطول. وحتىٰ في البر لم يكن يوجد لديهم ما يقابل سلاح الفرسان المدرع والكتائب cotophracts الموجودة لدىٰ بيزنطة وبلاد الفرس»[٢].

٢- انطلاقة حضارية:

كذلك لم تكن هذه الفتوحات الخارقة السرعة مجرد هيمنة عسكرية بل كانت انطلاقة حضارية في ذات الوقت، وقد تفنن المستشرق الإيطالي المعروف فرانشيسكو جابرييلي في وصف هذا حين قال: «بين تاريخ العرب المظلم قبل

---

(١) برنارد لويس (١٩١٦- ...) مستشرق أمريكي يهودي متعصب، ومن أبرز خبراء الاستشراق، ويعده الكثيرون آخر جيل الاستشراق القديم، وقد طال عمره، وكان من أساتذة جامعة برنستون عش الاستشراق، وله دراسات كثيرة مشهورة في حقل التاريخ والسياسة الإسلامية.

(٢) برنارد لويس، **السياسة والحرب**، ضمن «**تراث الإسلام**»، بإشراف شاخت وبوزوروث ١/ ٢١٢.

ظهور محمد، وبين توسعاتهم المثيرة للإعجاب، تقف حقيقة الإسلام العظيمة، بالعقيدة الجديدة»[(١)]، ويفصل هذا بقوله: «وُلد الإسلام في منطقة من أكثر مناطق العالم القديم بدائية وتخلفا، ولكنه سرعان ما تجاوز حدوده وتطور من ظاهرة محلية وعامل داخلي في حياة الأمة العربية إلىٰ عقيدة كونية وقوة عالمية، وذلك في عملية لا يزال المؤرخون يختلفون حولها حتىٰ اليوم. إنها بالنسبة لأولئك الذين يدرسون الديناميكية الغامضة لهذه العملية، لا تعد شرقية ولا غربية، كما لا يُمكن إعطاؤها أي تحديد جغرافي أو ثقافي. إنها فقط القوة العجيبة التي تشع من العقيدة الجديدة، ومن الدولة التي أقامتها هذه العقيدة، والتي نَمَتْ في كل اتجاه، وأنتجت حضارة موحدة إلىٰ حد يدعو إلىٰ الدهشة، وذلك رغم الاختلاف الشديد بين البيئات والمستويات الثقافية التي ازدهرت عليها»[(٢)].

وبعبارة أحلىٰ يردد إدوارد بروي هذا المعنىٰ في قوله: «وانجلىٰ غبار الفتح وصلصلة السلاح عن إمبراطورية جديدة ولا أوسع، وعن حضارة ولا أسطع، وعن مدنية ولا أروع، عوَّل عليها الغرب في تطوره الصاعد ورقيه البناء، بعد أن نفخ الإسلام في قسم موات من التراث الإنساني القديم روحًا جديدة عادت معه إليه الحياة، فنبض وشعّ وسرىٰ»[(٣)].

ويفسر مؤلفًا «التاريخ الكامل للعالم» هذا بأن غزوات العرب لم تكن مثل غزوات البرابرة الذين أرادوا دائمًا أن يكونوا صورة من المتفوقين عليهم حضاريا، يقولان: «لم يكن برابرة الشمال يمارسون إلا ديانات «ضعيفة». وإن

(١) فرانشيسكو جابرييلي، **محمد والفتوحات الإسلامية**، تعريب وتقديم وتعليق: د. عبد الجبار ناجي، ط١ (بغداد: المركز الأكاديمي للأبحاث، ٢٠١١م)، ص١٧٩.

(٢) فرانشيسكو جابرييلي، **الإسلام في عالم البحر المتوسط**، ضمن «**تراث الإسلام**» بإشراف: شاخت وبوزوروث ١/ ٨٥.

(٣) إدوارد بروي، **القرون الوسطىٰ**، ضمن «**تاريخ الحضارات العام**» بإشراف: موريس كروزيه، ٣/ ١٠٩.

كانوا قد ساهموا في انتحار الإمبراطورية، فإن فكرتهم الوحيدة كانت تتمثل في أن يصيروا روما (أو صينيين في الشرق). أما العرب فكان لهم دين «قوي»... ولم يكونوا يريدون أن يصيروا روما، إنما أرادوا صنع عالم جديد. إذن فقد كان عملهم أدوم»، ويضيفان: «كان الفرسان المسلمون يبدون أنهم لا يُقهرون، كما أنهم لم يكونوا يجلبون معهم الفوضىٰ وإنما نظاما جديدا»[(١)].

ولقد تكرر أن استعصت أمم علىٰ تغيير لغاتها وثقافتها وحضارتها علىٰ غزاتها من قبل ثم لم تلبث أن اعتنقت الإسلام فاستبدلت بذلك كله حضارة الإسلام ولغته العربية، يقول الفيلسوف والمستشرق الفرنسي جوستاف لوبون[(٢)]: «ما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم، كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم، التي رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمة حتىٰ بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم، ونعد من الواضح خاصة أمر مصر التي لم يوفق فاتحوها من الفرس والإغريق والرومان أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها وأن يقيموا حضارتهم مقامها»[(٣)].

وحتىٰ المناطق التي خرجت عن الدولة الإسلامية لا تزال آثار الإسلام فيها باقية شاهدة وإن تطاول العهد وتباعد الزمن، ولو أخذنا مثالًا واحدًا من

---

(١) جان كلود بارو وغيوم بيغو، **التاريخ الكامل للعالم**، ترجمة: لحسن عيساني، (دبي: مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٨)، ص٩١، ٩٢، ٩٤.

(٢) جوستاف لوبون (١٨٤١ - ١٩٢١م) مستشرق وفيلسوف وعالم اجتماع فرنسي مشهور، وهو صاحب نظرية «القطيع» الشهيرة في علم الاجتماع، وله اهتمام واسع بالحضارات وكتب عن حضارة الهند وحضارة العرب، وأرخ للثورة الفرنسية، وعرف في العالم الإسلامي بكتابه «حضارة العرب» الذي كان من أوائل الدراسات الغربية المنصفة المتوسعة في العصر الحديث.

(٣) جوستاف لوبون، **حضارة العرب**، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠٠٠م)، ص٦٠٥.

الأندلس التي مضىٰ علىٰ خروج الإسلام منها خمسة قرون فسنرىٰ -كما يقول المستشرق الإسباني أميركو كاسترو[١]- أن «أغلب المتخصصين يعرفون أن صدىٰ الإسلام ظل باقيًا في الآثار التي خلفها في قرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة، وكذلك العديد من المدن الأخرىٰ قليلة الأهمية في هذا المقام، أما فيما يتعلق باللغة فهناك الآلاف من الألفاظ والمصطلحات العربية التي ما زال بعضها حيًا، بينما عفا الزمان علىٰ بعضها الآخر، كما أن الأدب استلهم المصادر العربية، ووضح هذا الإلهام في قواعد الكهنوت، فمن خلال هذا الكتاب انتشرت في إسبانيا المسيحية وأوربا -ابتداء من القرن الثالث عشر- ثلاث وثلاثون حكاية ذات أصول مشرقية... وعندما نفكر في الشخصية الإسبانية لا يمكننا أن نباعد جانبًا تسعة قرون من النسيج الاجتماعي الإسلامي المسيحي»[٢].

٣- فتح في التسامح:

فلقد كانت الفتوحات الإسلامية آية في رحمة الغالبين، ويعدُّ كتاب «الدعوة إلىٰ الإسلام» للمستشرق الإنجليزي الشهير توماس أرنولد[٣] وثيقة تاريخية كبرىٰ في شأن انتشار الإسلام في كافة أنحاء الأرض، علىٰ أخلاق

---

(١) أميركو كاسترو (١٨٨٥- ١٩٧٢م)، من أبرز النقاد الإسبان ومن أبرز تلاميذ المستشرق الإسباني الكبير منديث بيدال، عمل بجامعات مدريد وبرنستون، وهو من المدرسة التي أنصفت التاريخ الإسلامي في إسبانيا، وينصب اهتمامه علىٰ اللغة والأدب والثقافة.

(٢) أميركو كاسترو، **إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود**، ترجمة: علي إبراهيم منوفي، ط١ (القاهرة: المجلس الأعلىٰ للثقافة، ٢٠٠٣م)، ص٦٣.

(٣) توماس أرنولد (١٨٦٤ - ١٩٣٠م) من أشهر المستشرقين البريطانيين، أمضىٰ في الهند عشر سنوات، وعمل أستاذًا للفلسفة بجامعة لاهور، وكان من خبراء وزارة الخارجية البريطانية وعضوا بتحرير دائرة المعارف الإسلامية التي صدرت في ليدن، وعمل أستاذا زائرا بالجامعة المصرية، وعرف بكتابه «الدعوة إلىٰ الإسلام» لما فيه من مجهود ضخم هائل وإثبات لانتشار الإسلام بالدعوة وتسامح الفاتحين المسلمين.

المسلمين وسماحتهم ورحمتهم بأهل البلاد المفتوحة في كل الأنحاء شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، وقد تمكن المؤلف لإجادته العديد من اللغات -ومنها لغات قديمة- من الرجوع إلىٰ وثائق قديمة علىٰ ألسنة زعماء الشعوب المفتوحة تشهد بأن الفتح الإسلامي كان خارقًا للعادة التاريخية في سائر التوسعات الإمبراطورية الأخرىٰ التي تزخر بأنباء المذابح أثناء الفتوح ثم بأنباء الإذلال والاستعباد بعد تمكن السلطان.

وقد استخلص أرنولد بعد تطواف طويلة وأمثلة عديدة هذه الخلاصة، يقول: «من هذه الأمثلة التي قدمناها آنفا عن ذلك التسامح، الذي بسطه المسلمون الظافرون علىٰ العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار، وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد علىٰ هذا التسامح»(١).

ويقول نورمان ف. كانتور(٢): «لأول مرة تتجمع قبائل الصحراء المتقاتلة تحت لواء دين واحد وزعامة دينية واحدة. ومن هنا وفَّر الإسلام العامل الأساسي الذي جعل من الممكن للعرب أن يفتحوا بسرعة، أغنىٰ ولايات الإمبراطورية الرومانية الشرقية. ومنذ زمن بعيد تم دحض وتفنيد الأسطورة التي تزعم بأن العرب اندفعوا بالسيف في يد والقرآن في اليد الأخرىٰ يُخَيِّرون شعوب البحر المتوسط بين اعتناق الإسلام أو الموت، فالحقيقة أن المسلمين

---

(١) تومارس أرنولد، **الدعوة إلىٰ الإسلام**، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م)، ص٧٠.

(٢) نورمان فرانك كانتور (١٩٢٩ - ٢٠٠٤م)، مؤرخ أمريكي معاصر متخصص في العصور الوسطىٰ، ومؤلفاته من أوسع المؤلفات انتشارا.

تسامحوا مع من قهروهم من المسيحيين واليهود، ولم يفرضوا سوىٰ ضريبة الجزية وبعض القيود علىٰ الحقوق السياسية لأولئك الذين لم يعترفوا بأن محمد عليه الصلاة والسلام نبي الله، وهكذا لم يحاول المسلمون إجبار رعاياهم علىٰ اعتناق الإسلام»[١].

وعزا كثير من المستشرقين انتشار الإسلام ورسوخه في البلاد المفتوحة إلىٰ هذا التسامح، منهم الكولونيل البريطاني رونالد فيكتور بودلي، يقول: «خير دليل علىٰ العلاقة الطيبة السلمية بين المسلمين وأصحاب البلاد المفتوحة، أن جميع هذه البلاد (ما عدا إسبانيا) ظلت أمينة للإسلام من القرن السابع إلىٰ القرن الرابع عشر»[٢].

وذلك أمر يخالف تمامًا سيرة الغالبين في المغلوبين! علىٰ نحو ما يقول جوستاف لوبون: «كان يمكن أن تعمي فتوح العرب الأولىٰ أبصارهم، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويكرهوهم علىٰ اعتناق دينهم، الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم... فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينا مثل دينهم»[٣].

٤- المفتوحون الفاتحون:

وهذا من أعجب ما وقع في الفتوحات الإسلامية، ولم تعرفه سير الأمم الأخرىٰ، إذ سجل التاريخ أن أقوامًا من أهل البلاد المفتوحة ساعدوا عن طواعية واختيار ومودة الفاتحين في استكمال فتوحهم، بل -وهذا هو المدهش- أن بعضهم قد تحول إلىٰ الفاتح الذي يقود الجيش الإسلامي لفتح البلاد التي تليه.

---

(١) نورمان ف. كانتور، **التاريخ الوسيط: قصة حضارة**، ترجمة وتعليق: د. قاسم عبده قاسم، ط٥ (الجيزة: عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٧م)، ص١٩٧.

(٢) ر. ف. بودلي، **الرسول**، ص٩٣.

(٣) جوستاف لوبون، **حضارة العرب**، ص٦٠٥.

ولا بأس أن نأخذ دليليْن فقط: دليلًا من الشرق، وآخر من الغرب. فأما دليل الشرق فهو ما فعله أهل بخارىٰ وخوارزم -وهم من الترك- وما بذلوه من مساعدة وعون حربي للقائد قتيبة بن مسلم الباهلي[1]. وأما دليل الغرب فهو أن فاتح الأندلس (طارق بن زياد) مغربي من الأمازيغ! وهو أمر لا نعرفه في غير التاريخ الإسلامي.

٥- الفتح بالدعوة والبيان:

كذلك فإن رقعة الإسلام ليست هي الرقعة التي فُتِحت بالجهاد والسيف، بل ما تزال مساحة عظيمة من ديار الإسلام تدين به ولم تبلغها جيوشه، وقد أفرد المؤرخ المعروف د. حسين مؤنس دراسة لهذا الأمر فجعل عنوانها «الإسلام الفاتح»، وقال فيها: «أعدت النظر في المصور الجغرافي (للأرض) لأرىٰ ما فتحنا بجهادنا وما فتح الإسلام بنفسه بالحكمة والموعظة الحسنة فخشعت نفسي، لأنني وجدت أن الإسلام فتح بنفسه أضعاف ما فتحنا، وأن دعوة الحق في تاريخنا كانت أمضىٰ من كل سلاح، حتىٰ البلاد التي خضنا المعارك لندخلها كان الإسلام هو الذي فتح قلوب أهلها واستقر فيها، وجعل بلادهم دياره»[2]، ثم ينتهي إلىٰ القول «أصدق وصف يُطلق علىٰ الإسلام في هذا المقام هو أنه دين طيار، ينتقل من إنسان إلىٰ إنسان ومن أمة لأمة في سهولة ويسر كأن له أجنحة قدسية تحمله وتجري به مجرىٰ الريح، وإنك لتنظر إلىٰ خارطة الأرض وتتأمل مدىٰ انتشار الإسلام فتتعجب من سعته، ويزداد عجبك عندما تتبين أن ثلث هذه المساحة فحسب هي التي فتحتها الدول ودخلت الجيوش فيها بالإسلام، أما الباقي فقد دخلها الإسلام وملأ قلوب أهلها دون جهد منظم أو سياسة

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ٤/ ١٥.

(٢) د. حسين مؤنس، **الإسلام الفاتح**، ط١ (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧م)، ص٤.

مرسومة لذلك»[١].

وإن قيمة دراسة د. مؤنس في كونها تفصيلًا لما هو معروف بالإجمال، وهو ما شهد به عدد من المستشرقين من قبله، منهم جوستاف لوبون الذي قال: «لم ينتشر القرآن بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند، التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل، ما زاد معه عدد المسلمين علىٰ خمسين مليون نفس فيها، ويزيد عدد مسلمي الهند يوما فيوما مع أن الإنجليز، الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر، يجهزون البعثات التبشيرية ويرسلونها تباعا إلىٰ الهند لتنصير مسلميها علىٰ غير جدوىٰ. ولم يكن القرآن أقل انتشارا في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط... ويزيد عدد مسلميها علىٰ عشرين مليونا في الوقت الحاضر»[٢].

وإذن، فنخلص من هذا العرض السريع الموجز إلىٰ أن الفتوحات الإسلامية هي من مظاهر الإعجاز التاريخي لهذه الأمة الإسلامية، وهي ظاهرة خارقة لما جرت عليه عادة التاريخ في انتشار الأمم، وهذا بشهادة المؤرخين والمستشرقين من غير المسلمين.

نسأل الله تعالىٰ أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا وأن يزيدنا علمًا.

---

(١) د. حسين مؤنس، **الإسلام الفاتح**، ص١٨.

(٢) جوستاف لوبون، **حضارة العرب**، ص١٢٨، ١٢٩.

اليهود في ظلال الإسلام

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله ﷺ، أما بعد(١)؛

لقد أرسل الله رسوله بالهدىٰ ودين الحق فقال تعالىٰ في شأنه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ووصف النبي ﷺ رسالته فقال: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**»(٢)، وقد أتم الله الدين وبلغ النبي الرسالة فصار المسلمون كما وصفهم ربهم ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠].

وقد كانت سيرة النبي محمد ﷺ هي أعظم قصة نجاح بشري، حتىٰ عدَّه مايكل هارت أعظم عظماء العالم لأنه الوحيد في التاريخ الذي نجح علىٰ المستوىٰ الديني والدنيوي معًا، وكان تاريخ المسلمين أقوم تواريخ الأمم وإن كان تاريخ بشر غير معصومين.

في هذه السطور القادمة نتناول وجها من وجوه إثبات عظمة هذه الرسالة وخيرية هذه الأمة، وهي مسألة تاريخ اليهود في ظلال الإسلام، لنرىٰ كيف تعامل المسلمون مع قوم وصفهم القرآن الكريم بأنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، ومع هذا أمرهم بالعدل معهم والإحسان إليهم وحرَّم عليهم ظلمهم واضطهادهم. وسيبدو الأمر أكثر بروزا إذا ما قورن حال اليهود في ظل الإسلام والمسلمين بحالهم في ظل غيره من الدول والأمم.

---

(١) بحث مقدم لمشروع بحثي يصدر في مجلدين عن «هيئة علماء فلسطين في الخارج» قريبا إن شاء الله.

(٢) أحمد (٨٩٥٢) والحاكم (٤٢٢١) وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني «السلسة الصحيحة» (٤٥).

وقد اخترنا أن نسلك في هذا البحث مسلكًا صعبًا، لكنه أبلغ حجة، إذ سنعرض لتاريخ اليهود في ظل الإسلام من خلال أقوال المستشرقين والمؤرخين الغربيين وحسب، ومن بين هؤلاء جملة من المتعصبين بل ومن اليهود والصهاينة أنفسهم، فيكون هذا من نوع ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف:٢٦][(١)].

---

(١) سرنا في هذا البحث علىٰ منهج يلتزم بالآتي:

نقل عن مستشرقين وغربيين من شتىٰ الاتجاهات والعصور، لكن الذي يجمعهم أن أحدًا منهم لم يدخل في الإسلام، وأن هذه المواد كلها كتبت في زمان استضعاف المسلمين (منذ القرن التاسع عشر حتىٰ الآن) مما لا يمكن اتهامها بالنفاق أو التزلف، ثم إنها جميعًا كتبت للغربيين فلا مجال فيها للمحاباة أو التجمل.. وذلك ليكون أبلغ في الحجة.

اكتفينا من النقل بموقع الشاهد من البحث ولم نعلق علىٰ شيء إلا في أحيان نادرة للغاية، وتركنا التعليق سواء أوافقنا المستشرق فيما قال أم خالفناه أم كان ثمة تحفظ، إذ لا يتسع المقام لمناقشة عميقة للرأي المفصل للمستشرق. والمقام هنا مقام إلزام بالحجة لا مقام تدقيق تاريخي في الوقائع وتحليلها.

أكثر المستشرقين بخيل في الإنصاف، فسرعان ما يلحق قوله بالاستثناء والاستدراك، أو أنه يصوغ عبارته من الأصل بحيث لا تؤدي معنىٰ الإنصاف بوضوح، إلا أن حقائق التاريخ كانت أثبت من محاولاتهم، فنقلنا ما في كلامهم من اعتراف بهذه الحقائق إذ هو مقصود البحث، وتركنا مناقشة أساليبهم في التشغيب علىٰ الحقيقة لدراسة قادمة أكثر توسعا وتفصيلا إن شاء الله.

أثبتنا هنا ما كان فيه اليهود عبر التاريخ الإسلامي من سعة وحسن حال، بصرف النظر عما إن كانت السلطة تفعل هذا تنفيذا لأوامر الإسلام أم تجاوزا لها، إذ المقام هنا تاريخي لا شرعي، فكثيرا ما بزغ نجم اليهود في بعض الأحقاب حتىٰ تسلطوا علىٰ المسلمين وبلغوا ما لا يجوز لهم شرعا من المكانة وتسببوا في أزمات وتوترات اجتماعية، فذكرنا في هذه الدراسة ذلك ولم نعلق علىٰ الأمر بحكم الشرع فيه.

والقصد من هذا البحث كله إثبات أن اليهود لم يتعرضوا لاضطهاد مخصوص في التاريخ الإسلامي لكونهم يهودا، ولم تمنعهم يهوديتهم من تولي الوظائف أو ممارسة الأنشطة أو الاقتراب من السلاطين.

اخترنا في العرض الأحقاب الكبرىٰ في التاريخ الإسلامي: الراشدي والأموي والعباسي والعثماني، مع إلقاء ضوء علىٰ المغرب والأندلس، واخترنا من النقولات ما كان عامًا علىٰ ما كان مفصلًا أو جزئيًا، وأدرجنا ما كان في دول صغيرة ضمن هذه الأحقاب الكبيرة طبقًا لما يسمح به المقام في هذا البحث.

اليهود بين أمة الإسلام والأمم الأخرى

قال اليهودي الصهيوني المصري إيلي ليفي أبو عسل في كتابه «يقظة العالم اليهودي» الذي هو بمثابة الدعاية للمشروع الصهيوني مُقِرًّا بالحقيقة التاريخية:

«لسنا نعجب إذا رأينا ذلك التسامح النبيل الذي تجلىٰ من جانب العرب المسلمين نحو اليهود، ولسنا ندهش له، لأننا نرىٰ له سببا طبيعيا وجنوحا غريزيا إليه، فهو مظهر من مظاهر الميل الفطري والعنصري لائتلاف طباعهم، وتلائم أميالهم ونزعاتهم، فكان العرب في كل مكان وزمان يعاشرون اليهود معاشرة قائمة علىٰ الإخلاص وحسن النية، ويجري اليهود معهم علىٰ منهج وفي قويم لا شائبة فيه ولا دنس، لذلك قلما كان يجد اليهود عطفًا شريفًا يضارع عطف العرب عليهم لدىٰ الأمم الأخرىٰ. فإذن ليس بعجيب إذا اندمج هذان العنصران، لأنهما خلقا من جوهر واحد، ونزلا من سلالة واحدة وهي سلالة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ... قضىٰ ناموس الارتقاء وتنازع البقاء والانتخاب الطبيعي بشد أزر القوي وسحق الضعيف، ولما كان اليهود في كل مكان لم يُؤلفوا إلا أقليات ضئيلة، فكان طبيعيًا أن وجودهم والحالة هذه لم يكن قائما علىٰ عوامل سياسية أو طبيعية، بل علىٰ روح تسامح الأهلين المتاخمين لهم»(١).

وذات الحقيقة يقررها المؤرخ الإسرائيلي المعروف صموئيل أتينجر، وهو أستاذ للتاريخ اليهودي بالجامعة العربية في القدس، فيقول:

«عاش يهود المشرق الإسلامي علىٰ مدىٰ ما يقرب من ألف ومائتي عام تحت حكم الإسلام، وأطلق عليهم طيلة هذه الفترة اسم «أهل الذمة». وكان يحق لهم ممارسة شعائرهم الدينية في مقابل الجزية التي كانوا يدفعونها

---

(١) إيلي ليفي أبو عسل، **يقظة العالم اليهودي**، (القاهرة: دار الفضيلة، بدون تاريخ)، ص٩٦، ٩٧.

للسلطات التي كانت تتولىٰ حماية ممتلكاتهم، واتسمت علاقة اليهود بالمجتمع المحيط بهم بقدر كبير من الاستقرار، ولكننا نستثني بالطبع بعض الحالات التي تعرض اليهود فيها لبعض المضايقات... وكان وضع يهود الشرق أفضل بكثير من وضع يهود أوروبا الذين اضطهدوا لأسباب سياسية واقتصادية ودينية، فكثيرا ما كانوا يُطردون من البلدان التي أقاموا فيها، في حين لم يتعرض يهود بلدان الشرق لنفس المصير»(١).

ومن سينظر إلىٰ التاريخ سيجد، كما يقول المستشرق الألماني المعروف آدم متز، أن «أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا التي كانت كلها علىٰ المسيحية في العصور الوسطىٰ وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرىٰ بين المسلمين»(٢).

وما كان ذلك ليوجد لولا كلمة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦] كما تفسر المستشرقة الألمانية الشهيرة زيجريد هونكه، والتي تضيف «وبناء علىٰ ذلك فإن العرب لم يفرضوا علىٰ الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام. فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصبي الديني وأفظعها، سُمِح لهم جميعا دون أي عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنىٰ أذىٰ. أوليس هذا منتهىٰ التسامح؟ أين روىٰ التاريخ مثل تلك الأعمال ومتىٰ؟ ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي

---

(١) صموئيل أتينجر، **اليهود في البلدان الإسلامية**، ترجمة: د. جمال أحمد الرفاعي، مراجعة: د. رشا عبد الله الشامي، سلسلة عالم المعرفة ١٩٧، (الكويت: المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، مايو ٢٠٠١م)، ص٤٥.

(٢) آدم متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط٣ (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٧م)، ١/ ٧٥.

الصارخ وبعد فظائع الإسبان واضطهادات اليهود؟»[١].

والخلاصة، كما يجملها المستشرق وعالم الاجتماع الفرنسي الشهير جوستاف لوبون، هي أن «مسامحة محمد لليهود والنصارىٰ كانت عظيمة إلىٰ الغاية، وأنه لم يَقُلْ بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية علىٰ الخصوص، وسنرىٰ كيف سار خلفاؤه علىٰ سُنَّتِه، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربا المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أنعموا النظر في تاريخ العرب»[٢].

اليهود في التاريخ الإسلامي

يقول الفيلسوف الروسي الشهير تولستوي: «من فضائل الدين الإسلامي أنه أوصىٰ خيرًا بالمسيحيين واليهود، ولا سيما قساوسة الأولين؛ فقد أمر بحسن معاملتهم ومؤازرتهم، حتىٰ أباح هذا الدين لأتباعه التزوُّج من المسيحيات واليهوديات، مع الترخيص لهن بالبقاء علىٰ دينهن، ولا يخفىٰ علىٰ أصحاب البصائر النيِّرة ما في هذا من التساهل العظيم»[٣].

وهذا هو الأصل السائر في التاريخ الإسلامي، وأبرز دليل علىٰ هذا بلوغ اليهود المناصب العليا في الدولة الإسلامية في مختلف الأحقاب، وإلىٰ هذا يشير صموئيل أتينجر بقوله: «يلاحظ دارسو التاريخ اليهودي في العصور الوسطىٰ أن

---

(١) زيجريد هونكه، **شمس الله تسطع علىٰ الغرب**، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط١٠ (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٢م)، ص٣٦٤.

(٢) جوستاف لوبون، **حضارة العرب**، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م)، ص١٢٨.

(٣) تولستوي، **حِكَم النبي محمد**، دراسة وتقديم: د. محمود النجيري، ط١ (الجيزة: مكتبة النافذة، ٢٠٠٨م)، ص٤٣، ٤٤.

السلطات حرصت على جباية الجزية من اليهود، وتطبيق القوانين الإسلامية، ولكنها أتاحت لليهود في نفس الوقت تقلد العديد من المناصب المهمة، فكان حسداي بن شبروط في بلاط الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث (عبد الرحمن الناصر) وشموئيل هناجيد (إسماعيل بن النغرالة) في غرناطة إبان القرنين العاشر والحادي عشر، على سبيل المثال، من أبرز الشخصيات اليهودية التي عملت في إطار الخلافتين الأموية والأندلسية. وكذلك خدم الإخوة إبراهيم وحيد بني سهل التوستاري لدى الخلفاء الفاطميين في النصف الأول من القرن الحادي عشر. وفي إطار الخلافة الفاطمية بمصر تقلد اليهود العديد من المناصب المهمة... ومن الملاحظ أن اليهود اندمجوا طيلة الفترة العثمانية في كافة الأجهزة الحكومية»(١).

ولئن رُصِدت فترات اضطهاد أحيانًا فذلك إنما كان لفترات قصيرة استثنائية ثم إنها في عمومها كانت ضمن سياق استبدادي عام ولم تكن مختصة باليهود كأتباع ديانة مخالفة، هذا ما يقرره المستشرق الفرنسي مارسيل بوازار حين يقول:

«الإسلام يتراءى أكثر تسامحًا كلما قَوِيَ واشتدَّ على الصعيدين الداخلي والخارجي، وتنص الآية القرآنية التي تمنع الإكراه على اعتناق الدين عن تأكيد لا يتزعزع، وقوة الأُمَّة تُوَفِّر للمؤمن ألا (يُخِيفَ) اليهودي ولا المسيحي، وأن يحترم -بالتالي- شخصهما ودينهما ومؤسساتهما... وينبغي من جهة أخرى الإشارة إلى أن الشعوب الإسلامية بمختلف نزعاتها، الدينية أو الفلسفية، قد قاست ما قاساه المعاهدون حين بلغ جو التعصب ذروته [في السلطة]، إن لم تكن قاست أكثر مما قاسوا. وتنقل الكتب مثلا أن أحد المسلمين لم ينج من القتل على أيدي زمرة تخالفه الرأي إلا بعد أن ادعى أنه ذمي»(٢).

---

(١) صموئيل أتينجر، **اليهود في البلدان الإسلامية**، مرجع سابق، ص٤٩، ٥٠.

(٢) مارسيل بوازار، **إنسانية الإسلام**، ترجمة: د. عفيف دمشقية، ط١ (بيروت: دار الآداب، ١٩٨٠م)، ص٢٠٢.

ويزيد المعنىٰ وضوحًا المستشرقُ الإيطاليُّ الشهير فرانشسكو جابرييلي عندما يقارن بين الإسلام والمسيحية بقوله:

«إننا يجب أن نذكر دائمًا أن الإسلام أضفىٰ علىٰ (عقائد أهل الكتاب) - أي المسيحية واليهودية- مكانة خاصة يحميها الشرع، وإن تكن ذات مرتبة أدنىٰ في الدولة، ولم يَدُمِ التزمت والاضطهاد فترات طويلة إلا في أوقات الشدَّة، وعدم الشعور بالأمان، أما قانون المسيحية فليس فيه أي مكان لأي دين آخر؛ لذا فقد انتقل بسرعة وبتطور منطقي، عندما انتصر علىٰ الإسلام إلىٰ التعصب والاضطهاد»[(١)].

اليهود في ظل الخلافة الراشدة

بدأت الفتوحات في عصر الخلافة الراشدة، تلك الفتوحات التي كانت إنقاذا لليهود في البلدان المفتوحة من الاضطهاد المنهجي المتكرر، يقول مؤرخ الحضارة ول ديورانت: «كان اليهود في بلاد الشرق الأدنىٰ قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين، إلا أنهم في عهدهم قد فُرضت عليهم عدة قيود ولاقوا شيئًا من الاضطهاد من حين إلىٰ حين، غير أنهم مع هذا كانوا يُعاملون علىٰ قدم المساواة مع المسيحيين، وأصبحوا مرة أخرىٰ يتمتعون بكامل الحرية في حياتهم وفي ممارسة شعائر دينهم في بيت المقدس، وأثروا كثيرًا في ظل الإسلام وفي آسية، ومصر، وأسبانيا، كما لم يثروا من قبل تحت حكم المسيحيين»[(٢)].

---

(١) فرانشسكو جابرييلي، **الإسلام في عالم البحر المتوسط**، ضمن «**تراث الإسلام**»، بإشراف: جوزيف شاخت، وكليفورد بوزوروث، ترجمة: د. محمد زهير السمهوري وآخرون، سلسلة عالم المعرفة ١١ (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٧م)، ص١١٤.

(٢) ول ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة: مجموعة، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م)، ١٣/ ١٣١.

وهم لم يرحبوا فقط بل ساعدوا في الفتوح كما يقرر المستشرق البريطاني الخبير توماس أرنولد: «وكان من أثر هذه الاضطهادات أن رَحَّب اليهود بالعرب الغزاة وعَدُّوهم مُخَلِّصِين لهم مما حلَّ بهم من المظالم، فساعدوهم علىٰ فتح أبواب المدن، كما استعان بهم الفاتحون في حماية المدن التي وقعت بأيديهم»[١].

بل لقد منح الفتح الإسلامي لليهود أملًا جديدًا في الحياة كما تقول الباحثة البريطانية في مقارنة الأديان كارين أرمسترونج؛ «فقد كان الأباطرة البيزنطيون قد جرَّموا الديانة اليهودية، كما أوشك هرقل علىٰ إجبار اليهود علىٰ أن يُعَمَّدوا مسيحيين، لذا كان اليهود علىٰ استعداد لمؤازة المسلمين كما سبق لهم أن آزروا الفرس، خاصة وأن عقيدة المسلمين التوحيدية كانت أكثر قربا لليهودية منها للمسيحية... كما أن المسلمين لم يحرروهم فقط من ظلم بيزنطة، لكنهم أيضا منحوهم حق الإقامة الدائمة في المدينة المقدسة. ولا يثير الدهشة إذن أن يتسبب هذا التغيير في إلهام اليهود ببعض الأحلام الرؤياوية، خاصة وأن المسلمين حاولوا تطهير المعبد. وأصبح هناك تساؤل عما إذا كان ذلك يعني التمهيد لتشييد المعبد النهائي الذي سيقيمه المسيح المنتظر. وهكذا ظهرت قصيدة عبرية قرب نهاية القرن السابع ترحب بالعرب المبشرين بالمسيح المنتظر وتترقب آملة أن يجتمع شمل يهود الشتات وأن يُعاد بناء المعبد، وحينما لم يصل المسيح المنتظر، استمرت نظرة اليهود الراضية عن الحكم الإسلامي في أورشليم. ففي خطاب كتبه حاخامات أورشليم في القرن الحادي عشر، تذكر هؤلاء الرحمة التي أظهرها الإله لشعبه حين سمح «لمملكة إسماعيل» أن تفتح فلسطين وعبروا عن غبطتهم لوصول المسلمين إلىٰ أورشليم»[٢].

(١) توماس أرنولد، **الدعوة إلىٰ الإسلام**، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخران، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠)، ص١٥٥.

(٢) كارين أرمسترونج، **القدس: مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ترجمة: د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، (القاهرة: سطور، ١٩٩٨م)، ص٣٩٤.

وهكذا لم يكن الأمر مجرد التقاء أغراض سياسية ثم ينقلب الفاتح إلىٰ باطش، بل علىٰ العكس كما تقرر زيجريد هونكه، «فلم يكن الهدف أو المغزىٰ للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامي [بالجبر]، وإنما بسط سلطان الله في أرضه، فكان للنصراني أن يظلَّ نصرانيًّا، ولليهودي أن يظلَّ يهوديًّا كما كانوا من قبل، ولم يمنعهم أحدٌ أن يُؤَدُّوا شعائر دينهم، ولم يكن أحد لِيُنزِل أذًىٰ أو ضررًا بأحبارهم أو قساوستهم ومراجعهم، وبِيَعِهم وصوامعهم وكنائسهم»(١).

اليهود في ظل العصر الأموي

يؤكد ج. ه. جانسن علىٰ فضل فتح المسلمين للأندلس، وهو الفتح الأموي، علىٰ حفظ حياة اليهود، يقول:

«في مناسبتيْن من التاريخ اليهودي في أوروبا نرىٰ أن بقاء اليهود علىٰ قيد الحياة يعود إلىٰ استضافة وحماية الحكام المسلمين؛ كانت الفترة الأولىٰ في القرن السادس عندما وضعت الفتوحات الإسلامية في إسبانيا حدًّا للاضطهاد اليهودي علىٰ يد المسيحيين هناك. ومنذ القرن العاشر فصاعدا أخذ الضغط علىٰ اليهود في أوروبا الغربية في الازدياد ببطء حتىٰ إذا ما أطل القرن السادس عشر كانت تلك المنطقة قد أُفرغت من اليهود ما عدا بعض الجيوب الصغيرة والمبعثرة، لقد انتقلت الجاليات اليهودية نحو الشرق ووجدت ملجأ لها في الإمبراطورية العثمانية»(٢).

ويقول مؤرخ الحضارة ول ديورانت في موجزه عن تاريخ العصر الأموي:

---

(١) زيجريد هونكه، **الله ليس كذلك**، ترجمة د. غريب محمد غريب، ط٢ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٦)، ص٤١.

(٢) ج. ه. جانسن، **الصهيونية وإسرائيل وآسيا**، ترجمة: راشد حميد، سلسلة كتب فلسطينية ٣٩ (بيروت: مركز الأبحاث – منظمة التحرير الفلسطينية، سبتمبر ١٩٧٢م)، ص١٦.

«كان أهل الذمة: المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون، يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نظير لها في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فقد كانوا أحرارًا في ممارسة شعائرهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص وأداء فرضة عن كل شخص، تختلف باختلاف دخله وتتراوح بين دينار وأربعة دنانير (من ٤.٧٥ إلىٰ ١٩ دولارًا أمريكيًا). ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا علىٰ غير المسلمين القادرين علىٰ حمل السلاح، ويعفىٰ منها الرهبان والنساء والذكور الذين هم دون سن البلوغ، والأرقاء، والشيوخ، والعجزة، والعمىٰ الشديد والفقر. وكان الذميون يعفون في نظير هذه الضريبة من الخدمة العسكرية أو إن شئت فقل لا يقبلون فيها-ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها اثنين ونصف في المائة من الدخل السنوي، وكان لهم علىٰ الحكومة أن تحميهم، ولم تكن تُقبل شهادتهم في المحاكم الإسلامية، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم، وقضاتهم وقوانينهم»[(١)].

اليهود في ظل العصر العباسي

ينقل آدم ميتز عن رحالة يهودي أحوال اليهود في العصر العباسي، فيذكر كثرة عددهم، يقول:

«يُقَدِّر ربِّي بنيامين (وهو رحالة سافر عام ١١٦٥م) اليهود في المملكة الإسلامية -بعد صرف النظر عن المغرب- بنحو ثلاثمائة ألف يهودي، علىٰ حين أن ربِّي بتاحيا -وقدسافر بعد صاحبه بعشرين عاما- يقدر أن عدد اليهود في العراق وحدها يبلغ ستمائة ألف. ولا تنطبق هذه الأرقام علىٰ الشام في القرن

---

(١) ول ديورانت، **قصة الحضارة**، مرجع سابق، ١٣/ ١٣٠، ١٣١.

الرابع الهجري لأن السياسة التي جرىٰ عليها قواد الصليبيين إزاء اليهود كادت تفني الطائفة الإسرائيلية؛ ويقدر بنيامين عدد سكان الحي الخاص باليهود في القدس بأربعة أنفس، ولم يجد بتاحيا هناك إلا شخصًا واحدًا. ويقول بايلومارسيليوس جورجيوس في خبر يرجع تاريخه إلىٰ أكتوبر ١٢٤٣م [يوافق: ربيع الآخر ٦٤١هـ] إنه لم يكن في الحي الخاص بالبندقيين في صور إلا تسعة من شبان اليهود. أما بنيامين فيقول إنه كان يسكن دمشق ثلاثة آلاف يهودي تحت حكم المسلمين -وعند بتاحيا عشرة آلاف- وفي حلب خمسة آلاف يهودي. أما علىٰ نهري دجلة والفرات فكان اليهود مجتمعين بكثرة»(١)، وطفق يذكر تعداد اليهود في كل حاضرة إسلامية.

ثم يذكر أحوالهم وارتفاع شأنهم فيقول: «ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يُغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال؛ وكان قدمهم راسخا في الصنائع التي تدرّ الأرباح الوافرة، فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب ضياع وأطباء، بل إن أهل الذمة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام مثلا سهودا، علىٰ حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارىٰ، وكان رئيس النصارىٰ ببغداد هو طبيب الخليفة، وكان رؤساء اليهود وجهابذتهم عنده، وكان أصغر دافعي الضرائب هم اليهود الخياطون والصباغون والأساكفة والخرازون ومن إليهم»(٢).

وتعد تلك الحقبة التاريخية العصر الذهبي للفكر اليهودي سواء في مشرق العالم الإسلامي أو قلبه أو مغربه، وهذا بذاته دليل لا يقبل النقض علىٰ روح التعامل الإسلامي مع اليهود، يسجل المؤرخ الفرنسي إدوارد بروي هذه الحقيقة قائلًا:

---

(١) آدم متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، مرجع سابق، ١/ ٨١، ٨٢.

(٢) نفس المصدر، ١/ ٨٦، ٨٧.

«أما الفكر اليهودي فقد استيقظ برهة من الدهر، ونفض عنه الجمود واليبس الذي اعتراه من جراء التعاليم والمذاهب التلمودية... وعرف رئيس الكهنة ساديا في بغداد أن يكتسب شهرة واسعة بتجديده الناموس القديم، وراح يحاول من جهته التوفيق بين النصوص الكتابية وتعاليم الربانيين، أي بين مطلب الإيمان ومناهج العقل. ومن كل الجوالي اليهودية في أوروبا وآسيا كانوا يقصدون بغداد لاستيحاء تعاليم مدرستها المشهورة... ومع ذلك، فازدهار المدارس الملية التي قامت في كل من القدس والقاهرة والقيروان -التي تجاوز إشعاعها ولايات إيطاليا الجنوبية- والأندلس، يبدي بصورة قاسية، الصدارة التي احتلها ربابنة مدرسة بغداد علىٰ غير استحقاق أو جدارة أحيانا... ومنذ القرن الحادي عشر، أصبحت الأندلس ملاذ الفكر اليهودي، كما أصبحت مركزا للإشعاع الثقافي في العالم الإسلامي»[1].

ويزيد الأمرَ تفصيلا بَلَدِيُّه ألفريد مورابيا فيقول: «لقد تعمقت استقلالية اليهودية المصرية مقارنة ببغداد التي كانت مقرا للأكاديميات البابلية؛ فتم إقامة مدارس تلمودية ودينية، وكذلك أكاديمية في الفسطاط في آخر القرن العاشر. وتولىٰ أحد «النجاد» وهو رئيس الطائفية اليهودية، قيادة اليهودية المصرية والسورية. هذا، وقد جاء أساتذة من الفلسطينين حيث أقاموا علىٰ ضفاف النيل، حتىٰ إن الطائفة المصرية أصبحت أقوىٰ طوائف اليهودية إلىٰ درجة أنه كثيرا ما كانت تزود أكاديمية كل من بابل ومن الأراضي المقدسة بكل احتياجاتها المادية. لن يمر وقت طويل حتىٰ تصبح القاهرة -التي أسسها الفاطميون- مركزا مُشِعًّا لليهودية الشرقية؛ كما سنشاهد بروز المنافسات فيما بين المعلمين

(١) إدوارد بروي، **القرون الوسطىٰ**، ضمن «**موسوعة تاريخ الحضارات العام**»، بإشراف: موريس كروزيه، ترجمة: يوسف داغر وأسعد داغر، ط٢ (بيروت وباريس: منشورات عويدات، ١٩٨٦)، ٣/ ٢٣١.

البابليين والفلسطينيين لاجتذاب حظوة يهود مصر»[(١)].

ولذلك برز العديد من اليهود في تلك الحقبة سواء في العلوم الدينية اليهودية أو في العلوم البحتة أو في المناصب العليا للدول الإسلامية المتعددة المعاصرة للعباسيين؛ وبالرغم من أن ماكس مايرهوف يصنف العصر العباسي المتأخر من عصور الانحطاط ويزعم أن تزمت الشريعة خنق أصوات العلم، بالرغم من هذا يقول: «تزايد عدد اليهود بين الأطباء وعلىٰ الأخص في قصور بغداد والقاهرة وإسبانيا وربما يرجع ذلك إلىٰ أن اليهود كانوا يتمتعون آنذاك بحرية نسبية إزاء القيود الطارئة التي فرضها تزمت الشريعة الإسلامية[(٢)]. وأصدق أنموذج للطبيب الشهير الممارس والفيلسوف والمعلم الديني في البلاط هو موسىٰ بن ميمون. ولد موسىٰ في إسبانيا إلا أنه قضىٰ معظم حياته الحافلة بالنشاط في القاهرة بحمىٰ ورعاية صلاح الدين الأيوبي الشهير وأولاده من بعده»[(٣)].

اليهود في الأندلس

يلخص اليهودي الصهيوني ليفي أبو عسل حياة اليهود في الأندلس بقوله:

«ولوا (اليهود) وجههم شطر الأندلس، ثم اقتفىٰ أثرهم جماعات من يهود مصر، فنزلوا ضيوفا علىٰ أمراء العرب المسلمين، ولجأوا إلىٰ سخائهم الفطري،

---

(١) ألفريد مورابيا، **يهود مصر في ظل الإسلام: من الفتح العربي إلىٰ حملة بونابرت**، ضمن «**تاريخ يهود النيل**»، تحرير: جاك حاسون، ترجمة: يوسف درويش، ط٢ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨)، ص٥٩.

(٢) عبارة عجيبة متناقضة!!

(٣) ماكس مايرهوف، **العلوم والطب**، ضمن «**تراث الإسلام**» بإشراف: توماس أرنولد، تعريب جرجيس فتح الله، ط٢ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٢)، ص٤٨٤.

وكرمهم الحاتمي، ولم يكن من هؤلاء الأجاويد إلا أن أحسنوا ضيافتهم، وأكرموا وفادتهم، وأنزلوهم بين ظهرانيهم، وأحاطوهم بشيء كثير من العطف والعناية، فرفلوا في مروط المرح، وطاب عيشهم نالك، واستمرأوا لذة الحياة وعذوبة المعيشة بعد طول الإحن التي ألمت بهم والكوارث التي ساورتهم، وهكذا سكن ثائر روعهم، وانقشعت غياهب بؤسهم، فأنشأوا معهدا علميا فخما. كان كعبة العلماء ومحط رحال الشعراء وقبلة الأدباء ونطس الأطباء، وأسفر ذلك التضافر العلمي والاجتماعي والتعاون العقلي والأدبي عن إبراز نفائس العلوم وكنوزها وتحف الفنون ورموزها، نفائس تسامىٰ ذكرها، وتعالىٰ قدرها، وطبق صيت مؤلفيها الآفاق، وشهرة واضعيها العالمين»[1].

ويضرب المستشرق الألماني كارل بروكلمان بعض الأمثلة علىٰ هذا، فيقول: «شارك اليهود في هذه الحياة الثقافية (في الأندلس) مشاركة فعالة، والواقع أنهم كانوا [قبل الفتح الإسلامي] منبثين في طول البلاد وعرضها بين القوط، وأنهم عملوا في خدمة أمراء النصارىٰ كموظفين ماليين. فلما آلت مقاليد الدولة الأموية إلىٰ عبد الرحمن الثالث (الناصر) عهد إلىٰ طبيبه اليهودي حسداي بن شبروط بشؤون المال أيضا. ليس هذا فحسب، بل لقد استطاع أحد اليهود، إسماعيل بن نغرالة أن يبلغ منصب الوزارة في ظل الأمير البربري حبوس الذي استولىٰ علىٰ الأمر في غرناطة حوالي سنة ١٠٢٤- بعد أن اعتزل الحكم عمه زاوي بن زيري- والذي دام عهده حتىٰ سنة ١٠٣٨. وهكذا خلعت عليه الجالية اليهودية، وكانت كثيرة العدد هناك منذ العصور القديمة، لقب «ناجد» الخاص بالأمراء»[2].

---

(١) إيلي ليفي أبو عسل، **يقظة العالم اليهودي**، مرجع سابق، ص٤٤.

(٢) كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط٥ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨)، ص٣١٥.

وبالجملة، كما تقول الراهبة السابقة والباحثة في الأديان كارين أرمسترونج، فقد «كانت العلاقات طيبة في العادة بين المسلمين والمسيحيين، وكان المسلمون يسمحون للمسيحيين، مثلما يسمحون لليهود، بالحرية الدينية الكاملة في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، وكان معظم أهل إسبانيا يعتزُّون بانتمائهم إلىٰ تلك الثقافة الرفيعة، فقد كانت تسبق سائر أوربا سبقًا يُقاس بالسنين الضوئية، وكان كثيرًا ما يُطْلَق عليهم المستعربون»[١]، فالثابت من التاريخ، كما يقول المستشرق البريطاني الخبير مونتجمري وات، «هو أن المسلمين والمسيحيين واليهود في الدولة العربية أثناء تلك الحقبة اختلطوا بعضهم ببعض في حُرِّيَّة تامَّة، وكان لكل فئة منهم نصيب كامل من الثقافة المشتركة»[٢].

ولم يكن هذا ليحدث لولا تفوق الإسلام علىٰ المسيحية، كما يقول الباحث والناقد الأديب الإسباني أميركو كاسترو: «يمكن أن نفهم تاريخ باقي دول أوروبا دون الحاجة لوضع اليهود في المقام الأول، أما في الحالة الإسبانية فالوضع مختلف، فالوظيفة الرئيسية للإسبان العبريين لا تنفصل عن ظروف التعايش والتلاحق مع التاريخ الإسباني الإسلامي، وكانت العربية العربية هي اللغة المستخدمة بين عمالقتهم (نذكر هنا ابن ميمون) ورغم ذلك كانوا يكتبونها بالحروف العبرية، ومن الواضح أن تفوقهم علىٰ أقرانهم في أوروبا يرتبط بتفوق الإسلام علىٰ المسيحية خلال الفترة من القرن العاشر وحتىٰ الثاني عشر، ولولا احتكاكهم بالإسلام لما عنوا بالفلسفة الدينية»[٣].

---

(١) كارين أرمسترونج، **سيرة النبي محمد**، ترجمة: د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، ط٢ (القاهرة: سطور، ١٩٩٧)، ص٣٢.

(٢) مونتجمري وات، **فضل الإسلام علىٰ الحضارة الغربية**، ترجمة: حسين أحمد أمين، ط١ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٣)، ص٦٧.

(٣) أميركو كاسترو، **إسبانيا في تاريخها: المسيحيون والمسلمون واليهود**، ترجمة: علي إبراهيم منوفي، ط١ (القاهرة: المجلس الأعلىٰ للثقافة، ٢٠٠٣)، ص٥٣٧.

وإن أي مقارنة بين العهد الإسلامي وبين ما سبقه وما تلاه ستكون كاشفة، أو كما تقول زيجريد هونكه: «بينما عاشت النصرانية في ظلِّ الحكم الإسلامي قرونًا طوالًا -في الأندلس، وفي صقلية، والبلقان- فإن انتصار النصرانية علىٰ الإسلام -في الأندلس سنة (١٤٩٢م) - لم يَعْنِ سوىٰ طرد المسلمين واليهود، واضطهادهم وإكراههم علىٰ التنصُّر، واستئناف نشاط محاكم التفتيش، التي قامت بتعقُّبِ كلَّ مَنْ يَتَّخِذَ سوىٰ الكاثوليكية دينًا، والحرقِ العلني -في احتفالات رسمية تحفُّها الطقوس والشعائر الكنسية- لكل من اعتنق الإسلام أو اليهودية»[١].

اليهود في ظل الدولة العثمانية

يسجل المستشرقان البريطانيان هاملتون جب وهارولد باون لحظة ما بعد فتح القسطنطينية، علىٰ هذا النحو: «سمح الفاتح لهم (اليهود) بالاستقرار في اسطنبول، وعيَّن الحاخام باشي، أو الحبر الأعظم، الذي مُنِح سلطات مشابهة لتلك التي مُنِحت للبطريرك، علىٰ جميع تابعيه في الإمبراطورية. تمتع الحاخام في الواقع بمكانة تفوقت علىٰ مكانة البطريرك وتلت مباشرة مرتبة رئيس العلماء، ومن خلال ذلك أصبح موقف اليهود أفضل بشكل عام»[٢].

لهذا، وكما يقرر المستشرق اليهودي الصهيوني المتعصب برنارد لويس، فإن «معظم اليونانيين الذين كانوا غادروا المدينة قبيل الفتح قد عادوا إليها إلا القليل منهم، وجاء الآخرون من جميع أنحاء الإمبراطورية ليشاركوهم، وشكل هؤلاء جالية غنية تحت زعامة بطريركهم. وقد ازداد عدد اليهود أيضًا، والذين

(١) زيجريد هونكه، **الله ليس كذلك**، مرجع سابق، ص٤٥.

(٢) هاملتون جب وهارولد باون، **المجتمع الإسلامي والغرب**، ترجمة ودراسة: أحمد إيبش، ط١ (أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٢م)، ٢/ ٣٠٨.

كانوا موجودين من قبل في العاصمة البيزنطية»[١]، ويُفَصِّل في نمو وتطور الجالية اليهودية في ظل الدولة العثمانية، فيقول: «استطاع اليهود كسب ود المسلمين، وأصبح لهم ميزة علىٰ المسيحيين، فكان الأتراك يثقون كثيرا بذكائهم اللماح، ومهاراتهم في القضايا السياسية والاقتصادية الحساسة... وكان اعتماد الدولة التركية في الاتصال بالغرب علىٰ اليهود أكثر من اعتمادهم علىٰ أي طائفة أخرىٰ مثل اليونانيين أو الأرمن. وهكذا تمكن اليهود بذكائهم من إقامة وتطوير مستعمرة تجمع التكتل اليهودي في مدينة سالونيكا بعد فتح العثمانيين لها، حيث تمكنوا من الاستفادة من هذه البقعة والميناء البحري الاستراتيجي المهم، وهكذا يمكنك أن تلاحظ أنه خلال القرن السادس عشر استطاع اليهود الأوروبيون الظهور بالمظهر المشرف في الدولة العثمانية، حيث أظهروا مهارات وقدرات تمكنهم من أداء الخدمات الخاصة والمهمة، لذلك كانوا يؤدون بعض الأعمال الخاصة لملوك مصر الذين كانوا يستعينون بخبرتهم ومعرفتهم باللغات الأوروبية، ومن ثم كانت تُعهد إليهم المهام الخاصة بالأنشطة الدبلوماسية، وأصبح لهؤلاء اليهود حق التنقل بحرية تامة، والاشتغال بالتجارة تحت حماية الدولة العثمانية»[٢].

يؤكد علىٰ ذات هذا المعنىٰ الباحثُ اليهوديُّ ميخائيل فينتر، فيقول: «وعلىٰ الرغم من أن الإمبراطورية العثمانية كانت دولة إسلامية سنية متشددة مثلها مثل السلطة المملوكية إلا أنها كانت دولة مستنيرة عملت علىٰ التحلي بمفاهيم العصر. ولقد أدىٰ الدمج بين النظرة الأساسية المتزنة للسلطان ورعاياه وبين المنظور العلمي العقائدي، إلىٰ تحسن وضع اليهود في كافة أنحاء

---

(١) برنارد لويس، **اسطنبول: وحضارة الخلافة الإسلامية**، ترجمة وتعليق: سيد رضوان علي، ط٢ (جدة: الدار السعودية، ١٩٨٢م). ص١٣٥.

(٢) برنارد لويس، **اكتشاف المسلمين لأوروبا**، ترجمة: ماهر عبد القادر، ط١ (القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٦)، ص١٢٢، ١٢٣.

الإمبراطورية، فتقلد اليهود في مصر العثمانية بعض المناصب الرفيعة في وزارة الخزانة. وصحيحٌ أن وضع اليهود في فترة المماليك الشراكسة (١٣٨٢ - ١٥١٧) كان مُعزَّزًا في الإدارة قياسا بفترة المماليك الأتراك (البحريين) (١٢٥٠ - ١٣٨٢)، وذلك علىٰ الرغم مما قلناه من قبل عن وضعهم العام في الدولة المملوكية، إلا أن الفترة العثمانية دفعت، علىٰ الأقل باليهود الذين عملوا في وزارة الخزانة إلىٰ قمم لم يعرفوا لها مثيلا من قبل، أو علىٰ الأقل منذ الحكم الفاطمي في العصور الوسطىٰ»[1].

وفي الحقيقة يمكن إجمال وضع اليهود في تلك الفترة بكلمة ج. ه. جانسن: «عاش اليهود تحت الحكم العثماني بسلام، لكنهم كانوا يلاقون دوما في أوروبا الشرقية تمييزا وكراهية قوية كانت تتفاقم من وقت لآخر لتنتهي بالمذابح»[2]، ولهذا انتهت الدولة العثمانية، كما يقول بروكلمان، «إلىٰ أن تصبح ملجأ للحرية الدينية بالنسبة إلىٰ اليهود المطرودين من إسبانيا والبرتغال عند منبلج القرن السادس عشر. فما وافت سنة ١٥٩٠ علىٰ وجه التقريب، حتىٰ بلغ عدد سكان الحي اليهود في اسطنبول نحوا من عشرين ألفا، واتخذ اليهود سبيلهم إلىٰ قصر السلطان، بادئ الأمر، بوصفهم مضحكيم ومشعوذين... ولكنهم عرفوا، إلىٰ ذلك، كيف يفرضون أنفسهم علىٰ البلاط بوصفهم أطباء»[3].

ولم يكن أطباء القصر مجرد أطباء، كما يشير برنارد لويس، فعلىٰ سبيل المثال «كان مانويل برودو واحدًا من بين الأطباء اليهود، ذوي الأصل الأوروبي، الذين عملوا في خدمة السلطان، وأصبحوا علىٰ قدر كبير من الأهمية

---

(١) ميخائيل فنتر، **علاقات اليهود مع السلطان والمجتمع غير اليهودي**، ضمن: «**تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية**» تحرير: يعقوب لاندوا، ترجمة: جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد، (القاهرة: المجلس الأعلىٰ للثقافة، ٢٠٠٠)، ص٤٧٢.

(٢) ج. ه. جانسن، **الصهونية وإسرائيل وآسيا**، مرجع سابق، ص١٦.

(٣) كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، مرجع سابق، ص٤٨٩، ٤٩٠.

حتىٰ أن أرشيف القصر العثماني يدلنا علىٰ وجود طاقمين منفصلين من أطباء البلاط، أحدهما مسلم والآخر يهودي.... لقد لعب عدد من هؤلاء الأطباء دورا سياسيا مهما؛ فاقترابهم من رجال السلطان ووزرائه ومعرفتهم باللغات الأوروبية والأحوال الأوروبية جعلهم نافعين للحكام الأتراك والرسل الأجانب، وقد مكنهم ذلك من إحراز مناصب نفوذ وقوة، حتىٰ إن بعضهم كان يُرسل إلىٰ الخارج في مهمات دبلوماسية»[(١)].

وهكذا كان وجود الدولة العثمانية من أسباب السعد التاريخية الكبرىٰ علىٰ اليهود، ليس فقط علىٰ مستوىٰ إنقاذهم من الإبادة بل علىٰ مستوىٰ إنعاش وضعهم الاقتصادي والاجتماعي، وهذا ما يقرره المستشرق الفرنسي المعروف أندريه ريمون بقوله:

«إن إنشاء الإمبراطورية العثمانية كان له بصفة عامة أثر إيجابي علىٰ مركز اليهود. وقد لجأ العديد من اليهود إلىٰ البلاد الإسلامية للاحتماء بعد طردهم من إسبانيا أو هروبهم منها وذلك خلال الفترة بين عامي ١٤٩٢م و ١٤٩٦م ثم في القرن السادس عشر... وقد مارس اليهود في المدن العربية الكبيرة حيث تمركزت جاليتهم أنشطة متنوعة: من المعروف أن أشغال المعادن الثمينة وأعمال الصرافة هي مهنتهم التقليدية. وفي القاهرة كانت حارة اليهود تقع في قلب المدينة بجوار الصاغة، كما كان اليهود يعملون أيضًا في دار سك النقود. وكانوا يقومون بدور نشيط في التجارة الخارجية إذ كانوا يصدورن المنتجات المحلية ويستوردون المنتجات الأوروبية، وذلك بفضل علاقاتهم مع اليهود الأوروبيين. وتمكنوا بفضل رؤوس الأموال التي جمعوها من القيام بأنشطة بنكية في البلاد التي كانت البنوك فيها غير متطورة»[(٢)].

---

(١) برنارد لويس، **اكتشاف المسلمين لأوروبا**، مرجع سابق، ص٢٦٦.

(٢) أندريه ريمون، **المدن العربية الكبرىٰ في العصر العثماني**، ترجمة: لطيف فرج، ط١ (القاهرة: دار الفكر للدراسات، ١٩٩١م)، ص٨٤، ٨٥.

خاتمة

إن المسألة اليهودية في التاريخ الإسلامي فرع عن مسألة أهل الذمة بشكل عام، ويمكن إجمال تاريخ أهل الذمة كله تحت ظل الإسلام في قول إدوارد بروي:

«قلما عرف التاريخ، والحق يُقال، فتوحات كان لها، في المدىٰ القريب، علىٰ الأهلين مثل هذا النزر الصغير من الاضطراب يحدثه الفتح العربي لهذه الأقطار. فمن لم يكن عربيا من الأهلين لم يشعر بأي اضطهاد قط. فاليهود والنصارىٰ الذين هم أيضًا من أهل الكتاب، حُقَّ لهم أن يتمتعوا بالتساهل وأن لا يُضاموا، والمطلوب من هؤلاء السكان أن يُظهروا الولاء للإسلام ويعترفوا بسيادته وسلطانه، وأن يؤدوا له الرسوم المترتبة علىٰ أهل الذمة تأديتها، والامتناع عن كل دعوة دينية لهم لدىٰ المسلمين. وفي نطاق هذه التحفظات التي لم تكن لتؤثر كثيرا علىٰ الحياة العادية، تمتع الذميون بكافة حرياتهم»(١).

إلا أن عددًا من الباحثين رأىٰ أن اليهود تمتعوا بوضع خاص بين أهل الذمة طوال التاريخ الإسلامي، منهم المؤرخ الأمريكي اليهودي سالو و. بارون، الذي يوصف بأنه «أعظم مؤرخ يهودي في القرن العشرين»، الذي يقول: «في الحقيقة يبدو أن هنالك نوعًا من الود لطبيعة اليهود في حضارة الإسلام. وبالرغم من تصنيفهم ضمن فئة الذميين غير المحببة، فواقع الأمر هو أن المراكز الأكثر ازدهارا للمجتمعات اليهودية، منذ نشوء الخلافة حتىٰ إلغاء أحياء اليهود في أوروبا، قد تواجدت في البلاد الإسلامية: في العراق أثناء الحكم العباسي، وفي إسبانيا خلال

---

(١) إدوارد بروي، **القرون الوسطىٰ**، ضمن «**موسوعة تاريخ الحضارات العام**»، بإشراف: موريس كروزيه، مرجع سابق، ٣/ ١١٦. باختصار.

فترة سيطرة البربر، وبعد ذلك في الإمبراطورية العثمانية»[١]. وهذه العبارة وحدها من مؤرخ كهذا كافية كدليل في موضوعنا هذا.

وإجمالا نقول:

لقد أنصف بعض المستشرقين -كجوستاف لوبون وزيجريد هونكه وتوماس أرنولد- إذ عرضوا لتاريخ التعامل الإسلامي مع اليهود، بينما الغالبية استكبرت عن قول الحق واضحًا فعرضت للموضوع بعبارات يكثر فيها الاستدراك والاستثناء والالتفاف والمناورة، ومع هذا عجز أغلب هؤلاء عن أن يكتموا حقيقة التاريخ فانتزعنا من كلامهم هذه الفقرات السابقة، ولا ننكر أن بعضا آخرين -كجوستاف جرونيباوم- بلغ من الإنكار والتلاعب بالصياغة ما عجزنا نحن معه علىٰ أن نأخذ شيئا واضحا صريحا، فلو أن المقام مقام مناظرة واحتجاج لكانت لنا وقفات تعليق وتعقيب وكشف للتناقض والمناورة والتلاعب، لكنه مقام استشهاد بالصريح من كلامهم، ولهذا أخذنا ممن أنصف وممن حاول الالتفاف والمخادعة، وتركنا الآخرين لمقام آخر إن شاء الله تعالىٰ.



(١) نقلًا عن: هاملتون جب وهارولد باون، **المجتمع الإسلامي والغرب**، مرجع سابق، ٢/ ٣١٠.

مدح المستشرقين والمؤرخين الغربيين لصلاح الدين الأيوبي

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وبعد[١]؛

رغم أن الحملات الصليبية بلغت ثماني حملات وامتدت علىٰ طول قرنين من الزمان، إلا أن شخصية السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي علقت في ذاكرة التاريخ الإنساني بتميز خاص، فذلك الرجل الذي لم يواجه سوىٰ الحملة الصليبية الثالثة فحسب ولم تكن مدة حكمه سوىٰ عشرين سنة فحسب استطاع أن يخلد في التاريخ الإنساني كواحد من أهم أبطاله.

استمد صلاح الدين عظمته من أمور عدة، من أهمها: أنه حرر بيت المقدس من بعد قرابة قرن من احتلاله، ثم أنه صمد أمام جيوش أوروبا وأقوىٰ ملوكها وحافظ علىٰ بقاء بيت المقدس بحوزة المسلمين، إلا أن الذي هو أهم شيء قاطبة ما أبداه من حسن الخلق ونبل الفروسية الإسلامية التي سحرت معاصريه ومن تبعهم من المؤرخين حتىٰ اليوم.

ولئن كثر الحديث عن صلاح الدين بين العرب لا سيما بعدما صار بيت المقدس أسيرًا، فإن مما لا يُنتبه له كثيرًا ما قاله المؤرخون الغربيون والمستشرقون عن شخصية صلاح الدين وأثرها في معاصريه، وكيف أنه انتصب نموذجًا للسلطان المسلم حين ينتصر في المعركة كأقوىٰ ما يكون النصر ثم يسيل سخاء ورحمة وحلمًا في التعامل مع العدو بعد أن صاروا مهزومين

(١) ألقي هذا البحث في المؤتمر الدولي عن صلاح الدين الأيوبي، بجامعة «سعرد» (Siirt) التركية، والمنعقد بمدينة سعرد، بتاريخ ٢٣ - ٢٥ سبتمبر ٢٠١٦.

وأسرىٰ، وهو الأمر الذي بدا مناقضًا لما فعله الصليبيون حين اقتحموا بلاد الشام والقدس فأقاموا فيها مذابح تاريخية، بل ولم يفعله ملوك النصارىٰ أنفسهم تجاه رعاياهم فلقد كان صلاح الدين أرفق برعاياهم منهم.

مجالات الكتابة الاستشراقية عن صلاح الدين

لقد كتبت العديد من الدراسات الغربية عن شخصية صلاح الدين، وتعددت وجوه التناول في هذه المؤلفات:

فمنها ما أُفْرِدَ له كما ستانلي لين بول في كتابه «صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس»، وهاملتون جب في «حياة صلاح الدين»، ومالكوم ليونز وجاكسون في «صلاح الدين: سياسة الحرب المقدسة»، وتشارلز بوزلت في «صلاح الدين أمير الفروسية».

ومنها ما جاء في فصول ضمن موضوعات أخرىٰ، إما في تأريخ الحروب الصليبية كما هو المتوقع من كل مؤرخ يتعرض لهذه الفترة، أو في التأريخ لمدينة القدس كما فعلت كارين أرمسترونج في «القدس: مدينة واحدة وثلاث عقائد»، أو في التأريخ لمدينة القاهرة كما عند ستانلي لين بول في «سيرة القاهرة» وأولج فولكف في «القاهرة: مدينة ألف ليلة وليلة» وجاستون فييت في «القاهرة: مدينة الفن والتجارة».

ومنها ما جاء عرضًا ضمن استعراض تاريخ الإسلام وحضارته مثلما فعل ول ديورانت في «قصة الحضارة»، وجوستاف لوبون في «حضارة العرب»، وكارل بروكلمان في «تاريخ الشعوب الإسلامية»، ومايكل مورجان في «تاريخ ضائع»، وغيرهم.

ومنها ما جاء عرضًا في سياق مناقشة العلاقة بين الإسلام والمسيحية مثلما

فعل مكسيم رودنسون في «الصورة الغربية والدراسات العربية والإسلامية».

ومنها ما ركز عليه كنموذج لتصحيح الصورة المشوهة عن المسلمين كما فعلت زيجريد هونكه في «الله ليس كذلك»، وتوماس أرنولد في «الدعوة إلىٰ الإسلام».

وقد تعددت القراءات لهذه الشخصية، فبعضهم أنصف حتىٰ بالغ للغاية، وبعضهم حملته حقائق التاريخ علىٰ اختراع الأساطير التي تقول بأن صلاح الدين من نسل مسيحي وأنه مات علىٰ المسيحية، وما ذلك إلا لأنه لا يقبل ولا يتصور أن يكون صلاح الدين -بهذه الأخلاق- مسلمًا! وبعضهم لم تسمح نفسه بمدح صلاح الدين دون أن يطعن فيه.

هذه الورقة البحثية تلقي الضوء علىٰ هذا الجانب الذي تندر الكتابة فيه، وهي تسرد بعضا مما جاء من مدح صلاح الدين في كتابات المؤرخين الغربيين والمستشرقين كنوع من شهادة الخصوم (وشهد شاهد من أهلها)[1]، وسيبدو كيف كان تقدير المؤرخين الغربيين عظيما لصلاح الدين، حتىٰ من تعصب منهم كانت مناوراته ومحاولاته لسلب صلاح الدين من الإسلام في حد ذاتها دليلا علىٰ هذا التقدير.

السلطان المثير للإعجاب

تنوعت جوانب الإعجاب التي أثارها السلطان الناصر في نفوس المستشرقين، إلا أن تعامله مع المغلوبين حين حرر بيت المقدس وأخلاقه في الحرب مع

---

(١) ولهذا تعتمد الورقة البحثية منهج العرض والوصف دون التفسير والتحليل إلا في أحيان نادرة، وأما سياق تحليل وتفسير الرؤية الغربية لشخصية صلاح الدين فنحيل فيها إلىٰ دراسات وبحوث كلا من: كارول هيلينبراند وناصر عبد الرزاق الملا جاسم.

ريتشارد قلب الأسد كان لها نصيب الأسد من ذلك الإعجاب، وقد اخترنا من وجوه الإعجاب هذه سبعة أوجه فحسب.

١- قوة الشخصية وولاء الأتباع:

يقرر المستشرق الإنجليزي ستانلي لين بول، وهو صاحب أول سيرة واقعية كاملة غربية لصلاح الدين في نهاية دراسته عنه أن «كل قوة المسيحية المركزة في الحملة الصليبية الثالثة لم تستطع أن تهز سلطة صلاح الدين. من الممكن أن يكون جنوده قد تذمروا طوال الأشهر من الخدمة الصعبة والخطرة، سنة بعد سنة، ولكنهم لم يرفضوا أبدا طلبا له للحضور وقدموا أرواحهم في سبيل تنفيذ غايته. أتباعه في الأودية البعيدة كنهر دجلة لربما تأوهوا لطلباته الدائمة، ولكنهم قدموا خدمهم بإخلاص تحت رايته. أخيرًا في موقعة أرسوف الأخيرة أظهرت فرقة الموصل شجاعة فائقة وعظيمة. خلال جميع هذه الحملات المتعبة كان صلاح الدين دائما يعتمد علىٰ الفرق الوافدة من مصر ووادي الرافدين، كما اعتمد علىٰ فرق من شمالي وأواسط سورية من الأكراد والتركمان والعرب والمصريين، كلهم مسلمون وهم خدمه عندما يدعوهم بالرغم من الفروق في أعراقهم وغيرتهم الوطنية وفخارهم القبلي، فقد جمعهم كلهم كفريق واحد -ليس بصعوبة لكن لمرتين أو ثلاث بحساسية متشككة. بالرغم من تملص بعضهم في يافا فإنهم ظلوا جيشًا متحدًا تحت إمرته في خريف عام ١١٩٢م كما كانوا في أول مرة قادهم (في سبيل الله) عام ١١٨٧م. لم تسقط أية مقاطعة ولم يتخل رئيس ولا تابع عن الطاعة، بالرغم من متطلبات إخلاصهم وتحملهم كانت كافية لتجرب أقسىٰ الإيمان وترهق قوة العمالقة»[١].

---

(١) ستانلي لين بول، **صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس**، ترجمة: فاروق سعد أبو جابر، ط١ (القاهرة: وكالة الأهرام، ١٩٩٥م)، ص٢٨٧، ٢٨٨.

٢- الزهد والورع:

كتب المؤرخ الإنجليزي الشهير إدوارد جيبون في موسوعته الشهيرة «تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» أول صورة جميلة عن صلاح الدين في عمل علمي تاريخي غربي، فذكر في وصفه بأن «روحه الطموحة سرعان ما تخلت عن إغراءات اللذة لما هو أعظم خطرًا من الشهرة والسلطان: كانت ملابسه من الصوف الخشن، وكان الماء شرابه الوحيد، وكان في زهده مثالًا في العفة[1]، وهو في إيمانه وسلوكه مسلم صلب، وكان دائم الحزن أن انشغاله بالدفاع عن الدين حرمه من الحج إلىٰ مكة، كان محافظًا علىٰ الصلوات الخمسة يوميا، يؤديها خاشعًا مع إخوانه، وإذا نسي فلم يصم حرص علىٰ الصدقة، وكان يقرأ القرآن علىٰ صهوة الخيل عند التقاء الجيوش، وربما نقل هذا علىٰ سبيل المبالغة كدليل علىٰ التقوىٰ والشجاعة»[2].

ويذكر مؤرخ الحضارة الأمريكي ول ديورانت أن صلاح الدين «كان يعامل خدمه أرق معاملة، ويستمع بنفسه إلىٰ مطالب الشعب جميعها، وكانت قيمة المال عنده لا تزيد علىٰ قيمة التراب، ولم يترك في خزانته الخاصة بعد موته إلا دينارًا واحدًا؛ وقد ترك لابنه قبل موته بزمن قليل وصية لا تسمو فوقها أية فلسفة مسيحية»[3].

ويفسر المستشرق الإنجليزي هاملتون جب إنجاز صلاح الدين بهذا الزهد، يقول: «لم يحقق هذا الأمر عن طريق القدوة التي تجلت في شجاعته

---

(١) تقول العبارة الأصلية «أنه في زهده أكثر عفة من نبيه ﷺ» فآثرنا أن نستبدل بهذه المبالغة السفيهة الحمقاء ما أثبتناه في المتن.

(2) Edward Gibbon, **The History of the Decline and Fall of the Roman Empire**, (New York, J. & J. Harper, 1826), Vol 6, pp 25, 26.

(٣) ول ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة: مجموعة، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠٠١م)، ١٥/ ٤٤، ٤٥.

وعزمه الذاتيين -وهما من سجاياه التي لا سبيل إلىٰ نكرانها- بقدر ما حققه من خلال نكرانه للذات وتواضعه وكرمهن ودفاعه المعنوي عن الإسلام ضد أعدائه وضد من ينتمون إليه في الظاهر فحسب، علىٰ حد سواء. ولم يكن صلاح الدين رجلًا ساذجًا لكنه، مع ذلك، كان غاية في البساطة ورجلًا نزيها لدرجة الشفافية. لقد أوقع أعداءه، الداخليين والخارجيين، في حيرة من أمره، لأنهم توقعوا أن يجدوا الحوافز التي تحركه علىٰ غرار حوافزهم، وتوسموا فيه أن يمارس اللعبة السياسية علىٰ طريقتهم هم. كان بريئًا كل البراءة»[(١)].

٣- حسن السياسة واتساع النفوذ:

لما أرخ أولج فولكف للقاهرة جاء علىٰ ذكر صلاح الدين، فوصفه بهذه الكلمات: «كان سياسيًا محنكا ذو رأي صائب. وتمتع بمقدرة علىٰ انتقاد مستشاريه والإصغاء إليهم، وهي مقدرة هامة لأي ملك، كما تميز بالصدق في وسط كانت تسممه الخديعة، وبالتسامح إلا فيما يتعلق بسيادة العقيدة. وقد خاض غمار الحروب طيلة حياته رغم رقة بنيته. واتصفت أخلاقه بالشهامة والفروسية وكانت تملؤه روح العطف والحب مما أثر في أفكاره وأفعاله. كان دؤوبًا علىٰ عمله، بسيطًا في حياته، عميقا في إيمانه حتىٰ مثَّل بحق الصورة المثالية لفارس عربي»[(٢)].

وقد أثمر هذا كله -كما يقول المستشرق الألماني الشهير كارل بروكلمان- أن «وُفِّق صلاح الدين بعزيمته الراسخة وموهبته الدبلوماسية النادرة إلىٰ أن يثب من غمرة هذا الوضع الحرج الدقيق إلىٰ قمة من القوة والسلطان لم ينته إلىٰ

---

(١) هاملتون جب، **صلاح الدين الأيوبي**، تحرير: د. يوسف ايبش، ط٢ (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ١٩٩٦م)، ص١٩١، ١٩٢.

(٢) أولج فولكف، **القاهرة: مدينة ألف ليلة وليلة**، ترجمة: أحمد صليحة، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٦م)، ص٨٠.

مثلها أحد من أمراء الإسلام منذ عهد طويل»[(١)].

هذه القمة من القوة يصفها ستانلي لين بول في قوله: «لقد تجمعت كل قوىٰ العالم المسيحي في الحرب الصليبية الثالثة، ولكنها لم تستطع أن تنال من قوة صلاح الدين وسلطانه، ولما انتهت حروب السنوات الخمس وخفت محنها ومصائبها لم يكن لصلاح الدين منافس يحكم الأقطار التي تقع بين جبال كردستان وصحراء ليبيا. وكان ملك جورجيا وكاثوليك أرمينيا وسلطان قونية وإمبراطور القسطنطينية -وكلهم وراء الحدود- يخطبون وده ويتوقون إلىٰ محالفته»، ولهذا وصفه بأنه «بطل الإسلام العظيم» وأن ما فعله «جعل اسم صلاح الدين يتردد علىٰ كل لسان حتىٰ في أوروبا نفسها»[(٢)].

٤- التسامح الديني:

يسوق توماس أرنولد عصر صلاح الدين وخلفائه كدليل علىٰ ما تمتع به النصارىٰ من تسامح في البلاد الإسلامية، يقول: «في عهد صلاح الدين الأيوبي في مصر تمتع المسيحيون بالسعادة إلىٰ حد كبير في ظل ذلك الحاكم، الذي عرف بالتسامح الديني، فقد خففت الضرائب التي كانت فرضت عليهم، وزال بعضها جملة، وملئوا الوظائف العامة؛ كوزراء، وكتاب، وصيارفة. وفي عهد خلفاء صلاح الدين نعموا بمثل هذا التسامح والرعاية قرابة قرن من الزمان، ولم يكن هناك ما يشكون منه إلا ما اتصف به كهنتهم أنفسهم من الفساد والانحطاط، فقد فشت السيمونية بينهم، فبيعت مناصب القسيسين الذين

---

(١) كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط٥ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨م)، ص٣٥٢.

(٢) ستانلي لين بول، **سيرة القاهرة**، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، ط٢ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، بدون تاريخ)، ص١٥٨، ١٥٩؛ ستانلي لين بول، **صلاح الدين**، مرجع سابق، ص٢٨٨.

اتصفوا بالجهل والرذيلة، علىٰ حين حيل بين الذين طلبوا التعيين وبين هذا المنصب المقدس؛ بعجزهم عن أداء الأموال المطلوبة في احتقار وازدراء، مع أنهم كانوا الجديرين بشغل هذا المنصب»(١).

٥- رعاية العلم والعلماء:

لقد سبق تحرير صلاح الدين لبيت المقدس تحريره لمصر من الحكم العبيدي (الفاطمي) الباطني، كان تحرير بيت المقدس بالسيف والسنان وكان تحرير مصر بالعلم والبيان واللسان، ولهذا فقد أثار صلاح الدين نشاطًا علميًا وتعليميًا واسعًا في مصر للقضاء علىٰ الفكر الإسماعيلي الباطني.

يقول كارل بروكلمان: «لم يستطع أعداؤه أنفسهم إلا الإقرار لهم بالشهامة والنبل في معاملة الخصم المغلوب. ليس هذا فحسب، فقد كان صلاح الدين بالإضافة إلىٰ ذلك كله نصيرًا للعلم، ولقد وُفِّق إلىٰ نفر من العلماء حفظوا جميله له»(٢)، وذكر منهم ابن العماد الأصفهاني الذي سجل وقائع تحرير بيت المقدس، وابن شداد قاضي الجيش الذي سجل سيرة حياته، والقاضي الفاضل الذي نهض بعبء الإدارة.

ويقول المستشرق الأمريكي لبناني الأصل فيليب حتي في كتابه الموجز عن تاريخ العرب: «لم يكن صلاح الدين بطلًا وحاميًا للسنة فقط بل كان منشطًا للعلم والعلماء مشجعًا للدراسات الدينية ومصلحًا اجتماعيًا واقتصاديًا، فلقد أنشأ المدارس والمساجد وابتنىٰ السدود واحتفر الأقنية... وصلاح الدين عند العرب في مصاف هارون الرشيد وبيبرس وفي مقدمة من تهواهم مخيلات الشعب عامته وخاصته إلىٰ يومنا هذا. أما في أووربا فلقد أطنب في ذكراه

---

(١) توماس أرنولد، **الدعوة إلىٰ الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية**، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م)، ص١٢٨، ١٢٩.

(٢) كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، مرجع سابق، ص٣٥٨.

المنشدون في العصور الوسطىٰ وحاكاهم في ذلك الروائيون العصريون. وهو لا يرزال يعتبر حتىٰ اليوم مثال الفروسية الكاملة»[١].

٦- الإدارة والعمران:

يشهد مؤرخ القاهرة المستشرق الفرنسي جاستون فييت أن القاهرة لم يبدأ مجدها إلا بصلاح الدين، يقول: «كانت مدينة ابن طولون [القطائع] مسكنًا للأمير؛ ويمكن إطلاق هذا التعبير ذاته علىٰ قاهرة الفاطميين. ولم يصبح لمصر عاصمة حقيقية إلا بوصول صلاح الدين. فمجد القاهرة -دون التقليل من عمل الفاطميين- يبدأ من عصر الأيوبيين»، ويضيف: «ما زالت القلعة شاهدا علىٰ عظمة عصر صلاح الدين، رغم أن السلطان لم يسكنها أبدًا. وهي تقدم دليلًا ملموسًا علىٰ شخصية فذة، ورجل سابق لزمانه، وأرقىٰ من معاصريه، سواء في ذلك إخوانه في الدين أو أعداؤه، الذين رأوا فيه إنسانا يغلب عليه الاعتدال وشعور الولاء، مبرأ تمامًا من الأنانية والدوافع الشخصية -وبعبارة مختصرة- رجلًا فذا»[٢].

وما قاله جاستون فييت مختصرًا، فصَّل فيه ستانلي لين بول الذي قرر أن صلاح الدين كان أكثر عمارة في مصر والقاهرة من كافة الحكام الذين سبقوه، يقول: «وعلىٰ الرغم من أن مدة إقامة صلاح الدين الأيوبي لم تطل في القاهرة، لم يترك أحد ممن سبقوه من الحكام فيها مثل ما خلف من الآثار الخالدة. فإليه يرجع الفضل في اتساع الحاضرة، وتنسيق هندستها التي كانت تفخر بها إلىٰ عهد قريب؛ فالقلعة وهي أبرز معالمها من إنشائه، والمدرسة التي بناها هي أكثر عمائرها ذيوعًا وشهرة، وكل هذه التغييرات تمت بفضل توجيهاته. ولما غادر

---

(١) فيليب حتي، **العرب تاريخ موجز**، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩١م)، ص٢٤٣.

(٢) جاستون فييت، **القاهرة: مدينة الفن والتجارة**، ترجمة: د. مصطفىٰ العبادي، (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٦٨م)، ص٧٦، ٧٧.

صلاح الدين القاهرة بعد أن مكث فيها ثماني سنوات، ظل يبعث في طلب إمدادات منها بمعاونته في حروبه السنوية، وقد ترك بها من القواد والأقارب من قام بإتمام ما بدأه من أعمال، كان بعضها من أجل الدفاع عن البلاد وبعضها في سبيل الدين. فأما الأعمال الدفاعية، فقد تجلت في إنشاء القلعة والسور وجسر النيل، وكلها من الأعمال المستحدثة التي لم يسبقه إليها أحد، إذ أن الحكام الذين جاءوا قبله جعلوا هدفهم بناء مبان حكومية أو ضواح ملكية، كل يبعد عن سابقه نحو نصف ميل إلىٰ الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، حتىٰ إن القاهرة الفاطمية نفسها لم تكن تشمل سوىٰ قصور الخلفاء والموظفين ولم تكن حاضرة للبلاد المصرية. أما صلاح الدين فكان أول من وضع بإحكام تصميم شامل لحاضرة عظيمة، إذ أنه بدلا من أن يحذو حذو من سبقوه من الحكام ويقيم ضاحية جديدة كما أقام أسلافه، عقد العزم علىٰ توحيد جميع الأحياء الآهلة بالسكان وإحاطتها بسور عظيم وتتويجها بقلعة منيعة»[١].

٧- أخلاق الفرسان:

أما أخلاق الفرسان التي تحلىٰ بها صلاح الدين فهي التي بلغت بها شهرته الكبرىٰ ووضعته في ذلك المحل الأرفع، وأثارت حوله الأساطير والخرافات في الآداب الأوروبية، يقول الباحث الأمريكي مايكل مورجان: «فترة الاضطراب هذه سوف تساعد علىٰ ظهور قائد مسلم، وهو رجل شديد التدين لن يتمتع بفكر مثل هارون الرشيد والمأمون، ولا الحاكم في القاهرة، أو عبد الرحمن الثالث [الناصر] في قرطبة، إلا أنه سيجسد نوعا من شرف الفروسية الإسلامية سيكون مثار انبهار الأوربيين، بل وسيدفعهم نبله هذا إلىٰ العديد من المواقف المحرجة، فما كان منهم إلا التماس أن السبب وراء أخلاقه الرفيعة والكريمة ما هو إلا لأن لديه دماء أوربية تجري في عروقه، هذا الرجل هو صلاح الدين، ومثل هارون

---

(١) ستانلي لين بول، **سيرة القاهرة**، مرجع سابق، ص١٥٩.

الرشيد، تجد القصص التي تحيط به لها طابع رومانسي وأسطوري، لكن رقيه الأساسي وحكمه الإنساني في الأمور المستفزة هو حقيقي ويقتدىٰ به»(١).

لقد مثلت أخلاق صلاح الدين مثالا عاليا ونموذجا فارقا حوكمت إليه أخلاق الفرسان العرب والأوروبيين علىٰ نحو سواء في كل زمن الحروب الصليبية. يقول ول ديورانت: «لقد أجمعت الآراء علىٰ أن صلاح الدين كان أنبل من اشترك في الحروب الصليبية»(٢).

ولهذا يسوق المؤرخون الغربيون مشهده بعد تحريره القدس فيتفننون في وصفه علىٰ هذا النحو:

١- يقول الكولونيل البريطاني الذي اتجه في نهاية عمره لدراسة الإسلام وتأثر بالمسلمين وأعجب بأسلوب حياتهم وقيمهم، يقول واصفا هذا المشهد: «لما غزا الصليبيون الأرض المقدسة سنة (١٠٩٩م)، خلفوا وراءهم في كل مكان الموت والدمار، بيد أنه لما رد صلاح الدين الصليبيين علىٰ أعقابهم، لم يلجأ إلىٰ وسائل الانتقام، ولم يخرب المسلمون الأماكن التي فتحوها، كما فعل المقاتلون الدينيون السابقون لهم من الممالك الأخرىٰ، فأينما وضعوا أرجلهم نشأ شيء جديد أسمىٰ وأفضل مما كان قبلا»(٣).

٢- ويقول المستشرق الفرنسي المشهور جوستاف لوبون: «لم يشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش، فيبيد النصارىٰ عن بكرة أبيهم؛ فقد اكتفىٰ بفرض جزية طفيفة

---

(١) مايكل ه مورجان، **تاريخ ضائع: التراث الخالد لعلماء الإسلام ومفكريه وفنانيه**، ترجمة: أميرة نبيه بدوي، ط٣ (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ٢٠٠٨م)، ص٢٦٨.

(٢) ول ديورانت، **قصة الحضارة**، مرجع سابق، ١٣/ ١٤١.

(٣) رونالد ف بودلي، **الرسول: حياة محمد**، ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، (القاهرة: مكتبة مصر، بدون تاريخ)، ص١٤٧.

عليهم مانعًا سلب شيء منهم»[1].

٣- وتقول المستشرقة الألمانية المعروفة زيجريد هونكه: «حين تمكن صلاح الدين الأيوبي من استرداد بيت المقدس (٥٨٣هـ = ١١٨٧م) -التي كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل (٤٩٢هـ = ١٠٩٩م) بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبحة لا تدانيها مذبحة وحشية وقسوة- فإنه لم يسفك دم سكانها من النصارىٰ انتقاما لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته، وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضاربا المثل في التخلق بروح الفروسية العالية، وعلىٰ العكس من المسلمين، لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزام خلقي تجاه كلمة الشرف أو الأسرىٰ»[2].

٤- ويقول «إن الصليبيين ادعوا أن العرب المسلمين المشارقة كانوا قساة متوحشين في جوهرهم علىٰ نحو لا مثيل له، حتىٰ علىٰ الرغم من أن المجازر الرهيبة التي ارتكبت في القدس والقسطنطينية وجزيرة قبرص، ما فتئت تشكل نقيضا صارخا لتاريخ الفتوحات الإسلامية في تلك الحقبة. فقبل أربعمائة سنة من إغراق الصليبيين القدس في الدماء، لم يأمر الخليفة عمر بقتل أحد عندما تولىٰ أمر المدينة... وفي وقت لاحق، عندما استرد القائد الإسلامي الشهير صلاح الدين القدس من الصليبيين في عام ١١٨٧، اقتدىٰ بعمر وحذا حذوه، فلم يكتف بالسماح للبطريرك المسيحي بمغادرة المدينة مع أتباعه، بل سمح لهم إلىٰ ذلك بحمل ثرواتهم معهم»[3].

---

(١) جوستاف لوبون، **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م)، ص٣٢٩.

(٢) زيجريد هونكه، **الله ليس كذلك**، ترجمة د. غريب محمد غريب، ط٢ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٦م)، ص٣٤.

(٣) جون فيفر، **الحرب الصليبية الثانية: حرب الغرب المستعرة مجددًا ضد الإسلام**، ترجمة: محمد هيثم نشواتي، (الدوحة: منتدىٰ العلاقات العربية والدولية، ٢٠١٥م)، ص٤٣.

وقد آتت أخلاق صلاح الدين ثمارها في حياته منذ وقت مبكر، يرصدها المستشرق الإنجليزي الكبير توماس أرنولد في قوله: «يظهر أن أخلاق صلاح الدين الأيوبي وحياته التي انطوت علىٰ البطولة، قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيرا سحريا خاصا، حتىٰ إن نفرا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية، وهجروا قومهم وانضموا إلىٰ المسلمين»[1].

وقد شهد وليم الصوري -رئيس أساقفة صور وهو معاصر لزمن صلاح الدين- أنه كان «رجلًا حاد الذكاء نشيطًا وشجاعًا في الحرب وفي غاية الشهامة والكرم»[2]. وفي الحقيقة إن رواية الصوري حافلة بالأخطاء عما يقع بالجانب الإسلامي، ولكنه برغم هذا فإن وصفه لصلاح الدين دليل علىٰ ما تمتع به السلطان من سمعة رفيعة.

مدحٌ وذمٌّ

لقد سلك بعض الغربيين مسلكًا غير نزيه في إثبات فروسية صلاح الدين، فمنهم من سلبه مكانته العسكرية ليعترف له بنبل أخلاقه كما فعل المؤرخ الصهيوني يوشع براور، والذي يكتب في تاريخ الصليبيين بغرض تمهيد الواقع للصهاينة في فلسطين[3]، فلقد بخل عن وصف صلاح الدين في الجانب العسكري قبل أن يعترف مضطرًا بأخلاقه وبعبارة يبدو فيها الضيق، يقول: «كان صلاح الدين بطل التاريخ الإسلامي زعيمًا وقائدًا عسكريًا متوسط القيمة، كما

---

(١) توماس أرنولد، **الدعوة إلىٰ الإسلام**، مرجع سابق، ص١١١.

(٢) وليم الصوري، **تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار**، ضمن: سهيل زكار، **الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية**، (دمشق: دار الفكر، ١٩٩٥م)، ٧/ ٣٢٧.

(٣) انظر: مقدمة د. قاسم عبده قاسم للكتاب.

كان رجل دولة موهوبًا، كريمًا مع الصديق والعدو محبًا للغير يبعث عن الثقة. وكان صلاح الدين يجسد الأخلاق الإسلامية في عيون المسلمين، فهو الزعيم المثالي للحرب المقدسة ضد الكفار»(١).

ومنهم من جعله استثناءً وحيدًا فدخل إلىٰ مدحه عبر باب ذم الآخرين من قومه وأهله ومحيطه، فمن أولئك تشارلز روزبولت الذي كتب كتابًا عن صلاح الدين فوضع له عنوان «صلاح الدين أمير الفروسية»، قال في مطلعه «طبقًا لجميع نظريات الوراثة والبيئة كان ينبغي لصلاح الدين الكردي أن يكون قاسيًا بلا رحمة، جشعا لا يبالي بغيره، طاغية متعجرف تتحكم فيه نزواته. لقد كان القوم الذين نشأ فيهم غارقين في البداوة، مقاتلين، لصوص، يحتقرون الحضارة التي تبدو عند جيرانهم الأقل بدائية، كان حكم السيف عندهم هو الحق الذي لا جدال فيه، ولا اعتبار لأي حق غير السيف...» ثم عدَّد هذا ليقول في نهاية الأمر «كان صلاح الدين فارس كل العصور، مثالي الأخلاق، مثالي السلوك، عظيم السخاء، بالغ الدماثة»(٢).

ومنهم من خلط مدحًا بذم، لكن ذمه المتكلف المتعسف المجانب للحقيقة لم يُخف مخايل العظمة الواضحة، وأوضح مثال علىٰ هذا ما وجدناه عند ستيفن رنسيمان في تأريخه للحروب الصليبية، إذ يقول: «يعتبر صلاح الدين من بين كبار رجال فترة الحروب الصليبية أكثرهم جاذبية. ولم يتجرد من الأخطاء، ففي سبيل الوصول إلىٰ السلطة أظهر من المكر والقسوة ما لا يتلاءم مع ما حصل عليه من شهرة وصيت فيما بعد. لم يتردد في سفك الدماء لصالح

---

(١) يوشع براور، **عالم الصليبيين**، ترجمة وتقديم وتعقيب: د. قاسم عبده قاسم ود. محمد خليفة حسن، ط١ (الجيزة: عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٩م)، ص٥٩.

(2) Charles J Rosebault, **Saladin prince of chivalry**, (New York: Robert M. McBride & Company MCMXXX, 1930), pp xi, xii

سياسته، فأجهز بيده علىٰ رينالد شاتيون الذي كان يبغضه[١]، غير أنه لم يحمله علىٰ القسوة إلا مصلحة قومه ودينه. كان شديد التقوىٰ، وبرغم ما أحس به من الرحمة والعطف نحو أصدقائه المسيحيين، فإنه اعتقد أن أرواحهم مصيرها جهنم. ومع ذلك احترم أساليبهم، واعتبرهم رفاقًا، واختلف عن ملوك الصليبيين في أنه لم ينقض عهده متىٰ بذل العهد لأحدهم، مهما اختلف عنه في الدين. وبرغم حماسه الديني الشديد، كان دمثًا سخيًا، وباعتباره غازيًا وقاضيًا اشتهر بالرحمة، وباعتباره سيدًا كان متسامحًا شديد التعقل والرزانة، ومع أن بعض أمرائه نفروا منه لأنه كردي محدث النعمة، ومع أن الدعاة في غرب أوروبا نعتوه بأنه المسيخ الدجال، فما من أحد من رعاياه لم يكن له الاحترام ويشتد تعلقا به، كما أن إعجاب أعدائه به لم يشذ عنه إلا عدد ضئيل. كان ضئيل الجسم، وفي حالة هدوئه وسكونه كست وجهه مسحة من العبوس، غير أنه لا يلبث أن يفتر ثغره عن ابتسامة عذبة، واشتهر دائما بالميل إلىٰ البساطة، يكره الخشونة والتظاهر. أحب الهواء الطلق وهوىٰ الصيد، علىٰ أنه كان محبا للاطلاع، ويجد متعة في المناقشات العقلية، علىٰ الرغم من تخوف المفكرين الأحرار وارتياعهم منه[٢]. اشتهر صلاح الدين بالتواضع والهدوء برغم ما بلغه من سلطان وما حازه من انتصارات»[٣].

---

(١) من حسن الحظ أنه ضرب المثال هنا بهذه الواقعة، فذلك يكشف تجنيه علىٰ الحقيقة، فرينالد المذكور هو ذلك الدموي الخائن الغادر الذي خرق الهدنة وقتل الحجاج وأقسم صلاح الدين علىٰ قتله إن ظفر به، ولما وقع أسيرا لم يؤمنه صلاح الدين.. فمثل هذا كيف يعتبر قتله سفكا للدماء أو لمجرد غرض شخصي هو البغض؟!

(٢) رغم أننا آثرنا ألا نعلق علىٰ ذمه، إلا أن بعض الإطلاقات المستفزة تغلبنا، وكنا نود لو ضرب أيضا مثالًا هنا بالمفكرين الأحرار لينكشف تجنيه علىٰ الحقيقة.

(٣) ستيفن رنسيمان، **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة: د. السيد الباز العريني، (بيروت: دار الثقافة، ١٩٩٧م)، ٣/ ١٤٨.

وبالمجمل، فكما تقول المستشرقة الألمانية المختصة في تاريخ الحروب الصليبية كارولين هيلينبراند، «لم يحدث أن تعلقت مخيلة الأوروبيين بشخص مسلم قدر تعلقها بـ(صلاح الدين). إن تفوقه علىٰ معاصريه، من مسلمين ونصارىٰ، أقر به أعداؤه الصليبيون، إبان حياته. وإن صورته، حتىٰ في ظل التعصب الأعمىٰ للعصور الوسطىٰ، قد بقيت نقية، لا بل أضفي عليها عناصر رومانسية، في وقت كان فيه موقف أوروبا من الإسلام مزيجًا مؤسفًا من الجهل والعداء»(١).

أساطير الغربيين عن صلاح الدين

يقول ول ديورانت: «كان صلاح الدين مستمسكًا بدينه إلىٰ أبعد حد، وأجاز لنفسه [في الحرب] أن يقسو أشد القسوة علىٰ فرسان المعبد والمستشفىٰ(٢)، ولكنه كان في العادة شفيقًا علىٰ الضعفاء، رحيمًا بالمغلوبين، يسمو علىٰ أعدائه في وفائه بوعده سموا جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق الدين الإسلامي -«الخاطئ» في ظنهم- رجلًا يصل في العظمة إلىٰ هذا الحد»(٣).

تشرح الباحثة البريطانية في مقارنة الأديان كارين أرمسترونج ذلك بقولها: «وَعَي المسيحيون في الغرب بقدر من عدم الارتياح أن ذلك الحاكم المسلم قد سلك مسلكا يتوافق مع المبادئ المسيحية بخلاف مسلك محاربيهم الصليبيين

---

(١) كارول هيلينبراند، **تطور أسطورة صلاح الدين في الغرب**، ترجمة وتعليق: ناصر عبد الرزاق الملا جاسم، مجلة الحوار (إربيل، يناير ٢٠١٥م).

(٢) فرسان المعبد وفرسان المستشفىٰ هي كتائب مسيحية تابعة للكنيسة مباشرة، وكانت من أعنف وأشرس الكتائب في حربها علىٰ المسلمين.

(٣) ول ديورانت، **قصة الحضارة**، مرجع سابق، ١٥/ ٤٤، ٤٥.

لدىٰ فتحهم أورشليم. وهكذا خرجوا بأساطير جعلت من صلاح الدين «مسيحيًا شرفيًا»، حتىٰ إن بعض تلك الأساطير قالت بأنه كان قد تم تعميد صلاح الدين في السر»[١].

ويختصر المستشرق الفرنسي الشهير مكسيم رودنسون هذه الأساطير في قوله: «أثار العدو الأكبر صلاح الدين إعجابًا واسع الانتشار بين الغربيين؛ فقد شن الحرب بإنسانية وفروسية، برغم قلة من بادلوه هذه المواقف... ووصل الأمر إلىٰ حد أنه ظهرت في القرن الرابع عشر قصيدة طويلة جرىٰ العرف علىٰ تسميتها «صلاح الدين» وأعيدت فيها صياغة حوادث الأساطير القديمة، وذلك لأن فارسا من هذا الطراز الرفيع يجب بالضرورة أن يصبح منتميًا إلىٰ الأسرة المسيحية، وهكذا قيل إن أمه هي الكونتيسة بونثيو التي تحطمت سفينتها علىٰ الساحل المصري، وأنه هو نفسه اعتنق المسيحية وهو علىٰ فراش الموت»[٢].

وتفصيل هذه الرواية توردها المستشرقة كارول هيلينبراند في بحثها «تطور أسطورة صلاح الدين في الغرب»، وفيه تذكر أن كتابًا مجهول المؤلف يرجع إلىٰ القرن الثالث عشر ومكتوبا بالفرنسية القديمة عنوانه «تاريخ ما وراء البحار وأصل صلاح الدين» يذكر أن صلاح الدين «كان باسلًا جدًا وحكيمًا»، وأنه سليل عائلة بونثيو الفرنسية النبيلة، وأن صلاح الدين طلب من سجينه هيو الذي كان يحكم طبرية أن يعلمه «كيف يصبح فارسًا مسيحيًا، كما أنه لما أحس بقرب أجله أرسل إلىٰ خليفة بغداد وبطريرك القدس وحكيم اليهود كي يرسل كل منهم إليه ممثلا عن دينه، ثم أمرهم بمناظرة بعضهم ليصل إلىٰ «أي من هذه

(١) كارين أرمسترونج، **القدس: مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ترجمة: د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، (القاهرة: سطور، ١٩٩٨م)، ص٤٨٢.

(٢) مكسيم رودنسون، **الصورة الغربية والدراسات العربية والإسلامية**، ضمن «**تراث الإسلام**» بإشراف شاخت وبوزوروث، ترجمة د. محمد زهير السمهوري وآخرين، سلسلة عالم المعرفة ٨ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٥م)، ١/ ٤١، ٤٢.

الديانات هو الأفضل»، ولما انتهت المناظرة لم يقرر أي دين يختار لكنه قسم مملكته إلىٰ ثلاثة أقسام، وأعطىٰ الأفضل للمسيحيين، والثاني للمسلمين، والثالث لليهود. كذلك ظهرت رواية عن صلاح الدين في مجموعة ديكاميرون -وهي مجموعة أدبية ظهرت في منتصف القرن الرابع عشر- تروي أن صلاح الدين سأل اليهودي الذي كان يستدين منه أحيانا: أي الأديان أفضل اليهودية أم المسيحية أم الإسلام؟ ولما أجابه إجابة حكيمة أعطاه هدايا نفسية جدًا، وأبقاه في مركز مرموق ومشرف، وجعله من المقربين(١).

من تلك الأساطير أيضًا ما جاء في مجموعة ديكاميرون، فثمة قصة تروي كيف «أن الأمير الأكثر بسالة، (صلاح الدين)»، تنقل برفقة بعض قادته وخدمه، متنكرًا في زي تاجر قبرصي علىٰ طريق (لومبارديا)، والتقىٰ هناك برجل يدعىٰ (توريللو)، الذي يستضيفه بحفاوة بالغة، علىٰ مدىٰ عدة أيام. ولم يكن الحوار بينهم يمثل مشكلة، لطالما أن «(صلاح الدين) ورفاقه وخدمه يعلمون جميعًا اللاتينية». لقد صوروا بوصفهم سادة بالغي التهذيب: في الواقع، يصيح توريللو: أرجو من الله أن تنجب بلادنا سادة نبلاء علىٰ شاكلة ما أراه في تجار قبرص. ويذهب (توريللو)، في وقت لاحق، إلىٰ الأراضي المقدسة، للمشاركة في الحملة الصليبية، لكنه يقع في الأسر، ويُجلب إلىٰ (الاسكندرية)، فيجعله (صلاح الدين) مدربًا لصقوره، ثم يتعرف عليه فعلًا، ثم يُعرف نفسه لـ(توريللو)، ويعامله بأبلغ درجات التكريم. وأخيرًا يتم نقل (توريللو) إلىٰ (لومبارديا)، حيث يقر لـ(صلاح الدين) الأيوبي بالصداقة والتبعية. وهكذا فإن الصورة التي يقدمها (بوكاتشيو) عن (صلاح الدين) تبني علىٰ شهرته الثابتة، بوصفه بطلًا للفروسية، ونموذجًا للتسامح الديني(٢).

---

(١) كارول هيلينبراند، **تطور أسطورة صلاح الدين في الغرب**، مرجع سابق.

(٢) كارول هيلينبراند، **تطور أسطورة صلاح الدين في الغرب**، مرجع سابق

وقد ترجم دانتي هذه الصورة الأوروبية في ملحمته الأدبية «الكوميديا الإلهية»، إذ وضع صلاح الدين في الحلقة الأولىٰ من الجحيم، بين فضلاء الوثنية وأبطالها في الماضي الغابر كسقراط وأفلاطون وأقليدس وجالينوس. كما تمتع صلاح الدين بقرب اثنين من عظماء الفلاسفة المسلمين: ابن سينا وابن رشد. وبعزل دانتي لصلاح الدين قليلًا، فإنه كما يبدو أراد أن يخصه بعناية خاصة واستحسان: ومنعزلًا علىٰ جانب، إن إدراج صلاح الدين ضمن هذه الجماعة، يدل علىٰ ثبات شهرته بالفضائل في أوروبا القرن الرابع عشر، علىٰ الرغم من انتشار الأحكام المسبقة المعادية للمسلمين بين المسيحيين في العصور الوسطىٰ[1].

ومن المؤسف أن آثار بعض هذه الأساطير موجودة حتىٰ اليوم في دراسات يُفترض فيها العلمية والتحرر من هذه الخرافات؛ فمن ذلك كتاب فرنسي صدر عام ٢٠٠٥، يذكر مؤلفاه أن «صلاح الدين كان قد درس في مدارس مسيحية»[2].

خاتمة

لا ريب أننا لسنا في حاجة إلىٰ شهادة غير المسلمين علىٰ عظمة صلاح الدين، كما أن شهادة الغربيين لمسلم ليست قولا فصلا ترفعه أو تخفضه، ولكن شهد التاريخ والواقع أن شهادة الخصم حجة بالغة، وقد ذكر القرآن تبرئة ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف:٢٦]، وجرىٰ في كلام العرب: «الفضل ما شهدت به الأعداء».

كذلك فإن العمل الصالح لا يجازي عنه بالعدل إلا الله، ولا يجوز أن

(١) نفس المرجع.

(٢) جان كلود بارو وغيوم بيغو، **التاريخ الكامل للعالم: منذ ما قبل التاريخ إلىٰ يومنا هذا**، (بيروت ودبي: الفارابي ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، ٢٠٠٨م)، ص١٠٨.

يُبذل إلا ابتغاء مرضاته، إلا أن من عاجل ثواب العمل الصالح حسن الذكر في الدنيا، وقد دعا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء:٨٤]، وقال شاعر العرب الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

وهكذا كانت أخلاق صلاح الدين لسان صدق له في الآخرين، يرويها المسلمون وغير المسلمين، فيهدي بها الله أقواما ويضل آخرين، والله علىٰ كل شيء قدير.

الأندلس المفقود .. ترى كيف كان؟

اسم الأندلس ذو شجو عميق في النفس المسلمة، وهو ذو شجو أكثر عمقا وأقرا في نفوس الباحثين في التاريخ، حتىٰ لقد عُرِف الباحثون المسلمون في تاريخ الأندلس بأنهم من هواة البكاء علىٰ الأطلال كما قال الأستاذ الإسباني لتلميذه المصري حسين مؤنس قبل نحو ثلاثة أرباع قرن[١].

ولكي نؤكد أن ضياع الأندلس هو فجيعة إنسانية قبل أن تكون فجيعة مسلمة، اخترنا أن نلتقط ملامح سريعة لصورة الأندلس كما وصفها الباحثون الغربيون، بما يناسب مقالًا سريعًا.

السياسة والحضارة

١- الفيلسوف الفرنسي الكبير جوستاف لوبون:

«أتمَّ العرب فتح إسبانيا بسرعة مدهشة؛ وذلك أن المدن الكبيرة سارعت إلىٰ فتح أبوابها للغزاة، فدخل الغزاة قرطبة ومالَقة وغرناطة وطُلَيْطِلة صلحًا تقريبًا ... وأحسن العربُ سياسةَ سكان إسبانيا، كما أحسنوا سياسة أهل سوريا ومصر، فقد تركوا لهم أموالهم، وكنائسهم، وقوانينهم، وحقَّ المقاضاة إلىٰ قضاة منهم، ولم يَفْرِضوا عليهم سوىٰ جزية سنوية تبلغ دينارًا عن كلِّ شريف ونصف دينار عن كل مملوك، فَرَضِيَ سكان إسبانيا بذلك طائعين، وخضعوا للعرب من غير مقاومة»[٢].

---

(١) نشر هذا المقال بتاريخ ٢ يناير ٢٠١٣م.

(٢) جوستاف لوبون، **حضارة العرب** ص٢٦٦.

٢- الباحث الإسباني بدرو شلميطا:

«لقد كانت الأندلس بالنسبة إلىٰ سكان الممالك النصرانية الشاملة من شبه الجزيرة الأيبيرية قطعة من الجنة وأرض المعاد»(١).

٣- جوستاف لوبون:

«لم يَكَدِ العرب يُتِمُّونَ فتح إسبانيا حتىٰ بدءوا يقومون برسالة الحضارة فيها؛ فاستطاعوا في أقلَّ من قرن أن يُحْيُوا مَيت الأرضين، ويُعَمِّرُوا خراب المدن، ويُقيموا فخم المباني، ويُوَطِّدُوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرىٰ، ثم شرعوا يتفرَّغون لدراسة العلوم والآداب، ويُتَرْجِمون كتب اليونان واللاتين، ويُنْشِئُون الجامعات التي ظَلَّتْ وحدها ملجًا للثقافة في أوربا زمنًا طويلًا»(٢)، هكذا قال الفرنسي جوستاف لوبون.

٤- الباحثة الإسبانية مارجريتا جوميز:

«أعطىٰ الإسلام -الذي كان قد خلق توافقًا واندماجًا بين حضارتين متضادتين باستناده علىٰ فكره الكوني (العالمي)، وَصِفَةِ التسامح لمفهومه الديني، وباعتماده علىٰ قدرته الهائلة في التمثل والإبداع، وميله المتميز إلىٰ التجريب والاختبار- ثمارًا عظيمة في بلاد الأندلس، التي شهدت أهم اندماج عرقي وحضاري بين الشرق والغرب، وكانت قرطبة في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي -أيام خلافتي عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني- عاصمة

---

(١) بدرو شلميطا، **صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي**، منشور في «الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس» بإشراف: سلمىٰ الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية - بيروت، لبنان، ١٩٩٩م. ٢/ ١٠٦٠.

(٢) جوستاف لوبون: **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م. ص٢٧٣.

الإسلام السياسية الأكثر سطوعًا في ذلك الوقت، والأكثر تحضرًا في أوربا»[(١)].

٥- المستشرق الأمريكي -لبناني الأصل- فيليب حتي:

«سطرت الأندلس فصلًا رائعًا في التاريخ الفكري للعصور الوسطىٰ الأوربية، فبين منتصف القرن الثامن ومطلع القرن الثالث عشر -حسبما تَقَدَّم- كانت الشعوب العربية اللسان في مُقَدِّمة من حمل مشعال الثقافة والمدنية في العالم قاطبة، وبواسطة جهود هذه الشعوب -أيضًا- تسنَّىٰ لعلوم الأقدمين وفلسفتهم أن تعود إلىٰ أوربا مشروحة ومضافًا إليها، فسَهَّل هذا السبيل لنشوء عصر النهضة في أوربا الغربية»[(٢)].

٦- جوستاف لوبون:

«شأن العرب المدني لم يَبْدُ في قُطْر ملكوه كما بدا في إسبانيا، التي لم تكن ذات حضارة تُذْكَر قبل الفتح العربي، فصارت ذات حضارة ناضرة في زمن العرب، ثم هبطت إلىٰ الدَّرْك الأسفل من الانحطاط بعد جلاء العرب»[(٣)].

٧- الزعيم الهندي جواهر لال نهرو:

«إن حكم العرب لأجزاء من إسبانيا مدة ٧٠٠ سنة أمر يدعو إلىٰ الإكبار، ويزيدنا إكبارًا لهم تلك المدنيَّة الرفيعة والثقافة العربية الراقية، التي وصفها أحد المؤرخين بقوله: «لقد نظم المغاربة مملكة قرطبة العظيمة، التي كانت مفخرة العصور الوسطىٰ، والتي حملت نبارس العلوم والحضارة الزاهرة علىٰ العالم

---

(١) مارجريتا جوميز، **إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس**، منشور في «**الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**» بإشراف: سلمىٰ الخضراء الجيوسي ٢/ ١٤٧٨.

(٢) فيليب حتي، **العرب تاريخ موجز**، دار العلم للملايين - بيروت، لبنان، ١٩٩١م. ص١٨١، ١٨٢.

(٣) جوستاف لوبون، **حضارة العرب** ص٢٧٢.

الغربي، الذي كان مغمورًا في الجهل والوحشية»[١].

الاقتصـــاد

٨- الباحث الإسباني بدرو شلميطا:

«إذا أردنا فعلًا معرفة درجة غنىٰ الأندلس وأهميتها، فيجب أن نتذكَّر أن اقتصادها كان قد قام علىٰ الاكتفاء الذاتي، وأن نموَّها دام ثلاثة قرون، لقد كانت الأندلس قادرة في سنة (٤٠٠هـ=١٠٠٩م)، وحتىٰ ٧٥ سنة إضافية علىٰ أن تدعم وتُمَوِّل [دون إرادة منها[٢]] نموَّ مجموعة اجتماعية أخرىٰ، طفيلية وأجنبية: هي الدول النصرانية الشمالية، (ليس من) دليل أفضل من ذلك لحقيقة الاقتصاد الأندلسي وأهميته»[٣].

٩- ففي جانب السياحة والخدمات يقول جون برند تراند:

«إن قرطبة التي فاقت كل حواضر أوربا مدنيةً -أثناء القرن العاشر- كانت في الحقيقة محطَّ إعجاب العالم ودهشته، كمدينة فينسيا في أعين دول البلقان، وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينَة؛ التي تحوي سبعين مكتبة، وتسعمائة حمَّام عمومي؛ فإنْ أدركتِ الحاجةُ حُكَّام ليون أو النافار أو برشلونة إلىٰ جَرَّاحٍ، أو مهندس، أو معماري، أو

---

(١) جواهر لال نهرو، **لمحات من تاريخ العالم**، ترجمة عبد العزيز عتيق، دار المعارف - القاهرة، مصر ١٩٥٨م. ص٤٥.

(٢) يقصد بهذا التمويل الجزية الباهظة التي ظَلَّت الأندلس تدفعها لمملكة قشتالة خلال عصر ملوك الطوائف، وتلك المبالغ كانت عظيمة، إلىٰ حَدٍّ أنها كانت جانبًا له تأثير عظيم في نهوض الصليبيين وتقويتهم علىٰ محاربة وتهديد الأندلسيين.

(٣) بدرو شلميطا، **صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي**، منشور في «**الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**» بإشراف: سلمىٰ الخضراء الجيوسي ٢/ ١٠٦٠.

خائط ثياب، أو موسيقي فلا يتَّجِهُون بمطالبهم إلاَّ إلىٰ قرطبة»[١].

١٠- وفي جانب الزراعة تقول الباحثة الإسبانية إكسبيراثيون جارثيا سانشيز:

«لقد أشَّر وصول العرب إلىٰ شبه الجزيرة الأيبرية بداية أعمق وأكبر تطوُّر عرفته الزراعة في هذه البقعة التي كانت قد آلت إلىٰ حالة من التخلف والكساد في السنين الأخيرة لحكم القوطيين الغربيين»[٢].

١١- وفي جانب الصناعة تقول مارجريتا جوميز:

«واشتغل المسلمون في إنتاج الحرير والورق، وقد اكتسبوهما من الصينيين، وكان هذا ثورة في ازدهار الاقتصاد الصناعي للمنسوجات والكتب، التي بلغ إنتاجها مستويات عالية من الرقي، إلىٰ درجة أن بعض تلك الأنسجة الحريرية الموشَّاة، والمخطوطات المنمَّقَة بالصور الملونة ما تزال تُحْفَظ حتىٰ الآن في متاحفنا، كما تُحْفَظ الجواهر والأحجار الكريمة»[٣].

الفن والعمارة

١٢- يقول الباحث الإسباني جيمس دكي بعد حديث طويل مبهور عن قصر الحمراء في غرناطة:

---

(١) جون براند تراند، **إسبانيا والبرتغال**، دراسة منشورة في كتاب «**تراث الإسلام**» بإشراف: توماس أرنولد، ، تعريب جرجيس فتح الله، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية - بيروت، ١٩٧٢م. ص٢٧.

(٢) إكسبيراثيون جارثيا سانشيز، **الزراعة في إسبانيا المسلمة**، منشور في «الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس» بإشراف: سلمىٰ الخضراء الجيوسي ٢/ ١٣٦٧.

(٣) مارجريتا جوميز، **إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس**، منشور في «**الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**» بإشراف: سلمىٰ الخضراء الجيوسي ٢/ ١٤٨٠.

«عَمَلٌ بمثل هذه الرقَّة والروعة لا يمكن أن تُنْتِجَه حضارة غير الحضارة الإسلامية»[١].

١٣- ونجد روبرت هيلينبراند سعيدا مسرورا ببقاء جامع قرطبة:

«استطاعت قرطبة -لحسن حظها العظيم- أن تُنْقِذَ أثرًا من آثار عصرها الذهبي، هو أهمها علىٰ الإطلاق، ذلك هو جامعها الكبير، الذي ذاع صيته في العصور الوسطىٰ بوصفه واحدًا من عجائب أربع في العالم الإسلامي، فقد كان هذا الجامع إلىٰ حدٍّ كبير يُمَثِّل تاريخ الأندلس وآمالها، ومن أجل ذلك كان من المناسب تمامًا أن يُصْبِحَ مفتاح الأثر الرئيس في فنِّ العمارة في غرب العالم الإسلامي»[٢].

١٤- مارجريتا جوميز:

«لقد ترك الفنانون المسلمون تراثًا من التقاليد في صناعة الخزف، ولا سيما في غرناطة ومَالَقَة، واشتهرت هذه المدينة الأخيرة بإنتاج (الخزف الذهبي) الصقيل أيام الحكم الإسلامي، وقد تمَّ -أيضًا- بطبيعة الحال، انتقال وتبادل حضاري في ميدان الفنِّ عن طريق المحاكاة، فنُسِخَتْ في طُرز ملابسِ المراسيم لبعض الملوك النصارىٰ كتاباتٌ بالخط الكوفي (أدعية وآيات قرآنية)، ظنًّا بأن تلك الكتابات ليست إلا نقوشًا للزينة خالية من المعنىٰ»[٣].

---

(١) جيمس دكي: **الحجم والمساحة في العمارة النصرية**، منشور في «**الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**» بإشراف: سلمىٰ الخضراء الجيوسي ٢/ ٨٩٠.

(٢) روبرت هيلنبراند، **زينة الدنيا.. قرطبة القروسطية مركزًا ثقافيا عالميًّا**، منشور في «**الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**» بإشراف: سلمىٰ الخضراء الجيوسي ١/ ٢٠٣.

(٣) مارجريتا جوميز، **إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس**، منشور في «**الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**» بإشراف: سلمىٰ الخضراء الجيوسي ٢/ ١٤٨٠، ١٤٨١.

الثقافة

١٥- أميركو كاسترو:

«إن أغلب المتخصصين يعرفون أن صدىٰ الإسلام ظلَّ باقيًا في الآثار التي خلفها في قرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة، وكذلك العديد من المدن الأخرىٰ قليلة الأهمية في هذا المقام، أما فيما يتعلق باللغة فهناك الآلاف من الألفاظ والمصطلحات العربية التي ما زال بعضها حيًّا، بينما عفا الزمان علىٰ بعضها الآخر، كما أن الأدب استلهم المصادر العربية، ووضح هذا الإلهام في قواعد الكهنوت، فمن خلال هذا الكتاب انتشرت في إسبانيا المسيحية وأوربا -ابتداء من القرن الثالث عشر- ثلاث وثلاثون حكاية ذات أصول مشرقية ... وعندما نفكر في الشخصية الإسبانية لا يمكننا أن نباعد جانبًا تسعة قرون من النسيج الاجتماعي الإسلامي المسيحي»[١].

١٦- المستشرق البريطاني الكبير توماس أرنولد:

«إن سياسة التسامح الديني -التي سارت عليها الحكومة الإسلامية نحو رعاياها المسيحيين في إسبانيا- وحرية الاختلاط بين المتديِّنين قد أدَّتْ إلىٰ شيء من التجانس والتماثل بين الجماعتين، وقد كثر التصاهر بينهم .. هذا إلىٰ أن كثيرين من المسيحيين قد تَسَمَّوْا بأسماء عربية، وقَلَّدُوا جيرانهم المسلمين في إقامة بعض النظم الدينية، فاختتن كثير منهم، وساروا وَفق رسوم غير المعمدين (أي المسلمين) في أمور الطعام والشراب»[٢].

---

(١) أميركو كاسترو، **إسبانيا في تاريخها.. المسيحيون والمسلمون واليهود**، ترجمة: علي إبراهيم منوفي، مراجعة: حامد أبو أحمد، المجلس الأعلىٰ للثقافة، الطبعة الأولىٰ - القاهرة، ٢٠٠٣م. ص٦٣.

(٢) توماس أرنولد، **الدعوة إلىٰ الإسلام**، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة =

الأقليـات

١٧- باحثة الأديان الشهيرة كارين أرمسترونج:

«كانت العلاقات طيبة في العادة بين المسلمين والمسيحيين، وكان المسلمون يسمحون للمسيحيين، مثلما يسمحون لليهود، بالحرية الدينية الكاملة في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، وكان معظم أهل إسبانيا يعتزُّون بانتمائهم إلىٰ تلك الثقافة الرفيعة، فقد كانت تسبق سائر أوربا سبقًا يُقاس بالسنين الضوئية، وكان كثيرًا ما يُطْلَق عليهم المستعربون»[١].

١٨- المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه

«إن سماحة النفس العربية وتسامحها الآسر الغامر الذي نما في ثرىٰ تلك القارة تحت ظلال الحضارة العربية الفريدة، كان له أبلغ الأثر في ازدهار إسبانيا العربية -علىٰ العكس من اضطهاد إيزيدورس لليهود والمارقين إبان عصر القوط الغربيين- لقد سمح لضروب الفكر -علىٰ تباين المفكرين واختلافهم- أن تتلاقح وتثمر في تساوق سامٍ وانسجام تامٍّ، دون أن يدبَّ إليها الانحطاط إذا سكنت رياحها»[٢].

١٩- توماس أرنولد:

«وقد بلغ من تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحوَّلوا إليه من مسيحيِّي

= المصرية، ١٩٨٠م. ص١٥٩، ١٦٠.

(١) كارين أرمسترونج، **سيرة النبي محمد**، ترجمة د. فاطمة نصر، د. محمد عناني، دار سطور، الطبعة الثانية - القاهرة، مصر، ١٩٩٧م. ص٣٢.

(٢) زيجريد هونكه، **شمس الله تسطع علىٰ الغرب**، ترجمة فاروق بيضون، كمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسىٰ الخوري، دار صادر، الطبعة العاشرة - بيروت، ٢٠٠٢م. ص٥٣.

إسبانيا مبلغًا عظيمًا، حتىٰ سحرهم بهذه المدنيَّة الباهرة، واستهوىٰ أفئدتهم بشعره وفلسفته، وفنِّه الذي استولىٰ علىٰ عقولهم وبهر خيالهم، كما وجدوا الفروسية العربية الرفيعة مجالًا فسيحًا لإظهار بأسهم، وما تَكَشَّفت عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخُلق كريم ... لا يسعنا إلا الاعتراف بأن تاريخ إسبانيا في ظِلِّ الحكم الإسلامي يمتاز ببعده بُعْدًا تامًّا عن الاضطهاد الديني»[١].

كان «عرب إسبانيا يتَّصفون بالفروسية المثالية خلال تسامحهم العظيم، وكانوا يرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم، وما إلىٰ هذه الخِلال»[٢].

الأندلس.. بعد السقوط

٢١- فقرة مؤثرة جدا لجوستاف لوبون يتأسف فيها أن المسلمين فشلوا في فتح باريس، ويَرُدُّ على مَنْ قال بأن هذه المعركة أنقذت الغرب والمسيحية، فيقول:

«لنفرض جدلًا أن النصارىٰ عجزوا عن دحر العرب، وأن العرب وجدوا جَوَّ شمال فرنسا غيرَ باردٍ ولا ممطر كجوِّ إسبانيا، فطابت لهم الإقامة الدائمة به، فماذا كان يصيب أوربا؟ كان يصيب أوربا النصرانية المتبربرة مثلُ ما أصاب إسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدثُ في أوربا التي تكون قد هُذِّبت ما حَدَثَ فيها من الكبائر كالحروب الدينية، وملحمة سان بارتملي، ومظالم محاكم التفتيش وكل ما لم يَعْرِفْه المسلمون من الوقائع الخطيرة التي ضَرَّجَت أوربا بالدماء عِدَّة قرون»[٣].

(١) توماس أرنولد، **الدعوة إلىٰ الإسلام** ص١٦٤.

(٢) جوستاف لوبون، **حضارة العرب** ص٢٧٨.

(٣) جوستاف لوبون، **حضارة العرب** ص٣١٧.

نحن.. وهم

٢٢- الكولونيل البريطاني رونالد بودلي:

«لما غزا المسلمون إسبانيا في القرن الثامن احترم المسلمون كل شيء مسيحي، واستمرَّ الحال علىٰ ذلك حتىٰ زوال الحكم العربي من أوربا في القرن الخامس عشر، ولم يستمرَّ الحال علىٰ ذلك لَمَّا أصبح للمسيحيين اليد العليا؛ فَحَلَّ الاضطهاد الديني محلَّ التسامح الإسلامي»(١).

٢٣- المستشرق الأمريكي المتعصب برنارد لويس:

«وعندما انتهىٰ الحكم العثماني في أوربا، كانت الأمم المسيحية -التي حكمها العثمانيون خلال عدة قرون- لا تزال هناك بلغاتها وثقافاتها ودياناتها، وحتىٰ -إلىٰ حَدٍّ ما- بمؤسساتها، كل هذه الأمور بقيت سليمة وجاهزة لاستئناف وجودها الوطني المستقل، أما إسبانيا وصقلية فليس فيهما اليوم مسلمون أو ناطقون بالعربية»(٢).

٢٤- المستشرق الروسي ف. بارتولد:

«إن النصارىٰ الذين عاشوا في حكم المسلمين لم يُصبهم قطُّ ما أصاب المسلمين في إسبانيا من الظلم والعدوان»(٣).

---

(١) ر. ف. بودلي، **الرسول**،.. **حياة محمد**، ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر، القاهرة، مصر. ص٣٠٩، ٣١٠.

(٢) برنارد لويس، **السياسة والحرب**، منشور في «**تراث الإسلام**» بإشراف: شاخت، وكليفورد بوزوروث، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٧٨م. ص٢٢٨.

(٣) ف. بارتولد، **تاريخ الحضارة الإسلامية**، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف، الطبعة الخامسة - القاهرة. ص٥٧.

محمد الفاتح وفتح القسطنطينية

قليل[١] من العرب والأتراك من يعرفون أن القسطنطينية فضَّلت أن تذهب إلىٰ الأتراك علىٰ أن تخضع لسلطان الكاثوليكية في روما، وفيما قبل هذا الفتح العظيم جرت أحد أهم المحاولات في توحيد الكنيستين تحت سلطان البابا في روما، وأخفق الاتفاق الذي عقد قبل أربعة عشر عامًا (١٤٣٩م)، ويروي المؤرخ الأمريكي ول ديورانت أنه «لما عاد الإمبراطور اليوناني وحاشيته إلىٰ القسطنطينية (بعد إتمام هذا الاتفاق)، قوبلوا بالإهانات والشتائم، فقد رفض رجال الدين والشعب الخضوع إلىٰ روما»، وما إن انتصر اتجاه الاتحاد بالقوة – في العام السابق للفتح ١٤٥٢ – حتىٰ تجنب الشعب «الاتصال بالكنيسة الكبرىٰ؛ ولَعَن رجال الدين المعارضون للاتحاد كل من يؤيدونه، ورفضوا أن يغفروا ذنوب كل من حضروا قراءة المرسوم، وأهابوا بالمرضىٰ أن يموتوا دون تناول القداس بدل أن يتناولوه من يد قس «اتحادي»، ورفض بطارقة الإسكندرية، وإنطاكية، وبيت المقدس (قرار الاتحاد)»[٢]. وساعتها «قال الرجل الثاني في الإمبراطورية البيزنطية القائد الأعلىٰ لوكاس نوتار: إنني أفضل أن أرىٰ عمائم الأتراك في القسطنطينية علىٰ أن أرىٰ قلنسوات رجال الدين اللاتين»[٣].

---

(١) نشر هذا المقال بتاريخ ١ يونيو ٢٠١٥م.

(٢) ول ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت ٢٠/ ٢١.

(٣) نيقولو باربارو، **الفتح الإسلامي للقسطنطينية**، ترجمة ودراسة د. حاتم الطحاوي، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٢م. ص٣٥ مقدمة المترجم، وهو ينقل عن:
Dukas: decline decline and fall of byzantium, Trans. By, Harry J. Magoulias (Detroit, 1975) p. 210

ويعلق المؤرخ الفرنسي فرناندو بروديل علىٰ هذا فيقول: «الحق أن الكنيسة الأرثوذكسية -ولنا أن نقول الحضارة البيزنطية- فضَّلَتْ علىٰ الاتحاد مع اللاتينيين الخضوعَ للأتراك، ولا سبيل هنا إلىٰ إلقاء الأمر علىٰ قرار متعجل اتُّخِذ عفو الساعة في مواجهة حدث معين، وإنما لا يعدو الأمر أن يكون النتيجة النهائية والطبيعية لسباق زمني طويل من تحلل إمبراطورية بيزنطة ذاتها، والتي رفضت الوحدة مع اللاتينيين وكانوا دون سواهم القادرين علىٰ إنقاذها من الخضوع لبراثن الأتراك، وذلك من ناحية أخرىٰ ما عمل علىٰ ازدياد نفور اليونانين من التقارب مع اللاتينيين وكانت بينهم خلافات عقدية لاهوتية. فقد كانت الوحدة ممكنة... ولكن اليونانيين كانوا يفضلون الأتراك... ويكتب بطريرك القسطنطينية عام ١٣٨٥ إلىٰ البابا أوربان السادس يقول: إنهم [أي: الأتراك المسلمون] علىٰ الأقل يتركون للكنيسة اليونانية كامل حرية الحركة... ويكتب بترارك -وهو من أشهر كتاب العلوم الإنسانية في عصر النهضة ومن المؤرخين البارزين- يقول: لا شك أن هؤلاء المنشقين [أي: أهل القسطنطينية] خافوا منا.. وكرهونا من أعماقهم»(١).

ويذكر المستشرق البريطاني المعروف توماس أرنولد أنه «لم تكد حاضرة الإمبراطورية الشرقية القديمة (القسطنطينية) تسقط في أيدي العثمانيين حتىٰ توطدت العلاقات بين الحكومية الإسلامية والكنيسة المسيحية بصفة قاطعة وعلىٰ أساس ثابت. ومن أولىٰ الخطوات التي اتخذها محمد الثاني بعد سقوط القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حامي الكنيسة الإغريقية؛ فحرَّم اضطهاد المسيحيين تحريمًا قاطعًا، ومنح البطريق الجديد مرسومًا يضمن له ولأتباعه ولمرءوسيه من الأساقفة حق التمتع

---

(١) فرناندو بروديل، **تاريخ وقواعد الحضارات**، ترجمة وتعليق سفير. د. حسين شريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م. ص٢٥.

بالامتيازات القديمة والموارد والهبات، التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق. ولم يقتصر المسلمون في معاملة رئيس الكنيسة علىٰ ما تعود أن يلقاه من الأباطرة المسيحيين من توقير وتعظيم، بل كان متمتعا -أيضًا- بسلطة أهلية واسعة... وكان من أثر ذلك أن الإغريق -ولو أنهم كانوا يفوقون الأتراك عددا في كل من الولايات الأوربية التابعة للدولة العثمانية- قد جعلهم التسامح الديني الذي رخص لهم، وما تمتعوا به من حماية لحياتهم وأموالهم، يسرعون في الموافقة علىٰ تغيير سادتهم وإيثار سيادة السلطان علىٰ سيادة أية سلطة مسيحية، وكان الغزاة العثمانيون في بقاع كثيرة من المملكة يلقون ترحيبا من جانب الإغريق، ويعدونهم مخلصين لهم من الحكم الظالم المستبد»[(١)].

وهكذا فإن احتفاظ الكنيسة «باستقلال روحي لم يكن بوسعه إلا أن يداعب مشاعر الشعب المعادية للاتينيين، وسوف تدار «الأمة» اليونانية وتُمَثَّل من جانب البطريرك، وسوف تُحَلُّ الخلافات بين اليونانيين عن طريق محاكم أرثوذكسية، وأخيرا، فإن الممارسة الحرة للعبادة سوف تكون مكفولة، وصحيح أن هذا القانون يتمشىٰ مع الوضع العادي للطوائف المسيحية في البلدان الإسلامية، لكن تأكيده علىٰ نطاق الدولة وتعزيز مكانة البطريركية يشكلان حدثًا هامًا»[(٢)].

ويدافع المستشرق الأمريكي الصهيوني برنارد لويس عن صورة العثمانيين الفاتحين، رغم أنه من ألدّ أعدائهم، فيقول بأن «الأتراك الذين دخلوا القسطنطينية فاتحين، لم يكونوا المتوحشين البدائيين كما يصورهم بعض كتاب الغرب. بل كانوا ورثة وحاملي حضارة قديمة ورفيعة: أي حضارة الإسلام القديمة، والتي

---

(١) توماس أرنولد، **الدعوة إلىٰ الإسلام**، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م. ص١٧٠ وما بعدها.

(٢) نيقولا فاتان، **صعود العثمانيين**، ضمن «**تاريخ الدولة العثمانية**» بإشراف: روبير مانتران، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر، القاهرة، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٣م. ١/ ١٢٤.

هم أنفسهم أضافوا إليها قدرا غير يسير»، وهو حين يصف عظمة اسطنبول لا ينسىٰ أن يقول أن «معظم اليونانيين الذين كانوا غادروا المدينة قبيل الفتح قد عادوا إليها إلا القليل منهم، وجاء الآخرون من جميع أنحاء الإمبراطورية ليشاركوهم، وشكل هؤلاء جالية غنية تحت زعامة بطريركهم. وقد ازداد عدد اليهود أيضا، والذين كانوا موجودين من قبل في العاصمة البيزنطية»[١].

ويفسر المستشرق الألماني كارل بروكلمان هذه العودة بقوله: «عمل محمد علىٰ تنظيم أحوال اليونان (الروم) المغلوبين، للتو والساعة. والواقع أنه أبقىٰ علىٰ استقلال البلغار الكنسي، فِعْل أسلافه من قبله، واعترف -وفقا للفكرة الإسلامية المعززة بالتقاليد الدينية- بجميع السلطات الدينية اليونانية. بل إنه زادها قوة إلىٰ قوة بأن وكل إليها أمر القضاء المدني وتطبيق أحكامه علىٰ أتباعها... ولم يكد يُعَيِّن في البطريركية ممثلا حازما للكنيسة الوطنية حتىٰ رجع إلىٰ أرض الوطن، بناء علىٰ دعوته، عدد غفير من الروم الذين نزحوا عن ديارهم قبل الكارثة»[٢]. وهو يقصد بالكارثة: الفتح! ولكنه مستشرق يرىٰ الكارثة ولو في التسامح العظيم الذي لم يوجد في تاريخهم مثله!!

وما إن تم الفتح حتىٰ بدأ محمد الفاتح في سياسته «الرامية إلىٰ استعادة شأن اسطنبول، وقد أمر محمد الثاني بأعمال هامة: إصلاح الحصون وبناء قلعة الأبراج السبعة (يديقولي) وقصر في وسط المدينة، وفي عام ١٤٥٩ يتلقىٰ كبار وجهاء الدولة الأمر بأن ينشئ كل منهم مجمعات علاجية وخيرية وتجارية حول المساجد الكبرىٰ. وعندئذ تعاود الحياة الفكرية والاقتصادية الازدهار في المدينة»[٣]،

---

(١) برنارد لويس، **اسطنبول.. وحضارة الخلافة الإسلامية**، ترجمة وتعليق: سيد رضوان علي، الدار السعودية، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م. ص١٣٥.

(٢) كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة: أمين نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٦٨م. ص٤٣١.

(٣) نيقولا فاتان، **صعود العثمانيين** ١/ ١٢٤.

حتىٰ «بلغت العاصمة قمتها من المجد»[١] في عهد سليمان القانوني بشهادة برنارد لويس!

لقد كان الفاتح شغوفًا بالعلم والنهضة، حتىٰ أنه «طلب إلىٰ جمهورية راجوزه (الإيطالية) مرة أن تدفع إليه الجزية مخطوطات تجمع من إيطالية»[٢]، ولقد حفظت مدونة أوروبية قديمة ما سجله الزائر البندقي أولينغاستو، والذي وصف الفاتح بقوله: «شاب في ٢٦ سنة من العمر، حسن البشرة، عظيم الجثة، وفوق المتوسط في الطول، قوي الذراعين، يثير مظهره الهيبة أكثر من الاحترام، قليل الضحك، متتبع المعرفة، وموهوب بالأفكار الملكية الحرة. مصمم في أهدافه، جرئ في جميع الأمور وحريص علىٰ الشهرة كالإسكندر المقدوني. يسمع كل يوم تواريخ الرومان وغيرهم.. ومدونات البابوات والأباطرة وملوك فرنسا والأمراء اللومبارديين. إنه يتكلم ثلاث لغات: التركية، اليونانية، والسلافية، ويبحث بكل دقة عن المعلومات عن أوضاع إيطاليا.. وكرسي (عاصمة) البابا، والإمبراطور، وكم ممالك هنا في أوروبا. وعنده خريطة لها، وتظهر عليها دولها وأقاليمها لا يُعجب ولا يبتهج بأي شئ كإعجابه وابتهاجه بدراسة أوضاع العالم وعلم الحرب. باحث، فطن للأمور، يلتهب رغبة في الحكم. هذا هو الرجل الذي علينا معشر المسيحيين أن نواجهه. إنه شديد المراقبة والحذر، قادر علىٰ تحمل المشقة والبرد والحرارة والعطش والجوع... ويقول أن الزمن تغير الآن، إذ يسير من الشرق إلىٰ الغرب كما سار الغربيون (فيما سلف) إلىٰ الشرق. ويقول إن إمبراطورية العالم يجب أن تكون واحدة، دين واحد ودولة واحدة ولتحقيق هذه الوحدة ليس هناك في العالم مكان أليق من القسطنطينية»[٣].

---

(١) برنارد لويس، **اسطنبول.. وحضارة الخلافة الإسلامية** ص١٣٦، ١٣٧.

(٢) كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة: أمين نبيه فارس ومنير البعلبكي، ط٥ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨م)، ص٤٤٢.

(٣) برنارد لويس، **اسطنبول.. وحضارة الخلافة الإسلامية**، ترجمة وتعليق: سيد رضوان علي، =

كيف نفهم أخطاء المستشرقين المنصفين

تلك السطور القادمة تبحث بإيجاز في أبعاد «المؤامرة» التي يَرْسِمُها الغربيُّون المنصفون، وهي تُحاول أن تُحلل بموضوعيَّة حجم هذه «المؤامرة»، وننطلقُ فيها من أنَّ الأمة وإن تخلفت سياسيًّا وعلميًّا فهي ناضجة فكريًّا، ونضوجها الفكري هذا يَحملها علىٰ أن تستوعب الأخطاءَ بنظرة عاقلة ونفس هادئة؛ فلا ترىٰ في كل خطأ «افتراءً»، ولا في كل مُخطئ «متآمرًا».

نظرة لتاريخ العداوة والإنصاف

يصعب عادة أن تجد تاريخًا محددًا لبداية الأفكار، ومِن ثَمَّ اختلف الباحثون في تحديد بداية العداوة والإنصاف، ولكنَّ المجال الأكاديمي عرف ظاهرة «الاستشراق»، وهي العناية بدراسة الشرق، فإنْ كان لا يُجزِئُنا تحديدٌ دقيق للبداية، فيُجْزِئُنا أنْ نقول: إن البداية كانت منذ الاحتكاك الإسلامي بالغرب، وخاصَّة منذ الأندلس، ثُم الحروب الصليبية، ولكن يبدأ الاستشراقُ الذي ترعاه الدَّولة منذ ١٣١٢م، واستمر ينمو في ظلِّ السياسة الغربيَّة، وكانت البداية زاخرة بالمُخرِّفين الذين يسيطرُ علىٰ إنتاجهم السبُّ والشتم والصياح؛ لتنفير الناس من الإسلام، أو لدفعهم نحو «الحرب المُقدَّسة»، وانتهىٰ الآن إلىٰ مُستشرقين مُحترفين وعلماءَ حقيقيِّين في شؤون الشرق وثقافاته وعلومه؛ منهم المنصفون وأكثرهم المتعصبون(١).

= ط٢ (جدة: الدار السعودية، ١٩٨٢م)، ص٤٨، ٤٩.

(١) للتوسع في تاريخ تطور الاستشراق، انظر: مبحث مكسيم رودنسون «الصورة الغربية والدراسات

ويُمكن عَزْو هذا التطوُّر في «الاستشراق» إلىٰ ثلاثة عوامل رئيسة:

١- التطور الطبيعي للعلوم:

تبدأ صغيرةً وليدة ضعيفة، ثم تزداد مع السنين تفرعًا وتشعبًا وتوسُّعًا ودقة وإحاطة، وإذا كان الاستشراق أداةً من أدوات المُواجهة مع الشَّرق، ثُمَّ للاستعمار، فإنَّ دقَّة وقوة ما يطرحه من شُبهات حول الإسلام والقرآن والنَّبي في العُصور المتأخرة، لا يكاد يُقارَن بمضحكات الأفكار والشُّبهات في العصور المتقدِّمة.

٢- الانتصار الغربي في المواجهة أخيراً:

تلك التي تبدأ حقيقةً مُنذ سقوط الأندلس، ثم دخول البلاد الإسلاميَّة في عصر الاستعمار، إنَّ دراسة العدو من موقع المنتصر المسيطر ليست كدراسته من موقع المهزوم الذي يخشىٰ الفناء والذَّوَبان، الأوَّل ما عليه من بأس ولا عنده خشية من أنْ يعرفَ «حقيقة» العدو، أمَّا الثاني فلا هَمَّ له إلا أن يُثير كراهة العدُوِّ ما وسعه هذا، وبأي طريق، وإن كان باطلًا محضًا لا حق فيه.

٣- العقل والضمير:

وهما من فِطْرة الله في البشر، فالإنسانُ طالب علم دائمًا، حبب الله إليه المعرفة، وهو لا يقنع بما عرف أبدًا؛ بل لا يزال يطلب المزيد، ومَيْدان المعرفة ثريٌّ خصيب، فما بالك بميدان معرفة الإسلام؟! ثم ما بالك وهذا الميدان هو في ذات الوقت ميدان مواجهة وصراع؟! فقد كان لا بُدَّ - لطبيعة الإنسان نفسه - أنْ تتطور المعرفة عن الإسلام والشرق.

الغربيون المنصفون، إشكاليات

الغربية والإسلامية»، منشور بكتاب «**تراث الإسلام**»، بإشراف شاخت وبوزوروث.

ستبرز صعوبة الحديث عن المستشرقين المنصفين من صُعُوبة تحديدهم وتعريفهم، وكما هو معروف فالعلومُ الإنسانيَّة ليست كالعلوم الطبيعيَّة في مسألة التصنيف والتقسيم؛ كالاختلاف بين الإنسان والمادة.

ولا أبتغي أن ندخلَ في غموض حين نطرح عددًا كبيرًا من الأسئلة، ولكن رُبَّما استطاعت الإجابات التقريبية أن تفيد تعريفًا تقريبيًّا كذلك؛ فنحن إذا آمنا بالله عرفنا أنَّ البشر ليسوا سواء، ولا الأعداء سواء، والمستشرقون وإن كانوا في مُجملهم أداة للغرب فإنَّهم بشر، وإنهم ليسوا سواء.

وسنكون قد ظلمنا أنفسنا، والحقيقة لو حددنا المنصفين بأنَّهم مَن اعتنقوا الإسلام فقط، فإنَّ الإسلام اتِّباع، وهو انحياز، وهذا فوق الإنصاف.

ويكاد يكون وَضْعُ حدٍّ للتفريق بين المنصفين والمتآمرين مُستحيلًا، فهل سيكون الحدُّ هو الكلامَ بالخير عن الإسلام والقرآن والنَّبي، أو مُجرد نَفْي التُّهم الباطلة عن الإسلام والقرآن والنبي؟ هل هو التقييم الموضوعي المعتمد علىٰ الأسلوب العلمي؟ ولكنَّ الجميعَ يعرف أنَّ المناهج العلميَّة قد تختلف، ثم إنَّ المسلَّمات التي ينطلق منها الباحثون تختلف، ثم إنَّ احتمال الخطأ وارد لطبيعة البشر؛ فمتىٰ نقول: إنه تعمَّد الغش والتدليس لغرض في نفسه، أو نقول: إنه أخطأ عن غير قصد؟

وهل الأجدىٰ لنا أن نحذر، فنفترض الشكَّ في طليعة الاستعمار وأداته الثَّقافيَّة، أو نتلقف كلام القائل بعناية، ونفترض حُسْنَ الظن، ونحمل الكلام علىٰ وجهٍ حسن إنْ غلب عليه هذا، ونُحيل الخطأ إلىٰ الجهل، أو القصور البشري، أو الثَّقافات والمناهج المغايرة التي نشأ عليها؟

ما الأخطاءُ التي لا نغفرها، ونَحْمِل مَن قال بها علىٰ الغرض وسوء النيَّة؟ وما الأخطاء التي قد نتسامح فيها، ونرجح أنَّه قد يكون غلبه ضعفه وخطؤه، وعازه التحقيق؟

كما قلت، لا أبتغي الغُمُوض من طرح مزيد أسئلة، خاصَّة أنَّ كل هذا الكلام سيُختَلَف فيه، ولكل طرف من أطرافه وجهة نظر مقبولة ومحترمة، ولها منطلقاتها ودوافعها.

ونحن هنا بالطبع نختلف حول المستشرقين الذين يظهر من كتاباتِهم وأبحاثهم إنصافُ الإسلام، أمَّا من كان مُنَصِّرًا كصموئيل زويمر ولوي ماسينيون، أو صريحًا في عداوته كمرجليوث ونيكلسون، فهذا قد كفانا الخلاف، وانتهىٰ عندنا أمره.

إشكاليات تفسير الأخطاء

إذا حاولنا تتبُّع الأخطاء والسَّقطات التي وقع فيها المستشرقون المنصفون، أو من تبعهم من الباحثين والأكاديميِّين في الغرب، فلربَّما ينبغي علينا أن نستبعدَ أسبابًا ونستقرب -لو صح التعبير- أسبابًا أخرىٰ[1].

استبعاد المؤامرة

إنَّ صدور كتب المستشرقين باللغات الغربيَّة ابتداء، وعدم قيام الدَّوائر الغربيَّة بمجهود يذكر في أمر ترجمة هذه المُؤلفات إلىٰ اللغات الإسلاميَّة - يحملنا علىٰ استبعاد تهمة المؤامرة علىٰ المسلمين ونيَّة التغرير بهم، وتشويه الإسلام في نظرهم، والذي يُؤيد لنا هذا أنَّه منذ تطور الاستشراق نحو أن يكون بحثًا علميًّا جادًّا كان العالَم الإسلامي وحتَّىٰ الآن في عصر الاستعمار، ثم في عصر الهيمنة الغربيَّة حتىٰ الآن، فما كان شيء ليضطر أحدهم أن يُراوغ ويناور ويخادع؛ لكي يتقرب من المسلمين، ثم «يَدُسُّ لهم السُّمَّ في العسل»، فالمستهدف من جُلِّ كتابات المستشرقين، ومن كل كتابات المنصفين -تقريبًا-

(١) نشر هذا المقال لأول مرة بتاريخ ١ يوليو ٢٠٠٩م.

هم الشُّعوب الغربية ابتداء، وانتهاء كذلك.

وما يُؤكد هذا لدينا أن كثيرًا منهم -أعني: هؤلاء المنصفين- نرىٰ من كتاباته وسيرته ما ينسف فكرةَ أنَّه «يدس السُّمَّ في العسل»، أو فَعَلَ هذا ليروج بكلامه بين المُسلمين مخادعًا منطويًا علىٰ غرض.

فإنَّ بعضهم قد أشهر إسلامَه بالفعل؛ مثل: كليوبولد فايس «محمد أسد»، وأتيين دينيه «ناصر الدين»، وموريس بوكاي «الذي فضَّل ألا يغير اسمه؛ لأنَّ الغرب لا يتقبل كلامًا ممن اسمه محمد، أو مصطفىٰ، أو عبدالهادي»(١).

وبعضهم ترجح الكثير من القرائن والمعلومات أنَّه أسلم دون أن يُعلن هذا: كأنا ماري شيمل(٢)، وليو تولستوي(٣).

وغالبيَّتهم كانوا يُقدِّمون كُتُبهم التي تنصف الإسلامَ ونبيه وحضارته بما يشبه التَّمهيدات، التي تُحاول أن تراوغ العقل الغربي، وتقنعه بأنَّ الإسلام ليس سيِّئًا كما يتصور، مثل مونتجمري وات الذي قال: «أدركَ الناسُ منذ زمن أنَّ الكُتَّاب المسيحيين في العصر الوسيط خلقوا صورةً للإسلام، هي صورة شائهة من وجوه عديدة، غَيْرَ أنَّ جهودَ الباحثين خلال القرن الأخير قد مهَّدت السبيل؛ من أجلِ تكوين صورة أكثر موضوعيَّة له في عقول الغربيِّين، ومع ذلك فإننا -

---

(١) انظر: شوقي أبو خليل، «غوستاف لوبون في الميزان»، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٧.

(٢) يتَّضِح هذا التخفي في كثير من عباراتِها في المُؤتمرات والنَّدوات، وقال بمثل هذا الدكتور حمدي زقزوق في مقدمته لكتابها «الإسلام دين الإنسانية»، وقد كان علىٰ صلة بها، فهو حاصل علىٰ الدكتوراه من ألمانيا، وله باع كبير في دراسة الاستشراق، ثم وصلني ما يشبه التأكيد بإسلامها عن طريق الأستاذ عبد الحليم خفاجي الذي عمل وكيلًا للمركز الإسلامي في ميونيخ، وأحد القائمين بالدعوة في ألمانيا.

(٣) انظر: تيو لوتستوي، «حِكَم النبي محمد»، «المقدمة»، دراسة وتقديم وتعليق محمود النجيري، مكتبة النافذة، الجيزة، مصر، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٨م.

معشر الأوربيِّين - نأبىٰ في عناد أن نقرَّ بفضل الإسلام الحضاري علينا»[١].

وكذلك بودلي الذي قال: «وإنَّه لمن الغريب أنْ نلاحظ، دون أسباب ثابتة وطيدة، أن هناك سوءَ فَهْم عام لمحمد، أكثر من أيِّ مُؤسس آخر من مؤسسي الديانات العظيمة»[٢].

ومايكل هارت الذي اختار محمدًا ﷺ ليكون أعظم عظماء التاريخ في كتابه، فقدَّم دفاعًا سابقًا عن اختياره، وقال: «لقد اخترت محمدًا ﷺ في أول القائمة، ولا بُدَّ أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار، ولكن محمدًا ﷺ هو الإنسان الوحيدُ في التاريخ الذي نجح نجاحًا مطلقًا علىٰ المستوىٰ الديني والدُّنيوي»[٣].

ومنهم مَن تَحايل في أعماله الأدبيَّة والفنيَّة، واستعملَ الرَّمْز والمعنىٰ والإيحاء كبرنارد شو[٤].

ومنهم من اضْطُهِدَ وأُوذِيَ، وعاش بائسًا؛ لأنَّه لَمْ يُوافق اللاهوتيِّين علىٰ آرائهم بشأن الإسلام ومحمد؛ مثل: جوهان رايسكه[٥].

وأخيراً:

فمنهم من اعترف بقصوره وخطئه، مثل: آربري الذي قال للدكتور

---

(١) مونتجمري وات، **فضل الإسلام علىٰ الحضارة الغربيَّة**، ترجمة: حسين أحمد أمين، مكتبة = = مدبولي، القاهرة، مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٧.

(٢) ر. ف. بودلي، **الرسول حياة محمد**، ترجمة: محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر، القاهرة، مصر، ص٧.

(٣) مايكل هارت، **الخالدون مائة أعظمهم محمد**، ترجمة: أنيس منصور، المكتب المصري الحديث، القاهرة، مصر، ص١٣.

(٤) انظر: في تفاصيل هذا كتاب «برنارد شو والإسلام»، لمحمود علي مراد، كتاب الهلال، ديسمبر ١٩٨٩م.

(٥) انظر: عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م، ص٣٠٠.

مصطفىٰ السباعي: «إنَّنا - نحن المستشرقين - نقعُ في أخطاء كثيرة في بُحُوثنا عن الإسلام، ومن الواجب ألاَّ نخوضَ في هذا الميدان؛ لأنَّكم - أنتم المسلمين - العرب أقدرُ مِنَّا علىٰ الخوض في هذه الأبحاث»[1].

إذًا؛ فالبيئة الغربيَّة والمزاج الغربي، هو إلىٰ الآن - تقريبًا - لا يكاد يقبل ثناءً علىٰ الإسلام، ومدحًا لنبيه محمد ﷺ مما اضطر كل منصف إلىٰ ما استطاع من «تحايل»؛ لكي يوصِّل فكرته، وقد كان أسهل له وأيسر وأمكن لو مشىٰ في التيَّار، ومن كان هذا حاله، ثُمَّ وجدنا عنده ما لا نقبله من آراء، أو ما يُصادمنا من أفكار، فلا يُقبل مِنَّا توقُّعُ أنَّه يتآمر أو يُخادع أو يتظاهر؛ «ليدس السُّمَّ في العسل»، وما هذا برأي، لا بميزان البحث العلمي ولا بميزان الإسلام، الذي يقدم حسن الظَّن، ويفترض بالناس البراءة أصلًا.

وإنَّنا نرىٰ أنَّ الأقربَ إلىٰ المنهج الإسلامي والمنهج العلمي أنَّ هناك أسبابًا أخرىٰ غير المؤامرة وسوء النية وأهمها:

أنهم يُخطِئون

وخطؤهم يرجع لأسباب عِدَّة، منها ما هو مَقبول، ومنها ما لا نقبله؛ بل منها ما نحن مسؤولون عنه، وأهم تلك الأسباب:

أنَّهم بشر:

والبشر يُخطِئون، وما في الدُّنيا معصوم إلاَّ أنبياء الله ورسله، وإنَّنا لنستطيع رَصْد أخطاء فادحة لبعض المُستشرقين الذين أسلموا بالفعل، وتعرَّضوا في سبيل هذا لمصاعب شتَّىٰ، ونحن المسلمين الذين لَم يَعرِف ديننا الكهنوت،

(١) انظر: مصطفىٰ السباعي، **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**، المكتب الإسلامي ودار الوراق، الطبعة الثانية، ص٢٩.

واحتكار تفسير النصوص المقدسة - أحرىٰ الناس أن نتفهم هذا، فلا يكاد إلاَّ أن يكون لكل عَلَم من أعلامنا انفرادات وعجائب وغرائب، فلا أخطاؤهم نزلت بهم عن مرتبة العلم والإمامة، ولا رأىٰ أحدٌ فيها سوء نية.

ومن أمثلة هذا الخطأ ما وقع فيه ليوبولد فايس اليهودي النمساوي، الذي أسْلَم وتَسَمَّىٰ بـ «محمد أسد»، وكتب كتبًا ماتعة، مثل: «الطريق إلىٰ مكَّة»، و«الإسلام في مفترق الطرق»، نراه يُخطئ أخطاء فادحة، ولولا ما عرفناه من سيرته لاتَّهمنا نواياه[١].

أنَّهم ليسوا مُسلمين:

وهذا يعني أنَّهم لا يُؤمنون بربانيَّة القرآن، وأنَّه كان وحيًا من السماء، وهذا يدفع باتِّجاه سد الثَّغرة التاريخيَّة بالتحليل والتقريب العقلي، فإذا كان القرآن يتحدَّث عن أنبياء سابقين، ويدعو لنفس القيم الأخلاقيَّة الموجودة بالتَّوراة والإنجيل، فلا بُدَّ أن محمدًا ﷺ استقىٰ بعضَ هذا أو نُتَفًا منه من أهل الكتاب الذين وُجِدوا في جزيرة العرب، أو الذين يحتمل أن يكونَ لَقِيَهم محمد؛ إذ كان يتاجر في بلاد الشام.

وإنَّ هذا ليس مقام تفنيد ذلك الكلام، وإنَّما مقام إيضاح أنَّ المستشرق القائل بهذا لا يكون بالضرورة شريرًا حاقدًا مُشوِّهًا للإسلام؛ بل هو تحليل ومُحاولة لتفسير كيف أنَّ محمدًا ﷺ علم هذا وقاله في القرآن، وقِسْ علىٰ مثل هذا الكثير من الأخطاء الناتجة من مُحاولة التفسير والتَّحليل لما لا تفسيرَ له، إلاَّ أن يكونَ القرآنُ وحيًا من عند الله، والإسلامُ دينًا نَزَل من السَّماء، ومحمد رسولَ الله حقًّا[٢].

---

(١) انظر في تفصيل هذا كتاب «فكر محمد أسد كما لا يعرفه الكثيرون»، للدكتور إبراهيم عوض.

(٢) انظر مثلًا: مونتجمري وات، **محمد في مكَّة**، ترجمة: د. عبد الرحمن الشيخ، وحسين عيسة،

ولأنَّهم ليسوا مسلمين فهم يَرَوْن أنَّ النبي بشر، والخطأ عنده وارد، وبعض أعماله «يصعب تقبلها»[(١)]، والاقتباس من كتاب «سيرة النبي محمد» للإنجليزيَّة كارين أرمسترونج، وهو قطعة من الجَمَال والحب للنبي، ومن أروع ما كتبه الغربيُّون في السيرة.

ولأنَّهم ليسوا مُسلمين، فالقرآن عملٌ بشريٌّ، وقد يرىٰ أحدُهم أنَّ المسلمين تخلَّفوا؛ لأنَّهم لم يُطوِّروه بما يناسب العصر[(٢)].

ويجدُر التنبيه إلىٰ أنَّ آخرين منهم فنَّدُوا مثل هذا، وردَّه بعضُهم علىٰ بعض، حتَّىٰ ما يكاد موقف إلاَّ تجد فيه مَن أنصف؛ بل لقد جَمع الأستاذ محمد شريف الشيباني سيرة النبي من كُتُب المستشرقين في كتابه «الرسول في الدِّراسات الاستشراقية المنصفة».

صدورهم عن مناهجَ وثقافاتٍ غربيَّة:

وهي مناهج غريبة عن بيئتنا وثقافتنا وروحنا، فيغلب علىٰ نظرتهم للأمور، وتفسيرهم للتاريخ، وفهمهم للدوافع، وحتىٰ روايتهم للقصَّة - أمورُ العوامل الاقتصادية والاجتماعية، والطبقية والنفسية، وأمثال الدوافع المادية، فلا يستوعبون مثلًا كيف أن انتقال الرجل إلىٰ الإسلام كان يعني تغيرًا مؤثرًا عليه.

ولهذا يُرجع كثيرون منهم الخلافَ بين عليٍّ ومُعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا إلىٰ أصول الخلاف القديم بين بني أُميَّة وبني هاشم في الجاهليَّة، «وينبغي أن نذكر أن هذا الرأي لم ينفردوا به، وإنَّما رواه المؤرِّخون عن الشيعة منذ قديم»، ومثل هذا في

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٢م، ص١٠٠، ١٠١.

(١) كارين أرمسترونج، **سيرة النبي محمد**، ترجمة: د. فاطمة نصر، ود. محمد عناني، «كتاب سطور»، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م، ص٣٩٣.

(٢) انظر: لويس سيديو، **تاريخ العرب العام**، ترجمة: عادل زعيتر، طبعة الحلبي، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ص١٠٥.

تفسير كثير من المرويَّات أو رواية كثير من الأحداث.

كذلك تجد عدم قَبول مُطلق لبعض الأشياء من تلك التي لا يستسيغها الفِكْر الغربي، وأبرز مثال علىٰ هذا هو تعدُّد الزوجات؛ ولكن انظرْ كَيْف قادت الموضوعيَّة مؤرخًا مثل ول ديورانت - برغم عدم قبوله للفكرة أساسًا - لأَنْ يُعَبِّر عن رأيه علىٰ هذا النَّحو: «ولكن علينا أن نذكر علىٰ الدَّوام أنَّ نسبة الوَفَيَات العالية من الذُّكور بين الساميِّين في العصر القديم، وفي بداية العُصُور الوسطىٰ، جعلت تعدُّد الزوجات - في نظر هؤلاء الساميِّين - ضرورة حيويَّة تكاد تكون واجبًا أخلاقيًّا، وكان تعدد الزوجات في نظر النبي أمرًا عاديًّا مُسَلَّمًا به لا غبار عليه؛ ولذلك كان يُقبل عليه وهو مُرتاحُ الضَّمير لا يبغي به إشباع الشَّهوة الجنسيَّة... ولقد كانت بعضُ زيجاتِه من أعمال البرِّ والرَّحمة بالأرامل الفقيرات، اللاتي تُوفِّي عنهُنَّ أتباعه أو أصدقاؤه، وكان بعضها زيجات دبلوماسية»[1].

إنَّ هذا السبب قاله كلُّ مَن كتب عن المستشرقين، فأثبتوا به «عدم الأهليَّة» للمستشرقين، ولَمْ أكَد أجد مَن يعتبره «عُذرًا»، خصوصًا في حال المُنصفين.

«لم تكن لنا هداية»:

وهذا سببٌ ذهبي أخبرنا به سيدنا عمر حين تَحدَّث عن خرافات الجاهليَّة، فقال: «كانت لنا عقولٌ، ولَم تكن لنا هداية»، وهو ما عبَّر عنه الشاعر[2] بقوله:

وَلَرُبَّمَا ضَلَّ الْفَتَى طُرُقَ الْهُدَى وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَهَا أَنْوَارُ

إنَّك تجد كثيرًا في كُتُب المستشرقين المنصفين ما يُثيرُ الذُّهُول من رَدِّ الباطل وتفنيده، والدِّفاع عن الحقِّ وتأييده، حتَّىٰ يُخيَّل إليك أنَّه سيعلن إسلامه في السَّطر القادم، فلقد فنَّد كل ما من شأنه أنْ يُشكك في نُبُوة محمد، وربانية

(١) ول ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة: محمد بدران، طبعة مكتبة الأسرة، مصر، ٢٠٠١م. المجلد السابع ١٣/ ٤٣، ٤٤.

(٢) هو الإمام عبد الرحمن بن مهدي، أو الإمام أحمد بن حنبل، علىٰ خلاف أهل الرِّوايات.

القرآن، وعظمة الإسلام، وتفوُّق الحضارة الإسلاميَّة، فما تلبث أنْ تفاجأ بأنَّه يطرح تفسيرًا في غاية التهافُت والضَّعف لا يكاد عقل الطفل يستسيغه.

فهنري دي كاستري يُوقن بصدق محمد المطلق، ولكنَّه يقول: «وأوَّلُ ما دار البحث فيه مسألة صدق النبي ﷺ في رسالته، وقد قلنا: إنَّ ذلك الصدق مُتَّفق عليه بين المستشرقين والمتكلمين علىٰ التَّقريب، ومعلوم أنَّه لا ارتباط بين هذه المسألة وبين كون القرآن كتابًا مُنَزَّلًا من عند الله ﷻ ولسنا نحتاجُ في إثبات صدق محمد ﷺ أكثر من إثبات أنَّه كان معتنقًا لصِحَّة رسالته وحقيقة نُبُوَّته»[(١)].

ونجد توماس كارلايل -الذي يُؤرخ البعض بأنَّ كلامه عن محمد ﷺ كان مرحلة فاصلة بدأ الغرب بعدها يرىٰ أنَّ في الإسلام شيئًا حسنًا، بعد أن يفند شبهات الاقتباس من أهل الكتاب، ويُؤكد أنَّ القرآن أصيل لم يأخذه مُحمد عن أحد، نجده يرجع كل ذلك للنفس العظيمة والرُّوح العظيمة والعقل العظيم، وكل ذلك كان لمحمد ﷺ يقول: «وقد أتخيَّل روح محمد الحادَّة النارية، وهي تتململ طول اللَّيل الساهر، يطفو بها الوجد ويرسب، وتدور بها دوَّامات الفكر حتَّىٰ إذا أسفرت لها بارقةُ رأي، حسبته نورًا هبط عليها من السَّماء، وكل عَزْم مقدس يهمُّ به يَخالُه جبريل ووحيه، أيزعُم الأفَّاكون الجهلة أنَّه مشعوذ ومحتال؟ كلاَّ ثم كلاَّ»[(٢)].

وجود الروايات الضَّعيفة في تُراثنا:

وهذه مثلبة كُبرىٰ ستلطِّخ عصرنا وأجيالنا الحديثة؛ إذ كيف - ونحن أمَّة السند والمرويَّات وفي عصر الهجمة الكُبرىٰ والتشويه المُمَنْهج - لم تصدر

---

(١) هنري دس كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ترجمة: أحمد فتحي زغلول، مكتبة النافذة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٨م، ص٣٦، ٣٧.

(٢) توماس كارلايل، **الأبطال**، ص٧٥.

حتَّىٰ الآن كتبُ تراثنا مُنقحة ومصفَّاة علىٰ منهج المحدثين في المرويَّات، علىٰ الأقل فيما يتعلق بالقرون الأولىٰ؟!

إنَّ مُحاولات كتابة السيرة الصحيحة فقط، صدرت حديثًا[1]، ثم ظهر فيما بعد كتابات تناقش مرويَّات الفتنة بين الصَّحابة، ولكن حتَّىٰ الآن - وعلىٰ حدِّ علمي - لم تصدر أمهات كتبُ السيرة، معلقًا عليها بالتَّخريج والرُّواةِ ومُناقشةِ الأسانيد[2]، وهو مشروع سيحلُّ كثيرًا من مشكلات تفسير الرِّوايات عَبْر النظر في الرُّواة وطبقاتهم وميولهم وأحوالهم، ويليه في الأهميَّة كتب التاريخ والطبقات؛ مثل: الواقدي، وابن سعد، والطَّبري، وأمثال هذه المصادر.

إنَّه ليصعب علىٰ القارئ أن يتَّهم المستشرق القائل: إنَّ النبي أُعْجِبَ بزينب بنت جحش؛ إذ رآها كذا وكذا، فتغيَّر قلبُه إليها، أقول: يصعب أنْ يُتَّهم مثل هذا بالغَرَض، خاصَّة إذا كان مُجمل ما كتبه من قبل ومن بعد يشهد بغير هذا؛ بل رُبَّما أقول: إنَّ بعض الرِّوايات كانت فتنة لبعض الناس عن الحقِّ، بما تزرعه في نُفُوسِهم من شكوك واستفهاماتٍ تتأيد بمثلها من روايات ضعيفة أخرىٰ، أو بأوجه تأويل تُحمل عليها روايات صحيحة، ومن أمثال هذا: أنَّ عائشة وحفصة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا تآمرتا لتطليق الجَوْنِيَّةِ[3]، أو أنَّ النبي كاد ينتحر من

---

(١) انظر: «مُقدمة السيرة النبوية الصحيحة»، للدكتور أكرم ضياء العمري، و«مقدمة صحيح السيرة النبوية»، للدكتور إبراهيم العلي.

(٢) طرح الدكتور مسفر بن غرم الله الدميني في ورقته البحثية «مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات الإخباريين» المقدمة لمؤتمر بحوث السيرة والسنة بمكة المكرمة ١٤٢٥هـ مشروعًا مهمًّا للموازنة بين منهج المحدثين والمؤرخين في كتابة السيرة، يصلح لأنْ يكونَ منطلقًا متزنًا لكتابة السيرة.

(٣) أخرجه ابن سعد والحاكم وضعَّفه الذهبي، وحكم الألباني بوضعه، ومدار الرِّواية علىٰ مَتْروكَيْن هما: هشام بن محمد الثعلبي، والواقدي؛ انظر: «السلسلة الضَّعيفة والموضوعة»، برقم ٢١٤٤.

يأسه؛ لانتظار الوحي أوَّل البعثة[١]... وهكذا، ثم ما أدراك بروايات الفتنة الكُبرىٰ؟ وكفىٰ بها سببًا في ضلال كثيرين.

ولا يَسَعُنا أن نقول: إنَّه كان ينبغي لهم أنْ يُفرِّقوا بين صحيح الأقوال وسقيمها، فتلك مُهمَّتنا بالأساس، ثم إنَّهم - وهم الغربيُّون الغريبُون عن روحنا وتُراثنا - ليسوا بأهل أنْ يقوموا بهذه المهمة علىٰ وجهها، ثُمَّ من يُلزم كل كاتب في الإسلام أنْ يتعلَّم أصولَ الجرح والتعديل والإسناد؛ كي يكتب عنَّا؟! وماذا يكون نفعنا في الدنيا إذًا؟! ثم نحن نعرف صُعُوبة هذا العلم؛ مما لا يكاد يجيده إلاَّ القلائل النادرون في أُمَّتنا ذاتها.

وصحيح أن صاحب الغرض والهوىٰ لا يُؤمن ولو جئته بكُلِّ آية، ولكن الأصحَّ منه أننا لم نعذر أنفسنا أمام الله، فلم نأتِهم بعدُ بكل آية، وعندها فقط يُمكننا أن نتحدث بيقين عن الهوىٰ والغرض والمؤامرة علىٰ الإسلام.

ثم الهوى والغرض:

وبَعْدَ كل هذا يظل احتمالُ الهوىٰ والغرض واردًا، فإنَّ الله خلق للبشر ضمائر لا تزالُ تلحُّ عليهم بالحقِّ، ولا بُدَّ لكل صاحب باطل أن يلتمسَ لنفسه الأعذار والتبريرات؛ بل قد يحولها إلىٰ مبادئ ومُعتقدات؛ كي يسكت صوت الضَّمير هذا.

والبشر بعدُ أطيافٌ وأنواعٌ ومناهل وثِمارٌ مُختلف أُكله، ولا يُسقىٰ بماء واحد، غَيْرَ أنَّ الرمي بالغرض والهوىٰ ينبغي أن يقالَ به بعد دراسة مُستوعبة

---

(١) وهو موجود في البخاري، باب بَدْء الوحي إلىٰ رسول الله ، ولكنَّها من «بلاغات الزهري» التي لا يستشهد بها ولا تعدُّ من الصحيح؛ لانعدام السَّند الموصول كما يقول عُلماء الحديث، =
= ومثل هذا من الأُمُور الدقيقة التي تخفىٰ علىٰ كثيرين، فما بالنا بمستشرقين؟! وانظر في تحرير هذا: «فتح الباري»، ١٢/ ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٦، تحقيق: عبد القادر شيبة الحمد، طبعة الأمير سلطان بن عبد العزيز.

ومُنصفة، لا أنْ يكونَ أوَّل تهمة نرمي بها كلَّ من أخطأ.

ويُمكن أن ننسب إلىٰ «الهوىٰ» بعضَ ما يحدث أحيانًا في كتابات بعضٍ مِن هؤلاء، من عرض مسرحيٍّ لبعض الأحداث، يُعينهم في هذا رواياتٌ ضَعيفة سيِّئة مسطورة في كُتُب التُّراث، فإذا وقعت مثلُ تلك الروايات علىٰ صُدورٍ صدرت عن آداب وثقافات غربيَّة لم تُحرَّر من الهوىٰ، أنبتت غراسًا يقبلونه هم، ونعده نحن إساءة بالغة[1].

وبهذا يستوي بيان هذا الأمر المشكِل، فإنِّي أنزه أُمَّتنا أن ترمي المخالفين عن قَوْس واحدة، فهذا ما لم يفعلْه أوَّلُنا ولا آخرنا، ولسنا كالغربيِّين في العصور الوسطىٰ؛ إذ كانوا يؤلفون الأكاذيب عن الإسلام العدو؛ حتَّىٰ يَنْفُرَ منه الناسُ، فلا هذه عدالة أمَّة تشهد علىٰ الأمم يوم القيامة، ولا نحن بالمرعوبين الذين نخشىٰ الفناء وانتصار الأعداء.

وإنَّا وإن كنا في خِضَمِّ معركة مُلتهبة، وجو المعارك أقرب، يَميل إلىٰ أن يجعل الناس مُعسكَرَين لا ثالثَ لهما، إلاَّ أننا أمَّة ناضجة العقل، ولو كان يحكمُنا من هو منَّا وعلىٰ مذهبنا؛ لكنَّا حقَّقنا النصر منذ زمن.

ألا ترىٰ إلىٰ أن النهضة الفكريَّة للأُمَّة أسبق بما لا يُقارَن بنهضتها العلميَّة والعسكريَّة والسياسيَّة؟!

لأنَّ الأولىٰ قسمة منها في أيدي الشُّعوب، أمَّا الثانية فلا يدَّ للشعوب فيها.

---

(١) أكثر نموذج حَفَلَ بمثل هذا - علىٰ حدِّ ما قرأت - كتاب بودلي «الرسول، حياة محمد».

الباب الثاني

في وادي المحن

قال أبو البقاء الرندي ينعىٰ الأندلس:

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرَّات وأحزان

وللحوادث سلوان يهوِّنها ... وما لما حلّ بالإسلام سلوان

قد طال ليل هذه الأمة، ولكنه لا ينبلج الفجر إلا إن نهض من ذلك الليل رجال تشوقوا للنور القديم الذي أشرق علىٰ الدنيا وأشرقت به النفوس، فأبغضوا هذا الليل وسعوا في انتزاع الفجر من بين سدوله.

إلا أنهم مع هذا لم يبغضوه بُغض من جهله، بل لا بد لهم من العلم به والفقه في أسباب حلوله وأسباب زواله، فهم إذا جهلوا الليل جهلوا النور، ولم يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية، ولم يستطع النهوض من لم يعرف من أين جاءته الضربات والطعنات، ومن أين يكون الاحتراس والاحتياط، وكيف يكون الصحو والإيقاظ.

هذا الباب أخاديد في وادي المحن، نضع بها اليد علىٰ الجرح، نعرفه ونشخصه، لكي نشرع في العلاج إن شاء الله تعالىٰ.

- إبراهيم باشا مؤسس النفوذ الأجنبي في بيت المقدس.
- التطور الاجتماعي في مصر بين رحلتي بتس وبيرتون.
- علىٰ حافة المحنة الأندلسية.
- محنة قناة السويس.

إبراهيم باشا مؤسس النفوذ الأجنبي في الشام

تعد السنوات العشر التي حكمت فيها السلطة المصرية الشام زمن محمد علي من أهم السنوات التي ينبغي دراستها في باب التأسيس للنفوذ الأجنبي في تلك المنطقة، وهي الحقبة التي مهدت فيما بعد لعصر الاحتلال، ولإنشاء الكيان الصهيوني[١].

لم ترحل آثار هذا الحكم برحيله عام ١٨٤١م، وإنما استطاعت القوىٰ اليهودية -المالية علىٰ وجه التحديد- والقوىٰ السياسية الأجنبية البناء علىٰ ما تركته هذه الفترة من تغيرات في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولم تتمكن السلطنة العثمانية من إعادة الأوضاع إلىٰ ما كانت عليه من قبل.

تبحث هذه الورقة في تلك التغييرات التي أحدثتها سلطة محمد علي في الشام لذلك العهد، معتمدة بشكل رئيسي علىٰ المصادر الأساسية لتواريخ تلك الفترات من شهود العيان أو من الطبقة التالية لمؤرخي هذه الفترة، بالإضافة إلىٰ الوثائق المحفوظة لذلك العهد والتي استخرجها الدكتور أسد رستم في عمليْه الكبيريْن «المحفوظات الملكية المصرية» والواقعة في أربعة مجلدات وهي عبارة عن وصف لكل وثيقة محفوظة متعلقة بالشام في الأرشيف المصري، و«الأصول العربية لتاريخ سورية» الواقعة في خمسة مجلدات.

لقد كانت مدينة بيت القدس جزءًا من الشام الذي وقع تحت هذه السياسة، ولذلك لا يمكن فصل ما جرىٰ في بيت المقدس عما جرىٰ في عموم

---

(١) بحث مقدم للمؤتمر الأكاديمي الدولي السادس «العثمانيون وبيت المقدس»، المنعقد في اسطنبول، بتاريخ ١٠ - ١١ ديسمبر ٢٠١٦م.

الشام، غير أن القدس بما لها من مكانة خاصة حظيت ببعض الإجراءات الخاصة التي ستتناولها هذه الورقة ضمن البحث العام في شأن الشام.

وبالرغم من أن كاتب هذه الورقة له موقف مضاد من حكم محمد علي وأسرته في مصر والشام، إلا أن الورقة التزمت بالاعتماد علىٰ المصادر المعجبة بتلك الفترة والتي تكيل الثناء الكبير لمحمد علي وولده إبراهيم باشا سواء ما كان منها مصريا أو ما كان من مصادر نصرانية شامية، بالإضافة إلىٰ الوثائق، وإلىٰ المصادر الأجنبية التي تنحاز عمومًا إلىٰ جانب محمد علي و«إصلاحاته»! ولم تنقل الورقة عن مصدر وحيد كان له موقف مضاد لهذه الفترة. ولا يوافق كاتب هذه الورقة علىٰ المصطلح المشتهر لهذه الفترة بأنها «الحكم المصري» للشام، ذلك أن الشعب المصري كانوا كإخوانهم في الشام مقهورون تحت هذه السلطة، لم يختاروا سياستها ولم يوافقوا عليها، وإن دعمها كثيرون باللسان أو بالسنان بحكم غلبة السلطة وتمكنها واستقرار دولتها لقرن ونصف القرن.

محمد علي والبلاط الأجنبي

استحدثت سلطة محمد علي عددا من الإجراءات التي كان جماعها فتح أبواب الهجرة الأجنبية إلىٰ الشام وإلىٰ بيت المقدس علىٰ وجه الخصوص، وذلك عبر الرفع الدائم من شأن الأجانب الذين اتسع نفوذهم اتساعًا واسعًا وصارت لهم الكلمة العليا في معظم شؤون الحكم ما مثَّل انقلابًا حقيقًا في ميزان العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الأجانب وبين أهالي البلاد.

لقد كان بلاط محمد علي أجنبيًا، وكان رجال حكمه من الأجانب، الفرنسيين خصوصًا، وكانت دولته محسوبة علىٰ فرنسا في الصراع العالمي بين الإنجليز وفرنسا ذلك الوقت، وقد نقل المؤرخ إلياس الأيوبي المعجب بمحمد علي أن لفرنسا يد في توليته حكم مصر، إذ لما فشلت حملة نابليون أرادت

فرنسا أن تبحث في العساكر العثمانيين عن رجل تمهد له حكم البلاد فيكون رجلها، فقام تييه ديليسبس -القنصل الفرنسي- بهذه المهمة واستطاع «اكتشاف» محمد علي، ثم أتم السفير الفرنسي في الآستانة سبستياني المهمة بالضغط علىٰ السلطان لتوليته حاكمًا لمصر، ولا ينقص هذا من مهارة ودهاء محمد علي الذي أدار معركته بين القوىٰ المصرية حتىٰ جعل نفسه مطلبها الذي أصرت عليه في وجه السلطان العثماني[١].

ولئن كان مفهوما كثرة الفرنسيين في بلاط محمد علي إلا أن المثير للشكوك هو استكثاره من اليهود، فلقد كانت «نظرته العملية وتطلعاته الإصلاحية كانت في صالح اليهود، فلقد استخدم اليهود في الإدارة، وحررهم من الابتزازات المالية التي فُرِضَت عليهم في الماضي، بل إنه شجع هجرة اليهود إلىٰ مصر»[٢]، واليهود من ناحيتهم لم يتأخروا بل بدؤوا في التدفق علىٰ مصر ليشاركوا بقوة في النشاط الاقتصادي، حتىٰ صارت مصر الموضع الوحيد في الدولة العثمانية التي فيها «شارك اليهود بشكل كامل في حركة الإصلاحات بتحفيز من ذلك المستبد (محمد علي)»[٣].

انعكست هذه السياسة علىٰ الوضع في الشام، فقد اتخذ إبراهيم باشا عددًا من الإجراءات التي قلبت الموازين، من أهمها:

---

(١) انظر: إلياس الأيوبي، **تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل**، ط٢ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦م). ١/ ٣٢٨ وما بعدها. وهو ينقل هذا عن مذكرات فريدناند ديليسبس ابن القنصل الفرنسي المذكور، وصاحب امتياز قناة السويس.

(٢) ميخائيل فنتر، **علاقات اليهود مع السلطات والمجتمع غير اليهودي**، ضمن: يعقوب لانداو (تحرير)، «**تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية**»، ترجمة جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد، تقديم ومراجعة: محمد خليفة حسن، (القاهرة: المجلس الأعلىٰ للثقافة، ٢٠٠٠م) (ص٥٢٢).

(3) Stanford J. Shaw, **The Jews of the Ottoman Empire and the Turkish Republic**, (Hampshire: Macillan Press LTD, 1991), p. 158.

أولاً: تشجيع الحجاج اليهود والنصارى على التدفق إلى بيت المقدس

ما إن دخل إبراهيم باشا إلىٰ بيت المقدس حتىٰ أذاع أمرًا عامًا، وجهه إلىٰ قاضي القضاة وشيخ مسجد عمر والمفتي والنائب وسائر السلطات، أزال به كل الضرائب التي كانت تؤخذ من الحجاج المسيحيين واليهود إلىٰ بيت المقدس، هذا نصه:

«في القدس معابد وأديرة وأماكن للحج تأتي إليها من أبعد البلدان كل الشعوب المسيحية واليهودية من مختلف الطوائف الدينية. وكانت ترهق هؤلاء الحجاج إلىٰ الآن ضرائب ضخمة في أداء نذورهم وفرائض دينهم. ورغبة منا في استئصال هذا العسف، نأمر كل متسلمي إيالة صيدا وسنجقيْ القدس ونابلس بإلغاء هذه الضرائب علىٰ كل الطرق بلا استثناء. يقيم في أديرة القدس وكنائسها رهبان ومتعبدون لقراءة الإنجيل وأداء الطقوس الدينية لمعتقداتهم. والعدل يقتضي أن تعفىٰ من كل الضرائب التي فرضتها عليها السلطات المحلية بشكل تعسفي. ولهذا نأمر بأن تلغىٰ إلىٰ الأبد كل الضرائب التي تُجبىٰ من أديرة ومعابد كل الشعوب المسيحية المقيمة في القدس من يونانيين وفرنجة وأرمن وأقباط وغيرهم، وكذلك الضرائب القديمة والجديدة التي يدفعها الشعب اليهودي. ومهما كانت الذريعة أو التسمية التي تؤخذ بها هذه الضرائب هدية عادية وطوعية أو إلىٰ خزينة الباشوات أو في مصلحة القضاة والمتسلمين والديوان وما شابه ذلك، فإنها جميعًا ممنوعة منعًا باتًا. وتلغىٰ علىٰ حد سواء الكفارة التي تجبىٰ من المسيحيين عند دخول كنيسة قبر السيد المسيح أو عند التوجه إلىٰ نهر الشريعة (الأردن). وعليكم، ما إن نقرأ هذا البيورلدي (الأمر)،

أن تسارعوا إلىٰ تنفيذه كلمة كلمة، وتوقفوا فورا جباية كل الضرائب المذكورة أعلاه وغيرها من الضرائب القائمة علىٰ العادة وكل مطلب من أديرة القدس ومعابدها العائدة إلىٰ مختلف الشعوب [الأديان] المسيحية واليهودية، شأن الكفارات، كأمر مناف للقانون. بعد إعلان هذا الأمر سيُعاقب بصرامة كل من يطلب أقل إتاوة من المعابد والأديرة المذكورة والحجاج»[(١)].

وطبقا لرواية قسطنطين بازيلي السفير الروسي في يافا -وهو من أصل يوناني ومعجب بإبراهيم ومحمد علي- فقد أعلن إبراهيم باشا فيما بعد أن اليد التي تأخذ نقودا من الحجاج في جبال اليهودية سوف تُقطع، وبالفعل قطع يد اثنين أو ثلاثة، «فلم يعد أحد يجرؤ علىٰ انتهاك قانونه»[(٢)].

وإلىٰ هذا فقد وجَّه محمد علي إلىٰ إصلاح أديرة رهبان الروم في يافا وقيسارية، وبنىٰ محجرًا صحيًا في يافا للحجاج الروم القادمين إلىٰ بيت المقدس، ثم وجه إلىٰ شريف باشا بوجوب تقديم المساعدات الإدارية اللازمة لمدير الحجر الصحي، وجعل ما يدفعه أولئك الحجاج تحت تصرف رهبان الروم والأرمن[(٣)]، وهو إجراء يدل علىٰ حرصه أن يكون لهم استقلال مالي! وهو أمر غريب علىٰ سياسة رجل يؤسس دولة حديثة ونظامه الاقتصادي احتكاري!!

ولم يكن أمر إبراهيم باشا خاصًا ببيت المقدس وحده، بل كان برنامجًا لسياسة إبراهيم إزاء المسيحيين السوريين»، وكانت كلماته «تشكل عصرًا

---

(١) قسطنطين بازيلي، **سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني**، ترجمة: طارق معصراني، (موسكو: دار التقدم، ١٩٨٩م) ص١١٤؛ داود بركات، **البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام ١٨٣٢م**، (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م)، ص٣٥.

(٢) قسطنطين بازيلي، **سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني**، ص١١٦.

(٣) أسد رستم، **المحفوظات الملكية المصرية**، ٣/ ١٣٤. (وثيقة رقم ٤٦٣٧ بتاريخ ١٦ ربيع الأول ١٢٥٢هـ= ١ يونيو ١٨٣٦م).

جديدًا بالنسبة إلىٰ المسيحيين في الشرق»[1].

انتعش وضع اليهود والنصارىٰ الأجانب وغير الأجانب، وقد أعيد ترميم وبناء كُنُسٍ جديدة[2]، بلغ عددها تسعة معابد لليهود وصفتها وثيقة بأنها «أُنْشِأت من جديد بالقدس»[3]، وهذا أمر «لم يُعهد له نظير في الإمبراطورية العثمانية أن يُمنح المسيحيون الحرية لتجديد معابدهم وأديرتهم في كل مكان، وحتىٰ لبناء الجديد منها دون أن يشتروا شهادات من المحكمة الإسلامية (إعلاما) بضرورة أعمال التصليح والبناء ولا إذنا من السلطات المحلية»[4]، وقد وقع الخلاف أحيانا بين اليهود أنفسهم حول بناء معابد جديدة أم استثمار الأماكن في بناء مساكن لاستيعاب اليهود المهاجرين المتدفقين الذين لا يجدون مأوىٰ لهم[5]. بمعنىٰ أن بيت المقدس عانىٰ

---

(١) قسطنطين بازيلي، **سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني**، ص١١٥، ١٦٢.

(٢) مما يثير الانتباه هنا أن استيلاء إبراهيم باشا علىٰ بيت المقدس كان بتاريخ (٣ رجب ١٢٤٧هـ = ٨ ديسمبر ١٨٣١م)، ونجد وثيقة مؤرخة بـ«أوائل رجب» فيها تصريح من قاضي بيت المقدس إلىٰ حاخام اليهود بترميم كنيس اليهود في بيت المقدس، أي أن ترميم معابد اليهود كان أولوية أولىٰ لدىٰ إبراهيم سابقة حتىٰ علىٰ تمكين سلطته في باقي أنحاء الشام، إذ لم تكن عكا قد سقطت أمامه بعد، وهي في ذلك الوقت عاصمة الإقليم ومركز قوته، وفيها الجزار باشا وجيشه.

انظر الوثيقة في: أسد رستم، **المحفوظات الملكية المصرية** ١/ ١٣٦، (وثيقة رقم ٣٦٤).

(٣) أسد رستم، **المحفوظات الملكية المصرية**، ٤/ ٢٩٦ وما بعدها، (وثيقة رقم ٦٢٠٦ بتاريخ بتاريخ ٤ محرم ١٢٥٦هـ)، ٤/ ٣٨٥ (وثيقة رقم ٦٣٤١ بتاريخ ١٦ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ).

(٤) قسطنطين بازيلي، **سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني**، ص١٦٢. وينبغي لفت النظر إلىٰ ما أشار إليه المؤلف نفسه من أن التقييدات القانونية إنما كانت في حالة تشابك القضية بين المقدسات الإسلامية والمسيحية واليهودية خصوصا في بيت المقدس، أما ما كان شأنا داخليا بين أهل الدين الواحد فلم يكن يحتاج لهذه التقييدات.

(٥) كارين أرمسترونج، **القدس: مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ترجمة: د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، (القاهرة: سطور، ١٩٩٨م)، ص٥٦٤.

يومذاك من فائض في المعابد اليهودية وفائض في الهجرة اليهودية.

ومع كل هذا الاهتمام بمعابد وكنائس اليهود والنصارىٰ فإن المساجد تعرضت لاستفزازات قاهرة، فقد انتزعت بعض المساجد وحولتها إلىٰ منازل للعساكر «حتىٰ المسلمين كادت تفقع مرايرهم» وهم عاجزن لا يستطيعون فعل شيء[١]، وهذا غيض من فيض إذ أن سياسة إبراهيم باشا تجاه المسلمين وأهالي البلاد حافلة بالغرائب والفظائع غير أنه أمر لا يدخل في نطاق بحثنا هذا.

كذلك فقد سُمِح لليهود والنصارىٰ بما لم يكن لهم قبل ذلك مثل زيارة قبر النبي يعقوب[٢]، وهذا كله كان يعني انقلابًا في خرائط القوىٰ الاقتصادية والاجتماعية والدينية في البلاد.

وفي النهاية أدت تدابير إبراهيم وإسقاطه أي ضرائب علىٰ الحجاج الأجانب القادمين إلىٰ القدس ثمارها، إذ «فتحت للحجاج الطريق إلىٰ فلسطين، ففي السنتين الثانية والثالثة من الحكم المصري بلغ عدد اليونانيين والأرمن الذين توجهوا من كل المناطق التركية إلىٰ القدس ١٠ آلاف شخص»[٣]. ثم تضاعف هذا العدد في السنة التالية (١٨٣٤م) وفيها أمر إبراهيم بفتح «درفة الباب الثانية أي درفة باب القيامة لأن من عهد سيدنا عمر الخطاب [هكذا[٤]] لم انفتحت وأمر أن لا يكون غفار (خفر) في الدروب ولا ورقة في

---

(١) مجهول، **مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا علىٰ سوريا**، تحقيق وتقديم: أحمد غسان سبانو، (نسخة إلكترونية)، ص٦٦.

(٢) أسد رستم، **المحفوظات الملكية المصرية**، ٢/٣٢٦، (وثيقة رقم ٣٠١٥ بتاريخ محرم ١٢٤٩هـ).

(٣) قسطنطين بازيلي، **سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني**، ص١١٧.

(٤) كتاب مذكرات تاريخية هو مصدر معاصر في غاية الأهمية لكنه مجهول المؤلف، ويكثر في عبارته العامية الدمشقية والأسلوب اللغوي الركيك، ولذا ننبه أننا لم نتدخل في العبارة إلا حيث يتحتم التوضيح بين معقوفين [ ]، مع إضافة بعض التشكيل وعلامات الترقيم عند الضرورة.

باب القيامة وأن الزاير لا يحط (شيئًا) لا كلي ولا جزئي [أي: لا ضرائب] فبهذا السبب اجتمع زوار كثير»[١].

وقد فتُحت هذه التسهيلات دون أي استعدادات أو إجراءات تنظيمية، حتىٰ أن الحجاج تزاحموا علىٰ كنيسة القيامة إلىٰ درجة أن أهلك بعضهم بعضا، وقُتِل منهم مائتين وكاد إبراهيم باشا نفسه أن يهلك لولا أن أُنْقِذ بصعوبة[٢]. وهو ما يثير الحيرة والشك حول مغزىٰ هذا الاستعجال في إعطاء كل تلك التسهيلات التي لا تتحملها البنية التحتية للمدينة المقدسة.

لكن الأمر لم يقتصر علىٰ الحجاج فحسب، بل فُتِحت بيت المقدس للأجانب ولو بغرض التنزه والسياحة، ثم تحميهم بمجموعات عسكرية، وهو أمر اندهش له اليوناني الذي يعمل قنصلا لروسيا، ورأىٰ فيه مجرد إهانة للمشاعر الدينية للشعب بلا فائدة، يقول: «عوضا عن أن يقتصر الباشا علىٰ اللجم الحكيم لتعصب الشعب، أهان بلا فائدة شعور الشعب الديني نفسه، وسُمِح للكثير من الرحالة الأوروبيين بزيارة مسجد عمر في القدس الذي يعتبر قدس الإسلام الثاني بعد حرم مكة. لا شيء كان في وسعه أن يثير وساوس أشد لدىٰ سكان القدس المتعصبين. لقد نشج خدم مسجد عمر المسنّون لهذا الانتهاك الذي لم يعهد له نظير من قبل في العالم الإسلامي، وفي كل مرة عند زيارة الأجانب للمسجد كان علىٰ السلطات المحلية أن تحيط نفسها وضيوفها بفصيلة عسكرية لدرء فورة التعصب في المشاهدين»[٣].

ومما هو مثير للدهشة أن إبراهيم باشا وهو مهزوم ومنسحب ومضطر لتسليم البلاد، جَمَعَ أعيان دمشق ليختاروا الحاكم الذي سيسلم له المدينة ثم

(١) مجهول، **مذكرات تاريخية**، ص٦٩.
(٢) مجهول، **مذكرات تاريخية**، ص٧٠.
(٣) قسطنطين بازيلي، **سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني**، ص١٦٥.

أعلن فيهم «ألا يمسوا النصارىٰ واليهود بسوء، فإذا هم لم يرعوا أوامره يرتد إليهم بقوة من جيشة ويحل بهم أشد العقاب»[(١)]!

أثمر كل هذا تضخمًا كبيرًا في أعداد اليهود والنصارىٰ مقارنة بعدد المسلمين في مدينة بيت المقدس، وطبقًا لإحصائية غربية فقد بلغ تعداد سكانها في العام (١٨٥٠م): ٥٣٥ مسلمون، ٣٦٥٠ مسيحيون، ٦٠٠٠ يهود[(٢)]. أي أن اليهود صاروا أغلبية ساحقة بينما صار المسلمون أقلية صغيرة.

ثانيًا: تقديم التسهيلات للأجانب

كان من أول ما فعله إبراهيم في الشام أن «أذن للتجار الأجانب بأن يبتاعوا ويبيعوا في داخل البلاد، وقد كان محظورًا عليهم الإتجار مع غير بعض المواني في الساحل»[(٣)]، وتظهر الوثائق أن محمد علي سمح للإنجليز ولغيرهم من الأوروبيين بتجارة التنباك بغير تدخل ولا إشراف من الدولة، برغم أن مستندهم في هذا فرمان مبهم غامض[(٤)]، كذلك فقد فتح إبراهيم باشا «أبواب دمشق للأوروبيين، وكان دخولها محرما عليهم»[(٥)].

ويروي داود بركات، في كتابه الذي ألفه لمدح إبراهيم باشا، أن الحكومة المصرية «سَهَّلت قدوم الإفرنج من مرسلين وتجار وسواهم، فأنشأوا

---

(١) داود بركات، **البطل الفاتح إبراهيم**، ص١٨٥؛ قسطنيطن بازيلي، **سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني**، ص٢٥٩.

(٢) كارين أرمسترونج، **القدس**، ص٥٦٧.

(٣) داود بركات، **البطل الفاتح إبراهيم**، ص١٣٣.

(٤) أسد رستم، **المحفوظات الملكية المصرية**، ٣/ ١٣٥، (رقم الوثيقة ٤٦٤٢ بتاريخ ٢٢ ربيع الأول ١٢٥٢هـ = ٧ يونيو ١٨٣٦م).

(٥) داود بركات، **البطل الفاتح إبراهيم**، ص١٣٢.

المدارس»[١]، لكن الذي كتمه ولم يظهره كشفته دراسات يهودية أخرىٰ تحدثت عن المدارس التي أسسها اليهود الأوروبيون أمثال موسىٰ مونتفيوري وأدولف كريميه وسلومون مونك الذين قصدوا إلىٰ إنشاء مدارس حديثة يتعلم فيها الشباب اليهودي بالمعايير الحديثة[٢]، ليتحقق لهم نوع الاستقلال التي تجعلهم «ليسوا بحاجة لليهود الغربيين للدفاع عنهم»[٣].

وبعد أن كانت الوظائف العليا الحساسة محظورة علىٰ غير المسلمين، قلدت الحكومة المصرية «من المسيحيين الوطنيين والإفرنج الوظائف في الجيش والدولة، ومنحتهم الرتب والألقاب»[٤]، حتىٰ في بيت المقدس صار الأجانب مشاركين في الحكم والإدارة، فقد رُتِّب «مجلس شورىٰ القدس» الذي يتولىٰ التنظيم الإداري فيها علىٰ نمط لا سابقة له، إذ صار مكونا من أربعة عشر عضوا فيه ممثل عن اليهود «الخواجه رونه»، وممثل عن الأجانب «يوسف» وممثل عن الأرمن «ياقوب حاسر»، وكان القائم علىٰ خزينة بيت المقدس «الخواجه أنطون أيوب»[٥].

وصاروا يطالبون بالترخيص بمشروعات اقتصادية، وقد سُمِح للحاخام الإسرائيلي بإنشاء طاحون كبير، كما سُمِح لليهود بتعليم الجنود صنع العباءات[٦]، وطلبوا كذلك الترخيص «لهم بمشترىٰ الأملاك وأراضي الزراعة

---

(١) داود بركات، **البطل الفاتح إبراهيم**، ص١٨٩.

(2) Stanford J. Shaw, **The Jews of the Ottoman Empire**, p. 158.

(3) Jonathan Frankel, **The Damascus Affair: 'Ritual Murder', Politics, and the Jews in 1840**, (Cambridge: Cambridge University Press, 1997), p.376.

(٤) داود بركات، **البطل الفاتح إبراهيم**، ص١٨٩.

(٥) أسد رستم، **الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا**، (بيروت: منشورات كلية العلوم والآداب، الجامعة الأمريكية في بيروت) ٥/ ٢٢٤، ٢٢٦.

(٦) أسد رستم، **المحفوظات الملكية المصرية**، ٢/ ٣٢٦، (وثيقة رقم ٣٠١٢، ٣٠١٥ بتاريخ محرم ١٢٤٩هـ).

وتعاطي الحرث والزرع وتعاطي البيع والشراء وبيع الأغنام والأبقار، وتعاطي مَصَابِن ومعاصر[١] بناء يدفعوا المرتب للميري مثل الرعايا، هذا مضمون استعلامهم» وأرفق بهذا الطلب رأي مجلس شورىٰ القدس الذي يرفض الموافقة علىٰ هذا المطالبات التي «ما سبق لها أمثال» والتي هي تصرف في أراضي «ميرية ووقفية، فالتماسهم بذلك لا يوافق حكم الشريعة ما عدا تعاطي البيع والشرا بالتجارة التي يجلبوها من بلادهم من أنواع التجارة»[٢].

ثالثًا: تضخم نفوذ القناصل الأجانب

افتتحت القنصلية البريطانية في القدس لأول مرة في عهد سلطة محمد علي (١٨٣٩م)، وهي القنصلية التي ستتولىٰ حماية اليهود والبروتستانت المسيحيين في بيت المقدس والشام، وستبذر في هذه الأرض البذور الأولىٰ للصهيونية بما كان لها من النفوذ، وكان ويليام تيرنر يونج أول قنصل في القدس، و«قد اهتم علىٰ وجه خاص بيهود الإشكنازيم، وأيضا كانت بريطانيا تود إنشاء «محمية» لها في القدس احتذاء بفرنسا وروسيا حيث إنه لم تكن هناك طائفة بروتستانتية يسبغ القنصل عليها حمايته، فقد وجد أن اليهود الأوروبيين كانوا دون كفيل أجنبي، ومن ثم نَصَّب نفسه راعيا لهم... وبحلول شهر ديسمبر من عام ١٩٣٨، ونتيجة لمساعي يونج الحميدة تم السماح للجمعية اللندنية لترويج المسيحية والتي تُعرف أيضا «بجمعية لندن لليهود» بالعمل في القدس. وبدأت طلائع المبشرين البروتستانت في الوصول إلىٰ المدينة المقدسة»[٣].

لقد أسست سياسة إبراهيم لنفوذ القناصل الأجانب، إذ كانت القوانين

---

(١) جمع مصبنة من صناعة الصابون ومعصرة.

(٢) أسد رستم، **الأصول العربية لتاريخ سورية**، ٣/ ٦٥، ٦٦. (وثيقة بتاريخ ٢٤ محرم ١٢٥٣هـ).

(٣) كارين أرمسترونج، **القدس**، ص٥٦٥، ٥٦٦.

تدفع بالأموال -ومن ثم النفوذ والعلاقات الاجتماعية- لتستقر في حجر القناصل، لقد «أتيح للأجانب ولقناصل الدول أن يكونوا أحرارا في البلاد، وأن يتَّجروا بلا عائق ولا مانع مع أن تجارتهم كانت محصورة ببعض الموانئ، ولكن القناصل الذين اتخذوا الامتيازات تكأة لهم أَلَّفوا من أنفسهم دولة في الدولة، وكانوا يعطون الحماية لمن أرادوا. وبما أن متاجر الأجانب كانت تدفع ٣ بالمائة ومتاجر الرعية كانت تدفع ٢٠ بالمائة، فقد أخذ القناصل أكثر التجار تحت حمايتهم ليعفوا من زيادة الرسوم الجمركية»[١].

وقد استثمر اليهود هذا الوضع المريح فأقدموا علىٰ محاولة الاستيلاء علىٰ حائط البراق من المسجد الأقصىٰ، وأعانهم علىٰ هذا القناصل، وقد احتفظت لنا السجلات بوثيقة تتضمن شكوىٰ شيخ المغاربة في بيت المقدس إلىٰ إسماعيل عاصم حكمدار حلب من أن اليهود ما زالوا يتعاظم أمرهم ويزيدون في الإيذاء عند حائط البراق، فمن بعد ما كانوا يزورون الحائط زيارة عادية هادئة صارت تتعالىٰ أصواتهم وتتكاثر أعدادهم ويزيدون طقوسهم حتىٰ كأنه صار كنيسا لهم، ثم أرادوا أن يُبَلِّطوا الأرض التي أمام الحائط، وهو أمر جديد لم يسبق لهم أن تجرأوا عليه، ثم إنه سيؤدي إلىٰ إغلاق طريق مؤدٍ إلىٰ وقف إسلامي آخر بتلك المنطقة، وقد دُعِمت شكوىٰ شيخ المغاربة بقرار من «مجلس شورىٰ القدس»، ومن ثَمَّ قرر إسماعيل عاصم منع اليهود من إحداث شيء جديد، لكن ما لبث أن جاء أمر من القنصل الإنجليزي إلىٰ متسلم القدس بأن يسمح لليهود بما أرادوا، فأصدر متسلم القدس أمرا بالسماح، ثم اعترض مجلس شورىٰ القدس، فرُفِع الأمر لإبراهيم باشا الذي لم يبال به وفوض إسماعيل عاصم في القرار، وهو ما مآله عمليا إمضاء رغبة اليهود المدعومة بقوة القنصل الإنجليزي[٢].

(١) داود بركات، **البطل الفاتح إبراهيم**، ص١٤٣.

(٢) أسد رستم، **المحفوظات الملكية المصرية**، ٤/ ٢٩٤ وما بعدها، (رقم الوثيقة ٦٢٠٥ بتاريخ ٤ محرم ١٢٥٦هـ).

وكان القناصل يستخدمون نفوذهم في الدفاع عن غير المسلمين من أهالي الشام، ومن غريب ما وقع في مثل هذا الأمر أن المسلمين كانوا يتخذون زي اليهود ليتخلصوا من التجنيد الذي لم يكن يشمل اليهود والنصارىٰ، فانتبه إلىٰ هذا المكلف بجمع، أو بالأحرىٰ: خطف، الشباب للتجنيد فأخذ يجمع الكل، فأخذ ضمن من أخذهم جملة من اليهود والنصارىٰ، ورغم أن الخطأ لم يستغرق سوىٰ ساعات إذ بدأ شباب اليهود والنصارىٰ يعودون في عصر اليوم نفسه إلا أن السلطة عاقبت اليوزباشي الذي لم يتحقق في جمعه أُخِذ منه سيفه ونيشانه وضُرِب بالسياط أمام القنصل الفرنسي بودين وأُنْزل رتبتيْن[1].

وذات يوم وقعت جريمة قتل لأحد رهبان النصارىٰ (حادثة الباديري)، فجندت لها سلطة الشام كل طاقتها للبحث عن الفاعلين، واتخذت التعذيب سبيلا حتىٰ علىٰ يهودي مشتبه فيه، ومع هذا فقد حضر إليهم يهودي إفرنجي تدل الدلائل علىٰ معرفته بالمجرمين وحاول التشفع في اليهودي المُعذَّب، ثم خرج ولم يُعتقل أو يُحقق معه ولم يُتَتَبَّع، رغم أن خروجه كان لإنقاذ القتلة الذين لم يعترف عليهم بعد اليهودي المقبوض عليه! ثم وبعدما ثبتت التهمة عليهم بالاعتراف والإقرار جاء قرار سيادي من محمد علي بالعفو عنهم لما تحرك إليه اليهود الأوروبيون[2]!

ولقوة نفوذ القناصل كان إبراهيم باشا رغم قسوته العنيفة علىٰ من يتمردون عليه لا يستعمل نفس تلك القسوة مع غير المسلمين، فمن ذلك أنه حين خرَّب الكرك أمهل النصارىٰ ثلاث ساعات يخرجون فيها من البلد وينقلون منها ما استطاعوا من أرزاقهم، ثم اجتاح البلد ونفذ فيها مذبحته فكان

(١) مجهول، **مذكرات تاريخية**، ص٨٠، ٨١.

(٢) مجهول، **مذكرات تاريخية**، ص١١٧، ١٢١، ١٢٢؛ وانظر: إيلي ليفي أبو عسل، **يقظة العالم اليهودي**، (القاهرة: مطبعة النظام، ١٩٣٤م)، ص١٥٤.

عساكره يقتلون من لقوه وينهبون ما وجدوه ثم جعل البلد ركامًا[١]. وتسجل وثيقة عسكرية جملة غريبة ترد في أمر موجه إلىٰ خفتان باشا في جهة دمشق يقول: «نظرا لقيام النصارىٰ في جبل الدروز اجمعوا الهناديين وامكثوا بأثقالكم حيث أنتم وليس لكم أن تعتدوا عليهم في هذه الآونة لأني أريد أن أخمد فتنتهم دون أن أمسهم»!! ثم نجد وثيقة أخرىٰ بأمر عسكري آخر إلىٰ سليمان باشا «بإبداء النصح والعظة إلىٰ الثوار»، ويتكرر هذا الطلب بالنصح والعظة[٢]!!

ومما يُرثىٰ له أن المسلمين اضطروا أن يمتهنوا أنفسهم للقناصل للنجاة من بطش سلطة إبراهيم، وذلك أن قوانين التجنيد الإجباري -التي كانت في ذلك الوقت استعبادًا لا رحمة فيه ولا أمل في النجاة منه- كانت تشمل المسلمين ويُعفىٰ منها المسيحيون واليهود، فكان المسلمون «ذوو المقام النبيل يعملون قواسين وخدما وسواسا عند القناصل الأوروبيين، وحتىٰ عند وكلائهم وتراجمهم من أتباع السلطان، ومن الرعايا المحتقرين ليتجنبوا خدمة الصف استنادا إلىٰ المعاهدات التي تضمن حصانة العاملين في القنصليات»[٣].

لقد أهين الشعور الديني للمسلمين بشدة -كما يقول قسطنطين بازيلي- حتىٰ كان بعضهم يقول لبعض «الدولة صارت دولة نصارىٰ خلصت دولة الإسلام»[٤]، وقد بلغ الحال في ثورة الشام الأولىٰ أن شابا تركيا ذهب من يافا إلىٰ نابلس حيث صنع صليبًا من الخشب، وصعد إلىٰ مأذنة الجامع الكبير في نابلس وبيده ذلك الصليب، فأخذ يصيح من فوق المأذنة: هل ذهب دين محمد

---

(١) مجهول، **مذكرات تاريخية**، ص٧٨.

(٢) أسد رستم، **المحفوظات الملكية المصرية**، ٤/ ٣٥٦ (وثيقة رقم ٦٣١٢ بتاريخ ٣ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ).

(٣) قسطنطين بازيلي، **سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني**، ص١٦٢.

(٤) مجهول، **مذكرات تاريخية**، ص٥٩، ٦٠.

وانقضىٰ؟ هل ارتفع الصليب علىٰ الهلال؟ من كان منكم مسلما فليقاتل هذا النصراني إبراهيم باشا[١].

ويمكن اختصار الانقلاب الذي تم في أحوال الأجانب والقناصل في قصة المستر فارين القنصل الإنجليزي، فقبل حقبة محمد علي لم يكن يستطع أجنبي «التجول في البلاد إذا لم يكن مرتديا بالملابس الوطنية أو يحرسه الجند، حتىٰ إن إنكلترا عينت المستر فلرين قنصلا لها في دمشق في سنة ١٨٢٩، فلم يستطع دخول دمشق وأقام في بيروت»[٢]، وظل مقيما أربع سنوات حتىٰ استولىٰ إبراهيم باشا علىٰ دمشق، فرتَّب له دخولا أسطوريا أورده مؤلف «مذكرات تاريخية» علىٰ هذا النحو:

«كان ترتيب دخوله (هكذا) طَلَع لملاقاته عمر بك أمير اللواء، واستنظره في قصر عبد الرزاق باشا الذي بالمرجة، وصُحْبته ألف عسكري نظام، وكان برفق القنصل حاضر من بيروت أربعة وعشرون خيال في بيارق النظام، وقواصته عدة ثمانية وعبدين وتراجمين ثلاثة وكيخية وخزندار، وحول في قصر عبد الرؤوف باشا عند عمر بك وتفكجي باشي واستقام مقدار نصف ساعة، وقام ركب، ومشيوا قدامه ألف عسكري نظام في الموسيقا، وبين باشي وبعده ثلاثين قواص من قواصه الوزير، بعده الخيالة الذين حضروا معه من بيروت ببيارقهم، وبعده التفكجي باشي وجماعته، وبعده قواصته لابسين طقومة وردي جزايرلي مقصب، وبيدهم عصي فضة مكوبجين (ذات قبضة) علىٰ كسم صليب، وبعدهم التراجمين في الشالات الكشمير في الخيل المنظومة، وبعدهم القنصل راكب علىٰ راس خيل من الخيول الجياد، عدته مشغولة في الصرما، ولابس علىٰ راسه برنيطة محجرة بالألماس، وفي راسها جملة ريش أبيض وأحمر،

---

(١) داود بركات، **البطل الفاتح إبراهيم**، ص١٣٩.

(٢) داود بركات، **البطل الفاتح إبراهيم**، ص١٨٩؛ مجهول، «**مذكرات تاريخية**»، ص٢٥.

ويرمي سلام، ووراه كيخية وخزنداره وعبيده، وتنظر العالم [أي: وترىٰ الناس] منتشرة من عند قصر المرجة شي لا ينحصىٰ. وحكم طريقه علىٰ الدوالك، علىٰ بيت يوسف باشا، علىٰ باب السرايا، علىٰ سوق الأروام وسوق الجديد، علىٰ باب القلعة، علىٰ باب البريد، علىٰ سوق الحرير، علىٰ البزورية، علىٰ ماذنة الشحم، علىٰ الخراب، علىٰ طالع القبة، علىٰ حمام المسك، علىٰ باب توما، علىٰ حمام البكري، علىٰ زقاق القميمم (القميلة)، علىٰ بيته، فكانوا قبل بمدة آخذين له بيت قزيها الذي قدام قناية الحطب، ودخلوا العساكر جميعها لعند بيته فحالًا رفعوا له البنديرة فوق باب البيت علىٰ راس السطوح، وثاني يوم وضع فوق باب البيت نيشان المملكة (الآرما) مصور فيها تاج الملك وحصان وسبع، وكان يوجد قدام باب بيته علىٰ مدة سبعة ثمانية أيام مثل فرجة الحاج (بكثرة الناس فوق بعضها بعض هذا ما كان من مادة دخول القنصل»[(١)].

وهكذا صار القناصل قوة فوق قوة السلطة نفسها، وقد استمر إنشاء القنصليات الأجنبية التي أسس محمد علي لوجودها حتىٰ بعد رحيل سلطته؛ فلقد صار النفوذ الأجنبي قوة حقيقية قائمة، وصار ذلك النفوذ موضع تنافس غربي لا تقوىٰ الدولة العثمانية في حالها آنذاك علىٰ اقتلاعه، «فخلال السنوات الخمس عشرة التالية كانت فرنسا وبروسيا وروسيا والنمسا قد فتحن قنصليات لها في المدينة المقدسة، وأصبح هؤلاء القناصل ذوي حضور بالغ الأهمية في المدينة... بيد أنه كان لكل منهم أجندته السياسية، وكثيرا ما أدىٰ ذلك إلىٰ الصراع في المدينة المنقسمة علىٰ نفسها بالفعل. ووجد السكان المحليون أنفسهم طرفا في صراعات القوىٰ الأوروبية»[(٢)].

---

(١) مجهول، **مذكرات تاريخية**، ص٦٨، ٦٩.

(٢) كارين أرمسترونج، **القدس**، ص٥٦٥.

رابعًا: إنشاء مشاريع لترسيخ النفوذ الأجنبي

لا شك أن المآل الطبيعي لانفتاح دولة محمد علي علىٰ الأجانب ثم حربها الدائمة مع العثمانيين كان يميل بالاقتصاد والمشاريع في منطقة الشام إلىٰ كفة الأجانب، وفي الوقت الذي سمح إبراهيم باشا بكل ما سبق من تسهيلات للأجانب، فإنه اتخذ قرارا بمنع السفن التركية من النزول بمواني الشام، ومنع القوافل الآتية من الأناضول من دخول الشام تخوفا من أنها تحمل البارود مددا للثائرين عليه، مما سبب أزمة تجارية شديدة[١]. هذا مع أن القناصل سيمدون الثوار علىٰ إبراهيم باشا في مرحلة لاحقة حين أريد طرده من الشام، ولن يستطيع أن يفعل معهم مثلما فعل مع سفن العثمانيين.

لكن المحاولة الأخطر كانت مع رجل المال اليهودي الأشهر موسىٰ مونتفيوري، الذي استقبله محمد علي بالبشاشة والترحاب في القاهرة، وهذا الرجل هو صاحب أهم وأقوىٰ محاولة لتوطين اليهود في فلسطين قبل هرتزل، وكان له طموح واسع ومعلن[٢] نحو استيطان اليهود لفلسطين من خلال شراء الأراضي الواسعة لزراعتها، وكانت أمانيه المنشورة تدل علىٰ ضخامة الآمال التي فجرتها سياسة محمد علي لدىٰ اليهود، فهو يريد منه «أن يؤجر لنا مائة أو مائتي قرية لمدىٰ خمسين سنة في مقابل عشرة أو عشرين في المائة تدفع في الإسكندرية من قيمة الإيجار تدريجيا، ويجب أن تكون هذه القرىٰ حرة مجردة من كل مانع ومحذور، أي طليقة من قيود الضرائب والإتاوة كل مدة الإيجار.

---

(١) محمد فريد، **البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية**، تحقيق: د. أحمد زكريا الشلق، ط٢ (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥م)، ص١٦٥.

(٢) أفصح عنه بوضوح في جريدة تصدر في صفد ٢٤ مايو ١٨٣٩ (أي في ظل الحكم المصري) كما نقل ذلك إيلي ليفي أبو عسل.

وللزارعين الحث في بيع تلك الحاصلات في أي بلد من بلدان العالم»[١]، ومع هذا فإن الرواية اليهودية تقول بأن استعداد محمد علي كانت أعلىٰ من طموحات مونتفيوري نفسه لكن المشكلة كانت في أن السلطان هو وحده المخول بالتصرف في الأراضي علىٰ هذا النحو، أما محمد علي فقد تعهد لرجل المال اليهودي «بالترخيص لليهود في شراء أية مساحة يستطيعون أن يجدوها في ربوع سورية[٢]. ويرغب السلطان في أن يمنحها لهم بمجرد طلبهم. وقال: يمكنكم والحالة هذه أن تنتخبوا حكامًا يقع اختياركم عليهم للإشراف علىٰ مقاطعات فلسطين بأسرها. وإنني لا أدخر وسعا في سبيل معاونتكم وشد أزركم في إنجاز هذا المشروع الحميد المفيد»[٣].

كذلك أراد مونتفيوري تأسيس عدد من البنوك في سلطان محمد علي كجزء من خطته لإعادة توطين اليهود في فلسطين[٤]. وكان بالمرستون -وزير الخارجية البريطاني- صاحب النفوذ الواسع في حكم محمد علي حريصا علىٰ تحقيق أوضاع مريحة لليهود في الشام، وكان يرتب لمونتفيوري اللقاءات بالشخصيات التي يمكنها أن تحقق له أحلامه[٥].

كان غرض مونتفيوري «توفير وضع متميز لليهود وقدر كبير من الاستقلال الذاتي وتنمية المشاريع الزراعية والصناعية في فلسطين حتىٰ يحقق اليهود الاعتماد علىٰ الذات. وفي المقابل اقترح مونتفيوري تأسيس البنوك في المدن الرئيسية في المنطقة لتقدم التسهيلات الائتمانية للمنطقة بأكملها، وقد ساهم

---

(١) إيلي ليفي أبو عسل، **يقظة العالم اليهودي**، ص١٤٤ وما بعدها.

(٢) كان يُطلق اسم سورية في ذلك الوقت علىٰ جميع الشام.

(٣) إيلي ليفي أبو عسل، **يقظة العالم اليهودي**، ص١٥٠، ١٥١.

(4) Ben Halpern and Jehuda Reinharz, **Zionism and the Creation of a New Society**, (Oxford: Oxford University Press, 1998), p. 43.

(5) Jonathan Frankel, **The Damascus Affair**, p.376.

مونتفيوري في تأسيس بعض المستوطنات الزراعية في الجليل ويافا، وأسس أول حي يهودي خارج أسوار مدينة القدس، كما أسس بعض المشاريع الصناعية»[١].

لكن مشاريع مونيفوري قُضِيَ عليها مع انتهاء الحكم المصري للشام وعودته تحت سلطة الخلافة العثمانية[٢]، إلا أن ما أسس له من مشاريع عمليا، وما تمتع به من نفوذ لدىٰ الإنجليز، وما نشأ في الأذهان من خطة توطين اليهود، كل هذا جعله ينجح في «إقناع السلطان العثماني بمنح الامتيازات التي كان يتمتع بها الأجانب لليهود في جميع أرجاء الإمبراطورية، وهو ما ساهم بدون شك في تحويلهم إلىٰ عنصر أجنبي منبتّ الصلة بالمنطقة وذي قابلية خاصة للتحول إلىٰ جماعة وظيفية استيطانية»[٣].

ولم يكن مونتيفوري وحده الذي أيقظت أحلامَه سياسةُ محمد علي، بل لقد نشر شارل فورييه كتابه «الصناعة الزائفة» عام (١٨٣٥ - ١٨٣٦)، وهو يقترح فيه التخلص من المشكلة اليهودية بطردهم إلىٰ بلاد الشام وتوطينهم في فلسطين وسوريا ولبنان، وكان شارل فورييه من أهم المفكرين الاشتراكيين، وهو يرىٰ أن التجارة هي مصدر شرور العالم وأن اليهود تجسيد للتجارة وأنهم بلا ولاء ولا انتماء إلا للمال، ولا بد للمجتمع أن يتخلص منهم بالدمج أو بالطرد[٤].

كذلك فقد نشر شافتسبري (١٨٣٨م) في مجلة كوارترلي ريفيو (وهي من أكثر المجلات نفوذًا في ذلك العصر) عرضًا لكتب أحد الرحالة إلىٰ فلسطين،

---

(١) عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩م)، ٦/ ١٧٧.

(٢) إيلي ليفي أبو عسل، **يقظة العالم اليهودي**، ص١٧١.

(٣) عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ٦/ ١٧٧.

(٤) عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ٣/ ١٦٧.

ليتوصل منه إلىٰ القول بأنها أرض مناسبة يُنقل إليها اليهود كأيدي عاملة ومهارات تمارس زراعة المحاصيل التي تحتاجها انجلترا، ويكون القنصل الإنجليزي في القدس هو المشرف علىٰ هذا الشأن وهو الوسيط بين اليهود وبين السلطان العثماني، وبعدها بعامين كتب هو نفسه وثيقة قدمها إلىٰ بالمرستون (٢٥ سبتمبر ١٨٤٠م) يسهب فيها في فائدة هذا المشروع لبريطانيا[(١)].

إن تأمل تاريخ تلك الفترة يقضي بأن فكرة إنشاء وطن لليهود في فلسطين لم تكن لتتوقد لولا ما أتاحته سياسة محمد علي من آمال، فلقد فكرت أوروبا -وعلىٰ رأسها بريطانيا- في ذلك الوقت أن تتخلص من مشاكلها الثلاثة الكبرىٰ دفعة واحدة بهذا الحل «توطين اليهود في فلسطين»، فتتخلص بهذا من المشكلة اليهودية الداخلية، ومن الدولة العثمانية «المسألة الشرقية» بتقسيمها وزرع كيان معاد في قلبها، وقطع الطريق علىٰ التمدد الروسي في الشرق. وحاول بالمرستون تسويق المشروع عند السلطان العثماني بدعوىٰ أن إيجاد كيان يهودي يقطع الطريق علىٰ أطماع محمد علي أو أي من خلفائه في التمدد نحو الشام!!

ولهذا ففي تلك الفترة انتشرت مسألة الصهيونية بين السياسيين حتىٰ من غير اليهود من بعد ما كانت منحصرة في الأدباء والعاطفيين والمبشرين الإنجيليين، وكتبت التايمز أن المسألة «أصبحت قضية حقيقية مطروحة علىٰ المستوىٰ السياسي، كما» نشرت جريدة جلوب اللندنية (القريبة من وزارة الخارجية) مجموعة مقالات عام ١٨٣٩/ ١٨٤٠ تؤيد فيها مسألة تحييد سوريا (وضمنها فلسطين) وتوطين أعداد كبيرة من اليهود فيها. وقد حازت المقالات موافقة اللورد بالمرستون. وقد نوقش في مؤتمر القوىٰ الخمس الذي عُقد في لندن عام ١٨٤٠ مسألة تحديد مستقبل مصر. وفي ذلك العام، كتب بالمرستون خطابه إلىٰ سفير إنجلترا في الأستانة يقترح فيه إنشاء دولة يهودية حماية للدولة

---

(١) عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ٦/ ١٦١.

العثمانية ضد محمد علي. وقدَّم الكولونيل تشرشل عام ١٨٤١ مذكرة لموسىٰ مونتفيوري يقترح تأسيس حركة سياسية لدعم استرجاع اليهود لفلسطين لإقامة دولة محايدة (أي في خدمة الدول الغربية)»(١).

خاتمــة

وصف قسطنطين بازيلي إبراهيم باشا بأن فيه «إلحادٌ راسخٌ ماجن، فقد كان هو نفسه وشريف باشا [حاكم دمشق]، وعلىٰ إثرهما كل أكابر الأعيان المصريين تقريبا، يكنون في أعماق نفوسهم احتقارًا شديدًا للقبيلة العربية كلها، وبدوسهم علىٰ أوهامها داسوا في الوقت نفسه قوانين الإسلام الجذرية. كان إبراهيم يعب الشمبانيا علانية في دمشق وفي كل مدن سورية... ولم يكن تهتكه خافيًا علىٰ الشعب؛ نادرًا ما كان يظهر في المسجد، ولم يكن في ساعات الصلاة يقوم بالوضوء الشرعي، ولم يكن يصوم رمضان، وكان المحيطون به يتباهون بتحررهم الفكري علىٰ نحو صبياني»(٢).

لقد ظل الشاميون يتحينون الفرص للانقلاب علىٰ محمد علي، حتىٰ لقد نفذ بعضهم انشقاقات عسكرية في وقت معركة نصيبين بين الجيش المصري والجيش التركي(٣)، واستمروا علىٰ هذا الحال حتىٰ انتهاء الحكم المصري (١٨٤٠م)، حتىٰ لقد كانوا يهاجمون القوات المصرية لدىٰ انسحابها من الشام ويوقعونها في كمائن محكمة حتىٰ لقد تضاءل الجيش المصري إلىٰ النصف بعد المقاتل والأزمات وظروف الطريق وهرب المجندين السوريين منه، فلم يبق

---

(١) عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ٦/ ١٥٣ وما بعدها.

(٢) قسطنطين بازيلي، **سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني**، ص١٦٤، ١٦٥.

(٣) محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص١٨٥.

منه إلا نحو ٣٦ ألفا فقط[١].

لا تزال آثار دولة محمد علي تبرز بنفسها في مصر والشام، ولا يزال كفاح المصريين والشاميين ضد الدولة العلمانية العسكرية التي أسسها محمد علي في مصر، وضد النفوذ الأجنبي الذي أسس له في الشام، لا يزال مستمرًا، وإن قدر مصر والشام أن يكونا مرتبطيْن، فإن نجاح كفاح المصريين سيعود بالأثر المباشر علىٰ تضعضع النفوذ الأجنبي في الشام والذي صار متجسدًا في دولة خبيثة سرطانية، تلك الدولة لا يتهددها شيء قدر ما يتهددها استعادة المصريين والشاميين لبلادهم.



(١) محمد فريد، **البهجة التوفيقية**، ص٢٠٥؛ قسطنيطن بازيلي، **سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني**، ص٢٧٢ وما بعدها.

التطور الاجتماعي
في مصر بين رحلتي بتس وبيرتون

تركت الرحلة إلىٰ الحج ثروة تاريخية لا تقدر بثمن، وذلك من بركات هذه الشعيرة المباركة وثمراتها الغزيرة[١].

لقد ألقىٰ الله محبة بيته الحرام في القلوب، فاشتعلت إليه شوقًا، فسارت الجموع منذ لحظة نداء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إليه رجالًا وعلىٰ كل ضامر، وصنعت رحلة الحج أوضاعًا تاريخية وجغرافية أوسع من الحصر، وكتب المسلمون مؤلفات واسعة في رحلتهم إلىٰ بيت الله الحرام، فحفظوا لنا تاريخًا عزيزًا وثروة ما كان بالإمكان التحصل عليها بغير هذا السبيل.

لم تكن أنظار المسلمين فقط، بل سار إلىٰ البيت الحرام عدد من غير المسلمين يريدون استكشاف أمره واكتناه سره، فلقد أحيطت مكة والكعبة بالكثير من الأساطير كونها المكان الذي انبعث منه الإسلام ووُلِد فيه محمد ﷺ، لقد كان القساوسة الأوروبيون في العصور الوسطىٰ يعتقدون أن المسلمين يحجون إلىٰ مكة ليَرَوْا نبيهم في الهواء في وسط حلقة حديدية موضوعة في نقطة اتزان وسط قبة حجر مغناطيسي فيحسب المسلمون أن نبيهم معلق في الهواء وأنها من معجزاته[٢]، وفي عصور الاستعمار بعيْد انطلاق ما يسمىٰ بعصر الكشوف

---

(١) بحث مقدم لمؤتمر «طرق الحج في إفريقيا» الذي عقدته جامعة إفريقيا العالمية، في الخرطوم بالسودان، بتاريخ ٢٨ - ٢٩ نوفمبر ٢٠١٦م.

(٢) أفوقاي الأندلسي، **رحلة أفوقاي الأندلسي**، تحرير: د. محمد رزوق، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤م)، ص٨٠.

الجغرافية والرحلات كان بديهيًا أن تتطلع أنظار الرحالة الغربيين إلىٰ المدينة الأقدس لدىٰ المسلمين وإلىٰ الرحلة الفريدة التي تجمع شتاتهم مرة في كل عام.

تبحث هذه الورقة في رحلتين من رحالات غير المسلمين إلىٰ الحج، لتستكشف منهما صفحة من التاريخ الاجتماعي للمصريين، باعتبار المجتمع المصري واحدا من أهم المجتمعات المحلية التي كانت مركزا من مراكز عبور الحجيج إلىٰ مكة، ففيه تجلت العديد من الصور: السياسية والاقتصادية والثقافية لما لمصر من موقع جغرافي وثقل علمي ووفرة مالية وقوة بشرية، وبهذا صارت مصر مركزا شرقيا لم يفقد أهميته -في أمر الحج ورعاية الحجيج والحرمين- منذ دخله الإسلام وإلىٰ وقت قريب بعد اختراع الطائرات وظهور النفط في الجزيرة العربية، ففي مصر رُبِط الشرق الإسلامي بغربه علميًا وثقافيًا، وكان اقتصاد الحرمين لزمان طويل فرعًا من الاقتصاد المصري، وكانت الهيمنة السياسية علىٰ الحرمين لزمن طويل هيمنة مصرية. كذلك قصدت الورقة أن تفهم المجتمع المصري وترصد تطوره من خلال رحالتيْن غربييْن وذلك لقلة ما تعرض الباحثون لهذا الأمر مقارنة بتعرضهم له في مؤلفات الرحلة العربية.

وقد وقع الاختيار علىٰ رحلتي جوزيف بتس وريتشارد بيرتون لأسباب أهمها: أنهما من أهم الرحلات الأوروبية للبيت الحرام؛ فرحلة بتس من أوائل تلك الرحلات ورحلة بيرتون من أوسعها وأكثرها تفصيلًا، ويفصل بينهما قرنان من الزمان تغير فيهما الكثير وبالذات في مصر التي دخلت في طور الدولة الحديثة واندمجت بالنموذج الغربي، فقد كان رحلة بتس في عصر المماليك تحت السيادة العثمانية، بينما كانت رحلة بيرتون في أعقاب وفاة محمد علي باشا الذي أسس حكمًا مستقلًا في مصر وأنشأ دولة علىٰ النمط الغربي في المؤسسات والإدارة، ومن ثم ظهرت فروق واضحة بين العصرين تُمَكِّن من رصد تطورات فارقة.

قُسِّمت مادة الورقة إلىٰ أربعة مباحث:

١- شعيرة الحج كما يراها المستشرقون

٢- الرحلات الغربية للحج: التاريخ والأغراض

٣- رحلتا بتس وبيرتون: وصف ومقارنة

٤- أحوال المجتمع المصري بين قرنين

شعيرة الحج كما يراها المستشرقون

حَضَرَتْ رحلةُ الحج في الدراسات الغربية بطريقَيْن؛ الأول: دراسات المستشرقين التي اضطرت لتناول الحج لكونه الركن الخامس من أركان الإسلام، ولهذا فإنه موضوع حاضر في الدراسات البسيطة المختصرة والدراسات الموسعة معًا. والثاني: كتب الرحالة الغربيين الذين حرص بعضهم علىٰ التنكر وحضور الحج بنفسه أو ساقته أقداره إلىٰ الحج مثل فارتيما الإيطالي وبوركهارت السويسري وسنوك هروخرونيه الهولندي - والذي أعد رسالته للدكتوراة عن الحج[(١)]- وجوزيف بتس الإنجليزي وبيرتون الأيرلندي وغيرهم.

وقد تعددت الآراء والأنظار في فهم الحج ومعانيه وآثاره، ونظر إليه كل مستشرق في سياق بحثه، ففي تحليله لانتشار دعوة الإسلام يقول المستشرق

---

(١) انظر ترجمة موسعة له ومناقشة لمواقفه ورسالته عند: قاسم السامرائي، **الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية**، ط١ (الرياض: دار الرفاعي، ١٩٨٣م)، ص١١٠ وما بعدها.
وكتاب هروخرونيه حافل بالتفاصيل حتىٰ أقرَّ د. محمد موسىٰ الشريف بأن اختصاره متعذر بسبب «ضخامة المعلومات الواردة فيه وأهميتها وصعوبة اختصارها»، انظر: محمد موسىٰ الشريف، **المختار من الرحلات الحجازية إلىٰ مكة والمدينة النبوية**، ط١ (جدة: دار الأندلس الخضراء، ٢٠٠٠م)، ١/ ١٠.

البريطاني المعروف توماس أرنولد: «إن السيف كان يُمْتَشَق أحيانًا لتأييد قضية الدين، ولكن الدعوة والإقناع -وليس القوة والعنف- كانا هما الطابعين الرئيسين لحركة الدعوة هذه، وإن النجاح الرائع هو الذي أحرزه التجار بنوع خاصٍّ، الذين كسبوا السبيل إلىٰ قلوب الأهالي ... وإلىٰ جانب التجار كانت هناك جموعٌ ممن يصحُّ أن نُسَمِّيَهم الدعاة المحترفين، وهم الفقهاء والحُجَّاج»(١).

وفي تحليله لأوضاع المسلمين في إفريقيا يقول إيوان ميردين لويس -وهو عميد المستشرقين البريطانيين في الشأن الإفريقي- بأن الحج من أدوات الإسلام في صناعة هوية مشتركة، فالإسلام «يُوجِد رابطة هوية ومصلحة مشتركة تجمع بين المسلمين ذوي الأصول العرقية والانتماءات السياسية المختلفة، وذلك ضمن الظروف المتغايرة في حياة المدن. هذا الاعتراف بتضامن إسلامي أوسع يتجسد بصورة حية في اشتراك الإفريقيين الواسع في الحج إلىٰ مكة»، كما يشير إلىٰ أثر الحج في انتقال اللغة العربية أساليبها ومفرداتها وحروفها الهجائية إلىٰ أقصىٰ شعوب الشرق الإسلامية كالملايو وسومطرة، فـ «الإسلام -بما فيه الحج- شبكة من الاتصالات مع الخارج»(٢).

ويظل المعنىٰ الإيجابي الأبرز الذي كرره جمهور المستشرقين هو ما في الحج من دلائل المساواة بين الناس في الإسلام، يقول الكولونيل البريطاني المعجب بحياة المسلمين رونالد فيكتور بودلي: «الحج أعظم شاهد علىٰ

---

(١) توماس أرنولد، **الدعوة إلىٰ الإسلام**، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م)، ص٤٤٥.

(٢) آي إم لويس، **الحدود القصوىٰ للإسلام في إفريقيا وآسيا**، ضمن «**تراث الإسلام**»، بإشراف: شاخت وبوزوروث، ترجمة د. محمد زهير السمهوري وآخرين، سلسلة عالم المعرفة ٨ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٥م)، ١/ ١٣٥، ١٧٩.

ديمقراطية الإسلام؛ فهناك يجتمع المسلمون الأوربيون والآسيويون والإفريقيون، والصعاليك والأمراء، والتجار والمقاتلون في نفس الإزار البسيط الذي كان محمد ﷺ وأتباعه يرتدونه في حجة الوداع عام (٦٣٢هـ)، إنهم جميعًا يتناولون نفس الطعام، ويتقاسمون نفس الخيام، ويُعَامَلُون دون تمييز، سواء أجاءوا من مرافئ سيراليون أم من قصر نظام حيدر أباد، إنهم جميعًا مسلمون»[١].

ومثله يقول المستشرق الأمريكي المشهور ذو الأصول اللبنانية فيليب حتي: «الحقُّ أن الإسلام قد وُفِّقَ أكثر من أديان العالم جميعًا إلىٰ القضاء علىٰ فوارق الجنس واللون والقومية، وخاصة بين أبنائه، ولا شكَّ في أن الاجتماع في موسم الحجِّ له الفضل الأكبر في تحقيق هذه الغاية»[٢].

وعلىٰ الناحية الأخرىٰ فأبرز المعاني السلبية التي كررها المستشرقون في شأن الحج هو مسألة «الوثنية»، حتىٰ إن بعض المنصفين مثل دينيس سورا يقول: «إن محمدا يكاد يكون هو الوحيد الذي نعرفه عن طريق التاريخ من بين عظماء مؤسسي الأديان، إذ أن الخرافات لم تستطع أن تخيفه... فقد كان العرب يعبدون الجن والأرواح التي تقطن الأحجار، إلىٰ جانب عدد من آلهة القبائل المختلفة. ولقد محا الإسلام هذا كله، ولم يبق منه سوىٰ الحجر الأسود. فقد ظل موطن القداسة الجوهرية. إذ وضعه محمد تحت حماية الخليل إبراهيم. ومن الممكن أن تكون هذه سياسة قصد بها التوفيق. كما يمكن أن يكون ذلك ناشئا عن احترام شخصي»[٣].

(١) ر. ف. بودلي، **الرسول حياة محمد**، ترجمة: محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، (القاهرة: مكتبة مصر، بدون تاريخ)، ص٣٣٩.

(٢) فيليب حتي، **العرب تاريخ موجز**، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩١م)، ص٦٠.

(٣) زكريا هاشم زكريا، **المستشرقون والإسلام**، (القاهرة: المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، ١٩٦٥م)، ص٢٢١.

الرحلات الغربية للحج: التاريخ والأغراض

أول من ادعىٰ الوصول إلىٰ مكة المكرمة هو جون كابوت (١٤٨٠م) أي قبل سقوط الأندلس باثني عشر عاما، لكن لم يصل إلينا شيء مما كتبه، أما أول ما وصلنا فهو رحلة الإيطالي لودفيجودي فارتيما (١٥٠٣م) والذي انتحل اسم يونس المصري وصفة جندي مملوكي، ثم جوزيف بتس الذي حج باسم «يوسف» (١٦٨٠ه)، ثم تبعه الإسباني دومنيكو باديا ليبليج (١٨٠٧م) باسم «علي العباسي»، ثم تبعه الرحالة السويسري المشهور جون لويس بوركهارت الذي انتحل اسم «إبراهيم» ووصل إلىٰ مكة (١٨١٤م)، ثم الرحالة البريطاني ريتشارد بيرتون متخذا اسم «عبد الله» وصفة طبيب هندي ذي أصول أفغانية (١٨٥٣م)، ثم الفرنسي جيل جورفيه كورتلمون متخذا اسم «عبد الله بن البشير» (١٨٩٤م).

ولقد تعددت أغراض الرحلة إلىٰ الحج، فثمة من كان مجبرا علىٰ ذلك لكونه عبدا مثل جوزيف بتس، وثمة من كان دافعه الفضول كما نرجح في كتابات من لم تشي كتاباتهم بغرض آخر، وثمة من تبدو في رحلته الأغراض التجسسية كما في رحلة بيرتون البريطاني، وثمة من تصرح الدلائل حوله أن غرضه كان استعماريا قحا كما في رحلة هروخرونيه الهولندي.

وبالعموم فلئن غابت التجربة الروحية بالعموم عن الدراسات الغربية، فإنها قد تميزت برصدها الآثار الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بأكثر مما تعرضت له الرحلات العربية الإسلامية، وبعض ذلك راجع إلىٰ العين الغريبة التي تنظر إلىٰ الحدث الجديد فترصد فيه ما لا يلمحه من اعتاد عليه وبعضه الآخر راجع إلىٰ مهمة الرحالة المهتمة بجمع المعلومات، بالإضافة لأمور أخرىٰ.

رحلتا بيتس وبيرتون: وصف ومقارنة

١- جوزيف بتس ورحلته:

كان جوزيف بيتس (١٦٦٣ - ١٧٣٥) بحارًا إنجليزيًا، وقع في أسر الجزائريين عند السواحل الإسبانية، وكان حينئذ في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره، وظل عبدا في الجزائر سنينا ثم رافق سيده في رحلة الحج (١٠٩١هـ = ١٦٨٠م)، وهي أول رحلة تصف طريق الحج المصري في الشمال الإفريقي.

سلك بتس طريق البحر من الجزائر إلىٰ الإسكندرية، ثم منها بحرا إلىٰ رشيد، ثم نزل في النيل إلىٰ بولاق، ثم برا إلىٰ السويس ثم بحرا إلىٰ الطور ثم إلىٰ رابغ ومنها إلىٰ جدة ثم إلىٰ مكة، ثم إلىٰ المدينة، ثم قفل راجعا إلىٰ القاهرة ثم الإسكندرية ثم الجزائر.

٢- جون بيرتون ورحلته:

أما ريتشارد بيرتون (١٨٢١ - ١٨٩٠م) فواحد من أهم الرحالة الأوروبيين، إذ نشر رحلاته في ثلاثة وأربعين مجلدا، وهو مكتشف بحيرة تنجانيقا، وترجم ثلاثين كتابا من العربية والفارسية إلىٰ الإنجليزية، وكان يتقن خمسا وعشرين لغة وأربعين لهجة، وطاف شرقا وغربا فزار باكستان والهند ومصر والحجاز وشرق إفريقيا وغربها والولايات المتحدة. ورحلته ثرية تدل علىٰ غزارة معارفه واتساع رحلاته.

وكانت رحلته إلىٰ الحج كالآتي: ركب السفينة من ساوثمبتون البريطانية مبحرا إلىٰ الإسكندرية، ثم عاش بها فترة، ثم سافر إلىٰ القاهرة (برا أم بحرا)، ومنها برا إلىٰ السويس، ثم إلىٰ البحر الأحمر ونزل بالطور ثم إلىٰ ينبع إلىٰ

المدينة المنورة، فكان حجه في عام (١٢٦٩هـ = ١٨٥٣م).

٣- المقارنة بين الرحلتين:

من بين اختلافات كثيرة برزت في الرحلتين فوارق أهمها:

١- الاختصار والتفصيل:

جاءت رحلة بتس مختصرة وسريعة وطُبِعت في أقل من مائة صفحة وتكاد كل فقرة منها تمثل موضوعا إذ يندر أن يشغل الموضوع أكثر من فقرة، بينما بلغت رحلة بيرتون ثلاثة أجزاء، استغرق الأول سفره من بريطانيا وحياته بمصر حتىٰ المدينة المنورة. ولهذا حفلت رحلة الثاني بتفاصيل مطولة وقضايا كثيرة لم يتطرق إليها الأول أو تطرق إليها في فقرة واحدة لا أكثر.

٢- الموضوعية والذاتية:

وكانت رحلة بتس أكثر موضوعية بينما رحلة بيرتون أكثر ذاتية، فالأول يصف المدينة وآثارها والبحر والنهر والأهرام والأسماك والطيور والبط الذي يسبح في النيل وكيف يُصاد والخانات والأزياء والأسواق والبضائع والمباني وقطعان الماعز التي تدخل القاهرة وصاحبها الذي يحلبها مباشرة لمن يشتري منه اللبن كدليل علىٰ أنه لبن طازج وآبار المياه وكيف يُسحب منها الماء بالسواقي التي تجرها الثيران، يصف بتس كل هذا وَصْفَ المُشاهد المحايد الذي يرسم صورة موضوعية لما يراه(١).

بينما الثاني يصف مشاعره ووقع المشاهد علىٰ نفسه ويمزج الصورة الخارجية بانعكاسها في نفسه وما يؤلفه خياله منها، لذا تأتي عباراته في الوصف

---

(١) جوزيف بتس (الحاج يوسف)، **رحلة جوزيف بتس إلىٰ مصر ومكة والمدينة المنورة**، ترجمة ودراسة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٥م)، ص٢٩، وما بعدها، ٤٠، ٤١.

علىٰ هذا النحو: «لنستمتع بالمشهد»، «فيعطي سحرا وفتنة تعجز اللغة في التعبير عنهما»، «كأنما كنا نستقبل هذا القفر بودٍّ شديد»، «وكأنها أرواح سلاطين تحرس رعايا من الأشباح في سلطنة من ظلال»، «الحرارة المنعكسة تصفعنا بشكل محسوس والوهج المنبعث من حصباء الطريق يكيل لنا مزيدا من الحرارة»... وهكذا[١]. ولعل هذا يُعزىٰ إلىٰ تطور الأسلوب الأدبي في أوروبا، فبتس الذي خرج من أوروبا فتىٰ صغيرا وصار جزءا من الشرق ليس كبيرتون الرحالة المثقف الموسوعي الذي قرأ أدب الرحلات قبله، لا سيما رحلات الشرق التي كان يتفنن الغربيون في إضفاء السحر والجمال علىٰ مشاهدها وحوادثها، وهو تقليد غربي مستقر منذ بدأ الاستشراق وإلىٰ زمن قريب.

٣- سائح ومستعمر:

وفيما كانت رحلة بتس رحلة سائح يصف ناظرا ومشاهدا، كانت في رحلة بيرتون لهجة استعلاء علىٰ الشرقيين[٢]، وفيها روحٌ استعمارية تند عنه كما في قوله «ليس من أحد أدرك أية فكرة عن الدور الذي كنت ألعبه خلا الذين كانوا مطلعين علىٰ السر من البداية»[٣]، ثم ظهرت هذه الروح ناصعة واضحة في بعض مواضع كقوله: «أما الآن فإن السلطات الوطنية ليس لها سلطة قضائية علىٰ الغرباء، ولا تدخل الشرطة بيوتهم، وإذا أرادت دول الغرب أن تقوي من عزم المسيحيين الشرقيين المشاركين لها في العقيدة فيمكنها أن تفرض نظاما أشد مما هو عليه الآن بالسماح لكل الرعايا المسيحيين الشرقيين حَسَني

---

(١) ريتشارد ف. بيرتون، **رحلة بيرتون إلىٰ مصر والحجاز**، ترجمة وتعليق: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٤م)، ص٧٩، ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٢.

(٢) ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٤٦ وما بعدها، ٩٢، ٩٣.

(٣) ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٢٣.

الاعتقاد بأن يسجلوا أسماءهم في القنصليات المختلفة التي قد يفضلون الحصول علىٰ حمايتها»[١]، وكقوله: «أي دولة تضمن السيطرة علىٰ مصر تكون قد ربحت كنزا، فمصر تحيطها البحار من الشمال والجنوب، وتحيطها الصحراء التي لا يمكن اجتيازها من الشرق والغرب، ومصر قادرة علىٰ تجهيز ١٨٠ ألف مقاتل، وقادرة علىٰ دفع ضرائب ثقيلة، ويمكن أن تقدم فائضا كبيرا، فلو وقعت مصر في أيدي الغرب سهلت السيطرة علىٰ الهند، ومَكَّنت من فتح إفريقيا الشرقية كلها بشق قناة للسفن تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عند السويس»[٢]، وهو يرصد موقف الجهات التي يمكنها مقاومة الاحتلال وكيف ضعفت جهة العلماء التي هي الأشد في مجال المقاومة لحساب «رؤساء المؤسسات»، وسواء أكان يقصد رؤساء المؤسسات الإدارية بعد دخول الدولة في طور التحديث أو شيوخ الطرق الصوفية كما فهم المترجم، فالمهم أن هذه العقلية إنما هي عقلية محتل لا عقلية رحالة!

٤- انفرادات الرحلتين:

وحيث كانت رحلة بيرتون أكثر توسعا وتفصيلا فقد انفرد فيها بأشياء كثيرة لم يأت بتس علىٰ ذكرها مطلقا، فمن ذلك حديثه عن البقشيش وتدخين الشيشة والقهوة، وعن الدراويش والسحرة، والمذاهب الفقهية، وشهر رمضان واحتفالات العيد، وعن كرم الضيافة، وأنواع الخدم وصفاتهم، وعن العطارين وطلب العلم، وعن الطب وممارسته والمرضىٰ وأحوالهم وتعاملهم مع الطبيب ونظرة الناس إلىٰ الطب الأوروبي وكيف يحتقرونه مقابل تقديرهم للطب الهندي والصيني، ونظرتهم وعلاقتهم مع العجم (الذين هم: الفرس الشيعة)

(١) ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص١٠٧.

(٢) ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٩٨، ٩٩.

وكيف تعودوا علىٰ التقية وإخفاء حقيقة آرائهم وكيف يفهم المصريون هذا عنهم، وشهد بيرتون تنادي الناس بالجهاد ضد الروس في حرب القرم وهو مشهد لم يرد مثله عند بتس[١].

ومع هذا فأن الاختصار الشديد في رحلة بتس والتوسع في رحلة بيرتون لم يمنع أن ينفرد بتس بذكر أمور لم يذكرها بيرتون كحديثه عن الخصيان وهطول الأمطار -مصححًا بذلك خطأً شائعًا في وقته عن قلة الأمطار في مصر- والفيضان السنوي للنيل وأثره في الزراعة، والوصف الجغرافي لمصب النيل ورسو السفن[٢]، ولعل بيرتون لم يحفل بهذا لانتشار الخرائط في عصره وكون هذا الكلام مما صار معروفًا أو مما تجاوزته تقنية السفن والمواني، إلا أن إمساك بيرتون عن وصف الفيضان غريب، خصوصًا وقد كان في مصر قبيل وقت الفيضان وهو أمر يستعد له الناس!

لكن أهم ما يفرق بين الرحلتين هو آثار «التحديث» التي تبدو في رحلة بيرتون، فعلىٰ غير ما يبدو للوهلة الأولىٰ من أن التحديث عاد علىٰ البلاد بالقوة والرفاه والاستقلالية، نجد أن التحديث الذي أسس له محمد علي عاد بمزيد من الضعف السياسي والتبعية للغرب، ولم تكن القوانين في مصلحة الشعب بل في مصلحة تقوية السلطة ونفوذ الأجانب، فزاد بطش السلطة وتغولها، وتقوض الأمان الاجتماعي إذ صارت السلطة مصدر رعب بانتهاجها أسلوب خطف الشباب والرجال للتجنيد، وفرضها حظرًا للتجوال ليلًا لمحاصرة أي ردود فعل شعبية، ، كما لم توفر مؤسسة الشرطة الحديثة أمنًا من اللصوص بل كان الخوف والتحرز منهم قائمًا، كذلك فقد أهملت أوضاع المساجد باستيلاء الدولة علىٰ

(١) ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٢١، ٢٢، ٢٥ وما بعدها، ٤٦، ٥٢، ٥٧ وما بعدها، ٦١، ٦٣ وما بعدها، ٦٧ وما بعدها، ٧١، ٩٧، ١٠٩.

(٢) جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٢٧ وما بعدها، ٤٠.

أوقافها، وكُسِرت القبائل والزعامات الأهلية، ولم تتحقق العدالة بنظام التقاضي الجديد بل صار يعاني من البطء الشديد، ولم توفر الإدارة الحديثة تسهيلات في الخدمات العامة بل غلب الكسل علىٰ الموظفين وتلقي الرشا لضعف -أو انعدام- جهة الرقابة، وتعقدت أمور أخرىٰ كإجراءات السفر والحصول علىٰ تذكرة.. إلىٰ غير هذا من المظاهر السلبية التي ترصدها بوضوح رحلة بيرتون[(١)].

أحوال المجتمع المصري بين قرنين

تغير الكثير في مصر عبر مائتي سنة، ما بين عهد المماليك تحت السيادة الاسمية للعثمانيين وبين عصر الجبار محمد علي وأولاده، لقد شهدت مصر نظاما جديدا يدخل عليها مع محمد علي الذي استقل بها من السيادة العثمانية وقلب نظامها السياسي وميزانها الاجتماعي وخططها الاقتصادية[(٢)]، وقد بدا هذا واضحا في صفحات الرحلتين، ومن بين كثير من هذه الملامح اخترنا ثمانية أوجه من وجوه الحياة في مصر نرصد من خلالها تطور أحوال المجتمع المصري بين قرنين.

أولاً: الوفرة الاقتصادية:

لم يتغير حال مصر في شأن الوفرة الاقتصادية بين القرنين، فتلك الأرض التي أطلق عليها «خزائن الأرض» و«مخزن المال والرجال» ظلت محتفظة بخيراتها.

---

(١) ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٣٠، وما بعدها، ٣٤ وما بعدها، ١٢٥.

(٢) انظر مقال الأستاذ الإمام محمد عبده، «**آثار محمد علي في مصر**»، مجلة المنار (٥/ ١٧٥ وما بعدها)؛ محمد عبده، **الأعمال الكاملة للأستاذ الإمام**، تحقيق: د. محمد عمارة، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٣م)، ١/ ٨٥١ وما بعدها.

يورد بتس أن القافلة المصرية الذاهبة إلىٰ الحج كانت أحسن تسليحًا وأحسن نظامًا وأكثر أمنًا، وهي التي تحمل كسوة الكعبة، ولهذا يفضلها الحجاج علىٰ غيرها من القوافل، والقاهرة وافرة العدد تغص بالناس وتزدحم بهم حتىٰ إن بعض الناس يفقد حذاءه من الزحام، ويُطلب الحمار في مصر كما تُطلب العربات في بريطانيا لذلك الوقت(١)، وهي تغص بالبضائع والتجار والسفن التي تحمل البضائع، وتُرش الشوارع مرتين يوميا بالنهار للتخفيف من درجة الحرارة، ويتجول بعض الناس بالماء للعطشىٰ مجانا لكن بعض الشاربين يعطيهم مبلغًا يسيرًا، والأسواق تشهد وفرة غذائية والأسعار رخيصة، وفي مصر تُعدُّ أفران صناعية لتهيئة عملية فقس الكتاكيت دون الحاجة إلىٰ حضانة الدجاجات الأمهات، ومع هذا فالمتسولون كُثر والطبقات الفقيرة يبدو عليها الهزال والنحول(٢).

ويتحدث بيرتون عن الخانات التي تغص بالتجار في مصر، ويصف كثرة بضائعها، ويصفها بأنها في موقع وسط بين التخلف والتحضر، ومع هذا فإن دلائل الفقر والعوز والهزال تبدو علىٰ الناس والحيوانات التي تبدو «عجفاء هزيلة» سواء ما كان منها راقيًا أو وضيعًا(٣).

فكأن الرحالتين اتفقا علىٰ الوفرة الاقتصادية وعلىٰ سوء توزيع الثروة في مصر.

ثانيًا: الضعف السياسي:

وبالرغم من الوفرة الاقتصادية إلا أن الضعف السياسي كان هو حال السلطة في مصر خلال القرنين، لكنها وإن كانت ضعيفة في زمن بتس، إلا أنها وصلت إلىٰ حال مزرية في زمن بيرتون، ففي زمن بيتس كان البنادقة يسلكون

---

(١) كخدمة استدعاء التاكسي في وقتنا المعاصر.

(٢) جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٢٢، ٣٠، ٣٣، ٣٤ وما بعدها، ٣٩.

(٣) ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٣٠، ٤١، ٥٠.

بسفنهم إلىٰ مصب النيل في البحر المتوسط عند رشيد ثم يسرقون الماء في سفنهم، ما يترتب عليه اصطباغ البحر بلون الطمي وتحول المصب إلىٰ ماء عذب لمسافة غير قليلة في البحر، «وهم يفعلون ذلك دون التعرض لأي خطر، فليس لدىٰ الأتراك أساطيل للدفاع عن ساحل مصر»[١].

ولئن كان البنادقة يفعلون هذا تسللا أو حتىٰ إغارة خاطفة، فإن الأمر في زمن بيرتون كان أشد سوءًا، إذ أصبح هدف السيطرة علىٰ مصر يداعب أحلام الأوروبيين، وصار الرحالة البريطاني يفكر ماذا سيكسب الغرب من السيطرة علىٰ مصر، بل إن الغرب كان قد بدأ تنفيذ المشروع الأخطر الذي سيغير من جغرافية مصر والذي رفضه كل الحكام علىٰ مر العصور، وهو مشروع قناة السويس[٢]، وكانت مصر مكبلة باتفاقية ١٨٤٠م التي جعلتها سوقا مفتوحا للتجارة والصناعة الأوروبية، إلىٰ الحد الذي كان حكام مصر أنفسهم -أسرة محمد علي- يشرعون قوانين تتحايل علىٰ هذه الهيمنة الأوروبية، كقانون نظام الدور في الشحن البحري مثلا.

ثالثًا: المساجد:

إن مشهد المساجد لا يمكن أن يفوت زائرا للقاهرة، فلقد غصت القاهرة بالمساجد في زمان المماليك وتنافس سلاطينهم في بنائها وزخرفتها ووقف الأوقاف عليها، ويتوقع بتس أن مساجد القاهرة بين الخمسة آلاف والستة آلاف مسجد، وفيها ما هو ضخم مشيد متين، ولكل منها من يرعىٰ أحوالها ويقدم الماء للعابرين[٣].

---

(١) جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٢٦، ٢٧.

(٢) انظر في مسألة قناة السويس هذه المقالات:
ماذا تعرف عن أخطار وأضرار قناة السويس، هل تضحي مصر بنفسها لمصلحة الأجانب، ماذا قال المؤرخون الأجانب عن قناة السويس، فصل من قصتنا مع الشرعية الدولية.

(٣) جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣٣.

تحول هذا المشهد البهيج بعد قرنين إلىٰ مشهد آخر، فيتحدث بيرتون عما حل بالمساجد من إهمال عندما رآها، وذلك بعد سنوات قليلة من نهاية عهد محمد علي وفي مطلع عهد ابنه سعيد، لقد بقيت المساجد كثيرة لكنها تعاني من قلة الرعاية، ويذكر أن مسجدي الأزهر والحسين كانا خاليْن من الزخارف، ثم يرصد أن النمط الذي بني مسجد محمد علي علىٰ مثاله يمثل انحطاطا وسقوطا لفن عمارة المساجد، وأن المصريين اعتبروا هذا الشكل «يبعث علىٰ الانقباض»، وذكر طرفا من الأحوال البائسة التي خيمت علىٰ الأزهر بعد ما كان فيه من مكانة رفيعة[1].

رابعًا: أوضاع أهل الذمة:

لاحظ بتس أن المسلمين يرتدون عمائم بيضاء بينما عمائم النصارىٰ بيضاء مخططة بأزرق، وكلاهما يرتدون عباءات سوداء، بينما عباءات اليهود سوداء واسعة وغطاء الرأس عندهم ذو شكل شاذ، إلا أنه يعود فيقرر أنه لا يمكن التفرقة بين المسلمين والأقباط في مصر لتجانس الملامح والأزياء ووحدة اللغة[2].

ولا يختلف الأمر عند بيرتون فهو يشير إلىٰ العمائم الزرقاء التي يرتديها النصارىٰ، كما يشير إلىٰ شعور ديني عام واضح لدىٰ المسلمين تجاه أهل الذمة[3]. ولعل ذلك لما تمتعوا به من نفوذ واسع في زمن محمد علي وأبنائه مما حرَّك مشاعر غضب وتحفز لم يشهدها بتس.

وكان نساء أهل الذمة متحجبات في العهدين، فهذا مفهوم قول بتس الذي

---

(١) ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٩٠، ٩٢ وما بعدها.

(٢) جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣١.

(٣) ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٩٧.

تحدث عن أنه حتىٰ الجواري يُبَعْن في الأسواق متحجبات[١]، وهو صريح قول بيرتون الذي ذكر بامتنان أن مسيحيا سوريا في مصر سمح له برؤية وجه زوجته.

خامسًا: أحوال العبيد:

يتفق الرحالتان أن العبيد في مصر أفضل حالًا من العبيد بل وحتىٰ الخدم في أوروبا؛ فيذكر بتس أن الجواري يُعرضن للبيع محجبات، ولكن التاجر (وهو مالكهن في هذه الحال) هو من له الحق في التعرف علىٰ عيوبهن بتحسس الأسنان أو الوجه واختبار ما إن كن عذراوات أم لا «بطريقة غير متطرفة»، وأن العبيد لا يُجبرون علىٰ التحول إلىٰ الإسلام لا في مصر ولا تركيا ولا الجزائر، وأن العبيد في مرحلة الشباب يتعلمون ويُلحقون بالمدارس وقد يتفوقون كأبناء سادتهم إن كانوا أذكياء، وإذا تحولوا إلىٰ الإسلام تسير أمورهم علىٰ نحو أفضل، ويذكر أن العبيد الذين بيعوا في مصر يفخرون أنهم كيوسف عليه السلام الذي بيع في مصر أيضا[٢].

ويقرر بيرتون أن العبيد في مصر أحسن حالًا من الخدم في أوروبا، بل «الرقيق في لاد الشرق عامة يأكل أفضل بكثير من الخدم أو حتىٰ أفراد الطبقات الدنيا ممن هم ليسوا عبيدًا (في بريطانيا) فالشريعة الإسلامية تلزم المسلمين بمعاملة رقيقهم برقة بالغة، والمسلمون -بشكل عام- حريصون علىٰ الأخذ بتعاليم نبيهم، فالرقيق يعد فردا من أفراد الأسرة»[٣].

سادسًا: أوضاع الأجانب:

في كلا العهدين كانت مصر زاخرة بالأجانب، فقد كانت مركزًا للتجارة بين

---

(١) جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣٧.

(٢) جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣٧.

(٣) ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٦٣.

الشرق والغرب في أيام المماليك، ثم كانت مركزا للنشاط الاقتصادي الأجنبي الذي وجد في مصر فرصة سانحة بعد اتفاقية لندن ١٨٤٠م، لكن النفوذ الأجنبي في عهد بيرتون كان عظيمًا جدًّا، إذ كان الأجانب عمليًا دولة داخل الدولة أو علىٰ الحقيقة فوق الدولة.

يذكر بتس أن اللغات المستخدمة في القاهرة لا تقل عن اثنين وسبعين لغة، ومما يلزم الأجانب -اليونانيون مثالًا- ألا يرتدون شيئًا من اللون الأخضر في ملابسهم، فإن فعلوا هاجمتهم العامة فمزقت ما كان لونه أخضر في ملابسهم، وذلك لخصوصية هذا اللون إذ يرتديه المسلمون وحدهم، ولا يرتدي العمامة الخضراء إلا من هم من سلالة النبي[١].

ولا تشير رحلة بتس إلىٰ عداء أو تحفز تجاه الأجانب، علىٰ عكس الحال بعد قرنين، فقد كان المصريون يتوجسون من كل أوروبي ولا يثقون فيهم ويحتقرونهم، بل يعتبرون أن من يعلن إسلامه منهم إنما يفعل ذلك لؤما وحيلة ليتمكن من التجسس عليهم وجمع المعلومات والإحصاءات عن بلادهم، ولهذا فإن بيرتون نفسه اجتهد ألا يُكشف أصله الأوروبي، وادعىٰ أصلا فارسيا وهنديا وأفغانيا لكي يُطْمَأَنَّ إليه. وفي زمن بيرتون كان قد غلب الأجانب علىٰ بعض الأحياء التي صارت أجنبية وصارت تغص بالسكارىٰ، وكان الأجانب يتمتعون بالحماية القنصلية التي يُمكن الحصول عليها بالرشاوىٰ وبعض التحايل ثم يُساء استخدامها فتغتصب بها الحقوق ولا يمكن للقضاء المصري أو لأي جهة استعادة الحق من متمتع بالحماية الأجنبية، ذلك أن «شعار الحماة الطبيعيين للحاصلين علىٰ الحماية هو انتهاك القانون لإرضاء غرور موظف إنجليزي تافه»، وكان الفرنسيون أقرب الأوروبيين إلىٰ المصريين بينما الإنجليز واليونانيون والنمساويون والمالطيون هم أكثر الشعوب المكروهة والمحتقرة

---

(١) جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣١، ٣٤.

في مصر، وإن غُلِّف هذا كله بقشرة من المجاملات(١).

وبالرغم من الحظر الصارم للسلاح فقد كان بيرتون يحمل دائمًا سلاحه سواء أكان خنجرًا أم مسدسًا، وكان متمتعًا بالحماية البريطانية، فمع أن الأجانب يتمتعون بامتيازات قانونية واسعة إلا أنه باستطاعتهم أيضا مخالفة القانون القائم، وقد ذكر أن الحكومة تحرم علىٰ الأجانب سب أهل البلاد ومع هذا قرر أنه يستطيع استعمال العنف، بل وذكر أنه كان يمكن لليوناني أن يسب بأشنع الألفاظ عجوزا مصريا إذا لمسه بعكازه لمسة غير مقصودة، وفسَّر هذا بأن «الخميرة القديمة» لا تزال كامنة في اللاشعور، إذ المصريون يعلمون نفوذ الأجانب والأجانب لا يقصرون في استعماله وإساءة استعماله(٢).

سابعًا: الخانات/ الوكالات/ الفنادق:

وهي الأماكن المعدة لنزول المسافرين والتجار في القاهرة قبل أن يتحولوا عنها إلىٰ غيرها في طريق سفرهم وتجارتهم، وفي كلا الرحلتيْن يبدو الإهمال واضحا في هذا المرفق، فيتحدث بيتس عن «غرف عارية ليس بها أقل أنواع الأثاث أو بها أدنىٰ أنواعه»، وينبغي علىٰ المسافر أن يدفع خمسين بارا أول دخوله ثم بارا واحدة كل أسبوع فيقيم ما شاء أن يقيم(٣).

ومثله يتحدث بيرتون عن مثل هذا من ضعف التأثيث أو انعدامه، وسوء نظافة الغرف، إلا أن الأسعار صارت مرتفعة للغاية، ودخلت فيها الأنواع المقنعة من الرشا، فقد كان مضطرًا أن يدفع أجرة شهر «حلاوة المفتاح» وأجرة شهر آخر للإقامة ومبلغًا ثالثًا لمن يكنس المكان ويمسحه. لكن الخانات دائمًا

---

(١) ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٢٤، ٣٤، ٥٠، ٥٣ وما بعدها، ٩٧، ٩٨، ١٠٦، ١٠٧.

(٢) ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٣٠، ٧٨.

(٣) جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣٣، ٣٤.

تغص بالتجار والمسافرين، وفيها كل ما يحب أن يراه الرسامون من مشاهد تستثير عيونهم وريشتهم[١].

ومما يلفت النظر أن بتس يتحدث عن المساجد الداخلية في الخانات لأنها تُغلق بالليل لمن يصلي المغرب والعشاء[٢]، بينما لا يأتي بيرتون علىٰ ذكر مسجد في الخان مع اهتمامه بالتفاصيل، ولا ندري هل هذا من جراء إهمال المساجد فلم تعد تُبنىٰ في الخانات أم هو مما سها عنه بيرتون، لا سيما والخانات كانت تغلق ليلًا في أيامه، فالداعي للمسجد الداخلي ما زال موجودا.

ثامنًا: الشرطة:

حضرت الشرطة حضورًا خفيفًا في رحلة بتس، في موطن رقابة قانونية عادلة علىٰ من يغشون السلع أو يبيعون خبزًا ناقص الوزن، فهم يعاقبون صاحب الجريمة بالضرب بالفلقة ويصادرون خبزه، وتكون العقوبة من القسوة بحيث إذا لمحهم صاحب الجريمة ولي هاربًا تاركًا خبزه[٣].

بينما كان للشرطة حضورها الطاغي الوافر في رحلة بيرتون، وهو أمر لا يُستغرب في مجتمع تحول إلىٰ «الدولة الحديثة» وكُسِرت فيه الروابط القبلية والمجتمعات الوسيطة ومُنِع حمل السلاح علىٰ الناس؛ لقد كانت الشرطة -بتعبير بيرتون- تمثل عذابًا في مصر لما تتسم به من التطفل، وتضاعفت عقوب الجرائم عما كانت عليه أيام المماليك خصوصًا الاعتراضات السياسية ولو كانت بسيطة، ووصف بيرتون مشهدا لشرطي يسوق فلاحًا لقسم الشرطة وهو يتوسل إليه ويترجاه، والنساء تهتف خلفه «يا خراشي، يا حسرتي، يا ندامتي»، وإذا أرادات السلطة جمع الناس للتجنيد فإن الشرطة تهاجم التجمعات في

(١) ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص٤٩ وما بعدها.

(٢) جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣٤.

(٣) جوزيف بتس، **رحلة بتس**، مرجع سابق، ص٣٩.

المساجد والأسواق فتغلق عليهم الأبواب ثم تسوقهم للتجنيد، ولذلك فإن أجواء الحرب كانت تثير الذعر في الناس وتجعلهم يخشون التجمع حتىٰ من نوىٰ منهم الحج لئلا يقعوا في «فخ» الشرطة، وتبلغ القسوة أن السلطة في عهد محمد علي كانت تمنع النساء من الولولة والندب خلف الرجال المختطفين للتجنيد. وروىٰ بيرتون كيف يمكن للشرطة الليلية أن تعتقل بالشبهة والمزاج من يسير لا يحمل فانوسا مهما كانت معاذيره، وكان الضرب علىٰ القفا سلوك اعتيادي يتلقاه كل من دخل قسم الشرطة ولو كان بريئا، والناس لدىٰ الشرطة درجات فمن كان أوروبيا لا يُحبس ومن كان أجنبيًا -كالهندي أو الفارسي- متمتعا بحماية قنصلية أحسنت معاملته، بينما المصري هو المُهان المهضومة حقوقه. ومع هذه القسوة فإن تساهل الشرطة كان ممنوحا للعاهرات المتهتكات، اللواتي كن يدفعن للدولة ضرائب عالية إلىٰ عهد قريب(١).

خاتمـة

هكذا مثلت رحلات الحج سجلًا تاريخيًا للمجتمعات المسلمة، فلولا أن هؤلاء الرحالة قصدوا الحج ما كانت رحلاتهم قد حظيت بمثل ما حظيت به من الاهتمام، لقد نالوا قبسا من شرف المكان وشرف الشعيرة إذ توجهوا إليها، وإن اختلفت أغراضهم. وقد قال علماؤنا: اصحب أهل التقوىٰ تنل من شرفهم فإن كلبا صحب أهل الكهف فذُكِر في كتاب الله معهم!

وعلىٰ الجهة الأخرىٰ فقد حظيت البلاد التي أسهمت في شرف رحلة الحج بمصادر عن تاريخها لم تحظ به تلك البلاد التي لم يسعفها حظها بهذا الشرف، وبهذا رفع الحج أقدار بلاد بقدر ما أسهمت في التوصيل إليه.

---

(١) ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون**، مرجع سابق، ص١٦، ٣٠، ٧٦، ٧٧، ٨٢، ١٠٣ وما بعدها.

وتظل رحلة الحج تؤتي ثمارها في كل حين بإذن ربها، وتظل بابًا مفتوحًا للشرف ينهل منه من أراد نصيبًا، فخلود الأثر والذكر بقدر الاقتراب من الشرف الخالد! وهكذا كتب الله لمكة والمدينة شرفًا خالدًا تمتازان به علىٰ سائر البلاد، حتىٰ تقوم الساعة!

على حافة المحنة الأندلسية

خمس عجائب أندلسية

لا يعرف المسلمون مقدار ما فقدوه بفقدهم الأندلس، ولا كيف كانت صورتها ونهضتها حين كانت قطعة زاهرة في حضارتهم الغابرة.. هذه السطور القادمة تلقي ضوءا خاطفا علىٰ خمس عجائب لم نستطع أن نرها، وأبقتها لنا كتب التاريخ كالسياط والجمر تلهب قلوبنا وأرواحنا وتشد أنظارنا وأسماعنا نحو الأندلس[١].

١- بِيلَتَيْ طليطلة:

والبيلة هي حوض النافورة، وكان المهندس الفلكي الأندلسي عبد الرحمن الزرقال قد صنع حوضي نافورة داخل تجويف من الزجاج علىٰ نهر تاجُه في طليطلة، والعجيب في هذين الحوضين أنهما يمتلئان بالماء بنفس حساب التقويم القمري. بمعنىٰ أنه إذا كان القمر هلالا وليدا يكون الماء فيهما بنسبة (١: ٣٠) ثم تظل زيادة الماء فيهما متناسبة مع القمر حتىٰ إذا صار القمر بدرا كاملا يكون الحوضان قد امتلآ بالماء، ثم يبدأ القمر في النقصان فيبدأ منسوب الماء في النقصان حتىٰ إذا اختفىٰ القمر وصار محاقا لم يعد في الحوضين ماء.

يقول المقري: «وإذا تَكَلَّف أحدٌ حين تنقصان أن يملأهما وجلب لهما الماء ابتلعتا ذلك من حينهما حتىٰ لا يبقىٰ فيهما إلا ما كان فيهما في تلك

(١) نشر هذا المقال بتاريخ ٣٠ ديسمبر ٢٠١٣م.

الساعة، وكذا لو تكلف عند امتلائهما إفراغهما ولم يبق فيهما شيئا ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما في الحين ... ولم تزالا في بيت واحد حتىٰ ملك النصارىٰ دمرهم الله طليلة فأراد الفنش (ألفونسو السادس) أن يعلم حركاتهما فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من أين يأتي إليها الماء وكيف الحركة فيهما فقلعت فبطلت حركتهما»[(١)].

٢- مجلس المأمون بن ذي النون:

وهو ملك طليطلة في عصر ملوك الطوائف، وقد بلغ مجلسه في حديقة قصره الفاخر مبلغا أسطوريا..

كان مجلس المأمون في قبة مجوفة في وسط بحيرة، ويحف البحيرة نوافير علىٰ هيئة الأسود التي تقذف بالماء من أفواهها إلىٰ البحيرة وتتركز عليها الأضواء التي يعكسها سطح الماء فكأن المشهد قادم من عالم الخيال، وأقوىٰ ما في المشهد هذه القبة المجوفة في وسط البحيرة، إذ صممها المهندسون بحيث يرتفع الماء إلىٰ سطحها ثم ينسكب من حولها بصفة مستمرة فتصير كأنها قبة من الماء المنسدل عليها من كل النواحي فيكون مجلس المأمون داخل هذه القبة دون أن تصيبه قطرات الماء[(٢)].

٣- طريقة التعليم المعجزة:

نعرف جميعًا قصة هيلين كيلر، الملقبة بمعجزة الإنسانية، تلك الفتاة العمياء الصماء البكماء التي استطاعت معلمتها آن سوليفان أن تبدأ معها مسيرة التعليم من خلال كتابة الحروف علىٰ يدها وتجسيمها في مجسمات تلمسها

---

(١) المقري: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» ١/ ٢٠٦، ٢٠٧.

(٢) الطرطوشي: «سراج الملوك» ص٢٦، ابن ظافر الخزرجي: «بدائع البدائه» ص١٦٩، المقري: «نفح الطيب» ٤/ ٣٥٣.

هيلين حتىٰ تتعرف عليها ... إلىٰ آخر القصة المعروفة.

من المدهش أنك تجد هذه الطريقة ذاتها قبل هيلين كيلر بثمانية قرون كاملة، في الأندلس، وذلك ما يرويه لنا الإمام ابن حزم في لفتة عابرة، في كتابه «التقريب لحد المنطق» فيقول:

«أخبرني مؤدبي أحمد بن محمد بن عبد الوارث رحمه الله أن أباه صَوَّر لمولود كان له أعمىٰ وأكمه حروف الهجاء أجراما من قِير، ثم أَلْمَسَه إياها حتىٰ وقف علىٰ صورها بعقله وحسه، ثم أَلْمَسَه تراكبها وقيام الأشياء منها حتىٰ تشكل الخط وكيف يُسْتبان الكتاب ويُقْرأ في نفسه، ورفع بذلك عنه غصة عظيمة، وأما الألوان فلا سبيل إلىٰ ذلك فيها»[١].

ويتضح من النص أن بين ابن حزم وبين والد مؤدبه ثلاثة أجيال، أي نحو أربعين عاما علىٰ الأقل، أي أن ذلك كان في نهاية القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي.

٤- قاعة السفراء (بهو قمارش):

وهي جزء من قصر المتزين في مدينة الحمراء -عاصمة غرناطة- بناه يوسف الأول، وصممت هذه القاعة لإلقاء الروعة والرهبة -معا- في نفوس الزائرين، خصوصًا من سفراء القشتالين والممالك النصرانية، وما يزال شعور الرهبة والروعة باقٍ حتىٰ عصرنا هذا في نفوس من يزوره.

ليس في القاعة شبر لا تنسال منه الزخارف والنقوش البديعة، حتىٰ كأنه انفجار بصري أخاذ، ورغم أن الألوان الأصلية قد ذهبت الآن إلا أن تصورها يلقي في النفس مشهدًا أسطوريًا آسرًا، وتعلو القاعة قبة مهيبة مهولة -بارتفاع ٢٣ مترًا- كأنها تمثل منبعًا لفيضان الزخارف السيال من كل ركن في هذه القاعة.

---

(١) ابن حزم: «التقريب لحد المنطق» ص١٩٢.

كانت القاعة جزءًا من برج المتزين، الذي كان الأعلىٰ في محيطه، والحمراء نفسها إنما هي بناء عال فوق جبال سيرانيفادا المطلة علىٰ غرناطة، أي أن القاعة تشرف علىٰ غرناطة.. وبهذا الاعتبار فقد صمم المهندسون نوافذها في جهاتها كلها، وجعلوا مجلس السلطان في منتصف القاعة تحت القبة المهيبة، فيكون الداخل إليه كأنما يجد نفسه فجأة فوق العالم، أينما اتجه ببصره رأىٰ عبر النوافذ غرناطة تحت قدميه في مشهد بانورامي يجتمع فيه التوجس والانبهار، ثم يزداد التأثير بفيضان الزخارف في كل ركن، ثم يكتمل بمجلس السلطان وأبهته وزينته، والذي يبدو -وهو في هذا الموضع- وكأنه يملك غرناطة ببصره ويهيمن عليها بسلطانه.

وهذا بخلاف مجموعة من النوافذ العلوية الصغيرة (التي تسمىٰ قمريات، ومنها جاء اسم قمارش) المصممة بدقة والتي تتسرب منها أشعة الشمس لتنعكس فتصنع من الزخارف وألوانها عالمًا ساحرًا خلابًا.

٥- مجلس أنس:

يصف الشاعر ابن حمديس الصقلي مجلس أنس وخمر، ولا شك أننا ننقله لما فيه من الطرافة والإبداع في الصناعة لا إقرارا للخمر، ونحن لا ندري علىٰ وجه التحديد هل كان هذا مجلس ملوك فتكون هذه التقنية فيه نادرة اختصت بالملوك أم أحد الأغنياء فتكون هذه التقنية متوفرة شائعة.. لكن المعروف أن هذا الشاعر كان في زمن ملوك الطوائف وله مدائح في المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، وعاصر محنته وخلعه ونفيه إلىٰ أغمات.

كان مجلس السقي هذا دائري، صُنِع فيه مجرىٰ للماء بحيث يجلس القوم علىٰ أطرافه، ويقف عند أول الدائرة الخدم الذين يحملون أنواع الخمر، فينادي من يريد الشراب علىٰ أحدهم (الذي يحمل نوعًا بعينه من الخمر) فيضع له الخادم الكأس في الماء فيجري به الماء حتىٰ صاحبه، فإذا فرغ من الكأس أعاده

مرة أخرىٰ إلىٰ الماء الذي يواصل جريانه حتىٰ يعود إلىٰ الخادم.

ولا ريب أن هذه التقنية كانت لها تطبيقات أخرىٰ في حياة المسلمين، لكن الذي عرفناها منه كان مجلس الخمر هذا.. يقول ابن حمديس:

وساقيةٍ تسقي الندامى بمدّها ... كؤوسًا من الصهباءِ طاغيةَ السُّكْرِ

يعوَّمُ فيها كلّ جامٍ كأنما ... تَضَمّنَ روحِ الشمس في جسد البدر

إذا قَصَدَتْ منّا نديمًا زجاجةٌ ... تناولها رفقًا بأنمله العشر

فيشربُ منها سكرةً عِنبِيَّةً ... تنّومُ عينَ الصحو منه وما يدري

ويُرسلها في مائها فيُعيدها ... إلى راحتي ساقٍ على حكمه تجري

جعلنا على شُرْبِ العُقَارِ سَمَاعَنَا ... لحونًا تغنّيها الطيورُ بلا شعر

وساقينا ماءٌ ينيل بلا يدٍ ... ومشروبُنَا نارٌ تضيء بلا جمر

سقانا مسرّاتٍ فكان جزاؤه ... عليها لدينا أنْ سقيناه للبحر

كأنا على شطِ الخليج مدائن ... تسافرُ فيما بيننا سُفُنُ الخمر

وما العيش إلاّ في تطرّفِ لذةٍ ... وخلعِ عذارٍ فيه مستحسنُ العذر

محكمة المياه في بلنسية

يكمن سرّ تفوق الحضارة الإسلامية وخلودها في أنها وليدة شريعة تقوي المجتمع وترفع من شأنه وتطلق طاقاته، فيستمر عطاؤه الحضاري بغض النظر عن حال السلطة السياسية من القوة أوالضعف، بل نحن أصحاب الحضارة التي ربما هُزِمت عسكريا ثم لم يلبث أن اعتنق المحتلون دينها وحضارتها كالمغول، أو حضارتها دون دينها كالصليبيين في الشام والإسبان في الأندلس والنورمان في صقلية.. وغير ذلك مما هو معروف ومشتهر[١].

ودَوْر السلطة -في تاريخنا الحضاري- أشبه بمن يطلق الشرارة أو يبذر البذرة، التي ترعاها الأمة فيما بعد، فيستمر حصادها حتىٰ ولو ضعفت السلطة أو ذهبت بالكلية، وذلك راجع إلىٰ قيمتين أساسيتين في الإسلام هما: الإنفاق في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما القيمتان اللتان أسستا لمؤسستي: الوقف والحسبة، وكلتاهما كانتا تعبيرًا عن التميز الإسلامي، وكان لهما فضل حراسة قيم الأمة وحضارتها حتىٰ جاءنا الاحتلال الحديث فكان أن استفاد منهما في بلاده وحرص علىٰ تدميرهما في بلادنا.

في السطور القادمة نتناول نموذجا من التاريخ لمؤسسة أطلقت شرارتها السلطة، لكنها بقيت خالدة حتيا يومنا هذا بعد أن ذهب الخليفة وذهبت دولته بل وذهب المسلمون من تلك الأرض.. تلك هي محكمة المياه في بلنسية الأندلسية، وهي تمثل نموذجًا للمسؤولية الاجتماعية والحلول المبدعة التي

(١) نشر هذا المقال لأول مرة في مارس ٢٠١٤ (جمادىٰ الأولىٰ ١٤٣٥هـ)، بمجلة الوعي الإسلامي الكويتية.

يفرزها المجتمع ويقوم عليها ويُبْقِيها.

كان عهد عبد الرحمن الناصر من أزهىٰ عهود الأندلس، وهو العهد الذي استمر لنصف قرن، إذ تولىٰ الحكم وهو شاب صغير في حدود العشرين سنة ثم مات وهو في السبعين من عمره (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ)، واستطاع في عهده أن يغير حال الأندلس من ضعف وتفكك إلىٰ قوة ومجد وازدهار.. فهذا الناصر هو من أطول الملوك حكما في تاريخ المسلمين.

كان من آثار عهده إنشاء «محكمة المياه» في بلنسية التي احتفلت إسبانيا بمرور ألف عام علىٰ إنشائها عام ١٩٦١م، وحضر الملك الإسباني خوان كارلوس جلساتها أربع مرات، واعتمدت في الدستور الإسباني ١٩٧٨م، وصارت جزءا من قانون مقاطعة بلنسية الصادر ١٩٨٢م، ومن قانون الماء الإسباني الصادر ١٩٨٥م، وأخيرا فقد سجلتها منظمة اليونسكو ضمن التراث العالمي الذي يجب المحافظة عليه في سبتمبر ٢٠٠٩م.. فما هي قصة المحكمة؟

تحولت بلنسية التي أنشأها الرومان علىٰ ساحل البحر المتوسط في عهد المسلمين إلىٰ أرض الحدائق والجنات، رغم قلة أمطارها، وذلك بأثرٍ مما أبدعه المسلمون من أنظمة الري والتحكم بالمياه من خلال ما بنوه من سواقي وسدود علىٰ نهر توريا الذي يمد المدينة بحاجتها من الماء، وهذه التقنيات التي تركها العرب منذ ألف سنة بلغت من التطور والإبداع حدًّا عظيما، ويكفي أنها ما تزال هي الأساليب المعتمدة في الزراعة حتىٰ الآن.

نشأت محكمة المياه كنوع من المحاكم المتخصصة التي تسد حاجة سريعة في تنظيم الماء في بلنسية، وهي تتألف من ثمانية أعضاء يمثلون السواقي الثمانية القائمة علىٰ نهر توريا في بلنسية (وهي سواقي قوارت ـ مصلاتة ـ ترمس ـ مستليا ـ فبارة ـ رأس كانيا ـ روبية ـ بيناشير وفيتمار)، فلكل ساقية مستفيدون

منها -وهم أصحاب الأراضي الواقعة حولها- وهم ينتخبون فلاحا منهم ليكون قاضيا عليهم، وتكون مدة انتخابه لسنتين أو ثلاثة، وحين يجتمع الأعضاء الثمانية يترؤسهم الأكبر سنا، ثم يختارون بالانتخاب رئيس المحكمة ونائبه.

تعقد جلسة المحكمة منتصف نهار يوم الخميس من كل أسبوع مثلما كان ذلك في عهد المسلمين، وفيها يتقدم الشاكي بشكايته ويدافع المُتَهَّم عن نفسه، ولا يشترك قاضي هذه الساقية في تداول شأن القضية بل يحكم فيها السبعة الآخرون، وتعد أحكامهم نافذة وغير قابلة للاستئناف أو الطعن أمام أي جهة أخرىٰ، ويقوم بتنفيذها حُرَّاس السواقي تحت إشراف قاضي الساقية الذي لم يشترك في القضية ويعد هو المسؤول عن تنفيذ الأحكام.

وحراس السواقي أولئك هم بمثابة الشرطة المتخصصة، إذ بخلاف تنفيذهم للأحكام فهم أيضا من يبلغون المحكمة بأي تعديات أو مخالفات وقعت في ناحيتهم.

قضاة المحكمة هم من الفلاحين الذين يزرعون الأرض ويتكسبون منها بما يجعلهم متخصصون في هذا المجال ويعرفون دواخله وتفاصيله وأساليب الحيل والمخادعات فيه، وهم ما زالوا يرتدون الثياب السوداء التي كان يرتديها الفلاحون في بلنسية منذ العهد الإسلامي، ويجلسون علىٰ مقاعد جلدية كنحو التي كان يجلس عليها القضاة قديما، وجلسات المحكمة كانت ولا تزال علنية يمكن لأي امرئ أراد أن يحضرها، كما وتعقد المحكمة في ذات الفناء الذي كانت تعقد فيه غير أنه قديما كان فناء مسجد رحبة القاضي -وهو المسجد الجامع في بلنسية- بينما صار الآن فناء كاتدرائية بلنسية بعد هدم المسجد في زمن إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس.

وتضمن المحكمة استمرار نفسها من خلال التمويل الذاتي، إذ يحصل القضاة علىٰ نسبة من رسوم الري ونسبة من الغرامات التي توقع كعقوبات علىٰ

المخالفين، وتُكفل لهم نفقات تنقلهم.

وفي حين كان الاجتثاث الإسباني للمسلمين في غاية الجنون، فإنهم ولافتقادهم أي أساليب تنظيمية للزراعة والتحكم في الماء فقد أبقوا علىٰ محكمة المياه هذه كأمر لابد منه لكي لا تخرب بلنسية، إلا أن الخراب أصابها من وجه آخر وهو نقص ذوي الخبرة والمهارة في الزراعة الذين كانوا من المسلمين، إذ صاروا بين قتيل وأسير ومهاجر.

ما تزال بلنسية تستعمل المقياس العربي «فيلان» في قياس كميات المياه التي تحصل عليها كل ساقية بحيث ينضبط التوزيع العادل لمياه النهر بحسب كل ساقية والمساحات التي ترويها، والتي تبلغ أكثر من ٤٠ ألف فدان.

وبهذا تمثل محكمة المياه البلنسية الأندلسية نموذجا لمؤسسة اجتماعية ذات نفع عام، استمدت فكرتها وخلودها من خصائص الحضارة الإسلامية التي أنبتتها.



الأندلس في عشرين كتابًا

يتكرر السؤال عن الكتب التي ينبغي أن نقرأها لنعرف تاريخ الأندلس، ولماذا تظل هذه القطعة بالذات تمثل هذا الحضور الطاغي في الوجدان الإسلامي حتىٰ الآن، برغم أنها ليست الأرض الوحيدة التي فقدها المسلمون بعد أن حكموها، ولماذا تظل هذه القطعة بالذات نقطة كبرىٰ في الحضارة الإنسانية ومفصلا في تاريخ العلاقة بين الإسلام والغرب[1].

١- عشر كتب معاصرة:

في هذه السطور نضع أقدامك علىٰ أول الطريق إلىٰ التاريخ الأندلسي، ونرشدك إلىٰ أهم الكتب التي تساعدك علىٰ فهم تاريخ الأندلس.. وللتسهيل، فقد قسمتها إلىٰ مستويات، ووضعت في كل مستوىٰ كتابا واحدا أو كتابين فحسب أو ثلاثة بحد أقصىٰ.

المستوىٰ الأول: أخصر المختصرات

ويكفي في هذا المستوىٰ أن تتابع ما كُتِب عن تاريخ الأندلس في كتب التاريخ الإسلامي المختصرة، مثل:

١ - الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي:

وهي صادرة في مجلدين عن مؤسسة اقرأ، كتبهما مجموعة من طلبة العلم من شرق آسيا، وقدم لها د. راغب السرجاني، وفيها عرض لتاريخ الأندلس بصورة مبسطة ولطيفة وسريعة، ومكتوبة بروح إسلامية جميلة.

---

(١) هما مقالان، نشرا بتاريخ ١٨ ديسمبر ٢٠١٤م، ٢٥ ديسمبر ٢٠١٤م.

٢- التاريخ الإسلامي الوجيز:

مجلد واحد للدكتور سهيل طقوش، وفيه شمل التاريخ الأندلسي ستين صفحة فقط، والدكتور طقوش مؤرخ معروف ولكن تغلب عليه النزعة القومية العروبية، ويظهر ذلك في آرائه التاريخية.

٣- معالم تاريخ الأندلس والمغرب:

للدكتور حسين مؤنس، والدكتور حسين من أساطين تاريخ الأندلس، ورجاله العمالقة الكبار، ومؤلفاته الأندلسية هي من أفضل ما كُتِب في موضوعها، وإن كان في أحكامه علىٰ بعض الأبطال حدة شديدة (كالمنصور بن أبي عامر) وفي أحكامه علىٰ بعض الخونة اعتذارات غريبة (كأبي زيد عبد الرحمن الموحدي)، إلا أن هذا لا يؤثر في مكانته الرفيعة، وقد كتب د. مؤنس هذا الكتاب ليكون مقدمة وتمهيدا مختصرا لتاريخ المغرب والأندلس، وصدر من الكتاب طبعة في مكتبة الأسرة قبل عشر سنوات تقريبا.

المستوىٰ الثاني: الكتاب الواحد:

وهي الكتب التي استعرضت تاريخ الأندلس كله في مجلد واحد، وأبسط هذه الكتب:

٤- التاريخ الأندلسي:

للدكتور عبد الرحمن الحجي، وهو عراقي يقيم الآن في مدريد، ومتخصص في تاريخ الأندلس، ويعتبر كتابه هذا أفضل كتاب مختصر عن تاريخ الأندلس فيما أعلم، وإن كان لم يتعرض لفترة الدولة العامرية إلا في سطور.

٥- قصة الأندلس:

للدكتور راغب السرجاني، والكتاب غير السلسلة الصوتية، ففي السلسلة الصوتية أخطاء تلافاها الكتاب، لأن كتب د. راغب يكتبها باحثون تحت

إشرافه، فيكون التدقيق فيها أفضل، والكتاب رغم أنه صادر في مجلدين إلا أنه يمكن اعتبارهما مجلد واحد، وإنما جرىٰ توسيع الطباعة لأغراض تسويقية.

٦- تاريخ الأندلس المصور:

للدكتور طارق السويدان، وميزة هذا الكتاب ليست في مادته العلمية بل في كثرة الصور والخرائط والرسوم التي تضفي جوا ممتعا علىٰ قارئ تاريخ الأندلس وتزيد من حسن تصوره للجغرافيا والممالك والحضارة والآثار الأندلسية.

المستوىٰ الثالث: المجلدات المتعددة:

وهي الكتب التي توسعت في تاريخ الأندلس حتىٰ لم يكفها مجلد واحد، وأهمها:

٧- دولة الإسلام في الأندلس:

للأستاذ محمد عبد الله عنان، وهو في ثمانية مجلدات، لكن الأسلوب الأدبي اللذيذ للمؤلف يجعله يمر كالمجلد الواحد أو المجلدين، وهذا الكتاب برغم مضي زمن طويل علىٰ تأليفه إلا أنه لم يؤلف مثله حتىٰ الآن فيما أعلم، وقد بذل فيه المؤلف جهدا كبيرا في تتبع المخطوطات ومعاينة المواقع التاريخية حتىٰ خرج بهذا التاريخ الفريد. ومن ألذ أجزاء الكتاب متعة المجلد الأخير الذي يتحدث عن الآثار الأندلسية الباقية، وإن كان من أصعب الأجزاء علىٰ النفس في ذات اللحظة.

المستوىٰ الرابع: كتب المستشرقين

وللمستشرقين في تاريخ الأندلس مجهود ضخم وإنتاج رصين، ولا ينقص من قدره أن فيه العيوب المعتادة للإنتاج الاستشراقي من الخطأ في الفهم والتفسير أو محاكمة التاريخ الإسلامي بمناهج مادية وضعية، نختار لك منه:

٨- تاريخ الفكر الأندلسي:

للمستشرق الإسباني آنخل جنثالث بالنسيا، وهو عرض شامل لعلوم الأندلسيين وآدابهم في مجلد كبير، وهو عمل جليل ومجهود عجيب لم يكتب مثله بالعربية، وزاده جمالًا الترجمة المتقنة للدكتور حسين مؤنس، وهو وثيقة تاريخية عظمىٰ عن العطاء الأندلسي في الحضارة الإنسانية.

٩- الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس:

لمجموعة من الباحثين أغلبهم إسبان، وترجم تحت إشراف د. سلمىٰ الخضراء الجيوسي، وصدر في مجلدين كبيرين عن مركز الوحدة للدراسات العربية، ولم يكن فيه من العرب إلا د. محمود مكي الذي كتب مختصر تاريخ الأندلس في أول المجلد الأول، ثم جاءت دراسات شاملة لكافة الجوانب التاريخية الأندلسية: الاقتصادية والاجتماعية والأدبية والفنية والترفيهية، كل منها يعد مثالا لقوة البحث العلمي.

١٠- تاريخ المسلمين في إسبانيا:

للمستشرق الهولندي رينهارت دوزي الذي يعد سيد المستشرقين في تاريخ الأندلس، وهذا الكتاب في أربعة مجلدات، منذ الفتح الإسلامي وحتىٰ دخول المرابطين، وترجمه د. حسن حبشي، نُشِر المجلد الأولىٰ بعنوان «تاريخ مسلمي إسبانيا - الحروب الأهلية»، ثم نشر الثلاثة الباقون بعنوان «المسلمون في الأندلس»، ومما يعيبه المسلمون علىٰ دوزي حبه الشديد واهتمامه البالغ للمعتمد بن عباد وهو الحب الذي حدا به للقدح في المرابطين والتشغيب عليهم، برغم أن الأول في جملة الخونة والآخرين من سادات المجاهدين.

أما البشرىٰ التي وعدنا بها، فهي أن كل هذه الكتب متاحة للتحميل مجانا علىٰ الانترنت، (ما عدا المجلد الأول من الكتاب التاسع فيما نعلم)، ولا بد للقارئ المعاصر أن يعود نفسه قراءة الكتب المصورة علىٰ الأجهزة الحديثة،

وإلا فاته العلم الغزير والخير الكثير.

٢- عشر تواريخ أندلسية:

هذه المرة من كتب التراث الأندلسي، لمن أحب أن يشم عبق الأندلس من مصدره ويقرأ أيامها بلسانها وألفاظها ويمتع نظره بمجالسها بأقلام من حضروها وسجلوها.. تلك التواريخ التي كتبتها اليد الأندلسية، إذ سجلها المؤرخ الذي عاش الأندلس بكيانه فسمع ورأىٰ أهل الأندلس وملوكها وعلمائها، وسرح ومرح في رياضها وجنانها ومروجها، وعاين بنفسه -أو بشهود العيان- أمور حربها وسلمها، وذاق ترفها ولهيبها، وغشي بصره نورها ونارها!

ولا يصبر علىٰ قراءة كتب التاريخ القديمة إلا من له شوق وولع يتغلب به علىٰ ما يضايق القارئ المعاصر من غرابة الألفاظ والتراكيب وعسر أساليب القدامي في الوصف والتصنيف والتقسيم والإسهاب أحيانا والإيجاز أحيانا وغير هذا مما هو معروف.. لكن اللذة التي تتحقق بعد هذه المشقة لذة لا توصف، لأن المرء يكاد يلمس الأندلس بيده في ظلال هذه الكتب!

ومثلما فعلنا سابقًا فقد قسمناها لك إلىٰ مستويات أيضًا:

المستوىٰ الأول: المختصرات:

١- أخبار مجموعة:

ومؤلفها مجهول، ويتوقع بعض الباحثين أن يكون تأليفه لمجموعة وليس لواحد، ويرىٰ المستشرق الإسباني الخبير خوليان ريبييرا أنه من مذكرات أسرة أموية واحدة، لكن أحدهم اهتم بأخبار السياسة والآخر بأخبار الفقه والدين والثالث بأخبار العلم والأدب، وهو مهم في أخبار فترة الفتح وما جرىٰ بعدها من نزاعات بين العرب قبل إنشاء الإمارة الأموية علىٰ يد عبد الرحمن الداخل. وإن كان تأريخه مستمرا حتىٰ خلافة عبد الرحمن الناصر. وهو في ١٤٠ صفحة فقط!

٢- تاريخ افتتاح الأندلس:

لابن القوطية، وسُمِّي بهذا الاسم لأن جدته العليا سارة حفيدة غِيطْشَة ملك القوط التي تزوجت فيما بعد بأحد موالي الأمويين، وابن القوطية هو أستاذ العالم الأندلسي الشهير ابن الفرضي صاحب «تاريخ علماء الأندلس»، ومزية هذا الكتاب أنه مصدر قديم عن المجتمع الأندلسي غير العربي، وإن كان تجنب اليهود والنصارىٰ[1].

٣- رسالة فضائل أهل الأندلس:

للإمام العلم البحر الكبير ابن حزم، والتي كتبها يدافع فيها عن حظ أهل الأندلس من العلم والأدب والفنون، وهي رد علىٰ رسالة وصلت لابن حزم تشكو ضعف الأندلسيين في تخليد ذكر علمائهم. فأخذ ابن حزم يسيل بقلمه حتىٰ أوفىٰ، مع ملاحظة أن الأندلس استمرت بعد ابن حزم أربعة قرون أخرىٰ!

المستوىٰ الثاني: المطولات:

٤- المقتبس من أنباء أهل الأندلس:

لابن حيان الذي هو شيخ مؤرخي الأندلس قاطبة، وتاريخه أنفس تاريخ كُتِب في تاريخها، ومن المؤسف أن كل كتبه مفقودة إلا أجزاء من «المقتبس» وأجزاء أقل كثيرا من «المتين»، والأول كان عشر مجلدات والثاني كان ستين مجلدا!! وقد اجتهد المؤرخون في جمع ما تناثر من المقتبس والمتين، وكان ما وجدوه من المقتبس أكبر بكثير، ولكن الذي وجدوه هذا بديع في الوصف دقيق في التاريخ ممتع إلىٰ أقصىٰ حد مع ما فيه من نفع كبير. وقد جعله الإمام ابن حزم مما يفخر به أهل الأندلس علىٰ من سواهم.. والقطعة المتاحة منه علىٰ

---

(١) ومن أراد التوسع في هذا الجانب فعليه بكتاب: فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس، فهو أجلُّ شيء أعلمه كُتِب في وصف المجتمع الأندلسي.

الانترنت هي جزء من عصر عبد الرحمن الناصر حققها ونشرها د. محمود مكي وقدم لها ببحث ممتع عن شخصية ابن حيان وعصره.

٥- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب:

لابن عذارىٰ، وهو من أشهر مصادر التاريخ الأندلسي والمغربي، وقيمته الكبرىٰ في أنه حفظ لنا بين نصوصه كثيرا من نصوص الكتب المفقودة، ومن المفارقات أن معلوماتنا قليلة عن صاحب التاريخ، لكن كتابه من أهم المؤلفات في بابه.

٦- الإحاطة في أخبار غرناطة:

لابن الخطيب، لسان الدين ذي الوزارتين، الغني عن التعريف، المشهور في كل مكان، وصاحب القصيدة التي حوت البيت المحفوظ «جادك الغيث إذا الغيث همىٰ.. يا زمان الوصل بالأندلس»، وكتابه هذا وإن كان عن تاريخ غرناطة إلا أنه حوىٰ تاريخ الأندلس بالتبعية، وهو مؤلف علىٰ طريقة علمائنا في التأريخ للبلد وخططها ومميزاتها، ثم الترجمة لمن مر بها أو عاش فيها أو حكمها، وفي ظل هذه التراجم يجتمع للقارئ صورة شاملة للتاريخ الغرناطي والأندلسي وكثيرا من التاريخ المغربي وبعض المشرقي أيضا. وعلىٰ رغم حياة ابن الخطيب الحافلة بالمشاغل -سواء أكانت وزارة أم محنا- إلا أن كتبه تبدو وكأن الذي كتبها مؤلف رائق البال طيب الحال هادئ الخاطر، فلله دره!

٧- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:

للمَقَّري التلمساني، وقد كُتِب هذا الكتاب بعد سقوط الأندلس، فهو ممزوج بالحسرة عليها فائح براحة الشوق إليها، وقد كان السبب في تأليفه عجيبا؛ وذلك أن المؤلف كان في زيارة لدمشق، وهناك فوجئ بجهل الناس بلسان الدين بن الخطيب -وهو يكاد يكون أشهر شخصية أندلسية- فعزم علىٰ تأليف كتاب عنه، ثم اتسع التأليف وتفرع فصار أكبر من كونه تعريفا بابن

الخطيب، فأكمله ليكون تاريخا للأندلس وجعل اسمه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب».. وهذا الكتاب من أجمع تواريخ الأندلس.

المستوىٰ الثالث: كتب متخصصة:

٨- تاريخ علماء الأندلس:

لابن الفرضي العالِم القاضي الأديب، ويعد كتابه هذا أول كتاب معروف في التاريخ لعلماء الأندلس، ورتبهم علىٰ حروف المعجم، مع مقدمة في غاية الاختصار لأمراء الأندلس منذ عبد الرحمن الداخل إلىٰ هشام المؤيد بالله.

٩- الصلة:

لابن بشكوال، وهو تلميذ الفيلسوف المشهور ابن رشد، وكتابه هذا -كما يشير اسمه- ملحق لكتاب ابن الفرضي «تاريخ علماء الأندلس»، فصار الكتابان مادة غنية يُعرف منها علماء الأندلس ونوابغها، وقد طال عمر ابن بشكوال حتىٰ انتشر علمه وتلقىٰ عنه الكثيرون، ومن المفارقات أن الله هيأ له من يستكمل كتابه هو مثلما استكمل هو كتاب ابن الفرضي، فجاء الأديب المشهور ابن الأبار وكتب كتابه الذي سماه «التكملة لكتاب الصلة».

١٠- طوق الحمامة في الإلف والأُلّاف:

للإمام ابن حزم، وهو كتاب مشهور بين المحبين العاشقين، بل بين كل من رقَّت قلوبهم وحسنت أذواقهم، ففيه من رقة القصص ولوعة الشعور وجمال اللغة وبديع التعابير ما يحرك قلب أي بشر لم تنتكس فطرته ولم يغلظ طبعه. والكتاب وإن كان في الحب والعشق إلا أنه من وجه آخر صورة للحب في الأندلس ولقطة شديدة الخصوصية والعمق في تضاعيف المجتمع.

وبعد هذا لا بد أن نذكر بأن هذه عشرة كتب فقط من كل المصادر

الأندلسية التي وصلتنا، والذي لم يصلنا منها أكبر مما وصلنا بكثير، فنحن حتىٰ الآن نفتقد كتاب أبي حيان -شيخ مؤرخي الأندلس- المفصل لتاريخها، كما نفتقد كتاب ابن شهيد والذي وُصِف بأنه في مائة جزء يعرض فيها تاريخ مائتين وخمسين سنة، منذ عام ٤٠ هـ حتىٰ أيامه (ت ٣٩٢ هـ)، وغير ذلك من أسفار لا ندري هل سيكشف عنها الزمان وتخرجها الأرض من خزائن مجهولة أو مخبوءة أم ستُطوىٰ في صحائف النسيان أبد الدهر؟!!

بالخرائط كيف تفهم تاريخ الأندلس

نحاول في هذا المقام تقديم «صورة تاريخية» تعين علىٰ تيسير وتبسيط التاريخ الأندلسي من خلال استعراض الخرائط لمراحل قيام وسقوط الأندلس[١].

وبداية فإنه يمكننا تقسيم التاريخ الأندلسي إلىٰ ثمانية مراحل، هي: الفتح الإسلامي، عصر الولاة، العصر الأموي، الدولة العامرية، عصر ملوك الطوائف، دولة المرابطين، دولة الموحدين، مملكة غرناطة وسقوط الأندلس.

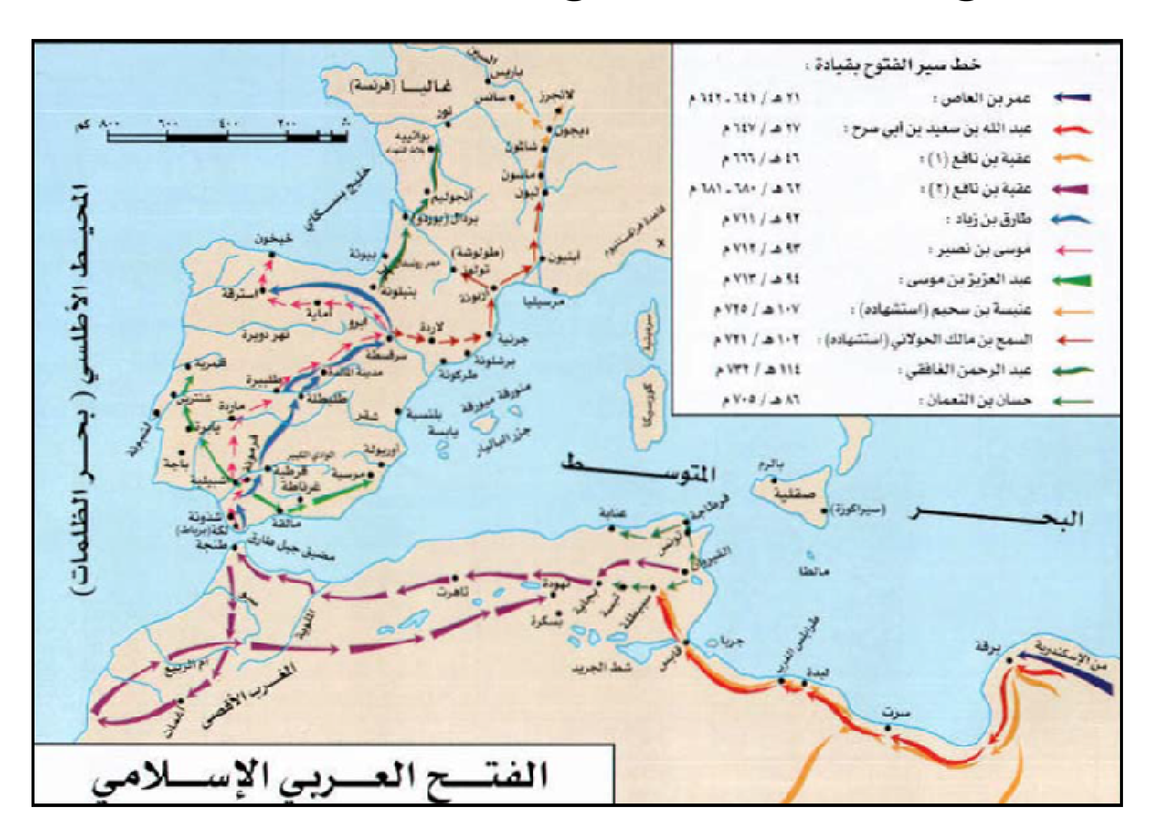
أولاً: الفتح الإسلامي:

وهو العصر الذي يبدأ منذ نهاية القرن الأول الهجري، وبالتحديد عام (٩٢ هـ) إذ توجه الجيش الإسلامي الذي يقوده طارق بن زياد -وهو بربري من سلالة أسلموا في فتوح المغرب- بتكليف من عبد العزيز بن نصير -الوالي الأموي علىٰ الشمال الإفريقي- ليبدأ في فتح الأندلس بعد استغاثة أبناء ملكها به، إذ جرىٰ ضدهم انقلاب عسكري يقوده سفاح طاغية يسمىٰ لوذريق (رودريكو)، فكان هذا أول دخول المسلمين إلىٰ الأندلس الذين انتصروا في موقعة هائلة علىٰ قوات لوذريق، واستسلمت لهم المدن بغير مقاومة تذكر، ثم استمرت فتوحاتهم علىٰ يد الولاة الأمويين مثل السمح بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي وعبد الرحمن الغافقي فشملت الجنوب والوسط الفرنسي وتوقفت علىٰ بعد كيلومترات من باريس بعد هزيمة المسلمين -الغريبة والتي لا نعرف سببها علىٰ وجه الحقيقة، إذ ليس لدينا في ذلك إلا رواية نصرانية مشكوك فيها- في بلاط الشهداء (بواتية) عام (١١٤ هـ) علىٰ يد شارل مارتل.

---

(١) نشر هذا المقال بتاريخ ١ يناير ٢٠١٥م.

وتشرح الخريطة مراحل هذه الفتوح.



[الخريطة نقلا عن: د. شوقي أبو خليل: أطلس التاريخ العربي الإسلامي]

ثانيًا: عصر الولاة:

وهو العصر الذي كان يتولىٰ الأندلس فيها والٍ من قبل الدولة الأموية، وكان من أشهرهم وأقواهم السمح بن مالك وعنبسة بن سحيم وعبد الرحمن الغافقي، ولكن خلف بعدهم ولاة ضعفاء، لم يكونوا علىٰ مستوىٰ الولاية ونبتت فيهم الصراعات القبلية وظلم الناس وظهرت تمردات وثورات من الخوارج في الأندلس وغيرهم، ولم تستطع الدولة الأموية رغم محاولاتها - ورغم ما بدأت تعانيه من مشكلات في أواخر عمرها في شرق الدولة وقلبها- أن تحل هذه المشكلات، وعوقب المسلمون علىٰ هذا بأن فقدوا كافة ما فتحوه في فرنسا، بل وأن تمددت الفلول المسيحية المعتصمة بالجبال في أقصىٰ غرب

الأندلس لتكون بذور دولة علىٰ النحو الذي تشرحه هذه الخريطة.



[الخريطة نقلا عن: د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام]

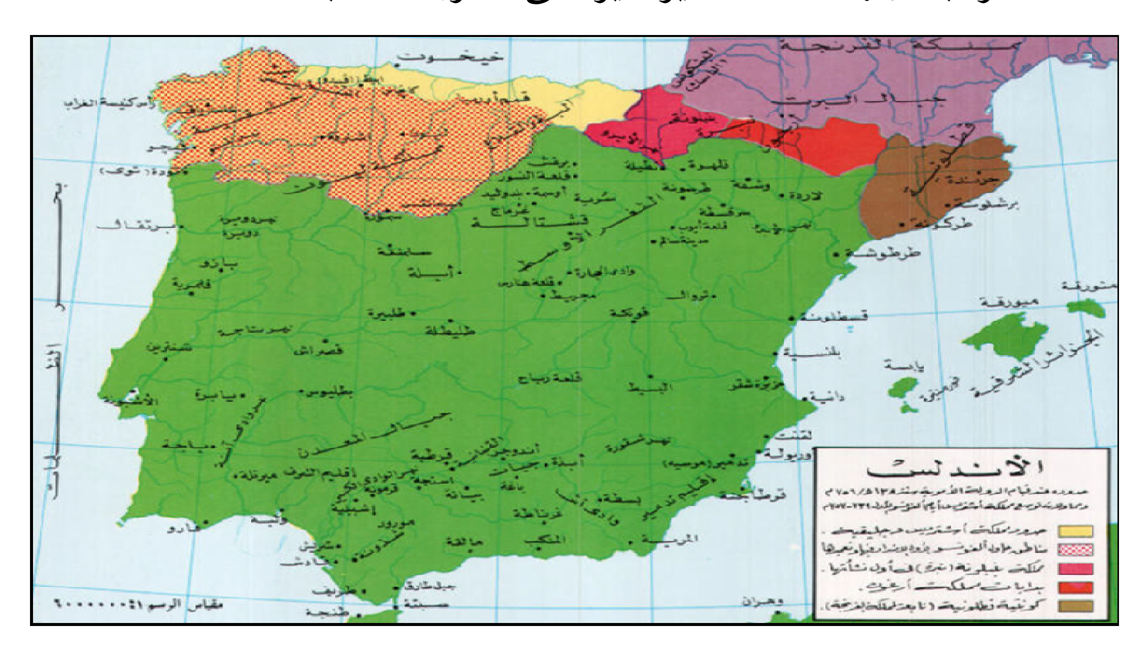
ثالثًا: العصر الأموي:

حين نجحت الثورة العباسية في إسقاط الدولة الأموية بالمشرق، نجا من بني أمية شاب صغير في الحادية والعشرين من عمره لا أكثر، ورزق من المواهب والجلد والصمود ما مكنه من الهروب من العباسيين رغم مطاردتهم القاسية حتىٰ أقصىٰ المغرب، ثم استطاع أن يتصل بموالي بني أمية في الأندلس، وبمزيج من القوة والسياسة والعزم استطاع أن يؤسس لنفسه ملكا في الأندلس فيجدد عصر الأمويين في المغرب بعد انتهائه في المشرق، وبهذا أنقذ الأندلس من الانهيار التي كانت ستصير إليه مع الضعف والتمزق القبلي بين المسلمين، وأسس فيها دولة قوية مهابة مكينة، لكنه لم يستطع أن يستعيد ما فقده المسلمون

بشكل نهائي في الشمال الأندلسي أو في الجنوب والوسط الفرنسي، غير أن تلك اللحظة تعد ميلادا جديد للأندلس ذات الحضارة الزاهرة.

وقد استمر العصر الأموي للأندلس نحو قرنين ونصف (١٣٧ - ٤٢٢ هـ)، اتسم القرن الأول منها بالقوة حتىٰ نهاية عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ هـ)، ثم أخذ الضعف يتسرب إلىٰ الأمويين وتندلع ثورات وتمردات وتنفصل أجزاء بالحكم لنحو ثلثي قرن حتىٰ تولىٰ الحكم عبد الرحمن الناصر وهو شاب صغير في العشرين من عمره، جدد سيرة جده عبد الرحمن الداخل فبلغ بالأندلس ما كان لها من القوة وفوق ما كان لها من العمران والحضارة، وحكم لمدة نصف قرن (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ثم استمرت القوة من بعده في عهد ولده الحكم المستنصر -وهو أعلم من حكم الأندلس فقد كان شغوفا بالعلم والكتب وكان مؤرخا ونسابة خبيرا- لمدة ستة عشر عاما، ثم مات وكان ولده صغيرا فدخلت الأندلس في مرحلة «الدولة العامرية».

وقد استطاع الناصر والمستنصر أن يعيدوا خريطة الأندلس كما أقرها جدهم الداخل مع الخضوع السياسي التام من الممالك النصرانية الشمالية لمملكة قرطبة، ولهذا لا نجد كثير تغير علىٰ الخريطة السابقة.



رابعًا: الدولة العامرية:

تعتبر الدولة العامرية جزءًا من العصر الأموي، لأن السيادة الاسمية والرسمية كانت لخليفة أموي فيما كانت السلطة والحكم الفعلي للحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، وقد كان هذا الرجل شخصية عجيبة ومدهشة، متعدد المواهب عالي الهمة حاد الذكاء نافذ العزيمة لم يتول عملا إلا ونبغ فيه علىٰ ذوي الخبرة، ونجح في إدارة كل شيء: الكتابة والقضاء وإدارة الأملاك الخاصة بأسرة الخليفة ودار السكة (وزارة المالية) والشرطة الوسطىٰ والشرطة العليا وإدارة مدينة قرطبة (محافظ العاصمة) والسفارة والوزراة والحجابة والقيادة العسكرية للجيوش.. شيء مذهل لا أعرف له شبيها في التاريخ الإسلامي، فلما مات الحكم المستنصر وابنه ما زال صغيرا كان ابن أبي عامر الوصي عليه، فانفرد دونه بالحكم وبلغ بالأندلس ذروة قوتها علىٰ الإطلاق، وغزا في سبع وعشرين سنة (فترة حكمه) ستا وخمسين غزوة لم يهزم في واحدة منها أبدا، ومدَّ نفوذ الأندلس أكثر في المغرب، ثم عهد بالحجابة من بعده لابنه المظفر الذي كان عصره ذروة الذروة الأندلسية كلها، ثم مات المظفر بعد ست سنوات فقط من فترة حكمه وهو ما يزال شابا صغيرا فتولىٰ الحجابة أخاه عبد الرحمن وكان أحمق مندفعا قليل البصر فانهار علىٰ يديه بناء الدولة العامرية، ودخلت الأندلس في عصر الفتنة.



خامسًا: ملوك الطوائف:

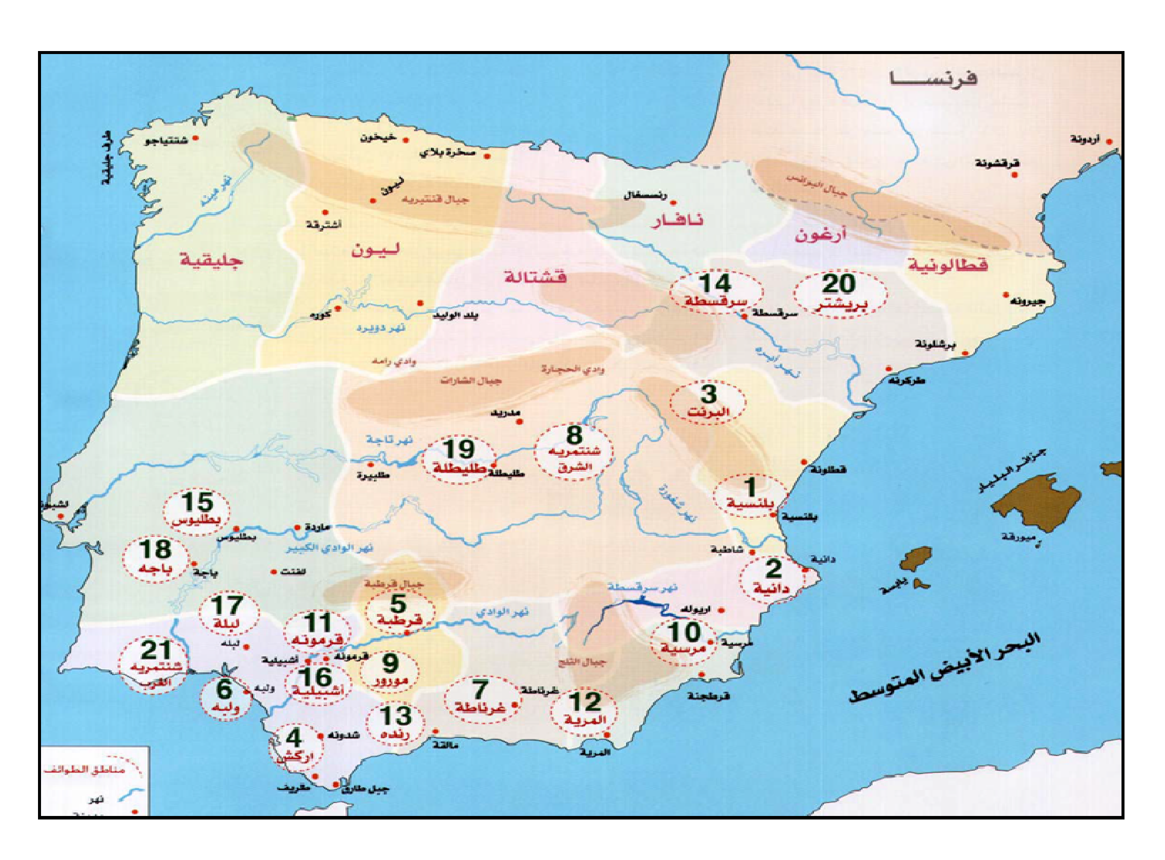
ولم يستطع من أتىٰ بعد ذلك من الخلفاء الأمويون أن يلم شتات الأندلس فلقد ذهب الأمويون الأقوياء وكانت تلك اللحظة هي لحظة غروب الدولة الأموية من الأندلس، والتي غربت في عام ٤٢٢ هـ، إذ دخلت الأندلس في عصر «ملوك الطوائف».

وفي ذلك العصر تقسمت الأندلس إلىٰ أكثر من ٢٠ ولاية يحكم كل منها أقوىٰ عصبة فيها، وكان أقوىٰ تلك الممالك: إشبيلية التي استبد بها بنو عباد، وقرطبة التي استبد بها بنو جهور، وبطليوس التي استبد بها بنو الأفطس، وسرقسطة التي استبد بها بنو هود، وطليطلة التي بها بنو ذي النون. وتناوشت هذه الممالك فيما بينها وثارت بينها الحروب والمنازعات، وفي ذات الوقت كانت الممالك الصليبية في الشمال تستعيد وحدتها وقوتها وتبدأ في مشروعها الطويل «حرب الاسترداد»، وقد أتاحت هذه الفرقة أن تدخل الطوائف جميعها

مرحلة الاستضعاف أمام الصليبيين فيما كانوا يستأسدون علىٰ بعضهم البعض.

وبرغم أن الممالك الصليبية دخلت مرة أخرىٰ في التنازع بعد موت فرديناند، إلا أن الممالك الإسلامية لم تحرك ساكنا ولم تفعل شيئا، بل احتضنت طليطلة ألفونسو السادس -ابن فريدناند الفار من أخيه- حتىٰ استطاع أن يتواصل مع أنصاره ويعود ملكا مرة أخرىٰ، ويستأنف لمرة أخرىٰ مشروع أبيه «حرب الاسترداد»، وكان أول محطة كبرىٰ فيها هو استيلاؤه علىٰ طليطلة نفسها والتي كانت أكبر ضربة يتلقاها الوجود الإسلامي منذ فتح الأندلس.

وكان سقوط طليطلة مزلزلا للمسلمين، ولم يجد ملوك الطوائف بدا من الاستغاثة بدولة المرابطين في المغرب ليستعينوا بها علىٰ ردِّ ألفونسو عنهم.



[الخريطة نقلا عن: د. طارق سويدان: الأندلس.. التاريخ المصور]

سادسًا: عصر المرابطين:

استجاب الأمير يوسف بن تاشفين لاستغاثة ملوك الطوائف وعبر بجيوشه المغربية إلىٰ الأندلس، وخاض واحدة من ألمع معارك التاريخ الإسلامي (الزلاقة ٤٧٩هـ) استطاع بها أن ينقذ الوجود الأندلسي لمائة عام علىٰ الأقل، وسُحِقت فيها جيوش ألفونسو السادس، وعبر أكثر من مرة وخاض معارك أقل خطورة من الزلاقة، لكن كل هذا لم يكن كافيا لكي يرتدع ملوك الطوائف عن فسادهم، فاستمروا في غيهم وعادوا سيرتهم الأولىٰ في الذلة لألفونسو ودفع الجزية له ومضاعفة الضرائب علىٰ الرعية، فأفتىٰ علماء الأندلس والمغرب والمشرق الإسلامي لابن تاشفين بدخول الأندلس وإزالة ملوك الطوائف، وهو ما قد كان، فأضاف المرابطون لأمة الإسلام توحيد الأندلس والمغرب من بعد ما كانوا قد وحدوا المغرب المتناثر في دولة واحدة قوية.

لكن عمر المرابطين في الأندلس لم يطل كثيرا، فقد استمر حوالي أربعين سنة، ثم ظهرت في المغرب دعوة أخرىٰ تحولت إلىٰ دولة استطاعت إسقاط حكم المرابطين من المغرب ثم من الأندلس.. تلك هي «دولة الموحدين».



سابعًا: عصر الموحدين:

انطلقت دعوة الموحدين في المغرب علىٰ يد «محمد بن تومرت» ثم ما لبثت أن اجتذبت قبائل مصمودة المغربية التي مثلت القوة الداعمة لهذه الدعوة وأخذت في إسقاط المرابطين حتىٰ تمت لها هذه الغاية، وورثت دولة الموحدين الأندلس ضمن ما ورثته من دولة المرابطين، ولكن فترة الحروب بين المرابطين والموحدين انعكست آثارها علىٰ الأندلس وسقطت بعض المدن الأندلسية بيد الصليبيين.

خاض الموحدون في عهد خليفتهم يعقوب المنصور معركة خالدة شبيهة بالزلاقة هي معركة الأرك (٥٩١ هـ) سحق فيها أيضا جيوش ألفونسو الثامن، لكنه لم يلبث بعدها سوىٰ ثلاث سنوات وتوفي ودخلت دولته فيما بعده مرحلة الضعف، ولم يمر علىٰ موقعة الأرك الكبرىٰ سوىٰ ثمانية عشر عاما حتىٰ تلقىٰ الموحدون هزيمة قاسية في الأندلس في موقعة العقاب (٦٠٩ هـ) بلغت فيها المصيبة أن قيل: لم يعد في الأندلس بعد العقاب من شاب قادر علىٰ القتال.

وفي حين كان انهيار المرابطين ملحوقا بقيام الموحدين فإن انهيار الموحدين لم يعقبه قيام دولة قوية في المغرب، وكان الأمراء الموحدين في الأندلسين أمثلة في حب السلطان والتفريط في البلاد والالتجاء للصليبيين بأية شروط، فكانت نتيجة ذلك أن انهارت الحواضر الأندلسية في مسلسل درامي مؤلم ومتتابع دون أن تجد يد عون لها، فسقطت في ٦٢٣ هـ سقطت بياسة، ثم جزيرة ميورقة وبطليوس (٦٢٧هـ)، وماردة (٦٢٨هـ)، وأبدة (٦٣٠هـ)، واستجة والمدور (٦٣٣هـ)، وفي نفس العام سقطت وقرطبة -عاصمة الإسلام الباهرة ودرة مدن أوروبا الوسيطة، وبلنسية (٦٣٦هـ)، ومرسية وشلب (٦٤٠هـ)، ودانية ولقنت (٦٤١هـ)، وأريولة وقرطاجنة وجيان (٦٤٣هـ)، وشاطبة (٦٤٤هـ)، وإشبيلية (٦٤٦هـ)، وشنتمرية الغرب (٦٤٧هـ)... وغيرها

من أواسط المدن وصغارها. ولم يبق من الأندلس المسلمة إلا مملكة غرناطة.



ثامنًا: مملكة غرناطة:

علىٰ غير المتوقع استطاعت غرناطة الصغيرة أن تظل نحو قرنين ونصف قبل السقوط النهائي، وقد استطاع محمد بن الأحمر أن يؤسس ملكا في غرناطة في ظل ظروف صعبة وبشروط مهينة مع النصارىٰ في ذات الوقت، وقد أمدته يد عونٍ مغربية ثالثة من الدولة المرينية التي كررت سيرة المغرب في إنقاذ الأندلس، وصحيح أن دولة المرينيين لم تكن بنفس قوة المرابطين والموحدين إلا أنها نفذت معركة شبية بالزلاقة والأرك في إنقاذ الوجود الأندلسي لزمن طويل، وهي معركة الدونونية (٦٧٤ هـ) علىٰ يد يعقوب المنصور المريني، بل وضع المرينيون قوة دائمة في الأندلس تحت تصرف الملك الغرناطي.

كذلك فلقد كان النزاع الذي شب بين الممالك النصرانية مساعدا لغرناطة

علىٰ طول البقاء، ولو قُدِّر لهذا النزاع أن يكون في وقت دولة كالمرابطين أو الموحدين لتوقعنا أنهم يستعيدون ما فقده المسلمون في الأندلس.

لكن مع الضعف العام في غرناطة وفي المغرب، استطاعت قشتالة أن تستولي علىٰ المضيق المغربي فمنعت بذلك العون المغربي لغرناطة، ثم أخذت تضيق الخناق عليها تدريجيا، حتىٰ إذا اتحدت مملكتي ليون وقشتالة بزواج فريدناند وإيزالبيلا كانت شمس غرناطة تؤذن بالغروب، وانهارت غرناطة بعد سنة ونصف من الحصار الشديد، لتنتهي بذلك الحقبة الوحيدة في تاريخ إسبانيا التي كانت فيها ذات حضارة ناضرة علىٰ المشهد العالمي، وليفقد المسلمون فردوسا حقيقيا أنشأوه علىٰ أرض الأندلس، وليفقد العالم حضارة زاهرة وصلت الشرق بالغرب ورفعت أوروبا من عصورها الوسطىٰ المظلمة.



الإمام الأندلسي الشهيد سليمان الكلاعي

لست ألوم أحدا إن لم يعرفه[١]، فالحق أن الأجيال الأخيرة من أمتنا يكفيها ثباتها الأسطوري علىٰ دينها، واعتزازها الكبير بانتمائها لهذه الأمة علىٰ رغم ما أحيطت به من ظروف كانت كافية لاستلال أي فكرة من العقول والقلوب، إلا أن معدن الأمة أصيل، شهد له الله تعالىٰ بقوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠].

إنه الإمام العلامة الكبير، والمجاهد العلم الشهيد، سليمان بن موسىٰ بن سالم الكلاعي البلنسي، كنيته أبو الربيع.

عصر العلماء

لم يحفل عصر من عصور الأندلس بالعلماء والمحدثين كما حفل القرن الممتد من منتصف القرن السادس الهجري إلىٰ منتصف القرن السابع الهجري، إذ بلغت التراجم التي أحصاها ابن الأبار في «تكملة الصلة» لشيوخ هذا العصر نحو ٢٥٠٠، فيم لم يُحص ابن بشكوال في قرن ونصف -منذ أول الخامس حتىٰ منتصف السادس- سوىٰ ١٤٤٠، وكان ابن الفرضي قد أحصىٰ خلال القرون الأربعة الأولىٰ ١٧٦٦ رجلا، وهذا مع أن الأندلس كان قد تقصلت أرضه في الزمن الذي رصده ابن الأبار[٢].

---

(١) نشر هذا المقال لأول مرة في يونيو ٢٠١١م.

(٢) د. حسين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس، دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٧ هـ = ١٩٩٧م. ص١١٧.

ولسنا نذكر هذا إلا لشيء واحد، ذلك أن بروز عالم، وظهوره في عصر العلماء الحافل إنما هو الدليل الأظهر على مقامه في العلم ورسوخه فيه، إذ الميدان فسيح والفرسان كثير، فكيف إذا كنا نتحدث عن «شيخ العصر» الذي انتهت إليه صدارة العلم في أيامه؟!

ولم يشهد عصر من عصور الأندلس تضعضعا وتراجعا مثلما شهد في النصف الأول من القرن السابع الهجري، ففي أوله نزلت بالمسلمين هزيمة ساحقة في موقعة «العقاب» (٦٠٩ هـ = ١٢١٢م)، ثم ما لبثت دولة الموحدين أن -التي كانت تحكم المغرب والأندلس- أن خارت قواها، وكان من آثار انحلال العُرَىٰ أن تساقطت ممالك الأندلس وحواضرها سريعا كأنما حبات عقد انفرط، حتىٰ قال ابن الدباغ الإشبيلي:

فمـــا في أرض أنـــدلس مقـــام وقــد دخــل البــلا مــن كل بــاب

في ٦٢٣ هـ سقطت بياسة، ثم جزيرة ميورقة وبطليوس (٦٢٧هـ)، وماردة (٦٢٨هـ)، وأبدة (٦٣٠هـ)، واستجة والمدور (٦٣٣هـ)، وفي نفس العام سقطت وقرطبة -عاصمة الإسلام الباهرة ودرة مدن أوروبا الوسيطة، وبلنسية (٦٣٦هـ)، ومرسية وشلب (٦٤٠هـ)، ودانية ولقنت (٦٤١هـ)، وأريولة وقرطاجنة وجيان (٦٤٣هـ)، وشاطبة (٦٤٤هـ)، وإشبيلية (٦٤٦هـ)، وشنتمرية الغرب (٦٤٧هـ)... وغيرها من أواسط المدن وصغارها.

وبلغ الحال من الضعف أن وقعت مملكتي قشتالة وليون [أسياد الغرب والوسط] من ناحية، ومملكة أرجون [سيدة الشرق] من ناحية أخرىٰ اتفاقية «المرسىٰ» Almirza فيما بينهما (٦٤٢هـ = ١٢٤٤م)، وهي تشبه كثيرا اتفاقية سايكس بيكو المشهورة، إذ اتفقا علىٰ حدود توسع كل منهما في البلاد الأندلسية التي تتأهب للسقوط.

لم تكن معضلة العصر في العلماء فلقد كانوا من الكثرة بمكان، كانت

المعضلة في الأمراء، ولعل في قصة الإمام سليمان الكلاعي نموذج لقصة العصر الذي خرجت فيه حواضر الأندلس من ظل الإسلام ولم تعد إليه حتىٰ الآن.

خيانات وجرائم الحكام المستبدين

تنازع أمراء البيت الموحدي علىٰ الحكم، وكان بالأندلس منهم أربعة أمراء كبار؛ أبو محمد عبد الله في مرسية، وأخوه أبو العلا إدريس في قرطبة، وابن عمهما أبو زيد عبد الرحمن علىٰ بلنسية، ثم أخوه -أي أخي أبي زيد- عبد الله البَيَّاسي علىٰ إشبيلية. وكلا هذين الأخيرين سيكون لهما قصة مخزية.

ثار أبو محمد عبد الله علىٰ خليفة الموحدين عبد الواحد فخلعه وتلقب بـ «العادل» (٦٢١هـ)، ثم ما لبث أن ثار عليه ابن عمه عبد الله البياسي الذي لم يجد عونا من الموحدين في ثورته هذه، فما كان منه إلا أن انحاز إلىٰ فرناندو الثالث ملك قشتالة وتنازل له عن عدد من بلاد الأندلس، ثم قاتل معه المسلمين وقتل منهم بضعة آلاف في أكثر من مدينة مهمة، واستولىٰ فرناندو بسبب هذا التحالف علىٰ مجموعة من المدن الحصينة التي تمثل خط الدفاع عن قرطبة، وظلت هذه الحال ثلاث سنوات يتصاعد فيها نفوذه وخطره وخطر النصارىٰ معه حتىٰ مُني بهزيمة شديدة أمام إشبيلية التي كانت في يد أبي العلا إدريس (٦٢٣هـ)، فما لبث أن هام علىٰ وجهه فتلقفه أهل قرطبة فقتلوه لما كان من خياناته الكثيرة، بل ذكر ابن عذارىٰ أنه دخل في النصرانية.

لكن الأمور لم تهدأ، فأبو العلا إدريس الذي لم يستطع أن يواجه عبد الله البياسي في الأندلس إلا وهو أمام أسوار مدينته إشبيلية، ثم لم يستطع أن يحرز نصرا علىٰ النصارىٰ بعدئذ فأبرم معهم (٦٢٤هـ) هدنة لمدة عام مقابل ثلاثمائة ألف قطعة فضية، هذا الرجل الذي تتفلت من بين يديه الأندلس نادىٰ بنفسه خليفة علىٰ المغرب والأندلس وخرج علىٰ أخيه العادل وتآمر عليه حتىٰ بلغ

مأربه، فقُتِل العادل، وتلقب هو بـ «المأمون» (٦٢٤هـ). إلا أن الأمر لم يَصفُ له، فلقد بايعت المغرب ابن أخيه يحيىٰ «المعتصم»!

وهنا، كرر المأمون سيرة الخائنين فذهب إلىٰ فرناندو يجدد معه الهدنة، ويطلب منه قوة عسكرية تنزل معه المغرب وتحارب له، وقبل بشروط فرناندو المهينة التي كان منها: بناء كنيسة للنصارىٰ في مراكش، والتنازل عن عشرة حصون يختارها بنفسه، وإذا أسلم نصراني يُرَدُّ إلىٰ أهله، وإذا تنصر مسلم فلا سبيل لأحد عليه!!

ثم إن المأمون جمع جنوده ونزل بهم إلىٰ المغرب وترك الأندلس كلها بلا دفاع فصارت مكشوفة للنصارىٰ. ولم يبق بالأندلس إلا الأمير الرابع الذي ظل بعيدا عن الأحداث أبو زيد عبد الرحمن.

ثار بالأندلس ثلاثة رجال، ثار ابن هود علىٰ المأمون، ثم ثار ابن الأحمر علىٰ ابن هود، وفي شرق الأندلس ثار أبو جميل زيان، وحيث أننا في سياق قصة الإمام سليمان الكلاعي، فسنركز المشهد علىٰ بلنسية في شرق الأندلس، وهي الجهة التي كان فيها إمامنا سليمان الكلاعي، وهي المنطقة التي كانت تأكلها مملكة أرجون.

فمع الاضطراب الحادث بالجزيرة وانهيار سلطان الموحدين ثار في بلنسية وزيرها ومدبر أمرها أبو جميل زيان علىٰ واليها -والي الموحدين- أبو زيد عبد الرحمن الذي يحكمها منذ ٦٢٠هـ، وكان أبو زيد عبد الرحمن قد هزمه منذ قليل ثائرُ مرسية ابن هود الذي كان يطمع في الاستيلاء علىٰ ما بقي من الأندلس. هرب أبو زيد وصارت بلنسية في يد أبي جميل زيان الذي انهزم لمرة أخرىٰ أمام ابن هود. وحين رأىٰ أبو زيد أن بلنسية قد صارت نزاعا بين أبي جميل وابن هود وأن دولة الموحدين يتواصل انهيارها ذهب لاجئا إلىٰ خايمة الأول (Jaima I) ملك أراجون، فكرر بذلك سيرة أخيه عبد الله البياسي مع فرناندو الثالث!!

كان ذلك في أوائل ٦٢٦هـ. طلب منه أبو زيد عبد الرحمن المساعدة في مقابل أن يعطيه ربع الأراضي التي يسترجعها هو، ومتنازلا له عن كل الأراضي التي يستولي عليها خايمة بنفسه، وعاد أبو زيد عبد الرحمن (٦٢٩هـ) واستولىٰ علىٰ بعض الأراضي بمساعدة الأراجونيين، ثم إنه أدرك من خلال أرض الواقع أنه لن يستطيع أن يعطي خايمة ما اتفق معه عليه، فتنازل عما له من حقوق في الاتفاقية، ثم كانت سقطته الكبرىٰ.. لقد تنصر ودخل في حمىٰ النصارىٰ وتزوج بنصرانية، وسمىٰ نفسه «بشتي» Vicente، ثم صار من جنودهم في الاستيلاء علىٰ الأراضي الأندلسية!!

وطَّد أبو جميل زيان سلطانه في بلنسية، ولم تنته المنازعات بينه وبين ابن هود، حتىٰ دهمه خايمة الأول يريد أخذ بلنسية قاعدة شرق الأندلس.

ثمة رواية نصرانية[1] تقول بأن أبا جميل بدأ بالجهاد واستولىٰ علىٰ عدد كبير من ثغور مملكة أراجون، فكان أن نهض إليه خايمة، إلا أن مسار الأحداث، وسكوت الرواية الإسلامية عن ذكر هذا، وطبيعة هؤلاء الزعماء تحملنا ترك هذه الرواية، بل «لا يمكن أن يكون أبو جميل بن زيان هو صاحب قرار مواجهة النصارىٰ، لأنه كان في نفس هذا الوقت يفاوضه مستجلبا رضاه، بل هو بعد أن سقطت بلنسية وسار إلىٰ دانية أخذ يفاوض ملك قشتالة ليتنازل له عنها في مقابل ميورقة. وإذن فقرار الخروج لحرب الأرجونيين كان مصدره أهل بلنسية وشيخهم أبا الربيع سليمان الكلاعي»[2].

كان الإمام سليمان الكلاعي في السبعين من عمره، خرج يقود الناس

(١) أوردها محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٦/ ٤٣٩. ينقلها عن: A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 628

(٢) د. حسين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس، دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٧ هـ = ١٩٩٧م. ص١٢٠ (بتصرف).

ويحرضهم علىٰ الجهاد حتىٰ خرج معه أهل بلنسية) فالينسيا (Valencia) يواجهون بإمكاناتهم المحدودة جيش النصارىٰ الضخم، عند أنتيشة علىٰ بعد سبعة أميال من حاضرة بلنسية، وكانت موقعة كبيرة كان يحمل فيها الراية(١) حتىٰ نال فيها الشهادة «مقبلا غير مدبر، ينادي المنهزمين: أعن الجنة تفرون؟! [وذلك] ضحىٰ يوم الخميس الموفي عشرين لذي الحجة سنة أربع وثلاثين وستمائة»(٢).

خاتمة الإمام

لاشك أن الثلاثين سنة الأخيرة من أيام الكلاعي كانت عصيبة كما رأينا، لقد انتهت دولة الموحدين القوية وورثها من لا يتردد في محالفة النصارىٰ وتسليمهم البلاد في مقابل الاستعانة بهم علىٰ بني دينه، وأي شيء أقسىٰ علىٰ قلب العالِم المجاهد حين يكون في ظل مستبد، لا هو يجاهد ولا هو يترك الناس يجاهدون، بل هو يتحالف مع العدو الذي يتوجب جهاده؟!

الأقسىٰ عليه ألا يجد ملجئًا آخر، فعاصمة الخلافة تنهبها الفتن، وبلاد الأندلس موزعة علىٰ ثائرين متناوشين لا يمتلكون شرعية وليس فيهم كفء يتولىٰ الأمر.

في مثل هذه الأحوال لا ينتبه التاريخ لأمر العلماء بل يحفل بشأن الأمراء، فالعلماء في الأسر والقَيْد، والأمراء يكتبون مصاير الممالك بما يَخُطُّونه من مناوشات وتحالفات، ولولا أن الإمام سليمان الكلاعي سقط شهيدًا في جهاد،

(١) أبو الحسن النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م. ١/ ١١٩.

(٢) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م. ٤/ ١٠٣.

لما عرفنا أنه كان من المجاهدين، ولا شك في أن التاريخ غفل عن كثير من حوادث جهاده في طول حياته، إذ أننا لا نعرف من المعارك التي شهدها سوىٰ هذه التي استشهد فيها برغم قول ابن فرحون الذي يؤكد أنها كانت كثيرة «كان من أولي العزم والبسالة والإقدام يحضر الغزوات ويباشر بنفسه القتال ويبلي البلاء الحسن»(١).

وأصل ما نعرفه عن الكلاعي مأخوذ عن تلميذه المؤرخ الشهير ابن الأبار صاحب اثنين من أهم مراجع التاريخ الأندلسي وهما «الحلة السيراء»، و«التكملة لكتاب الصلة»، وهذا الأخير ألفه ابن الأبار بأمر من شيخه الكلاعي وبمساعدة منه؛ أعطاه من علمه وفتح له خزائن كتبه.

يُعرف الكلاعي بإمامته في كثير من العلوم، قال ابن الأبار: «عني أتم العناية بالتقييد والرواية، وكان إمامًا في صناعة الحديث، بصيرا به، حافظًا حافلًا، عارفًا بالجرح والتعديل، ذاكرا للموالد والوفيات يتقدم أهل زمانه في ذلك، وفي حفظ أسماء الرجال وخصوصًا من تأخر زمانه أو عاصره، كتب الكثير وكان حسن الخط لا نظير له نهاية في الإتقان والضبط، مع الاستبحار في الآداب والاشتهار بالبلاغة والفصاحة، فردًا في إنشاء الرسائل، مجيدًا في نظم القريض، خطيبًا فصيحًا مفوهًا مدركًا، حسن السرد والمساق لما يحكيه ويحدث به ويود سامعه لو وصل حديثه ولم يقطعه»(٢).

إلا أنه في علم الحديث أَجَلُّ وأَبْرَز، قال عنه الذهبي: الإمام، العلامة، الحافظ، المجود، الأديب البليغ، شيخ الحديث والبلاغة بالأندلس(٣)، الحافظ

---

(١) ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤١٧ هـ = ١٩٩٦م. ص٢٠١.

(٢) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة ٤/ ١٠١.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م. ٢٣/ ١٣٤ وما بعدها.

الكبير، بقية أعلام الحديث ببلنسية[١]. ولذا تضافرت كتب طبقات المحدثين علىٰ إيراد ترجمته[٢].

ومصنفاته تدل علىٰ تعلقه برسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وصحابته، فغالبها كان في علم الحديث والسيرة وتاريخ الصحابة، مع شيء في الأدب، ومن المؤسف أنه لم يبق من تراثه الذي نقرأ عناوينه في الكتب التي ترجمت له إلا كتابه في السيرة «الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء».

والحقيقة أن منهجه في هذا الكتاب كاشف عن جانب من عقلية هذا الرجل، فهو قد أراد وضع كتاب يحكي فيه قصة النبي وخلفائه للبسطاء والعامة، فاعتمد علىٰ سيرة ابن إسحاق، فجردها من الأسانيد وسلاسل الأنساب والأشعار، ثم أكمل ما يقع من نقص في القصة بما أفادت به الكتب الأخرىٰ - كالمغازي لموسىٰ بن عقبة، والمبعث للواقدي، والتاريخ الكبير لأبي بكر بن خيثمة- دون أن يشير إلىٰ هذا منعا لقطع استرسال القصة «ليكون المساق أَبْيَن والاتساق أحسن»[٣].

فهو إذن، في علو علمه، كان رجلًا داعية قريبًا إلىٰ شؤون الناس وأمورهم، رصد حاجتهم في كتاب قصة سلسة ممتعة، والعهد بأكابر العلماء -في كثير من الأحيان- انصرافهم عن التبسيط إلىٰ التطويل، وعن العرض إلىٰ التحقيق،

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م. ٤٩/ ١٩٠.

(٢) الذهبي: المعين في طبقات المحدثين، تحقيق: د. همام سعيد، دار الفرقان، عَمَّان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٤هـ. ص٦٢ (رقم ٢٠٨٦)؛ والذهبي: تذكرة الحفاظ، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م. ٤/ ١٤١؛ والسيوطي: ذيل طبقات الحفاظ، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت. ص٢٨٨.

(٣) الكلاعي: الاكتفاء، تحقيق: مصطفىٰ عبد الواحد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٨م. ١/ ٢ وما بعدها.

وتفريعهم في الأمور وتصديهم للنوادر والفرائد مما يحقق تفوقهم ويؤكد صدارتهم وجلالتهم. والعهد أن يتولىٰ هذا الاختصار والتبسيط لعموم الناس الدعاة وطلاب العلم، إلا أننا أمام نموذج جمع بين الأمرين، وهو أمر لا يتكرر كثيرا.

يؤكد لنا هذا أيضًا هذه العبارات «الدعوية» -إن صح التعبير- التي أوردها في سياق هدفه من وضع الكتاب، وفيها يبدو واضحا تأثير عصره الفادح الكروب والمحتاج إلىٰ الصبر والجهاد، يقول: «لا يخلو الحاضرون لهذا الكتاب من أن يسمعوا ما صنع الله لرسوله في أعداء تنزيله فيستجزلوا ثواب الفرح بنصر الله، أو يستمعوا ما امتحنه الله به من المحن التي لا يطيق احتمالها إلا نفوس أنبياء الله بتأييد الله، فيعتبروا بعظيم ما لقيه من شدائد الخطوب ويصطبروا لعوارض الكروب تأدبا بآدابه وجريا في الصبر علىٰ ما يصيبهم والاحتساب لما ينوبهم علىٰ طريقه صبره واحتسابه. وتلك غايات لن نبلغ عفوها بجهدنا، ولن نصل أدانيها بنهاية ركضنا وشدنا، وإنما علينا بذل الجهد في قصد الاهتداء، وعلىٰ الله سبحانه المعونة في الغاية والابتداء»[1].

ونفس الداعية هذه تتبدىٰ بجلاء في ترجمة النباهي له، إذ يذكر أنه «حسن الهيئة والمركب والملبس والصورة، كريم النفس، يطعم فقراء الطلبة، وينشطهم، ويتحمل مؤنتهم»[2].

والكلاعي من علماء التفسير أيضًا، نبصر ذلك حين يسوق لنا ابن حيان الأندلسي صاحب «البحر المحيط»، سلسلة إجازته لرواية تفسير ابن عطية، فيكون الكلاعي فيها شيخ شيخ ابن حيان[3].

---

(١) الكلاعي: السابق ١/ ٦.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ١/ ١١٩.

(٣) ابن حيان الأندلسي: البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م. ١/ ١١٤.

إمام في العلم، وإمام في الجهاد.. عندما حمل راية العلم أخذها بحقها فحَمَّلّتْه راية الجهاد، ثم ألبسته تاج الشهادة، نحسبه كذلك والله حسيبه.

وعند هذا الحد من التنقيب في كتب التراجم والأخبار ينقطع عمل الباحثين في التاريخ، ولربما ندعو واحدًا من تلاميذ شيخ العربية محمود شاكر «أبي فهر» أن «يتذوق» شعر الكلاعي وأدبه، فيرشدنا إلىٰ لمحات في شخصية الرجل وتاريخه، كما فعل العلامة شاكر في تاريخ المتنبي حيث استخلصه من شعره فأخرج تاريخ المتنبي من جديد، فللكلاعي شعر رائق بديع، سهل منساب مريح، نختم مقالتنا هذه بالتقاط أبيات منها توحي بأنها قيلت في لحظة معاناة بالغة.

أمولى الموالي ليس غيرك لي مولى ... وما أحد يارب منك بذا أولى

تبارك وجهٌ وُجِّهت نحوه المُنى ... فأوزعها شكرا وأوسعها طوْلا

تبرأت من حَوْلي إليك وقوتي ... فكن قوتي في مطلبي وكن الحوْلا

وهب لي الرضا مالي سوى ذاك مبتغى ... ولو لَقِيَتْ نفسي على نَيْله الهَوْلا

رحلة الفقيه الأندلسي الشريد

حديثنا في هذه السطور[١] عن أندلسي عاش متخفيا بإسلامه، تلقىٰ الإسلام وتعلم اللغة العربية سرًّا من أبيه، كحال الأندلسيين الذين طاردتهم محاكم التفتيش وأجبرتهم علىٰ التنصر وعاقبتهم علىٰ كل فعل يُشْتَمُّ منه رائحة الارتباط بالإسلام واللغة العربية.. ذلك هو أحمد بن قاسم الحاجري المشهور بـ «أفوقاي الأندلسي»، الذي ترك لنا كتابه «مختصر رحلة الشهاب إلىٰ بلاد الأحباب»، ويقصد ببلاد الأحباب: ديارَ الإسلام، وذلك أنه نفذ مغامرة هروب جريئة من إسبانيا إلىٰ البرتغال إلىٰ المغرب، وحكىٰ أنه لاقىٰ فيها أهوالا، حتىٰ إذا وصل هناك كان بانتظاره الفرج والأمل، إذ احتضنه أمراء المغرب السعديين في ذلك الوقت وجعلوه ترجمانا وسفيرا لهم، لما له من علم وإجادة للغات الإسبانية والبرتغالية والفرنسية.

وضع أفوقاي رحلته التي يصف فيها هذه السفارات وما كان فيها، خصوصا وقد خاض مجادلات كثيرة مع النصارىٰ في دينهم، ولما كان عائدا من رحلة الحج زار مصر فعرض رحلته علىٰ الشيخ المالكي المصري علي الأجهوري الذي أعجب بما فيها وأوصاه أن يستخلص المناظرات مع النصارىٰ فتكون كتابا مستقلا، واستجاب أفوقاي فاستخلص المناظرات وسمَّاها ««السيف الأشهر علىٰ كل من كفر» أو «ناصر الدين علىٰ القوم الكافرين»، فذلك هو «مختصر رحلة الشهاب»! وكان من بركات الشيخ المالكي أن الرحلة الأصلية قد فُقِدت وضاعت بينما بقي هذا المختصر!

---

(١) نشر هذا المقال بتاريخ ٢١ ديسمبر ٢٠١٥م.

تعلم أفوقاي لغة الإسبان كلاما وقراءة وكتابة وأتقنها كي لا يرتابوا في أمره إذا وجده في السواحل يريد العبور للمغرب، وذلك أنهم شددوا الحراسة جدا لمنع الأندلسيين من الهجرة إلىٰ ديار الإسلام وكان من وسائل تعرفهم عليهم قلة إجادتهم للغة، فكان أن فتح الله عليه بهذا العلم فصار إلىٰ أن يكون سفيرا! ثم نفعه ذلك أيضًا حين صار يترجم بعض الكتب منها كتاب ألفه أندلسي موريسكي لا يجيد العربية عن الحرب في البحر والآلات الحربية أعطىٰ أفوقاي له عنوانا «كتاب العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع». إن هذا الصبر والعزم علىٰ الهروب الذي يكلف المرء تعلم لغة جديدة وإتقانها لمثير للإعجاب والاحترام والتقدير.

ما بقي لنا من هذه الرحلة يكشف أمورا عزيزة، أهمها: أحوال الأندلسيين في ذلك الوقت تحت الحكم الإسباني، وكيف جاهدوا للحفاظ علىٰ دينهم سرًّا، والسياسة الإسبانية في تعقب الدين واللسان العربي، كما نفهم منها بعضا من جوانب العلاقات السياسية بين دول المغرب والإسبان وفرنسا وهولندا والدولة العثمانية، وقد عرضت هولندا التحالف مع المغرب ضد الإسبان لإعادة الحكم الإسلامي إلىٰ الأندلس، إلا أن هذا التحالف كان بحاجة إلىٰ انضمام العثمانيين أيضا، وهو ما خشيت منه إسبانيا فكان من أهم أسباب تغير سياستها من سياسة التنصير قسرا ومنع الأندلسيين من الخروج والهجرة إلىٰ سياسة الطرد والتهجير.

وقد كانت سفارة أفوقاي إلىٰ فرنسا تحمل مهمة تحسين أوضاع الأندلسيين المسلمين الذين هاجروا إلىٰ فرنسا من إسبانيا، وكان من فرج الله يومها أن العلاقات الفرنسية الإسبانية كانت سيئة كما كانت العلاقات الفرنسية العثمانية حسنة فكان في هذا الفرج لمن هاجروا، وقد بلغ عدد المهاجرين من الأندلس -كما نقل أفوقاي عن إحصائية صادرة من الديوان الملكي الإسباني-

ثمانمائة ألف، وهو رقم ضخم هائل بميزان اليوم، فكيف بميزان ما قبل خمسة قرون؟!!!

وكان التجار الفرنسيون قد نهبوا المهاجرين الأندلسيين وغصبوا ما كانوا معهم، فكان من مهمات سفارة أفوقاي ردُّ ما نهب إليهم، وقد ناور الفرنسيون في الاستجابة لهذا ففي حين أصدر الملك منشورا وزعه علىٰ الولايات يأمر بردّ ما نهب استطاع التجار رشوة والي أولونه لكي لا ينفذ الأمر، واعتذر الوالي بأن الأمر صعب ولا يمكن استدراكه بعدما تفرق في أموال التجار.

وروىٰ عن سفارة متبادلة بين سلطان المغرب وملك هولندا لتكوين تحالف ضد إسبانيا، وذلك أن هولندا كانت قد دخلت في البروتستانتية وخلعت عنها الحكم الإسباني الكاثوليكي.

وتسرد رحلة أفوقاي بعض مظاهر المجهود السياسي العثماني في رعاية أحوال الأندلسيين، وحديثه عن السلطان العثماني محفوف دائما بالتعظيم والتبجيل، وذكر أن يسر أحوال الأندلسيين في فرنسا راجع إلىٰ اهتمام السلطان العثماني، وكيف أن الفرنسيين يهابونه ويسمونه «السيد الكبير»، وفيها كذلك صورة عن المجهود المغربي في إنقاذ المسلمين، ومن ذلك سفارة أفوقاي إلىٰ فرنسا، ومنها أن ملك هولندا أهدىٰ ثلاثمائة أسير أندلسي أوقع بهم بعض تجار هولندا ليبيعوهم عبيدا، فكان صنيعه هذا دليلا علىٰ اهتمام سلاطين المغرب بأمر إخوانهم الأندلسيين.

ونرىٰ في رحلة أفوقاي صورة لأوروبا في ذلك الوقت، وصورة عن المسيحية التي يبدل فيها القساوسة والرهبان فيحلون ما كان بالأمس حراما ويحرمون ما كان بالأمس حلالا، والبابا الذي اكتُشِف أنه أنثىٰ، والبروتستانتية التي بدأ يعلو نجمها في أوروبا والتي كان بينها وبين المسلمين علاقات طيبة، بل كان البروتستانت يرون المسلمين «سيف الله في أرضه علىٰ عباد الأوثان (الكاثوليك)».

كما نرىٰ فيها صورة لتصور الأوروبيين وخرافاتهم حول الإسلام؛ فمن ذلك أن بعضهم فهم أن الإسلام يجيز الزنا والسرقة من حديث أبي الدرداء أنه سأل النبي ﷺ: هل يسرق المؤمن؟ قال: «**قد يكون ذلك**»، قال: هل يزني المؤمن؟ قال: «**بلىٰ وإن كره أبو الدرداء**»، قال: هل يكذب المؤمن؟ قال: «**إنما يفتري الكذب من لا يؤمن**»!!، وفهم بعض علمائهم أن الإسلام يجيز اللواط من قوله تعالىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[البقرة:٢٢٣]، ومن علمائهم من كان يظن أن المسلمين يزورون مكة ليروا نبيهم في الهواء في وسط حلقة حديدية موضوعة في نقطة اتزان وسط قبة حجر مغناطيسي فيحسب المسلمون أن نبيهم معلق في الهواء وأنها من معجزاته**!!** كما يعترف بعض علمائهم بأن المسلمين أذكياء وقد «منحهم الله عقولًا وافرة».

وفي رحلته ما يلفت النظر إلىٰ علمه ومواهبه، ففضلا عن علمه بالنصرانية وكتبها، فإن له علما بالتقاويم والفلك فقد حدد بدقة تاريخ المولد النبي بالتقويم الميلادي، وله علم أصيل بالجغرافيا والأقطار وملوكها، وترجم كتابا ضخما فيها إلىٰ العربية للسلطان المغربي، واستعمل معلوماته تلك في الرد علىٰ اليهود والنصارىٰ ونقض ما جاء بالتوراة المحرفة من معلومات مغلوطة كمثل أن أنهار الدنيا وأنها لا تنبع من مصدر واحد.

ومن أعجب ما نجده في هذه الرحلة أن العلاقات العثمانية الإسبانية كانت منهارة لسببين: غدر الإسبان بالمسلمين الأندلسيين، وغدر الإسبان بملك المكسيك مُتَشُمَه، مما يعني سعة اطلاع العثمانيين بما يحدث في أقصىٰ الغرب عند المكسيك، وأن لهم هناك صلات يثير الاعتداء عليها عداوات في أوروبا. كذلك فإن وجود السفارات الدائمة في أول أمرها لم يكن تعبيرا عن قوة الصداقة كما يتبادر إلىٰ أذهاننا الآن، بل هو يعبر عن الذِّلة، فالطرف الأضعف هو الحريص علىٰ وجود سفارة دائمة له عند الطرف الأقوىٰ بينما لا يحفل الأقوىٰ

بذلك، بهذا فسَّر أفوقاي الأندلسي وجود سفراء أوروبيين دائمين لدىٰ العثمانيين بينما لم يهتم العثمانيون بإيجاد سفارات لهم في بلاد أوروبا.

هذا كله بعض ما يُلتقط من مختصر الرحلة التي خصصها لسرد جدالاته مع النصارىٰ، ما يجعل كل مهتم بالتاريخ في شوق عظيم للعثور علىٰ الرحلة الأصلية التي كان مخصصة لوصف البلدان والسفارات وتفاصيل السياسة في ذلك الوقت، ولكن قدر الله وما شاء فعل، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا! فإن مأساة فقد الرحلة الأصلية هي فرع عن مأساة ما فقده التراث الإسلامي كله من المخطوطات والمؤلفات النفيسة بفعل الاحتلال وبفعل الجهل -وهو وليد وربيب الاحتلال- كما أن مأساة الأندلسي أفوقاي هي فرع عن مأساة الأمة الأندلسية التي هي وليدة وربيبة «الحضارة» الغربية!!



عمالقة في جحيم المحنة الأندلسية

لقد سقطت الأندلس[١]، ولم يحفظ الإسبان عهودهم في ترك الحرية للمسلمين، بل بدأت واحدة من أبشع المآسي الإنسانية: الإجبار علىٰ التنصر بكل الوسائل، واختراع محاكم التفتيش التي تختبر الإيمان بالمسيحية، واستعمل التحقيق كل ما تفتقت عنه العقلية الشيطانية من وسائل التعذيب، مع حملات إعلامية وإجراءات اقتصادية واجتماعية في غاية القسوة، ولم يُختم هذا كله بالطرد والتهجير، حتىٰ صارت الأندلس الزاهرة الناضرة بلا مسلمين!

ويمثل تاريخ الموريسكيين (الأندلسيين الذين أجبروا علىٰ التنصر) نموذجا في تاريخ شعب مضطهد، ففي المحنة تظهر أنصع معادن الناس وأخلصها وأشرفها، وفي المحنة كذلك تُسحق الكرامة الإنسانية وتظهر طبائع الاستضعاف والذل، ومن أراد التعلم من التاريخ حقا فلينظر إلىٰ الجانبيْن معا، إلا أن الجانب الناصع المشرق هو الذي يثير الفخر ويلهم الأجيال وهو الذي يتشوق التاريخ إلىٰ كتابته وتسجيله لأنه خلاف العادة ونقيض المطبوع.

ولقد كانت عظمة أجدادنا الأندلسيين فائقة في أن مآثرهم قد سجلها أعداؤهم، وهذه السطور التي نروي فيها بعضا من عظمتهم إنما نأخذها من سجلات محاكم التفتيش، ونعتمد فيها علىٰ دراسة المستشرق الإسباني لوي كارדياك «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجابهة الجدلية»، وهي دراسة تستثير الدموع وتهيج الأحزان.

ثمة عظمة عامة وعظمة خاصة، فالعامة هي ما كان عليه عموم الأندلسيين

(١) هنا دمجنا مقالين، نشرا لأول مرة بتاريخ ١٧ ديسمبر ٢٠١٥، ٢٤ ديسمبر ٢٠١٥.

من تمسك عجيب بالدين والاحتيال في مقاومة التنصير وتداول دينهم سرا والمحافظة عليه، وقد أثبتت سجلات محاكم التفتيش أمورا مدهشة في هذا الباب، منها:

١- فشل الإسبان في تنشئة أطفال الأندلسيين علىٰ المسيحية، فبرغم الأموال الهائلة المرصودة لتعليم الأطفال إلا أن النتائج كانت مخيبة للآمال، وتبادل القساوسة تحميل المسؤولية عن هذا الفشل، وتذرع بعضهم بضعف الإمكانيات المالية، وبعضهم بقلة الاهتمام بهذا الملف، وبعضهم بأن الوسائل التي استعملت في تعليم الأطفال كانت فاشلة ولا تستطيع مقاومة ما يزرعه فيهم آباؤهم سرا من تعاليم الإسلام، وتظهر سجلات محاكم التفتيش أن الأندلسيين طوروا نظاما تعليميا سريا خاصا بهم، فوجدت لديهم مراتب علمية كما وجدت لديهم كتب لتعليم الأطفال وكتب تعليم العادات والشعائر، وكتب تتوارثها العائلة الواحدة وتزيد سنة بعد سنة (انظر: ص٤٧، ٤٨، ٦٩ وما بعدها).

٢- فشل الإسبان في إغراء الأندلسيين بالدخول في المسيحية، فقد حاولت الدولة والكنيسة أكثر من مرة أن تقدم إعلانا للعفو (أو: نداء المصالحة بمصطلح العصر)، وفيه يتقدم كل أندلسي إلىٰ الكنيسة بالاعتراف علىٰ أن يُعفىٰ عنه فلا يقدم للتحقيق ولا محاكم التفتيش، وكانوا يعتقدون أن هذا سيدفع الكثيرين للنجاة من الخوف والانكباب علىٰ هذه الفرصة، لكن الذي حدث أنه لم يتقدم لطلب العفو هذا إلا الذين كانوا قد وُشِي بهم وكانوا في حكم المُطارَدين لكيلا تطاردهم محاكم التفتيش، وتكرر هذا المشهد في سائر المدن الأندلسية حتىٰ أثار غيظ وغضب الكنيسة والدولة فأيقنوا أن لا أمل في تخلي هؤلاء عن دينهم، وأتقن الأندلسيون الحيل للنجاة من جحيم التعذيب حتىٰ بالغ المؤرخ الإسبانلي ليورانت وقال بأن محاكم التفتيش عاقبت فقط «الذين لا يعرفون المكر، ولكنها لم تُوَفَّق في تبديل دين أحد منهم»، ولذلك شاعت

وسادت في الوثائق كثير من العبارات الحانقة الهائجة التي تسب الأندلسيين وتصفهم بأقذع الأوصاف وترميهم بأنهم مثل الوحوش والطفيليات والذئاب والعقارب والعناكب والخطر الكبير، فاتخذوا قرار الطرد والتهجير، وهو قرار يثبت الفشل الكبير واليأس التام في الانتصار علىٰ الموريسكيين، ومن المثير للإعجاب أن الموريسكيين ما إن علموا بقرار الطرد حتىٰ أظهروا دينهم دون خوف وجادلوا عنه جهرة (ص٥٣، ٥٤، ٩١، ٩٥، ٩٧ وما بعدها، ١١٦ وما بعدها).

وكانت محاولة الهجرة قبل هذا من الجرائم في قوانين محاكم التفتيش، ولم يستطع من خرج من المسلمين إلىٰ المغرب إلا أن يخرج سرا بعد أهوال ومصاعب شتىٰ، وكانت تهمة تسهيل الهرب إلىٰ المغرب تكلف صاحبها أحيانا حياته (ص١٠٥).

ولأجل هذين الأمرين: الفشل في التنصير والفشل في تعليم الأطفال المسيحية، عمل الإسبان علىٰ انتزاع الأطفال من آبائهم، إما لحظة طردهم وتهجيرهم، أو انتزاعهم في حال الشك فيهم ليوضع أطفالهم ضمن أسر مسيحية خالصة، فكان ينتزع الأطفال الأقل من عشر سنوات، ثم خُفِّض إلىٰ من هم أقل من سبع سنوات!

٣- احتفاظ المسلمين بالكتب العربية برغم أنها جريمة عقوبتها الغرامة المالية الفادحة وقد يضاف إليها الحكم بالعبودية علىٰ ظهر سفينة، بل إن أندلسيا حُكِم عليه بالحرق لأنه قرأ كتبا موريسكية، ولم تفلح الغرامات والعقوبات في وقف كتابة الكتب والمخطوطات التي كان يكتشف منها المزيد بعد كل فترة، ثم اكتشفت كميات ضخمة بعد قرار الطرد والتهجير، حتىٰ وصفتها وثيقة بالقول «كتب دينهم وقواعدهم ومعتقداتهم متوفرة جدا مثل حبات رمال البحر. ففي كل بيت وفي كل ركن منه تعثر علىٰ مثل هذه

المجموعات»، وكانت الكتب أنواعا فأكثر ما فيها القرآن الكريم والأدعية وتعاليم الشعائر الإسلامية، وفيها كتب أدب وشعر، وفيها كذلك كتب علمية، وكانت محاكم التفتيش تحرق ما تصل إليه يدها من هذه الكتب ولم يفلت منها إلا القليل، وضاعت بهذه السياسة الوحشية علوم عزيزة وغزيرة علىٰ الإنسانية كلها (ص٦٩ وما بعدها، ١٠٥).

٤- وإن بعض الموريسكيين من بعد ما استطاع الهرب من هذا الجحيم في إسبانيا إلىٰ المغرب عاد مرة أخرىٰ للمشاركة في المقاومة أيام ثورة البشرات الأندلسية، أو لدعم جهاد المتطوعين من المسلمين في البحر المتوسط، وقد نظم الأندلسيون حركات مقاومة، واستهدفوا قضاة محاكم التفتيش ومنازلهم وأعاقوا أحيانا عمليات القبض والمطاردة، وكان قضاة محاكم التفتيش قد نشروا الفزع والرعب في كل مكان، بل كانوا يهنئون أنفسهم بمقدار ما نشروه من الرعب في نفوس الناس، فكان إذا جاء الخبر بوصولهم إلىٰ قرية ما ينكبُّ الناس جميعا بما فيهم العجائز والأطفال علىٰ تعلم العقيدة المسيحية، وقد لاحظوا أن الأندلسيين «بسبب هذا الخوف، فإنهم يتعلمون العقيدة في ظرف وجيز جدا كما لاحظنا ذلك بالتجربة» (ص١٠٦، ١١٩، ١٢٠).

هذه بعض ملامح سريعة لعظمة أجدادنا الموريسكيين وتمسكهم بدينهم، ولك أن تعلم أن بعضهم ظل محتفظا بدينه لأربعة قرون تحت الحكم الإسباني الذي بدا وكأنه قضىٰ تماما علىٰ الوجود الإسلامي بالأندلس واستأصله بالكلية. ولئن كنا في هذا المقال قد سردنا ملامح العظمة العامة التي تشملهم كشعب، فسنورد بإذن الله تعالىٰ في المقال القادم ملامح من العظمة الشخصية لأفذاذ أندلسيين كانت لهم وقائع عجيبة ومدهشة لمن كان في مثل حالهم هذه. ثم نتبع ذلك كله بالجانب الآخر من الدروس: جانب المثالب والسلبيات التي أنتجتها المحنة الأندلسية لنتعلم منها لواقعنا فنعلم أن المقاومة خير من الذل، وأن

الموت علىٰ درب الجهاد خير من الموت في ساحات الذل، وأن الثورة علىٰ الحاكم الطاغية خير من تركه يُسَلِّم البلاد والعباد لعدوهم فيستبيحهم بلا رحمة!

آثرنا أن يكون المقال السابق لجانب العظمة الذي سطرته الأمة الأندلسية بعامة، فذكرنا منها أربعة جوانب:

١- فشل الإسبان في تنشئة أطفال المسلمين علىٰ المسيحية برغم كل الأموال والمجهود المبذول

٢- فشل الإسبان في إغراء أو ترهيب الأندلسيين للدخول في المسيحية

٣- احتفاظ المسلمين بالكتب العربية وإنشاء نظام تعليم سري رغم العقوبات المشددة علىٰ الاحتفاظ بأي نص عربي

٤- عودة بعض من تمكن من الهجرة إلىٰ الأندلس ليجاهد فيها.

وفي هذه السطور -وما زلنا ننقل عن وثائق محاكم التفتيش[١]- ندخل إلىٰ التفاصيل قليلا لنرصد مواقف شخصية لأندلسيين جاءوا بما لا يُتَصوَّر من أناس في جحيم المحنة، لا سيما وهي محنة محاكم التفتيش التي هي واحدة من أبشع وأشنع المآسي الإنسانية قاطبة، ولا يمكن تصور عظمة هؤلاء بغير تصور وحشية محاكم التفتيش وأساليب التعذيب الوحشية وأحوال وأهوال الزنازين السرية وأجواء المحارق العامة العلنية وشراسة مطاردة الإسبان لكل من يُشْتَمُّ منه رائحة التمسك بالإسلام كالتزين أو ذبح دجاج وإعداد طعام يوم الجمعة أو استعمال حنفية بناها العرب دون أخرىٰ بناها الإسبان أو المشي في جنازة الأندلسي دون المسيحي.. لقد كانت محنة هائلة! لكن تطاول الزمن والجهل بها هو ما يُنسينا إياها.

---

(١) ونعتمد علىٰ دراسة المستشرق الإسباني لوي كاردياك «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجابهة الجدلية»، وهي منشورة ومتاحة علىٰ الانترنت.

لقد مثَّل تماسك المجتمع الأندلسي الوسيلة الأهم في الحفاظ علىٰ الدين، وفي دعوة المترددين ومن قد يميل إلىٰ الإسبان أو يتهاون في أمور يفرضها عليهم الإسبان كأكل لحم الخنزير وغيره، إلا أن المثير للدهشة أكثر أن من بين فقهاء المسلمين الأندلسيين -في كل تلك الأجواء الرهيبة- من استمر في الدعوة إلىٰ الإسلام بين المسيحيين أنفسهم، واحتفظت سجلات محاكم التفتيش بفقيه دعا المسيحيين إلىٰ ترك عبادة الأوثان وبيَّن لهم كيف يدخلون الإسلام[١].

وبينما كان همُّ الجميع أن يثبت أمام محاكم التفتيش أنه برئ من تهمة الإسلام وأنه قد وُشِيَ به، رصدت سجلات محكمة طليطلة حالة أندلسي أخذ يدعو إلىٰ الإسلام وهو في السجن، كان يدعو رفقاء الحبس ويعلمهم شعائر الإسلام ويحثهم علىٰ إنقاذ أنفسهم والخروج من الظلمات إلىٰ النور بالدخول في الإسلام[٢].

ووُجِد من بين الأندلسيين من يمارس الدعوة مع عبيده وخدمه، وحوكم أحد أولئك بتهمة دعوة راعي غنمه «الشديد التعلق بالمسيحية» إلىٰ الإسلام، وقد كان ذلك من الكثرة بحيث اضطر الإسبان إلىٰ إصدار قانون (١٥٦٠م: أي بعد سبعين سنة من سقوط غرناطة) يحرم علىٰ الأندلسيين اتخاذ عبيد، وجاء فيه «يبدو أن موريسكيين في هذه المملكة (غرناطة) قد حولوا كل العبيد السود الذين لديهم إلىٰ عرب»[٣].

بل سعىٰ بعض الأندلسيين لإدخال القيم الإسلامية ضمن الأعمال الفنية الإسبانية، فيما يمكن أن نسميه الآن «اختراق الجهاز الإعلامي»، فقد تدخل ممثلو محاكم التفتيش لإيقاف مسرحية تعرض في مدريد يُذكر فيها معجزات

---

(١) لوي كاردياك ص٧٧.

(٢) لوي كاردياك ص٧٩.

(٣) لوي كاردياك ص٧٩.

النبي محمد ﷺ، ثم بحثوا وتحروا حتىٰ وصلوا إلىٰ مؤلف المسرحية وحققوا معه فتذرع بأنها مسرحية تاريخية ليست من تأليفه وإنما نقل بعض أجزائها عن كتاب مؤرخ مسلم. والحقيقة أن مثل هذا العمل هو شجاعة كبرىٰ لا سيما في مثل تلك الأحوال.

وتورد سجلات محاكم التفتيش اسم ثري أندلسي اسمه جوان في منطقة آراجون، وكان جوان هذا ينشر الإسلام في منطقة المانش، إلا أن الطريف في أمره أنه كان داعية ثريا أنفق الأموال الطائلة علىٰ تعليم الأندلسيين دينهم للحفاظ عليهم، وكان يتردد عليهم في بيوتهم وينظم اللقاءات والمجالس السرية فيقرأ عليهم القرآن والكتب الإسلامية، ثم إنه كان محاميًا «بمصطلح هذه الأيام» إذ يتقدم باستشاراته للمسلمين، ويوصي الأندلسيين المشتبه بهم أو الموضوعين تحت الرقابة بأن يحفظوا الثغرات القانونية المفيدة لهم، ومنها مثلًا أن البابا إدريان -وقد تولىٰ لفترة ديوان محاكم التفتيش- صدر عنه أن القبض يكون في حالة «التلبس بالبدع»، وأن الامتناع عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ليس دليلًا كافيًا علىٰ البدعة. وقد سعىٰ جوان إلىٰ جمع أموال لتمويل تكوين وفد يذهب إلىٰ البابا إدريان للحصول منه علىٰ «فتوىٰ» أو «تأكيد» علىٰ هذه التصريحات، إلا أن الوفد لم ينجح فيما يبدو أن القس قد انتبه لأغراضهم في استعمال هذه الفتوىٰ لحماية الأندلسيين، ليس هذا فحسب، بل صار خوان مطلوبًا للقبض عليه إلا أنه استطاع الهرب إلىٰ الجزائر قبل أن تُمسك به الشرطة[(١)].

ونختم بواحدة من أعظم الأعمال المغمورة للأندلسيين في الدعوة إلىٰ الإسلام، ذلك هو مجهودهم في نشر الإسلام حيث نزلوا بعد أن استطاعوا الهجرة إلىٰ المغرب العربي، وهناك انتشروا في البلاد، فمن ذلك أن جماعة

---

(١) لوي كاردياك ص٧٨، ٧٩.

منهم وجدوا في جبال الجزائر أقواما قد تطاول عليهم الزمن وقلَّ عندهم الدعاة لما في مواقعهم من وعورة، وبحسب ما يرويه المستشرق الفرنسي ترومِيللي في كتابه «أولياء الإسلام» فإنه لم ينتهض لهذه المهمة إلا قوما لا يكاد يتوقعهم أحد، أولئك هم المطرودين المهجرين من الأندلس عقب سقوطها، فتجاسروا عما تكاسل عنه كثير من دعاة هذه الأنحاء، ونجحوا فيما أخفق فيه غيرهم، فلقد وجههم شيخ من هذه الأنحاء إلىٰ دعوة تلك القبائل، وجاء في حديثه لهم: «إنه لواجب قد ألقىٰ علىٰ عاتقنا أن نحمل مشعل الإسلام إلىٰ تلك الأصقاع التي ضيعت ما ورثته من بركات هذا الدين، ذلك أن هذه القبائل البائسة لم تزود مطلقًا بالمدارس، وليس لديهم شيخ يعلم أبناءهم مبادئ الأخلاق وفضائل الإسلام، لهذا فهم يعيشون كالحيوان الأعجم لا يعرفون إلهًا ولا دينًا. ولكي تنزع عنهم هذه الشقاوات، عقدت النية علىٰ أن أناشد غيرتكم الدينية وهدايتكم. لا تَدَعوا بعد اليوم سكان هذه الجبال غارقين في حالة يرثي لها من الجهل بحقائق ديننا العظمىٰ؛ انطلقوا وانفخوا في نيران دينهم الزائلة، وأعيدوا إنارة جذوتها الخامدة. طهروهم مما يظل عالقًا بهم من أثر من آثام اعتقادهم القديم في النصرانية. فطّنوهم إلىٰ أن الله لا يقبل الرجس في دين سيدنا محمد ﷺ، كما لا يقبله في النصرانية[1]. إنني لا أخفي عنكم أن مهمتكم محفوفة بالصعاب، ولكن ما اتصفتم به من غيرة لا تقاوم وحماسة من أجل دينكم، سيمكنكم بعون الله من تذليل كل الصعاب. انطلقوا يا أبنائي وأعيدوا إلىٰ الله ورسوله مرة أخرىٰ هذا الشعب الشقي المنغمر في حمأة الجهالة والكفر.

(١) وهنا يعلق توماس أرنولد في كتابه «الدعوة إلىٰ الإسلام» بقوله: قارن هذا بالمواد التي نشرها المجلس الذي عقد في مدريد سنة ١٥٦٦م، وهو يتعلق بتنصير المسلمين المقيمين في أسبانيا (أي بعد زوال الحكم العربي منها)، ومنها مادة تقول: «لا يسمح مطقًا لهم ولا لنسائهم ولا لأي فرد آخر أن يغتسلوا أو يستحموا في منازلهم أو في أي مكان آخر، كما يجب أن تهدم وتخرب حماماتهم كلها».

انطلقوا يا أبنائي واحملوا رسالة الخلاص أيدكم الله ووفقكم». وبالفعل، خرجت مجموعات الدعاة إلىٰ هذه الأنحاء، وأثاروا بزهدهم وتعبدهم شغف أهل الجبال، ولم يلبث أن نشروا فيهم الدين وذكروهم ما كان قد اندرس وأزالوا ما علق بأفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم من النصرانية، بل ونشروا بينهم العلوم والصناعات التي كانت مزدهرة في الأندلس فصارت تلك المناطق زاخرة بمراكز تعليمية مشرقة، فجذبت الشباب -في أول الأمر- ثم صار هؤلاء الشباب طليعة لأقوامهم ومن ورائهم القبائل التي تسكن صحراء الجزائر[1].



(١) نقلًا عن: توماس أرنولد: الدعوة إلىٰ السلام ص١٥١ وما بعدها.

أعظم دروس المحنة الأندلسية

لئن كنا نحتاج إلىٰ التاريخ لنتذكر به كيف كنا أمة عظيمة في ظل طوفان الهجوم والتغريب والتشويه، فنحن نحتاج إليه في ذات الوقت لندرك سنن الله في كونه وقوانين الاجتماع والصراع. ولا ينبغي أن يصرفنا التذكير بما كنا فيه من عظمة عما يفيدنا في حاضرنا ومستقبلنا[١].

لقد كانت النكبة الأندلسية من أعظم ما تألمت له الأمة في تاريخها، أن تغرب شمس الإسلام عن أرض أضاءتها ثمانية قرون، ولذلك لم يزل اسم الأندلس بعد خمسة قرون يثير في نفوس المسلمين شجونا ولوعة، إلا أننا نظلم أنفسنا ونظلم التاريخ والحقيقة ونظلم جيلنا والأجيال القادمة إن لم نأخذ منها ما ينفعنا في يومنا الحاضر هذا.

لقد أشرنا فيما مضىٰ لصور مما كان عليه الأندلسيون من العظمة والبسالة في التمسك بدينهم رغم الجحيم الذي أنزله الإسبان بهم وتحت ميزان قوىٰ منهار تماما، إلا أن الحقيقة لا تكتمل إذا توقفنا عند هذه الصورة، وإني لأحسب أن التوقف عندها والسكوت عن نصف الصورة الآخر من قبيل الخيانة التي لا تليق بمن يحترم نفسه فضلًا عمن يخشىٰ الله ويتحملها كأمانة.

نصف الحقيقة الآخر هو ما نعرض لصورة منه في هذه السطور:

١- كيف يفعل المستبدون بالأمة:

لقد عاشت غرناطة أيامًا عصيبة حقًّا حتىٰ اضطرت إلىٰ الاستسلام في نهاية

---

(١) نشر هذا المقال بتاريخ ٣١ ديسمبر ٢٠١٥م.

الأمر، إلا أن هذا الاستسلام لم يكن الخيار الوحيد المتاح، بل لم يصل إليه الغرناطيون إلا بتأثير الحرب النفسية التي شارك فيها ملكهم نفسه، تشير النصوص إلىٰ أن حاكم غرناطة كان يتواصل مع القشتاليين سرا وأن له يدا في إشاعة «الاستسلام» بين الناس، حتىٰ تقدم إليه وفد من التجار (رجال الأعمال بمصطلح العصر) يطلبون منه الوصول إلىٰ اتفاق تسليم المدينة فاتخذ ذلك ذريعة لعقد هذا الاتفاق الذي هو تتويج لمراسلات سرية جعلت فريدناند يوقف الحرب ويشدد الحصار، ولم يحفل برأي من أرادوا الاستمرار في الجهاد والحرب والمقاومة. وهكذا حصل الحاكم لنفسه علىٰ مزايا ومنافع ثم سلَّم البلد[1].

وهكذا هي سنة المستبدين، يملكون البلاد فيتنعمون بخيراتها ويذلون أهلها حتىٰ إذا جاء دورهم وواجبهم سلموا البلاد وتركوها ونجوا بأنفسهم وأهليهم وأموالهم إن استطاعوا. والمسلمون حين يغفلون عن هذه السنة الماضية التي تكررت قبل كل قصة احتلال وسقوط يسيرون إلىٰ نهايتهم بأيديهم، ويكون ذلك حين يرون في الخروج علىٰ المستبد فتنة ويتساهلون في ترك الشورىٰ وفي الأخذ علىٰ يد الظالم وأطره علىٰ الحق، يحسبون بذلك أنهم يحافظون علىٰ أمان الناس وأموالهم وأعراضهم ويحفظون البلاد من طمع الأجنبي، بينما الوضع علىٰ العكس من هذا: إن ترك جهاد المستبد هو ما يفعل كل هذا، فهو يستذلهم ويستضعفهم في وقت تمكنه، فإذا جاء وقت ضعفه تركهم للأجنبي، بل مهد البلاد والعباد للأجنبي بما نشره فيهم من ضعف وذلة ورغبة في الاستسلام، فيذوق العباد والبلاد مرارة الاستبداد ثم مرارة الاحتلال، وقد تكون مرارة طويلة طويلة بحجم زوال الإسلام من البلد وإكراه الناس علىٰ التنصر وترك دين الله.

---

(١) مجهول: نبذة العصر ص١٢١ وما بعدها، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ٢٤٢.

ولذلك لا ينبغي أن يستهين أحد بخطورة مسألة الحكم والسلطة في مصائر الناس، وآثار ذلك علىٰ دينهم ودنياهم، وعلىٰ الأمة جميعا.

٢- الناس على دين ملوكهم:

صحيح أن الأندلسيين صمدوا كما لم تصمد أمة، تمسكوا بدينهم كما لم يحدث مثله في التاريخ فيما نعلم، مآثرهم سجلته وثائق محاكم التفتيش نفسها كما نقلنا في المقالَيْن السابقَيْن، حتىٰ لم يعد أمام الإسبان بعد مائة وعشرين عاما إلا أن يطردوهم تماما من الأندلس، ولقد أثار ذهولي المتجدد قصة الإسبانية التي أسلم ولدها فرأته يصلي فتذكرت أنها حينما كانت صغيرة كانت ترىٰ جدها يفعل مثل هذا، أي أن بعض الأندلسيين ورث دينه لأولاده علىٰ امتداد خمسة قرون رهيبة!!

هذا صحيح، وهو مثير للإبهار.. لكن الصحيح أيضا أن الأمة الأندلسية اختفت وانهارت، وأن شمس الإسلام قد غربت عن الأندلس، وأنها الآن صارت ديار كفر تشارك في الحرب علىٰ المسلمين.

ولهذا فمهما كان الأندلسيون عظماء كأمة، ومهما ظهر فيما أفذاذ كأفراد، فإن المحصلة النهائية هي زوال هذه الأمة وزوال هؤلاء الأفذاذ، فالناس علىٰ دين ملوكهم، ويا ليت شعري كم أندلسي لم يستطع منع ابنه من التنصر ولا ابنته من الزواج من إسباني ولا استطاع تعليم أبنائه اللغة العربية أو شعائر الإسلام.. لقد نجح أناسٌ، لكن المستحيل كل المستحيل أن نطالب الأندلسيين بالبقاء علىٰ دينهم لهذه القرون الطوال كأن شيئا لم يتغير عليهم، هذا هو الخيال والوهم، هذه هي مناقضة القوانين ومعاكسة التاريخ ومخالفة السنن.

ذلك ما نحتاجه في واقعنا، أن نفهم أثر السلطة في تغييب دين الناس وإدخالهم في الكفر بعد الإيمان، وتشويهها لهم وتبديلها لهويتهم ومعاركهم.. وهذا الانقلاب في مصر دليل شاهد؛ كيف يتحول الناس معه إلىٰ الانهيار: تصير

حركة المقاومة عدوا ويصير الصهاينة حلفاء، وتقف البلاد مع إسرائيل إذا حاربت غزة، ويُقتل الفلسطيني إذا عبر الحدود بينما يُفرج عن الجواسيس الصهاينة، ويُحذف من المناهج سير عقبة وصلاح الدين وتحرق كتب الأئمة والعلماء فيما تصير الراقصات أمهات مثالية ويصير الأسافل الأراذل حثالة البشر قادة وموجهين يعتلون المنابر ووسائل الإعلام.

إن دين الله باقٍ لا شك، لكن لا يعني هذا أن كل بلد أو شعب اعتنق الإسلام سيظل مسلما، الأمر أكبر وأخطر وأعظم من هذا الوهم، بل استطاعت الدول أن تخرج من بين المسلمين من تنصر ومن تعلمن ومن ألحد ومن تشيع ومن صار حربا علىٰ الدين.

إن ترك المستبدين، لا سيما إن كانوا عملاء وخدم لأعداء الأمة، يخرج جيلا مثلهم في نهاية الأمر رغم كل ما يمكن أن يبديه الجيل الأول والثاني والثالث من الصمود والتمسك بالدين.

٣- مشاهد أندلسية:

ولئن كان الجيل الأول هو الأصلب فلا يعني هذا أنه ينجو من المصائر الموعودة، بل يظهر فيه الفتق الأول في الأمة، ثم يضعف ويستمر ضعفه باستمرار السلطة القاهرة وتمكنها وتغلبها في النهاية.

ومثلما ذكرنا مشاهد العظمة، ينبغي أن نذكر مشاهد المأساة كذلك، وسنأخذها من ذات السجلات المتاحة لمحاكم التفتيش كما في دراسة المستشرق الإسباني لوي كارداياك «الأندلسيون الموريسكيون والمسيحيون.. المجابهة الجدلية».

١- لقد شهدت الكتب التعليمية التي يتوارثها الأندلسيون سرا لتعليم أبنائهم الإسلام بالتطور المنحدر في اللغة العربية، ولربما تحتفظ العائلة بكتاب واحد تجمع فيه التعاليم ثم يضيف الجيل اللاحق إلىٰ السابق، وهنا يظهر كيف

ينحدر مستوىٰ اللغة ومستوىٰ الخط العربي من جيل إلىٰ جيل، ثم لم تأت سنة ١٥٤٠ إلا وكانت قشتالة وطليطلة خاليتان تماما ممن يعرف اللغة العربية[١].

٢- ولقد تحول بعض المسلمين إلىٰ النصرانية، ليس هذا فحسب، بل عمل كجاسوس وعين علىٰ غيره من المسلمين، وبعضهم وشىٰ بمسلم رأىٰ عنده كتابا لتعليم الإسلام أو رآه يكتب بالخط العربي أو حتىٰ سمع منه كلاما «يُشَمّ منه رائحة الشعر»، وكثيرا ما سُجِّل إبلاغ بعض الناس عن أهاليهم، منهم امرأة أبلغت عن أختها وزوجها وخادمتهما أنهما لا زالا يمارسان الإسلام سرا، ومن أولئك رجل أبلغ عن والديه وخصَّ والدته بمزيد من الإبلاغ، وسجل لوي كارديك أن «وشاية الأهل لم تكن نادرة»[٢]. نعم.. لا يخلو أي مجتمع من أمثال هذا، لكن الشاهد المقصود أن أمثال هؤلاء هم من يزيدون ويرتفعون مع تغلب السلطة وتمكنها، ويمثلون نموذجا مغريا وناجحا في الدولة الجديدة، بينما يغيب ويخفت ويذبل الصالحون المتمسكون. لا سيما إذا استحضرنا ما تقوم به السلطة من إغراءات وتهديدات لا يثبت أمامها إلا أصحاب النفوس الكبيرة[٣].

٣- وينتشر في المجتمع المستضعف أنواع الضلال:

- فيظهر الدجالون الذين يدعون الكرامات والاتصال بالسماء والقدرة علىٰ مخاطبة الأموات والتنبؤ بالمستقبل[٤]، كما يكثر الأمل الكاذب والنبوءات والأحلام والرؤىٰ المضللة وانتظار المُخَلِّصين كنوع من التفكير بالتمني.

- ويتحول البعض عن دينهم ليس بدافع النجاة بل بأثر الفتنة في الدين،

---

(١) لوي كارديك: ص٧٠، ٧٢.

(٢) لوي كارديك: ص٧٠، ٧٦.

(٣) لوي كارديك: ص١٠٤.

(٤) لوي كارديك: ص٧٥.

فمن ذلك حالة أندلسي تحول إلىٰ اليهودية وقد كان اليهود مضطهدون كالمسلمين أمام محاكم التفتيش[١]، ومنهم من تحول إلىٰ البروتستانتية التي كانت في ذلك الوقت حركة معادية للكاثوليكية وتبدو أقرب إلىٰ الإسلام لا سيما في معاداة الصور والتماثيل، وكانوا مضطهدين أيضا، بل من المسلمين من صار راهبا بروتستانيا ومنهم من قسا بروتستانيا وأُحْرق مع أختيه، ومنهم من اختلط لديه الإسلام والبروتستانية وتداخلا كأنهما دين واحد أو مذهب واحد، كذلك نشأت فكرة التقريب أو التوحيد الديني بين الإسلام والبروتستانتية بفعل الاضطهاد المشترك والتعاون المشترك[٢]، فكل هذا قد حدث حتىٰ وإن كان التيار العام منهم يفهم العقيدة البروتستانية بل منهم من استعملها لضرب الكاثوليكية والبروتستانتية معا في مجادلاته أو حركته الدعوية بين الإسبان أو في تثبيت المسلمين علىٰ دينهم، بل يشير الباحث إلىٰ أن المسلمين قد يكونون هم مصدر دخول كتب لوثر وكالفن إلىٰ إسبانيا[٣].

٤- ويظهر في الأمة المغلوبة أخلاق الاستضعاف، كالخوف والخبث واللؤم والكذب، حتىٰ إن فقيها أندلسيا كان يعظ إخوانه الذين سيهربون إلىٰ تونس بضرورة أن يتخلصوا من هذه الطباع إذا وصلوا إلىٰ أرض الإسلام لأنه لا يُقبل منهم إضمار شيء وإظهار ضده حينئذ[٤]، كما تظهر فيهم فتاوىٰ الاستضعاف، وقد عُثِر علىٰ مخطوطات فيها فتاوىٰ للأندلسيين، فمنها ما يفتيهم بسب النبي ساعة الاضطرار ولكن بقول «محمد» وليس «محمد رسول الله» أو بقول «حمد» وبصرف النية إلىٰ شخصية أخرىٰ، ومنها ما يفتيهم بكيفيات الصلاة سواء الصلاة بالعين أو بالإشارة أو تأخيرها إلىٰ الليل ونحو هذا في

---

(١) لوي كاردياك: ص٨٧.

(٢) لوي كاردياك: ص٨٧، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦ وما بعدها.

(٣) لوي كاردياك: ص١٢٦ وما بعدها.

(٤) لوي كاردياك: ص٩٥، ٩٦.

الخمر ولحم الخنزير وسائر الكلام، وفي الفتاوىٰ مجهود وحيل وأفكار لتحقيق المراوغة المطلوبة لأمة مستضعفة[١]. ولكن الدرس الذي ينبغي أن يستفيده المشايخ والعلماء من هذا أن حالهم في دولة الإسلام لا تقارن بحالهم في دولة الكفر أو الاستبداد، وخير لهم وللأمة أن يقودوها في الثورة والجهاد من أن يلتمسوا لها ولأنفسهم الحيل والمعاذير في ظل الذل.

٥- أما اللاجئون أو المهاجرون فإنهم يصيرون رهينة وأداة في صراعات الكبار، لا سيما المهاجرين والمطاردين منهم، وهكذا صار الأندلسيون الذين استعملهم الولاة والملوك أحيانا في صراعاتهم الداخلية، وقُتِل بعضهم شنقا أو تعذيبا أو في المعارك التي تنشب بين الأطراف المتعارضة، فقد استعملهم والي بايرن في أطماعه للتوسع في أرض نافار، وكذلك هنري الرابع ملك فرنسا في صراعاته[٢]. وكان الأندلسيون الذين هاجروا إلىٰ فرنسا قد شملتهم عناية العثمانيين والمغاربة من خلال العلاقات السياسية بين فرنسا وبين العثمانيين وبينهم وبين السعديين، إلا أن هذه العناية لم تشمل الجميع ولا كانت في كل الوقت، بل عالم السياسة مليئ بالتقلبات وحافل بالمناورات، وقد لحق الأندلسيين في فرنسا الكاثوليكية الإجبار علىٰ التنصر أيضًا، وكذلك طردوا لمرة ثانية، وترصد الروايات تحولهم إلىٰ متسولين بأبواب الكنائس يبحثون عما يسد رمقهم ويلاقون من الفرنسيين الصدَّ والكراهية والبغضاء، بل وطالب بعضهم بمذبحة تنهيهم وتبيدهم علىٰ غرار مذبحة سان بارتلمي، وبداية من عام ١٦١٧ يختفي ذكر الأندلسيين من سجلات المجامع الكنسية فإما طُردوا أو تنصروا أو حافظوا علىٰ أنفسهم بشكل أشد سرية، أو كل ذلك معًا[٣]. ولم ينجُ الذين وصلوا إلىٰ أمريكا أيضا، فلقد أقيمت هناك محاكم للتفتيش كذلك، وقد ألحق

(١) لوي كاردياك: ص٩٢.

(٢) لوي كاردياك: ص١٣٤، ١٣٥.

(٣) لوي كاردياك: ص١٤٠ وما بعدها.

لوي كاردياك بدراسته هذه دراسة أخرىٰ عن أحوال الموريسكيين في أمريكا.

وأختم هذه السطور بقصة مأساوية لامرأة أندلسية، تكاد تتلخص في حياتها قصة المأساة نفسها من سائر وجوهها:

وُلدت ماريا لويز لعائلة أندلسية في قرية غرناطية، وعلمها أهلها الإسلام بعد الحادية عشرة كما كانت عادتهم، وذلك أن القساوسة كانوا يحاولون استدراج الأطفال لمعرفة إخلاص أهليهم فحملهم ذلك علىٰ تأخير تعليم الإسلام لأبنائهم حتىٰ سنّ التمييز، وهكذا نشأت ماريا وتعلمت وفهمت وأخلصت للإسلام كما تعلمت كيف تخفي دينها وتراوغ في الاحتفاظ به، وحيث كانت ضمن قرية غرناطية فقد كانت الحياة هادئة إلا في الأيام التي يفاجئهم فيها القساوسة، وصارت تصلي في المساء وتصوم رمضان كغيرها من أهل القرية، إلا أن تطورا مثيرا حدث في حياتها لا نملك تفاصيله إذ تزوجت في الرابعة عشرة من أحد «النبلاء» وأخذها معه إلىٰ أمريكا، إلا أنها استمرت محتفظة بدينها حتىٰ السابعة والعشرين، ولما طال عليها الأمد وبلغت الخامسة والأربعين اعترفت للكاهن في جلسة الاعتراف بأنها كانت مسلمة وأنه لم يزل في نفسها بعض آثار من تعلقها به، وطالبت بأن تُحرق إن كان هذا يطهر روحها. إلا أنهم -ولأسباب اجتماعية سياسية- قرروا عليها غرامة بسيطة إذ استوثقوا من صدق «توبتها»!!

فمن منا يرضىٰ لبناته هذا المصير؟!!

هذا المصير ليس مستحيلا ولا بعيدا.. فقط لو استقر في بلاد الإسلام نظام علماني استبدادي يُطارد الدين وأهله وينشر الكفر ويعمل له.

العثمانيون في أحلام الأندلسيين

لقد كان سقوط الأندلس واحد من المآسي العظمىٰ في التاريخ الإنساني، لما احتوىٰ عليه من عمليات الطرد والإبادة ومحاكم التفتيش الشنيعة التي نشرت الرعب والفزع وابتكرت فنونا من وسائل التعذيب وتحطيم الجسد والنفس الإنسانية، وهي وحدها عار ضخم تحمله «الحضارة» الغربية إلىٰ جانب سوءاتها العظمىٰ: إبادة السكان الأصليين للعالم الجديد والعبودية في إفريقيا وإبادة المدنيين في الحروب العالمية أو موجات الاحتلال[١].

ولئن كان الكثير من ملفات الموريسكيين (الأندلسيين الذين أجبروا علىٰ التنصر) كانت معروفة منذ قديم، فإن المجهود العثماني في استنقاذ المسلمين لم يُعرف حتىٰ في أوساط المثقفين إلا في بداية التسعينات، ويعود السبب الرئيسي في هذا إلىٰ المعوقات التي وُضِعت أمام الباحثين في الأرشيف العثماني، فلما فتح الأرشيف ظهرت كثير من الدراسات التي كشفت عن صفحة مجيدة من تاريخ الدولة العثمانية.

لقد سقطت الأندلس بعد وفاة محمد الفاتح باثنتي عشرة عاما، أي أنها سقطت والدولة العثمانية في ذروة قوتها، إلا أن المساحة الجغرافية الهائلة بين القسطنطينية وغرناطة غلَّت يد الدولة العثمانية عن تقديم عون حاسم لمسلمي غرناطة؛ كانت الدولة العثمانية الشمس الوحيدة الباقية في عالم الإسلام يومئذ، لكنها شمس بعيدة عن الأندلسيين، فما يكاد شعاعها يصلهم إلا ويكون ضعيفا.

كان العثمانيون يتقدمون في شرق أوروبا إلا أن الصفويين كانوا يطعنونهم

---

(١) نشر هذا المقال بتاريخ ١٦ ديسمبر ٢٠١٥م.

من الخلف ويجبرونهم على سحب جيوشهم وإيقاف فتوحهم في أوروبا ليحاربوا في المشرق، وكان المماليك في مصر والشام على ضعفهم عائق كبير أمام استفادة العثمانيين من موارد مصر والشام البشرية والمالية والجغرافية، ولم يكن بالإمكان اختراق كل أوروبا ومحاربة جميع أممها حتى الوصول إلى الأندلس، ولذلك كانت المساعدة العثمانية للأندلسيين بثلاث طرق:

١- بحرية من خلال دعم المجاهدين في البحر، وإرسال الأسطول لإنقاذ الأندلسيين أو لدعمهم ماليا وعسكريا.

٢- وسياسية من خلال بعض الإجراءات التي خففت بعض ما يلقاه الأندلسيون من العذاب، كرسائل التهديد، والإنذار بإحراق الأسرى من النصارى (وهو ما أدى إلى قرار الطرد بدلا من قرار الإبادة للموريسكيين) والعلاقات مع فرنسا وهولندا إذ كانتا مناطق لجوء وعبور للأندلسيين من الجحيم الإسباني.

٣- وإنسانية من خلال استقبالهم في أراضيها.

واستطاعت الدولة العثمانية بعد القضاء على خطر الصفويين وإسقاط دولة المماليك أن تدافع عن الحدود الإسلامية أمام الأساطيل البرتغالية، فكانت تحارب في الخليج العربي وخليج عدن والبحر الأحمر والبحر المتوسط، فحفظ الله بها تلك الديار عربية حتى هذه اللحظة ولو لم يكن العثمانيون لكنا نكتب الآن تاريخًا آخر ما أشبهه بتاريخ أمريكا اللاتينية!

إلا أن الأندلسيين، بطبيعة الحال، لم يكونوا يقدِّرون كل هذا، مثلما ينظر المسلمون الآن إلى تركيا ويعلقون عليها الآمال الكِبار رغم أنها لم تعد الدولة العثمانية التي هي قوة عالمية في وقتها، بل كان الأندلسيون ينتظرون أن ينقذهم العثمانيون مما هم فيه، وكانوا يتوقعون أن تصل جيوش السلطان في أية لحظة، وقد أعطاهم هذا الأمل دفعة جديدة في استمرار مقاومتهم التي حكمت عليها

عوامل القوة والجغرافيا والسياسة بالهزيمة.

لقد سجلت محاكم التفتيش عددا من الروايات المثيرة للأسىٰ عن العثمانيين في خيال الأندلسيين، ونحن نعتمد هنا بالأساس علىٰ كتاب المستشرق الإسباني لوي كاردياك «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجابهة الجدلية» وهو دراسة من واقع سجلات محاكم التفتيش، وهو كتاب مثير للبكاء مهيج للقلوب يرىٰ المرء بين صفحاته قصة مأساة إنسانية بالغة القسوة.

وقد عُثِر في المخطوطات الموريسكية علىٰ ذِكْر وصية من محمد العثماني (محمد الفاتح) لأبنائه أن يستمروا في فتح روما ورودس والبندقية وإيطاليا ولمباردي و«كل إسبانيا»، واهتم الموريسكيون بهذه الوصية لأنها تمثل بالنسبة لهم وعد التحرير الذي ينتظر التنفيذ من خلفاء محمد الفاتح. وقد كانت ثورة البشرات الأندلسية تعتمد نفسيا وروحيا علىٰ انتظار الدعم من الأتراك الذين سيأتون لا محالة، فإما أدركوهم وهم يثورون فانتصروا بهم، وإما كانت هذه الثورة هي الممهدة لانتصار الأتراك حين قدومهم.

كان الأندلسيون يعتبرون أن ما ينزل بهم هو فتن وملاحم آخر الزمان، وحيث أنه قد فتحت القسطنطينية قبل نصف قرن وواصل الأتراك تقدمهم في شرق أوروبا، فلا ريب أن النبوءة النبوية ستكتمل بفتح روما التي سيصل إليها العثمانيون ثم يستكملون طريقهم نحو الأندلس، وهنا يتحقق انتصار الإسلام الذي وعدت به نصوص القرآن والسنة.

وأحيانا كانوا يتوقعون أن المهدي المذكور هو سلطان العثمانيين، أو هو جندي عربي في واحد من جيوشهم، أو هو سلطان سيظهر في العرب، أو عربي سيظهر في الأندلس من ابنائهم، وحددوا له صفة كأن يولد من رجل أصم وامرأة زرقاء العينيين وله أخ يولد مختونا. وسجَّلت وثائق محاكم التفتيش قصة رجل يسمىٰ الكسندر كاستالانو، وهذا اسمه النصراني الذي أجبر عليه لكنه أندلسي

مسلم، والذي كان قد هرب إلىٰ الدولة العثمانية (١٥٦٠م) ثم عاد بعد عشرين سنة من هناك (١٥٨٢م) وقد كلفه السلطان العثماني بالتأكد من «بعض العلامات» في قشتالة وبلنسية، والتحقق مما إذا كانت هذه العلامات توافق ما نصلت عليه نبوءة شائعة في تركيا تتحدث عن زمان إعادة افتتاح الأندلس. وقال إلكسندر بأن علامة من هذه العلامات قد تحققت بالفعل، فلقد رأىٰ في بلنسية شابا صغيرا تنطبق عليه العلامات المذكورة: ضخم الجثة، في كل يد من يديه ستة أصابع، ذو مخالب. ومن ثَمَّ فإنه سيكون خلال ثلاثين عاما قائد للأندلسيين كما تنص النبوءة. وهكذا اختلطت النصوص بالرؤىٰ بالنبوءات بالخرافات في ذلك الوقت، إذ كانت أحوال الذل والاستضعاف والسرية الشديدة دافعة لانتشار التفكير بالتمنّي.

وقد حوكم الكثير من الأندلسيين علىٰ مشاعرهم تجاه العثمانيين وحلفائهم الفرنسيين، واعتبر ابتهاجهم لانتصار العثمانيين أو العرب علىٰ الإسبان أو حزنهم في حال الهزيمة مؤشر علىٰ إخلاصهم لدينهم السابق، وكانت الهزيمة الكبرىٰ للأسطول الإسباني في معركة باب الواد في الجزائر مما أقيمت له الأفراح في مناطق الموريسكيين في الأندلس، ومما أُخِذ به كثير من الناس نحو المحاكم، وكانت متابعة الأخبار تمتد حتىٰ تصل إلىٰ القرىٰ الموريسكية النائية وصار الأندلسيون يحفظون أسماء القلاع التي استولىٰ عليها العثمانيون ولو كانت صغيرة وغير معروفة.

وأحيانا لم يكن الأندلسي يملك نفسه، فقد خطَّط جوان بوتستا للهرب من مدريد إلىٰ فرنسا، التي كانت علىٰ علاقة طيبة بالعثمانيين واستثمر العثمانيون هذه العلاقة في إنقاذ الأندلسيين، حيث ستسقط عنه هذه العبودية إذا ما وصل فرنسا، وهناك سينتظر السفينة العثمانية التي تحمل الأندلسيين إلىٰ بلادهم، لكنه من فرط غيظه أراد أن يغيظ الإسبان، فدخل إلىٰ كنيسة وأعطىٰ ظهره للقربان

«المقدس» (في إهانة لطقوسهم) ثم انطلق هاربا، لكنه قُبض عليه وسيق إلىٰ محاكم التفتيش.

وقد تسربت الأحلام التي تخص العثمانيين إلىٰ المسيحيين كذلك، فلقد كان لديهم من المنجمين وأصحاب الأحلام والمتنبئين من يفسرون ظواهر النجوم أو الأحلام أو النصوص التوراتية علىٰ أن هذا هو زمان نهاية الإسلام من العالم، وأنه ليس إلا قليلا وستنتصر جيوش شارلكان علىٰ العرب ثم تحطم الجيوش العثمانية وإبادتها.

تقول الحقيقة التاريخية بأنه لم تحقق أحلام هؤلاء ولا أولئك، لم ينتصر الأندلسيون ولم يتحطم العثمانيون تحت جيوش شارلكان.. وفي هذا عبرة جليلة!



وليد ساحر الفن والتاريخ (أو) الدراما الإندلسية

أو ما تقدم من أيامهم خلدوا   لو كان يخلد قوم بمجدهمو
قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا   أو كان يقعد فوق الشمس من كرم

الحلقة الأخيرة المفقودة

كنت علىٰ أحر الشوق في رمضان الماضي (١٤٢٩هـ)[١] لأن أشاهد مسلسل «سقوط غرناطة»، وهو المسلسل الأخير في سلسلة تاريخ الأندلس التي كتبها المبدع الموهوب، نادرة الزمان بحق الدكتور وليد سيف، وهي تبدأ بمسلسل (صقر قريش) ثم مسلسل (ربيع قرطبة) ثم مسلسل (ملوك الطوائف).. غير أن المسلسل لم يعرض، وتضاربت حوله الأخبار علىٰ الإنترنت برغم أن المسلسل بحسب كثير من الأخبار كان جاهزًا للعرض منذ رمضان (١٤٢٨هـ)، ولكن خريطة الإنتاج لم تسمح بعرضه في تلك الفترة، ثم اختفت حتىٰ الأخبار الأكيدة حول مصير المسلسل في رمضان (١٤٢٩هـ).

ترىٰ هل انتبه الرقيب العربي أخيرًا إلىٰ خطورة ما يكتبه وليد سيف من دراما، خصوصًا بعد مسلسل (ملوك الطوائف)؟ لعل هذا ما قد حدث[٢]، فإن الذي لا شك فيه أن (ملوك الطوائف) وإن كان عرض لتلك الفترة البائسة من

---

(١) نشر هذا المقال لأول مرة ١٧ مارس ٢٠٠٩م.

(٢) فيما بعد تواصلت مع د. وليد سيف وعرفتُ أنه امتنع عن التعامل مع شركة الإنتاج السورية الحكومية التي أنتجت المسلسلات السابقة لانحيازها إلىٰ الطاغية بشار الأسد ضد الثورة السورية، ولهذا فإن المسلسل لم يكتمل بعد تأليفا.

تاريخ الأندلس -وهي تشبه إلىٰ حد كبير حاضر دولنا العربية المتفرقة- فإن (سقوط غرناطة) سيكون أبلغ في المأساة، إذ لن يفوت الكاتب الكبير أن يحكي فيه سقوط بغداد وكابول وإن كان يتحدث عن غرناطة.. إنها النتيجة التي يخبرنا بها التاريخ، والتي لا أشك لحظة أن عقل وقلم الدكتور وليد سيف لن يمسك بها فيبدعها.

في أمر الكتابة عن الدكتور وليد سيف، لا بد من الإمساك بعدة محاور رئيسية، ثم التفرع فيها إلىٰ فرعيات كثيرة.. ودائمًا حَيَّر الجمالُ الأدباءَ والشعراءَ، فقد يكتب الشاعر بيتًا جميلًا لكن حين يثني أديب أو شاعر علىٰ هذا البيت فقد يستغرق الوصفُ صفحات وصفحات.. الجمال بطبيعته مُكْتَنِز، كشعاع النور مثلًا، مهما بدا لك واضحًا وجليًّا فإن جماله محير، ووصف جماله محير أكثر، ومعجز أكثر وأكثر.. ومحاولة تحليل جماله وتعديد مظاهره أمر عسير بل ومحال.

ومن المذهل المثير للدهشة حقًّا أن اسم الدكتور وليد سيف ما يزال مغمورًا في بحر الإعلام، والبحث علىٰ الإنترنت لا يعطيك عنه إلا مواد قليلة برغم أنه يعد بحق أعظم كاتب للدراما التاريخية بإطلاق، وبلا منافس، وإذا حاولنا أن نضعه في المرتبة الأولىٰ لأرهقنا البحث عمن يمكن وضعه في المرتبة الثانية.. إن الفارق بين نصه التاريخي لا يكاد يقارن بالمرة مع أي نص آخر، وأحسب أن هذا من الوضوح بحيث يعترف به كل أحد.. فلا أدري هل تلك الغفلة الإعلامية عنه محض صدفة أم أن وراء الأكمة ما وراءها؟ وإن كنت أميل إلىٰ أن علاقة الإعلام بالفن بتوجهات رأس المال هي التي توجه التيار نحو الفن الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

اشتَعَلَت في رمضان (١٤٢٩هـ) معاركُ فنية بين المصريين والسوريين؛ المصريون يصرون علىٰ أنهم الأعظم والأقدر والأقدم، وأنه وإن وافقنا جدلًا

علىٰ تراجع مستوىٰ الدراما المصرية فإنها استراحة المقاتل وكبوة الجواد ونبوة السيف لا أكثر ولا أقل، السوريون يرون أن زمان التفوق المصري قد انتهىٰ وأن الريادة الآن في دمشق، وعلىٰ المصريين إن أرادوا استرجاع مكانتهم أن يتركوا الطنطنة بتاريخهم وأمجادهم وليتواضعوا ويقبلوا بمقاعد التلاميذ لأساتذة هذه الأيام (السوريين)، فلربما إن أحسنوا التعلم استعادوا مجد الماضي في مستقبل الأيام.

لست في معرض المساهمة في هذه المعركة الآن، ولكني لا أجيز أن تكون مسلسلات وليد سيف من عوامل تفوق الجانب السوري، وذلك لأن النص هو بطلها الأكبر والأول، وهذا النص كاتبه أردني من أصل فلسطيني -طالما يحب البعض أن يفرق بين العرب حتىٰ فيما يجمعهم-.. والدليل المتين أن المسلسلات التاريخية السورية التي لم يكتبها وليد سيف تحفل بفضائح علمية، ورداءة فنية لا تخطئها العين.

طبيعة الدراما التاريخية

تحمل المسلسلات التاريخية طابعًا خاصًّا، فهي ليست قصة من الخيال، بل ولا لها «مجرد علاقة» بالواقع، إنما هي قصة حدثت بالفعل، ويصير نقلها إلىٰ الدراما والحكاية المصورة تلفزيونيًّا أمرًا يتطلب -فوق صنعة الفن والسيناريو- أمانة علمية ومجهودًا بحثيًّا.

وبعد الأمانة العلمية والمجهود البحثي ستوجد عدة ثغرات تاريخية، فالكتابة عن أحداث وقعت قبل ألف سنة ليس كالكتابة عن أشخاص ماتوا قبل سنين، فالذي سيكتب فيلمًا أو مسلسلًا عن عبد الناصر أو السادات أو قاسم أمين أو أسمهان أو أم كلثوم يجد أيضًا ثغرات وفجوات تاريخية، ولكنه لن يعاني كمن يكتب عن القديم، فإن لكل الشخصيات الحديثة حواريين ومعجبين

اجتهدوا بحثيًّا فملئوا تلك الثغرات بمجهود بحثي وأكاديمي، فصار علىٰ الكاتب مهمة نقل هذا التاريخ -المكتمل والمتناسق إلىٰ حد كبير- إلىٰ ساحة الدراما.. ثم أضف إلىٰ هذا قرب الزمان، ووجود المواد المصورة والفيلمية.

ليس هذا متيسرًا في حال الكتابة عن تاريخ قديم، ففضلًا عن أن كثيرًا من كنوز التراث الإسلامي أغرقت أو أحرقت أو أتلفت علىٰ يد همج ليس لهم في الحضارة نصيب، في اجتياحات التتار أو حروب الصليبيين في المشرق، وخصوصًا حين طرد المسلمون من الأندلس.. وهذا بدوره أضاع كتبًا كثيرة تحمل لا شك تفاصيل تاريخية مهمة عن التاريخ الإسلامي عمومًا، وتاريخ الأندلس خصوصًا. فضلًا عن هذا، فإن القدامىٰ لم يكونوا مولعين بالتأريخ اليومي للحوادث، الذي بدأه -علىٰ حد علمي- الجبرتي في تاريخه، بل كانوا يؤرخون بالسنين.. فطبيعة العصر وقتها لم تكن بالسرعة التي نعرفها الآن، ووصول الأخبار نفسها كان يستغرق أيامًا وربما شهورًا. قد تمسك بالكتاب القديم فلا تجد في بعض السنين من الحوادث المهمة شيئًا، أو قد يكون فيها حدثًا أو اثنين فقط يراهما المؤرخ مستحقين للتأريخ.. وكان البعض من المؤرخين يؤرخون بـ«التراجم»، حيث يجعل الشخصية التاريخية هي المحور، فيؤرخ لها ويروي التاريخ من خلالها.

وكلما أردنا صناعة تاريخ متماسك ومتقصٍّ للتفاصيل كانت حاجتنا إلىٰ مجهود بحثي أكبر وأعظم، وقد قام بهذا كثير من المؤرخين المسلمين المُحْدَثين؛ فيمكننا أن نجد تاريخًا مفصّلًا للحروب الصليبية مثلًا في موسوعة الدكتور سهيل زكار (موسوعة الحروب الصليبية - طبعت في خمسين مجلدًا)، وكذلك نجد أفضل تأريخ لمرحلة الأندلس في موسوعة الدكتور محمد عبد الله عنان (دولة الإسلام في الأندلس). وهذه مجهودات بحثية ضخمة جمعت أشتات التاريخ المتفرق من المصادر العربية والأجنبية وجعلتها في كتاب واحد.

ولكنها -وحدها- لا تغني في رصد كل جوانب الحياة التاريخية، ومنها الجانب الأدبي مثلًا، وهو جانب لا يستغني عنه كاتب الدراما المجتهد، بل هي أيضًا لا تجيب عن كل الأسئلة إذا نظرنا إليها من منظور من سيحكي قصة مصورة، ففي التاريخ قد تختفي شخصيات فاعلة في خضم الأحداث ولا يعرف علىٰ وجه الدقة كيف كانت تلك النهاية، وكذلك تولد شخصيات فاعلة ولا يعرف علىٰ وجه الدقة كيف كانت البداية.

إذن.. رصد التاريخ القديم بشكل متماسك هو مجهود بحثي وحده.

ثم محاولات رصد الجوانب الأخرىٰ التي لا علاقة لها -بشكل ما- بالتاريخ السياسي مجهود آخر، ويتطلب دون شك الرجوع إلىٰ المصادر القديمة أو الدراسات الحديثة المتخصصة في هذه الجوانب.

ثم الإجابة علىٰ هذه الأسئلة التي لا بد ستثار إذا انتقلت الحكاية إلىٰ الصورة، ومن ثم لا بد من الإجابة عليها مجهود ضخم آخر.. وهو هنا مجهود يتحمله كاتب القصة بالكامل -إن لم يكن في التاريخ إجابة واضحة- ويتحمل مجهودًا أكبر إن اختلفت الروايات التاريخية في بعض الإجابات، أو اختلفت تحليلات المؤرخين وإجاباتهم.. هنا يوضع الكاتب علىٰ محك كبير.

فإما أن يهرب من الحادثة أساسًا، وهذا كالذي خرج من الدنيا لا له ولا عليه، وإما أن يبذل مجهودًا عقليًّا وبحثيًّا في اختيار وتفسير أقرب الروايات إلىٰ رؤيته لتلك الفترة، وهنا يصير مجهوده هو الحاكم عليه فسيرضىٰ عن اجتهاده بعض الناس وسيغضب آخرون، وهذا طالما التزم بالصحيح من التاريخ وتحركت تفسيراته في إطار ما هو ثابت يكون أفضل الحالات، وإما أن يدع كل هذا جميعًا ويبحث عن «حبكة» درامية ولو خرجت عن إطار «التأريخ» إلىٰ إطار «التأليف» (وهو في الحقيقة تزوير وتزييف).. وهذا أسوأ الجميع، وغالبًا ما تكون هذه المسلسلات فضيحة علمية. وشخصيًّا أرىٰ أنه لا يجب أن يسمح

بعرضها، لا من قبيل تقييد الإبداع بل من قبيل احترام المنهج العلمي.

التاريخ المركب العميق

كانت السطور الماضية تتحدث عن الإشكالية ما بين النزاهة والأمانة العلمية، وما بين «ضرورات» الحبكة الدرامية.

فإذا دخلنا إلىٰ تفاصيل القصة التاريخية، سيجد الكاتب نفسه علىٰ محك آخر، وهو تحليل وتفسير الشخصيات الفاعلة، شخصيات الأبطال، وشخصيات الأقزام، وكذلك شخصيات الخونة.

والبشر ليسوا خيرًا خالصًا، وليسوا شرًّا خالصًا كذلك. ومنهم من ينتقل من البطولة إلىٰ الخيانة، ومنهم من ينتقل من الخيانة إلىٰ البطولة. وقد صار مملًا وكئيبًا وفضائحيًّا أن تتحول المسلسلات التاريخية إلىٰ شخصيات هي إما خيرٌ مصفىٰ أو شرٌّ مكثف.. فإذا وجدت شخصية من كان بطلًا ثم تحول إلىٰ الخيانة فلا بد حينئذ أن تفسر علىٰ أنه كان متآمرًا منذ أول لحظة ويصطنع البطولة، كما تفسر شخصية الخائن الذي تحول للبطولة بأنه بطل منذ أول لحظة، ولكنه «بذكائه» كان يقف منحازًا للعدو ثم سيختار اللحظة المناسبة للانقلاب عليه.

حياة البشر ليست بهذه السذاجة والسطحية.. ولم تكن كذلك يومًا.

وهذا ما يجعلنا نُصِرُّ ونؤكد علىٰ أن يكتب التاريخ كما نقلته المصادر التاريخية التي تَوَفَّر عليها باحثون مجتهدون فقدموا أفضل ما استطاعوا من مجهود لاحتواء تفاصيل الفترة التاريخية، وألا يُترك هذا لكاتب يجتهد وحده دون امتلاك الأدوات، فإن كان يمتلك الأدوات البحثية فربما اضطرته ظروف الإنتاج إلىٰ «سلق» المسلسل (وهذا لا يغفر له).

إن الكاتب سيجتهد لا محالة في ملء الثغرات التاريخية لأنه يكتب

للصورة، ويجب أن يكون اجتهاده في إطار التاريخ الموجود لا أن يصنع تاريخًا من رأسه، ولو بحسن نية.. حسن النية هذا الذي دفع من قبل أناسًا لتأليف أحاديث نبوية؛ لكي يحثوا الناس علىٰ فعل الخير وترك المعاصي.

ولا يطلب أحد أن يكون الكاتب محايدًا، فهذا لا يستطيعه بشر ولا حتىٰ الباحث العلمي، ولكن كما نطلب من الباحث الالتزام بمقاييس البحث العلمي، يجب أن نطالب كاتب التاريخ خصوصًا بالالتزام بالتاريخ؛ لأنه يعيد تقديم التاريخ الذي وقع ولا يؤلف قصة من خياله.

لم أصدق نفسي حقًّا حين شاهدت مسلسل صلاح الدين، الذي لم يتردد كاتبه أن يذكر أن صلاح الدين مثلًا شرب الخمر في شبابه، أو أن البطل الكبير عماد الدين زنكي غدر بحامية قلعة حارم بعد أن أعطاهم الأمان، أو أن عبد الرحمن الداخل قتل أسرىٰ في بعض حروبه مع اليمنية، أو أن البطل الكبير المنصور بن أبي عامر -ذروة تاريخ الأندلس- كان يشرب الخمر قبل أن يتوب عنها.. وهكذا.

هذا هو المطلوب فعلًا، أن نقدم أبطالنا بشرًا كانت لهم أخطاؤهم وفي السياق الطبيعي الذي لا يجعل هذه الأخطاء تأخذ كل الصورة، كما يفعل مزورو التاريخ لأغراضهم، ولا أن تختفي من الصورة، كما يفعل مزورو التاريخ منا بحسن نية، وأن تقدم الشخصية التاريخية بأقرب ما يمكن لحقيقتها التاريخية لا بأفضل ما يمكن ولا بأسوأ ما يمكن.

وأُطَمْئِن الجميع أن هذا لن يخدش لأبطالنا بطولتهم، ولكنه سيجعلهم مثالًا قريبًا من الناس وقابلًا للتكرار والوجود، بل سيُعَوِّد الناس علىٰ أن يفهموا أنهم ليسوا شر خلف لخير سلف، بل هم من الأمة التي كالغيث لا يدرىٰ أولها خير أم آخرها، وعلىٰ أن يحكموا بالموضوعية والعدل فيقبلوا الخير، ويرفضوا الأخطاء، ويزنوا الناس بحسناتهم وسيئاتهم، فكل بني آدم خطاء.

وكذلك يجب أن نحاول فهم أولئك الذين خانوا، لماذا خانوا؟ وما هي حججهم وأفكارهم؟ وكيف استطاعوا أن يغلفوا هذه الخيانة بعبارات وشعارات وحجج إسلامية؟ سنرىٰ في التاريخ أمثال صدام وعبد الناصر... وغيرهما الكثير ممن ذبحوا الأمة وقدموها لعدوها لقاء أن يظلوا علىٰ كراسيهم (وإن كنت أعتبر أن تاريخنا لم يعرف ملوكًا كملوك هذه الأيام في الخيانة أبدًا، ولهذا حديث وتفصيل آخر).

إنه من الضروري أن نفهم الشر والفساد والاستبداد؛ كيف يتغطىٰ بـ«الوطنية والعروبة ومصلحة الأمة»، وقديمًا كان سيدنا حذيفة بن اليمان t يسأل النبي عن الشر مخافة أن يقع فيه، ومسلسل (ملوك الطوائف) خير من قدم هذه الأمثلة من الطغاة: المعتضد بن عباد، والوزير أبو بكر بن عمار وزير المعتمد. وما يمكن أن يجنيه هذا علىٰ الأمة التي تساقطت -في عهدهم- عواصمُها، كما سقطت في عصرنا القدس وكابول وبغداد، وعواصم أخرىٰ مهيأة للسقوط.

بقيت شخصيات ترددت بين الخير والشر، أو وقفت في مناطق بينهما فلا يغلب عليها الخير أو الشر إلا في الأهوال وبعض الأحوال، أو لنقل بدقة أكثر: ترددت بين الصواب والخطأ، بين مثالية الأخلاق وضرورات الواقع، بين المفترض والمفروض. وستبقىٰ هذه شخصيات يختلف فيها المؤرخون أبد الدهر، وإنها حقًّا مهمة جسيمة لرجل يريد أن ينقل التاريخ عبر الصورة، وهو مهما فعل فلن يرضي جميع الأطراف، وإني أشهد أن ذلك الساحر المبدع د. وليد سيف قد قام برسم هذه الشخصيات خير قيام، وحاول أن يقدم لها الصورة المتماسكة التي تتراوح بين الخيانة والبطولة أو تقف فيما بينهما أو حتىٰ لا تتبين أحيانًا قرار الصواب من قرار الخطأ، بل أحيانًا كان يذكر اختلاف المؤرخين في ثوب درامي بديع. وهو رسم للشخصية يراعي أحوالها وأهوالها وإمكاناتها

وطريقة تفكيرها ومواقع مصالحها، مما يجعلك تشعر أنك ترىٰ تاريخًا حيًّا نابضًا لا مجرد سرد لما في بطون الكتب.

فمن هذه الشخصيات مثلًا: الأمير الشاعر أسامة بن منقذ ومعين الدين أنر حاكم دمشق والعاضد خليفة مصر الفاطمي (مسلسل صلاح الدين)، أبو مسلم الخراساني وأبو سلمة الخلال وعبيد الله بن أبان والمغيرة بن الوليد وعبد الملك المرواني (مسلسل صقر قريش)، وغالب الناصري وجعفر المصحفي الحاجب وعبد الله بن الملك المنصور (مسلسل ربيع قرطبة)، ويزخر مسلسل ملوك الطوائف بهذا النوع من البشر.

وخلاصة القول: أنك ترىٰ تاريخًا حيًّا نابضًا، ورسمًا بديعًا للشخصيات بعيدًا عن حدية الأبيض والأسود، وحدية الخير والشر، وحدية البطولة والخيانة، وهذه النقطة تحديدًا -في نظري- أكبر مزية في مسلسلات الدكتور وليد سيف عن غيرها، حتىٰ إننا كثيرًا ما نختلف في التقييم -أصدقائي وأنا- لبعض الشخصيات، تمامًا مثلما نختلف -في الواقع- في تقييم شخصيات معاصرة. ذلك أننا رأينا تاريخًا يقدم صورة أقرب إلىٰ المتكاملة وأقرب إلىٰ البشرية، حيث الأخطاء لها أسباب ولها مبررات ولها تفسيرات، وكذلك البطولة قد تكون سمعة ومفخرة وليست عملًا خالصًا لوجه الله والأمة.

ولعلي قد أطلت في هذا الجانب، جانب الأمانة العلمية في العمل الدرامي التاريخي، وهي إطالة بعضها مقصود؛ لما أرىٰ من فضائح في مسلسلات أخرىٰ، وبعضها غير مقصود لانبهاري بما يكتبه الدكتور وليد سيف.

هل تصدق مثلًا أن مسلسل (هارون الرشيد) المصري -وأنتج تقريبًا منذ ١٢ سنة- كان هارون الرشيد (قام بدوره نور الشريف) يلبس الأخضر والأصفر والأزرق من الثياب، بينما طالب التاريخ المبتدئ يعرف أن الدولة العباسية منذ نشأتها وحتىٰ عصر المأمون كان شعارها السواد، وكانت تلبس الثياب السوداء؟

وهل تصدق كذلك أن مسلسل (أبو جعفر المنصور) السوري الذي عرض في رمضان الماضي (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م) قدم العباسيين وكانوا يلبسون السواد حتىٰ قبل أن يظهروا الدعوة ويحوزوا الدولة؟ في خطأ يعد فضيحة حقيقية لكاتب السيناريو أولًا، وللمخرج ثانيًا.

علىٰ أية حال، بقيت نقطتان في جانب الأمانة العلمية هذا نذكرهما بإيجاز:

١- الأمانة العلمية في نقل معسكر الخصم أو العدو.

كان الصليبيون أعداءنا.. نعم، وذبحوا الآلاف.. لا شك في هذا، وكان تخلفهم الحضاري وتوحشهم الحيواني لا شبهة فيه، ولكن هذا لا يمنع أن يكونوا أبطالًا صناديد في القتال، وأن منهم من كان يؤمن بعقيدته إيمانًا يبذل فيه النفس والنفيس، كما كان منهم خونة وقتلة وأهل بطش وقسوة.

ليس من الواقعي أبدًا أن نصور كل الأعداء، كلهم وفي سلة واحدة، بأنهم أحط أهل الأرض أخلاقًا ونفوسًا وطباعًا، فهذا -فضلًا عن أنه ضد الطبيعة البشرية- فإنه مخالفة لحقائق تاريخية، ونحن نرىٰ في عصرنا هذا نشطاء السلام الصهاينة ولهم حقًّا فعاليات ونشاطات مهمة ومشكورة، فلا هذا يحببنا في الكيان الصهيوني ولا هو يمنعنا من مقاومتها، ولا هو يحذف من عقولنا الصورة الوحشية الدموية للكيان الصهيوني.

وفضلًا عن تلك الأمانة العلمية في الوصف، فإني لا أعرف كاتبًا آخر اهتم بتفاصيل معسكر الخصم وما يدور فيه كما فعل الدكتور وليد سيف، حتىٰ لو كان المسلسل يناقش فترة تاريخية مزدهرة لا يأخذ فيها الأعداء نصيبًا كبيرًا من المشهد مثل مسلسل ربيع قرطبة.

٢- تنبيه مهم:

أخشىٰ بعد هذا أن يُفهم أحد أني أريد أمانة علمية تبحث عن أخطاء أبطالنا وعن بطولات أعدائنا، وأن يكون هذا هو «الأمانة العلمية». وقد مورس هذا

ضدنا في مجال الفكر والتأريخ يوم أن سيطرت علىٰ بلادنا حكومات الاستعمار ثم عملاؤهم، وصعد «مثقفون» إلىٰ مناصب التعليم والثقافة لأنهم لم يكونوا يفعلون إلا هذا، بل أشد منه.. كانوا يزورون التاريخ تزويرًا فاحشًا، بل ويزورون التاريخ القريب لا البعيد فقط، وقد منَّ الله علينا في هذا الزمن بحرية نسبية للإعلام من خلال الفضائيات والإنترنت، فصار الكذابون لا يحوزون ما كان لهم من سطوة فيما مضىٰ. ولئن كان كل مهتم بالفكر الآن يعلم من هم المنافقون والكذابون من المرتبطين بالحكومات أو الاستعمار، فيُشْبِعهم لعنة واحتقارًا.. فلم يكن هذا متاحًا لمن كان قبلنا، فارتفعت نفايات الفكر وأصبحت أسماء كبرىٰ، ولو قُدِّر لهم ما قُدِّر لخَلَفِهم ما صنعوا فتيلة.

القصد أن يقدم التاريخ كما هو، لا تاريخ المناقب ولا تاريخ المثالب، حتىٰ نعمق بطولاتنا ونستفيد من أخطائنا، وهي بطولات بشرية ولهذا تستحق التعظيم، وهي كذلك أخطاء بشرية؛ ولذا تستحق التقويم. ويظل التاريخ الإسلامي أفضل تاريخ بشري، ويظل المسلمون حقًّا وصدقًا أعظم أمة صنعت حضارة إنسانية أخلاقية لم تتكرر حتىٰ يومنا هذا، فالمنهج العلمي النزيه هو من يحكم بهذا ويُصَدِّق عليه، وشهادة التاريخ هذه تُقَدَّم لمن لم يؤمن بقوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

اللغة الفاخرة

أزعم أن مسلسلات الدكتور وليد سيف كانت ستحتفظ بأوليتها وميزتها وتفردها عن باقي المسلسلات التاريخية لو أنها اكتفت بميزة التحقيق العلمي الممتاز، وباستبطانها العميق والرائع لنفوس شخصيات العمل التاريخي، لكنها زادت علىٰ هذا ثوبًا ولا أورع ولا أبدع من لغة فخمة جذلة.

يحز في نفسي أن كثيرًا من عمالقة الفكر ضاعوا أو نُسُوا أو لم يكن لهم

جمهور؛ لأنهم لم يمتلكوا الأدب، وأكاد أقول: إن من خلدوا من العلماء والمفكرين كانوا واحدًا من اثنين: من امتلك الفكر والأدب معًا، فاستطاع أن يصوغ فكره في عبارات بليغة ومؤثرة، فَخَلَد فكره عبر لغته العذبة، أو مفكر أحدث نقلات نوعية في الفكر وقدم لعصره أو للأجيال بعده ما لم يقدمه أحد ممن قبله من نظرات وتفسيرات ورؤىٰ احتاجها عصره أو عصر من بعده.

وأتذكر دائمًا في هذا شيخ الإسلام ابن تيمية الذي كان عظيمًا لم يمتلك الأدب، بينما كان تلميذه ابن القيم عظيمًا كذلك لكن أدبه أفخم وأقوىٰ وعبارته أحلىٰ وأحسن، وبرأيي أن خلود ابن تيمية نصيب الفكر منه أكبر، وخلود ابن القيم نصيب الأدب منه أكبر. وفي عصرنا هذا أخشىٰ أحيانًا أن ينسىٰ -بعد حين- رجال عظام كان حظهم من الأدب قليلًا.

ولا أظن يخفىٰ علىٰ أحد أن البلاغة وحدها خَلَّدت فكرًا فاحشًا وأخلاقًا ماجنةً، فكم خَلَد في الشعر شعراء فاحشون حقًّا! بل ولا أحسب محبًّا للأدب لا يحفظ أبياتًا ماجنة من فرط بلاغتها وإن كان لا يرددها إلا مع نفسه برغم استنكاره لمعناها تمامًا؛ فأبو نواس وبشار بن برد وعمر بن أبي ربيعة وسلسلة طويلة ربما انتهت بنزار قباني، كل هؤلاء صنعوا أسماءهم ببلاغتهم التي كانت ثوبًا جميلًا لأفكار فاحشة.

وإن هذا يلفت الأنظار إلىٰ أن القرآن لم يكن حقًّا فحسب، ولكنه كان حقًّا بليغًا، حقًّا أعجز أساطين البلاغة أن يأتوا بمثله أو بسورة منه. الحق الذي لما فاجأ قريش في منتدياتهم ببلاغته ثم قال: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم:٦٢] لم يملكوا أنفسهم فسجدوا، سجدوا انبهارًا، فلقد سلبت بلاغة القرآن إراداتهم علىٰ نفوسهم.. وحتىٰ نبي الله محمد لم يؤت الحق فقط، بل أوتي معه (جوامع الكلم).

وأتذكر في هذا كلمة للأستاذ محمد قطب في كتابه (منهج التربية

الإسلامية) حين قال: «إن الجبال لا تكتفي بأن تكون جبالًا.. ولكنها تكون جميلة ورائعة، مكسوة بالثلوج، أو مكسوة بالغابات! إن السحاب لا يكتفي بأن يكون سحابًا يحمل الماء.. ولكنه كذلك يكون جميلًا بأشكاله وألوانه، ثم ينتشر عليه في بعض الأحيان، طيف الشمس (قوس قزح) في منظر رائع جميل! إن النبات لا يكتفي بأن يكون نباتًا، ولكنه يورق ويزهر، ويستمتع منه الإنسان بزهره الأريج وشكله البهيج! إن الطير لا يكتفي بأن يكون طيرًا، ولكنه يسقسق ويغرد ويلعب ويقفز، وتزهو منه الألوان! إن الحيوان لا يكتفي بأن يكون حيوانًا، ولكنه يقفز ويمرح، و(يتخابث) في لطف ويستألف للإنسان»[(١)].

ورحم الله شيخنا محمد الغزالي الذي كان يردد بلا ملل: معنا الحق الذي لم نحسن عرضه، وغيرنا معه باطل تفنن في عرضه.

ولهذا أجزم يقينًا بأن مسلسلات الدكتور وليد سيف خالدة بإذن الله، وإذا كانت المسلسلات التاريخية بطبيعتها مستمرة ويمكن إذاعتها بعد إنتاجها بعشرين سنة أو أكثر دون أن يمثل هذا عيبًا، فإن اللغة الفخمة التي كُسِيَت بها هذه المسلسلات ستجعلها دائمًا مطلوبة ومرغوبة.

والدكتور وليد سيف شاعر أصلًا، وهو أستاذ أدب في الجامعة الأردنية، وهو حقًّا ممن يمتلك ناصية اللغة فأنت تسمع في مسلسلاته اللغة العربية الباهرة التي تقرؤها في كتب الأدب القديم، اللغة التي تنقلك لذلك العصر البعيد، فتشعر أنك تشاهد التاريخ حقًّا كما كان.

ولهذا فلن تسمع الألفاظ العربية التي ولّدها العصر الحديث، وهذا شيء لم يسلم منه أحد من المؤلفين الآخرين الذين يعانون من الكتابة بالفصحىٰ في الأصل، ولذا فلا يمكنهم أن يعرفوا أن مثل هذه الكلمات لم يعرفها بنو الزمان القديم الذين يكتبون تاريخه.. ومن هنا تحفل نصوصهم بكلمات وتعبيرات

---

(١) محمد قطب، **منهج التربية الإسلامية**، ط١٧ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧م)، ص١٤٩، ١٥٠.

مثل «الوقت المناسب» و«الوقت الحالي» و«تصفية الحسابات» و«خلف خطوط العدو» و«من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا» و«أمر غامض» و«القوة الكافية»... إلخ، ولولا أن يصير المقال مَذَمَّةً لأطلت في هذا.

ولم يكن يُنْتَبَه إلىٰ هذا الأمر حتىٰ سمعنا اللغة الفخمة في مسلسلات وليد سيف، فَبِضِدِّها تتميز الأشياء، وإذا طلعت البدر غارت النجوم، وإذا جاءت الشمس طغىٰ نورها علىٰ كل نور.

إن واحدًا من أسباب معاناتي مع المسلسلات الأخرىٰ أني سمعت مسلسلات وليد سيف، فصار كل مشهد يجبرني علىٰ أن أتخيل كيف كان سيصوغه وليد سيف. إن هذه المسلسلات قد أحدثت طفرة في هذا الجانب، فلغة المسلسلات التاريخية بعده بعامة أفضل منها قبله، فمسلسلات (الحجاج، المرابطون والأندلس، أبناء الرشيد، خالد بن الوليد (بطولة باسم ياخور)، خالد بن الوليد (بطولة سامر المصري)، قمر بني هاشم، أبو جعفر المنصور..) أفضل لغة من المسلسلات فيما قبل بشكل عام، ولا أستثني من هذا إلا مسلسل (الظاهر بيبرس/ السوري) فلغته ركيكة إلىٰ حد يثير الاشمئزاز.

وشخصيًّا كنت أظن أن جمهور الأمة لا يفهم اللغة العربية القوية، فعلمت من تلك المسلسلات أن الأمة أقرب إلىٰ روحها وتراثها مما كنت أتصور. وبالمناسبة، فإن الأمة أقرب إلىٰ روحها وتراثها كثيرًا مما يتصور كثير من السياسيين وحتىٰ كثير من العلماء والدعاة، ودائمًا تكون الانتخابات هي الكاشف عن هذه المفاجأة.

الحب في مسلسلات وليد سيف

ما نراه في مسلسلات وليد سيف يؤكد أن لهذا الرجل تجربة في الحب، ففي مشاهده ما لا يمكن أن يعرفه إلا عاشق قديم، أو عاشق قديم مقيم.

والحب أمر عجيب، وهو لغزٌ وسيظل هكذا، وهو من أدلة إعجاز الله في خلقه، فهو شيء لا يوصف ولا يفسر ولا يُعرف كيف يبدأ وكيف يثور ثم كيف يذبل وينتهي، ومن حاول أن يفسر الحب فليعلم أنه سيفشل حتمًا، وما من نظرية في الحب إلا ونستطيع أن نسوق قصصًا تؤكد فشلها وعجزها عن التفسير.

وأرىٰ أن لا يتكلم في الحب من لم يعرفه، ولو كان عالمًا أو داعية، فإن كلامه يؤخذ منه علىٰ أنه كلام الله وحكمه، ومن قال لا أدري فقد أفتىٰ.

وإنك لتجد في مسلسلات وليد سيف الحب الذي لا يخدش العفة، فلن تبتئس كثيرًا من حب صلاح الدين لعصمت الدين خاتون أرملة الملك العادل نور الدين، ولن تبتئس أيضًا من حب الملك المنصور محمد بن أبي عامر لصبح جارية الحكم وأم الخليفة هشام، ولن تعتبر حب المعتمد بن عباد لزوجته اعتماد الرميكية ضعفًا في شخصيته.

وهذه الأمثلة وغيرها ليس للتاريخ فيها رأي قاطع أكيد، فنحن لا نعرف علىٰ سبيل اليقين إن كان جرىٰ حب بين صلاح الدين وعصمت الدين خاتون أو بين الملك المنصور والسيدة صبح، فإن أحداث التاريخ تجعل هذا احتمالًا واردًا ويمكن أن يكون قويًّا، ولكن يمكن أن نفسر كل الأحداث كذلك من منظور آخر غير الحب.

إنما الإبداع يكمن في أن وليد سيف حين يقدم رواية الحب هذه فإنه يقدمها في إطار العفاف والأخلاق، في إطار أنه قد حدث فعلًا حب عظيم وعميق، لكن هذا ليس مظنة السوء أبدًا ولا يمكن أن يكون موضع ريبة، وهو في ثنايا المسلسل يهاجم بشدة من يعتبر هذا الحب ريبة ودنسًا، ويظن فيه السوء ويجعله تهمة.

وما يؤكد اهتمامه بهذا اللغز المسمىٰ بالحب هو أنه أحيانًا يصنع قصة حب قد لا يحتاجها المسلسل، صحيح أنه يستعملها في بيان معان أخرىٰ في صلب

المسلسل، لكن تلك المعاني كان يمكن أن تؤدىٰ بغير قصة الحب، وذلك أسهل علىٰ كاتب محترف مثل وليد سيف.

سترىٰ في مسلسلات وليد سيف أعاجيب المحبين:

- زواج سياسة ينقلب إلىٰ حب عميق (نور الدين وعصمت الدين خاتون - مسلسل صلاح الدين).

- حب وكفاءة يتحولان إلىٰ زواج (صلاح الدين وعصمت الدين خاتون - مسلسل صلاح الدين).

- حب رغم العذاب والإيذاء (الوليد بن يزيد وجاريته وَرْد - مسلسل صقر قريش).

- حب الصعاليك (بدر خادم عبد الرحمن الداخل وزوجته زينب - مسلسل صقر قريش).

- حب الملك لجاريته (عبد الرحمن الداخل و جاريته حَلَل - مسلسل صقر قريش - والحكم المستنصر لجاريته صبح - مسلسل ربيع قرطبة).

- حب من لا يملكون ولا يستطيعون ولا يملون (المنصور بن أبي عامر وصبح - مسلسل ربيع قرطبة).

- حب الزوجة التي تعلم أن قلب زوجها لغيرها فتفضل حبه علىٰ نفسها رغم ألمها (المنصور بن أبي عامر وزوجته عائشة - مسلسل ربيع قرطبة).

- حب النظرة الأولىٰ (المعتمد بن عباد واعتماد الرميكية - مسلسل ملوك الطوائف).

- حب المستبد الطاغية الذي بقوته استطاع أن يتزوج من لا تطيقه (الوزير ابن عمار ولبنىٰ - مسلسل ملوك الطوائف).

- المصالح التي تطرد الحب القديم الملتهب (زيد ولبنىٰ - مسلسل ملوك الطوائف).

- الكره العميق الذي ينقلب حبًّا عميقًا (الوزير ابن عمار وزوجته لبنىٰ - مسلسل ملوك الطوائف).

- الحب الملتهب الذي يذبل وينتهي عند تغير الحال (ابنة المعتمد وزوجها - مسلسل ملوك الطوائف).

وكل هذه المشاهد واقعية جدًّا، ونراها في حياتنا المعاصرة، وإن كنت أكرر أنها كلها ليس مقطوعًا بها علىٰ سبيل اليقين التاريخي -ما عدا حب المعتمد للرميكية وحب الحكم لصبح وحب الداخل لحلل-، وأكثرها مؤلَّف لخدمة الدراما.

وأراني مضطرًّا هنا لذكر انتقادين في هذا الجانب، وما كنت أحب أن انتقد في هذا المقال أبدًا لعلمي أنها اجتهادات سنختلف حولها، وقد أختلف معه في بعض الوقائع والروايات التي يقويها بينما أراها ضعيفة، أو بعض التفسيرات لبعض الأحداث، وكذلك بعض التركيز علىٰ أمور وإغفال أخرىٰ، فكل هذا هو في نطاق الاجتهاد الذي يسع كل الناس الاختلاف فيه دون أن يؤثر هذا علىٰ الإجلال والتقدير لهذا الإبداع الكبير.

لكن جانب الحب هذا لا بد من قول كلمتين فيه:

١- أن كثيرًا من المشاهد بين المحبين، خصوصًا في مسلسل ربيع قرطبة، فيما بين ابن أبي عامر وصبح لا يمكن أن تكون حدثت، فهي غنية بكلام الحب الذي لا يتصور أن يقال بين جارية بل وأم ولد الخليفة وبين عامل لها. وقد كان يمكن أن يستعيض عن هذا الكلام الصريح بكثير من المشاهد الصامتة التي تعبر عن المعنىٰ، والتي ستصاحبها موسيقىٰ تصويرية مناسبة. فإنه لا يمكن أن تكون قد حدثت خلوة بينه وبينها أبدًا، حتىٰ ولو كانت جارية تبرز للناس ولا يحوطها ما يحوط الزوجة الحرة من تقاليد، فهذه ستخدش نطاق الأمانة التاريخية التي عودنا الكاتب علىٰ احترامها.. هذه نقطة ضعف في السيناريو

كنت أتمنىٰ ألا تحدث.

٢- الكارثة العظمىٰ هي التي أحدثها الإخراج، أو ربما المسئول عن الملابس، (لست خبيرًا في فنون الكواليس) فلقد كانت تظهر الجواري عاريات تقريبًا، بل ويمشين عرايا هكذا في طرقات القصر وبين العمال والوزراء، بل سيدات القصر أنفسهن تظهرن عرايا وأمام غير المحارم مثل دور صبح في ربيع قرطبة ودور اعتماد الرميكية في ملوك الطوائف. ولئن كنا لا نقبل أبدًا تلك الملابس التي أُلبست لصبح في ربيع قرطبة وهي جارية، فلا مكان أبدًا لقبول ملابس اعتماد الرميكية في ملوك الطوائف.. ومن كان لديه دليل من التاريخ يقول غير هذا فليخرجه لنا. وإن كان أغلب الظن عندي أنها من صنع المخرج الذي أفسد كثيرًا -بتلك المشاهد- الصورة التاريخية التي يعبر عنها السيناريو أفضل تعبير. وسنتكلم عن هذا بعد قليل بمزيد تفصيل.

المخرج حاتم علي

يُحسب للمخرج حاتم علي أنه يحافظ علىٰ السيناريو ولا يتدخل فيه، هذا ما صرح به الدكتور وليد سيف، وما صرحت به كذلك الدكتورة لميس الحديدي مؤلفة مسلسل (الملك فاروق)، ويشهد من تابع هذه المسلسلات أن نصها قوي ومحبوك من الجانب التأريخي.

وشخصيًّا لا يعجبني إخراج حاتم علي، ولست كذلك ناقدًا فنيًّا، وإنما مجرد متذوق، وكنت أود لو توفر لمسلسلات وليد سيف مخرج مصري متمكن، فكثيرًا كثيرًا من المشاهد المؤثرة لم يستطع الإخراج أن يخدمها كما ينبغي.

لكن هذا يظل في إطار المقبول أو ما يسعنا فيه الخلاف، أما الكارثة

الحقيقية فهي في هذا الكم الهائل من العري والرقص في المسلسلات التاريخية، وهو عري أقطع بأنه لم يكن موجودًا لا علىٰ هذا النحو ولا بهذه الكثرة في تلك الأيام، ولا أعرف تحديدًا مدىٰ موافقة الدكتور وليد سيف علىٰ هذا الإخراج لهذه المشاهد.

مئات المشاهد تحفل بعري لا حاجة له مطلقًا، ولا دخل له في خدمة النص ولا الصورة، إلا أن يكون البعض ما يزال يعتقد أن الجمهور العربي ما زال متشوقًا لرؤية العري حتىٰ في الأعمال الدينية والتاريخية، وهي مشاهد تمثل صدمة بالغة للمشاهد الملتزم، وخصوصًا أنها تعرض في رمضان فيتضاعف الحرج ويكون ترك المسلسل هو الحل الأفضل بالنسبة لشريحة الملتزمين، فما بالك وهذه الشريحة هي التي تهتم بهذه النوعية من الأعمال وتحرص عليها، أي أن هذه الشريحة هي الجمهور الأثير لهذه النوعية من المسلسلات.

وطالب المشاهد العارية لم يعد يجلس أمام التلفاز، وإن جلس فهو لن يذهب إلىٰ مسلسل ناطق باللغة العربية الفصحىٰ انتظارًا لبغيته. فلماذا هذا الإكثار العجيب وغير المبرر من هذا التعري والرقص؟

إن كفاءة النص الذي كتبه وليد سيف، وكذلك كفاءة الإخراج الذي لم يتدخل في النص جعلت الإسلاميين يحرصون علىٰ هذه المسلسلات ونشرها للناس، لكن هذا العري المتناثر كان عقبة شديدة القسوة.

من يصدق أن السلفيين الذي لا يعتبرون أساسًا بجانب الفن كانوا ممن حرص علىٰ نشر هذه المسلسلات، وهذا شيء لم يحدث لعمل فني -علىٰ حد علمي- منذ فيلم عمر المختار، لكنهم -كالعادة- حذفوا كل مشاهد النساء من هذه المسلسلات.

والحق أنه وإن كان يجوز نقدهم في تشويش صور النساء في فيلم عمر المختار، فإنه لا بد من التماس العذر لهم فيما حذفوا من مشاهد من مسلسلات

وليد سيف. برغم أهمية وحيوية هذه المشاهد.

وقد شاهدت نسخًا كثيرة من هذه المسلسلات أول الأمر، فصعقت حين شاهدت النسخ الأصلية؛ لأن المشاهد التي حذفت مهمة في غاية الأهمية في السياق التاريخي، بل فيها أحداث تاريخية أو تفسيرات لا يمكن الاستغناء عنها، ولكن كيف يمكن أن تلومهم؟ لقد أعطاهم المخرج سببًا قويًّا لأن يحذفوا دون أي اعتبار لأهمية المشهد.

بعض النسخ حذفت كل النساء، حتىٰ ما كان من نساء يلبسن الحجاب، وهذا تشدد مرفوض قطعًا، ولكن لا مجال للحوار مع هؤلاء وأنت تعرف أن مشاهد النساء في أغلبها عارية مستفزة.

ومقارنة بين مسلسل (ملوك الطوائف) ومسلسل (المرابطون والأندلس) تكشف بجلاء أن هذا العري غير مبرر أبدًا، فهذان المسلسلان ناقشا نفس الفترة التاريخية (عن غير قصد فلقد أنتجا في عام واحد) فلا تجد مقارنة بين العري هنا وهناك، واعتماد الرميكية التي قامت بدورها سلاف فواخرجي في ملوك الطوائف فَتَعَرَّت بشكل بشع، قامت بدورها مرح جبر في المرابطون والأندلس فلم يؤثر هذا علىٰ الدور ولم يظن أحد من الناس أنها صعلوكة؛ لأنها لا تلبس العاري المكشوف.

قد خسرت هذه المسلسلات جمهور الإسلاميين في جانب الدعاية، وإن كسبتهم في جانب الإعجاب، والإسلاميون كما يعرف الجميع جمهور يتطوع بالدعاية والنشر والدعم لكل ما يحبه وكأنه ينشر عملًا له هو، ويدعمه كأن ربحه عائد عليه هو. وما أخشىٰ من شيء في مسلسل (سقوط غرناطة) إلا أن تزيد فيه هذه الجرعة «الإباحية» (وأسميها الإباحية عامدًا)، خصوصًا وهي تناقش فترة انهيار وضياع الأندلس.

فإني أناشد كل صانعي الأعمال التاريخية أن يحرصوا علىٰ جمهور

سيكون أقوىٰ من شركات الإنتاج قطعًا، جمهور متطوع لا يطلب إلا أن تُرَاعَىٰ أخلاقه، ثم سيكون جنديًّا مخلصًا في نشر هذه الأعمال، وخيرها عائد علىٰ صانعيها في المقام الأول، ولن يطلب جزاء ولا شكورًا.

إن هذه المسلسلات بهذا الشكل لا تجرؤ الفضائيات الإسلامية علىٰ عرضها، وقد اضطرت قناتا اقرأ والرسالة إلىٰ حذف كثير من المشاهد حين عرضت صلاح الدين وصقر قريش، ولم تستطع اقرأ أن تواصل عرضها لصلاح الدين لكثرة ما اضطرت أن تحذف مشاهد مستبدلة إياها بمنظر ساكن.

وهذه قنوات لا تعرض الأعمال الأخرىٰ، أي أنها ساحة خالية من المنافسة لعرض الأعمال التاريخية، بينما القنوات الأخرىٰ ساحات تتصارع علىٰ أوقات البث فيها كلُّ أنواع الأعمال الدرامية، فلماذا يضحي صانعو المسلسل التاريخي بهذه المساحة الخالية وبهذا الجمهور العريض؟! خصوصًا إذا كان لحساب مشاهد تتنافس عليه مسلسلات خليعة أخرىٰ علىٰ باقي القنوات؟

لعلهم يستيقظون.. آمين.

شكر لأبطال العمل

بقي في هذا الموضوع شكر لأبطال العمل من الممثلين..

فتيم حسن موهبة تجلت واضحة من أول أدوراه (العاضد خليفة مصر الفاطمي) في مسلسل صلاح الدين، وهو بهذا الدور أجبر كل متابع علىٰ الإعجاب به، وهو حقًّا موهبة لا محدودة، وإن كان الآن لا يحتاج ثنائي فهو ملء السمع والبصر عن حق وجدارة.

فأدواره في كل مسلسلات وليد سيف تستحق ثناء بلا حد، فهو الخليفة الذكي المغلوب علىٰ أمره في صلاح الدين، وهو الخليفة العابث الماجن

المستهتر في صقر قريش، ثم هو البطل العظيم الملك المنصور ابن أبي عامر في ربيع قرطبة، ثم هو الملك الذي يجمع بين البطولة والخيانة في ملوك الطواف.

ولا أوضح ذكاء وإمتاعًا من جمال سليمان في كل أدواره: صلاح الدين، عبد الرحمن الداخل، الحكم المستنصر، الشاعر ابن زيدون.. ولا أقل منه تألقًا النجم الموهوب الفلتة محمد مفتاح في أسد الدين شيركوه، وبدر خادم الداخل، وإبراهيم عريف الحدادين، والوزير ابن عمار.

ونجم آخر يتألق بشكل فريد، ويظل له طعمه الخاص دائمًا، هو نجاح سفكوني في دور نجم الدين أيوب، وفي دور غالب الناصري، وفي دور باديس ملك غرناطة.. ومثله باسم ياخور الذي لا ينسىٰ دوره في صقر قريش وهو شخصية أبو مسلم الخراساني، فضلًا عن دوره في شخصية نور الدين وجعفر بن حمدون.

ورجل أحب أن أسمع منه اللغة العربية وإن لم يكن من نجوم الصف الأول ذلك هو ناصر ورديانى، فهو عز الدين كمشتكين، وسليمان بن كثير، وأبو يحيىٰ التجيبي، ويحيىٰ بن عمر اللمتوني. ومثله في إجادة العربية عبد الرحمن آل راشي، فهو عماد الدين زنكي في مسلسل صلاح الدين، وهو إسماعيل بن عباد قاضي الجماعة في إشبيلية ومتولي أمرها وقت الفتنة.

وثمة دور تأثرت به بشكل خاص، وبما أنني الذي أكتب فلي حق أن أعبر عن مشاعري الخاصة، ذلك هو دور زينب الذي قامت به أمل عرفة فأبدعت بما لا يوصف في مسلسل صقر قريش، حتىٰ صار أصدقاؤنا الشباب يتمنون زوجة كهذه الزوجة.

لا شك أن الدكتور وليد سيف يمثل نقطة فارقة في الكتابة الدرامية التاريخية، وهو فاصل بين مرحلة قبله ومرحلة بعده. وأعلام أمتنا كثير ولكنهم كالعادة لا يأخذون حقهم، وهم كاللؤلؤة يحبسها قشرة صلدة صدأة غبية فيمنعونها من التوهج، وذلك -دائمًا- حال لآلئ عصور «ملوك الطوائف».

ما زال في الصدر كلام كثير، وهو كلام يثقلني الآن رغم أني أعرف أنه ما كان بالوسع الحديث عن الجمال المكتنز حديثًا مُحيطًا، ثمة مشاهد تستحق وحدها أن توصف لما فيها من علم بالتاريخ وبالأدب وبالشعر، ثم هو منسوج في ثوب من لغة ممتعة ومتمتعًا بتطور درامي مثير، ثم هو مشهد يمثل حلقة وصل محكمة بين المشهد الذي قبله والمشهد الذي بعده.

حقًّا إن المهارة لا توصف، وكما أنك لا تستطيع أن تصف جمال الصورة -ولو كانت مهارة لاعب كرة- فلن تستطيع وصف هذه الأعمال الفنية، وهي كائنات حية.

إنها دعوة للاهتمام بهذا الرجل ولو بسماع مسلسلاته وقراءة مقالاته، فهو أيضًا كاتب في هموم السياسة لا سيما الفلسطينية، وهذا واجب من لا يملك أن يفعل إلا هذا، أما من يملك فوق هذا فليؤد أمانة ما أعطاه الله من قدرة.

كثيرًا ما تخيلت الدكتور وليد سيف وهو يقف وحيدًا في ساحة الدراما، فيقفز إلىٰ الذهن شخص المتنبي وهو يقول:

وعمر مثل ما تهب اللئام ... فؤاد ما تسليه المدام

وإن كانت لهم جثث ضخام ... ودهر ناسه ناس صغار

ولكن معدن الذهب الرغام ... وما أنا منهمو بالعيش فيهم

تجنب عنق صيقله الحسام ... ولو حيز الحفاظ بغير عقلٍ

وأشبهما بدنيانا الطغام ... وشبه الشيء منجذب إليه

تعالى الجيش وانحط القتام ... ولو لم يعلُ إلا ذو محلٍ

لرتبته أسامهم المسام ... ولو لم يرع إلا مستحق

لمثلي عند مثلهم مقام ... ولم أر مثل جيراني ومثلي

محنة قناة السويس

فصل في الاختراق الأجنبي للدولة العثمانية

قبل حوالي مائة وخمسين سنة (١٨ يناير ١٨٦٣م) توفي سعيد باشا حاكم مصر، وهو الثالث من حكام أسرة محمد علي.

مات من القهر والحسرة، بعد أن تدهور جسده وتكاثرت همومه..

كان سعيد باشا هذا هو أول نجاح للاختراق الأجنبي في تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي، فهو أول حاكم يُربَّىٰ في حجر الفرنسيين، وينشأ علىٰ محبتهم، وهو نقطة تحول في التاريخ المصري الحديث، فقد استدرجه الأجانب لنكبتين من أكبر نكبات التاريخ المصري، هما: القروض الأجنبية، وقناة السويس!

لم يستطع أحد قبله أن يقنع حاكما مصريا، مهما كان ظالما أو فاسدا، بضرورة فتح قناة بين البحر الأحمر والبحر المتوسط، وظل هذا الأمر مرفوضا بإصرار طوال التاريخ المصري، حتىٰ جاء ديليسبس وخدع صغيره الذي صار حاكم مصر، فانتزع منه أضخم عملية نصب في التاريخ: امتياز قناة السويس! كما لم يُعرف قبله حاكم مصري مدَّ يده إلىٰ الأجنبي للاقتراض منه بالربا الفاحش.

لكن كيف حدث هذا؟! كيف ربَّىٰ الفرنسيون من صار بعدئذ حاكم مصر؟!

بدأت القصة بذلك الاختراق الخطير المتمثل في شخص محمد علي، وذلك أن الفرنسيين حين هُزِموا واضطروا إلىٰ الرحيل عن مصر بعد الحملة الفرنسية، لجأوا إلىٰ حيلة أخرىٰ ليكون لهم قدم في مصر، فأرسل نابليون إلىٰ

القنصل الفرنسي في مصر الكونت ما تييه دي ليسبس (١٨٠٣م) تعليمات بأن يبحث في قادة القوات العثمانية في مصر عن أفضل من يمكنه إقامة علاقات وثيقة معه، ثم يُخطر باسمه سيبستياني (السفير الفرنسي في القسطنطينية) ليضغط السفير علىٰ السلطان العثماني بتعيينه واليا علىٰ مصر، وبهذا يكون حاكم مصر رجل فرنسا وممثل مصالحها!

وقد قام القنصل بمهمته خير قيام، فاختار بعد الفحص والاختبار ذلك القائد الواعد: محمد علي، «وارتبط معه بعرىٰ صداقة متينة، وأوصىٰ به سيبستياني خيرا»، ثم تدافعت الأحداث المضطربة في مصر -والحافلة باغتيالات وخيانات وصناعة فوضىٰ- حتىٰ صار اسم محمد علي مطلب الجميع في مصر، ورفعه علماء مصر وأعيانها لمنصب الولاية، وأرسلوا بذلك إلىٰ السلطان العثماني، وهناك بدأ دور السفير الفرنسي الذي ضغط بهذا الاتجاه حتىٰ أقرت السلطنة العثمانية ولايته، ولم تكن تدري أن قسمًا عظيمًا من نكبتها سيأتي علىٰ يد هذا الرجل!

وبعيدا عن المسار العام كانت قصة خفية تتكون في أروقة قصر محمد علي والسفارة الفرنسية، فبعد سبع وعشرين سنة من ولاية محمد علي استقبلت مصر فريدناند دي ليسبس، ابن القنصل القديم الذي اختار محمد علي ومهد له في مصر وفي القسطنطينية، والذي جاء إليها كنائب للقنصل الفرنسي بالإسكندرية. فاستقبله محمد علي «بإكرام زائد، وخصَّه بعطف أبوي، وما فتئ يظهر له من ضروب الحنان ما جعله أو كاد يجعله أحد أفراد الأسرة العلوية»، بل وكلفه محمد علي بمهمة تربية ابنه سعيد!

ومن هنا نشأت علاقة خاصة بين سعيد وفريدناند دي ليسبس، «صادقه مصادقة أكيدة، وأَلِفَه أُلْفةً زائدة، كان الباشا العظيم أبوه من أكبر مشجعيه عليهما، ومن أميل الناس إلىٰ توثيق عراهما بينهما»، ويُروىٰ في هذا بعض

الطرائف التي لا تهمنا، لكن الخلاصة أنه من تلك العلاقة وبهذه التربية نشأ أول حاكم لمصر غربي الهوىٰ والمزاج، وكانت لهذا آثار بعيدة علىٰ مصر وعلىٰ الدولة العثمانية.

ومن الطريف أن هذه القصة أخذتها من المؤرخ إلياس الأيوبي، وهو من أشهر مؤرخي حقبة محمد علي، وصاحب أكبر تاريخ عن حقبة الخديوي «تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل»، ويقع في مجلدين كبيرين[1]، وأجدني هنا مدينا باعتذار للشيخ محمد قطب الذي قال قديما «ليس بين يدي الآن ما يقطع بأن فرنسا هي التي تدخلت لدىٰ السلطان لإرساله واليا علىٰ مصر.. وإن كانت الظروف تشير إلىٰ ذلك»، وتمنىٰ الشيخ أن «لو قام أحد الباحثين بتحقيق هذه القضية لخدمة الحقائق التاريخية»[2]، وكنت لما قرأت قوله هذا استبعدته وحسبته ضمن مبالغات الإسلاميين وهوسهم بالمعركة، بينما اتضح أنها بصيرة، وأن الأمر لا يحتاج إلىٰ مجهود بحثي، فذلك ما سجله دي لسبس نفسه في كتابه عن قناة السويس، وعن هذا الكتاب نقله لنا إلياس الأيوبي المحسوب علىٰ أسرة محمد علي.

بهذا السر نستطيع أن نحل حيرة المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي الذي تعجب جدا من سلوك سعيد في إهمال وإغلاق المدارس ومؤسسات التعليم في مصر، في ذات الوقت الذي كان يُنعم فيه بالمنح والأموال الكثيرة علىٰ المدارس الأجنبية والتنصيرية مثل: راهبات البون باستور، راهبات الصدقة بالإسكندرية، البعثة الأمريكية، المدرسة الإيطالية بالإسكندرية[3]، وما كان الرافعي ليحتار لولا أنه غفل عن هذه العلاقة، والحق أن نظرة الرافعي الوطنية

---

(١) إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل، ط. مكتبة مدبولي، القاهرة. ١/ ٣٢٨ وما بعدها.

(٢) محمد قطب: واقعنا المعاصر، ط٤. دار الشروق، القاهرة، ص١٩١.

(٣) عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، ط. دار المعارف، ١/ ٤٩.

القومية للتاريخ أسفرت عن أخطاء فادحة في التحليل والتفسير، لكنه رغم كل شيء لم يستطع ابتلاع النكبتْين الكبيرتين، فقال بجلاء: «لو سلم عهد سعيد من القروض الأجنبية، ولم يمنح امتياز القناة. لكان محتملا أن تتغير المصاير وتتبدل النتائج في تاريخنا القومي»(١).

وهكذا يلد الاختراق الصغير آثارا تاريخية ضخمة علىٰ كافة المستويات، فكم عانت الدولة العثمانية من محمد علي، وكم عانت مصر منه ومن أولاده، بل لقد كانت نكبة قناة السويس هي التي قضت علىٰ سعيد حتىٰ أوردته حتفه، وكان دي ليسبس نموذجا في التوحش الأجنبي الشنيع المدعوم بقوة الدولة وصفحة لا تنسىٰ من تاريخ العلاقات بين المسلمين وفرنسا، كما سيأتي بالتفصيل بعد قليل.

ما لا ينبغي أن يفوتنا في هذا السياق، أن سعيد باشا لم يكن ماكرا ولا خبيثا ولا شريرا، بل كان جاهلا غريرا مخدوعا، يدل علىٰ هذا كثير من سياساته الأخرىٰ التي تثبت رفقه بالناس وسعيه في رفع المظالم عنهم، لكنها سياسة تثبت جهله وقصر نظره أيضًا (مثلًا: لما زار السودان شكا إليه أهلها ما يلقونه من مظالم السلطة المصرية ففكَّر في إخلاء السودان والانسحاب منها وتركها!!!)، ما يدلك علىٰ أن آثار الحاكم العميل لا تقل سوءا عن آثار الحاكم المغفل الجاهل، بل ربما كان الثاني أسوأ وأشد لأن جهله وغفلته يوقعانه فيما لا يُتَصَوَّر وقوعه من عاقل!

وهنا ينبغي أن نتذكر قول آن باتريسون، السفيرة الأمريكية السابقة في باكستان ثم في مصر ومهندسة الانقلاب علىٰ الرئيس محمد مرسي، في جلسة استماع بالكونجرس بتاريخ ١٩/ ٩/ ٢٠١٣م، قالت: «لقد نتجت عواقب استراتيجية كارثية حين أوقفنا الدعم عن الجيش الباكستاني ١٢ عاما؛ إذ يوجد

(١) عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل ١/ ٧١.

الآن جيل من العسكريين لا اتصال لهم بالجيش الأمريكي لأنهم لم يدرسوا هنا ولم يتعرضوا لقِيَمنا، ولهذا فيجب أن نحافظ علىٰ علاقتنا بالجيش المصري».

فانظر وتأمل الكوارث التي تعانيها بلادنا، إذ يربون لنا لا الحكام، بل الحكام وعساكرهم!!

أخطار وأضرار قناة السويس

في ظل الحملة الهائلة لترويج مشروع السيسي بإنشاء قناة سويس جديدة، والتي اتضح أنها تفريعة فقط، ثم اتضح أنها تفريعة قديمة، ولا ندري ماذا ستكشف الأيام من فضائح المشروع(١)!.. نقول: في ظل هذه الحملة الهائلة قررنا أن نكتب هذه السطور التي ستكون صادمة للغالبية العظمىٰ من القراء!

ولا نرجو إلا أن يلتزم المرء الحكمة في القراءة بقدر ما التزمنا من موضوعية في الكتابة الموثقة بالمصادر، ومن شخصيات لا علاقة لها لا بالإخوان ولا بالإسلاميين ولا عاشوا حتىٰ في هذا الزمن!

القناة فكرة مرفوضة طول التاريخ:

لقد ظل مشروع ربط البحرين الأحمر والأبيض المتوسط يراود من حكموا مصر منذ القدم، إلا أنهم جميعا لم يفكروا في ربط البحرين مباشرة، بل كانوا يحفرون قناة توصل من البحر الأحمر إلىٰ النيل الذي يصب في البحر المتوسط.

ويذكر المؤرخون أن أول تنفيذ لهذا المشروع كان في عصر الفراعنة، وأعيد تجديده أكثر من مرة في عصر الفراعنة ثم في عصر البطالمة.

---

(١) كتب هذا المقال بتاريخ ٢٥ يوليو ٢٠١٥م.

وعقب الفتح الإسلامي حفر عمرو بن العاص هذه القناة الواصلة بين البحر الأحمر والنيل وسمَّاها «خليج أمير المؤمنين».

لكن أول تفكير في الوصل المباشر بين البحرين الأحمر والأبيض -فيما نعلم- كان في عصر هارون الرشيد، إلا أن وزيره ومستشاره يحيىٰ بن خالد البرمكي حذَّره من هذه الفكرة لما لها من خطورة عسكرية استراتيجية متمثلة في أن أسطول الروم (البيزنطيين) يستطيع أن يسلك من البحر الأبيض إلىٰ هذه القناة إلىٰ البحر الأحمر فيكون ذلك تهديدا مباشرا للحرمين ولأهل الحجاز، فامتنع الرشيد عن تنفيذ الفكرة[1].

والفارق الأساسي بين ربط البحر الأحمر بالنيل ثم بالبحر المتوسط وبين الربط المباشر بين البحرين تكمن في تلافي هذا الخطر الحربي والاستراتيجي، إذ أن أي هجوم عسكري بحري سيكون مجبرا علىٰ المرور في الدلتا من أحد فروع النيل حيث الكتلة البشرية الضخمة ذات القدرة الكبيرة علىٰ المقاومة، بينما الربط المباشر بين البحرين يمرّ من منطقة صحراوية قليلة السكان مما يكلف الدولة وجود سلاح بحري قوىٰ يتولىٰ حراسة هذا الممر المائي بكل ما يستلزم هذا من تكاليف مالية وبشرية، ثم إن نتائجه لن تكون بحال أفضل من نتائج التصدي الشعبي الواسع في الدلتا الحافلة بالتضاريس والمسالك.

وهنا يجب أن ننتبه إلىٰ أن رفض فكرة الربط المباشر بين البحرين إنما جاءت في وقت تفوق الدولة الإسلامية الكاسح علىٰ الروم البيزنطيين، أي أنه لم يكن متوقعا بحال في تلك الفترة أن تستطيع أساطيل الروم سلوك البحر المتوسط ثم القناة ثم البحر الأحمر دون أن تجد الأساطيل الإسلامية في انتظارها، ولكنه التفكير الاستراتيجي بعيد المدىٰ!

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م. ٢/ ٢٦٤.

وفي زمن أعظم سيطرة إسلامية علىٰ البحر المتوسط، زمن الخلافة العثمانية في عهود: سليم الأول وسليمان القانوني وسليم الثاني، برزت فكرة شق قناة السويس لتسهيل عبور الأسطول العثماني إلىٰ البحر الأحمر للقيام بواجب الجهاد في الخليج العربي وخليج عدن والمحيط الهندي ضد غارات البرتغاليين والإسبان علىٰ تلك الأنحاء، ولدينا وثيقة عثمانية بأمر سليم الثاني يطلب فيها دراسة وافية عن تكاليف المشروع وفوائده، إلا أن الفكرة لم تنفذ(١)، مما يحملنا علىٰ الشكّ بأن السبب هو ذلك التفكير الاستراتيجي لأن البحر المتوسط والبحر الأحمر في تلك الفترة كادا أن يكونان بحيرتان إسلاميتان تمامًا!

الاستعمار حريص على إنشاء القناة:

أما أول تفكير جدي في ربط البحرين مباشرة فكانت فكرة استعمارية أجنبية، أتىٰ بها لأول مرة نابليون بونابرت أثناء الحملة الفرنسية علىٰ مصر، وكان شق القناة يتيح لفرنسا -الأضعف من بريطانيا خصوصًا في السلاح البحري- أن تضايق وتشغب وتنافس بريطانيا من خلال الوصول السريع للأسطول الفرنسي إلىٰ الهند (التي تحتلها بريطانيا)، إلا أن المهندس الذي درس المشروع قدَّر أن البحر الأحمر مرتفع عن البحر المتوسط مما يعني أن شق القناة قد يؤدي لغرق مصر (وفكرة ارتفاع البحر الأحمر عن المتوسط نجدها عند المسعودي قبل نحو تسعمائة عام) فتوقف المشروع.

إلا أن مهندسين فرنسيين آخرين ممن ملأوا مصر في عصر محمد علي أعادوا الدراسة وتوصلوا إلىٰ أن البحرين مستويان وأنه يمكن إنشاء القناة، غير

---

(١) انظر: يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عادل محمود سليمان، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، ١٩٨٨م. ٢/ ٤٤٣، ٤٤٤.
د. عبد القادر أوزجان: النظم العسكرية العثمانية، ضمن «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» بإشراف: أكمل الدين إحسان أوغلو، ترجمة صالح سعداوي، اسطنبول، ١٩٩٩م. ١/ ٤١٧.

أن محمد علي رفض تنفيذ هذه الفكرة، وهو أمر بديهي لمن يحكم مصر خصوصا وقد انقلبت موازين القوىٰ وصارت قوة مصر هي الأضعف وصار الأجانب ملوك البحار، وتعلل في ذلك بالرفض البريطاني القاطع، وذلك أن بريطانيا لا تريد لأحد أن يسيطر علىٰ طريق يسهل له الوصول إلىٰ الهند.

وإن رجلا بعبقرية محمد علي لم يكن ليفوته أضرار قناة السويس علىٰ مصر التي سيزيد لأجلها التنافس بين الدول الأجنبية، وتزيد إغراءهم باحتلال البلد للسيطرة علىٰ هذا الطريق الحيوي، فاعتبر القناة «بسفورا» جديدًا في مصر[1] ستعاني منه كما تعاني الدولة العثمانية من مسألة البسفور وحق الملاحة فيه، وهي المسألة الحاضرة في كل اتفاقية حرب أو سلام!

وبلغ اليأس الفرنسي غايته في عهد الخديوي عباس الأول الذي كان يكره الفرنسيين، ورفض تماما شق قناة السويس، وأنفذ مشروعًا يحقق الصالح الوطني وإن كان يصب في المصلحة البريطانية أيضًا، إذ مهد الطريق بين القاهرة والسويس وبدأ في إنشاء سكة حديد الإسكندرية القاهرة، وكان هذا يخدم البريطانيين من جهة تسهيل نقل البضائع والسياح والبريد من إنجلترا إلىٰ الهند عبر مصر ولا يضيق علىٰ التفوق البحري البريطاني وفي نفس الوقت يحفظ لمصر الاستفادة من الحركة التجارية العابرة فوق أراضيها.

إلا أن عباسا اغتيل ولم يكمل السنوات الثلاث في منصبه، وجاء الخديوي سعيد العاشق لفرنسا والفرنسيين والصديق الشخصي للرجل الخطير المشهور: فريدناد دي ليسبس!

مؤرخ «الوطنية المصرية» ضد القناة:

عبد الرحمن الرافعي هو مؤرخ مصر الحديثة، من الحزب الوطني (الذي

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: «عصر إسماعيل»، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م. ١/ ٥٤.

أسسه مصطفىٰ كامل)، وهو مؤرخ وطني قومي، بل لا نبالغ إن قلنا إنه فيه «عنصرية» مصرية، أو لنقل كما قال أستاذنا جلال كشك «كان الرافعي وطنيا بمفهوم القرن التاسع عشر»[1]، فمثله لا يمكن أن يتهم في وطنيته ولا حبه لمصر، بل هو في الواقع متهم بأن هذه النزعة الوطنية كانت من الشدة والعنف حدَّ أنها شوهت التاريخ، وهو اتهام يوجهه إليه الإسلاميون واليساريون ومؤرخون مستقلون علىٰ السواء!

وإنما ذكرنا هذا لكي نثبت أن الرجل أبعد ما يكون عن غرض تشويه مشروع قناة السويس، وأن هذا المشروع لو كانت فيه ١٠٪ من الفوائد لمصر لكان الرافعي قد جعلها ٧٠٪ علىٰ الأقل واعتبره مشروعا وطنيا عظيما، إلا أنه كان مؤرخا وطنيا حقا فشنّ علىٰ هذا المشروع حملة قاسية.

لقد قرر الرافعي أن «مصر لم تستفد شيئًا من فتح قناة السويس، بل كانت القناة شؤما عليها»، وأنها «أكبر غلطة» في تاريخ الخديوي سعيد، الذي كان قصير النظر وخُدِع بأنه سيدخل التاريخ بهذه الخدمة للإنسانية فيم الحقيقة الواقعة أن الأمم لا تضحي باستقلالها ومصالحها في سبيل «وهم» خدمة الإنسانية، الذي هو علىٰ الحقيقة خدمة للدول الاستعمارية فحسب.

لقد تحملت مصر تكاليف إنشاء القناة، بشريًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا وسياسيًّا:

فأما **بشريًّا** فقد ساهم في حفر القناة مليون مصري سيقوا بالسخرة إلىٰ الحفر في ظروف مأساوية مات منهم مائة وعشرون ألفا.

وأما **اقتصاديًّا** فكما يقول أولج فولكف «كان حفر قناة السويس ضربة قاضية لتجارة الترنزيت في القاهرة. فلم يعد للقاهرة من وظيفتها السابقة كمركز

---

(١) محمد جلال كشك: ثورة يوليو الأمريكية، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م. ص١٨.

للتبادل التجاري وتجارة الترانزيت إلا الشطر الأول»[١]، وذلك -يشرح الرافعي- أن «طريق التجارة بين أوروبا والشرق تحولت من داخل مصر إلىٰ القناة المائية التي أصبحت ملكا لشركة أوروبية. فخسرت مصر الأرباح التي كانت تعود عليها من مرور المتاجر في وسط الدلتا بطريق النيل أو السكك الحديدية المصرية. وانتقلت هذه الأرباح إلىٰ شركة القناة (الأجنبية)». هذا مع العلم بأن مصر قد تكلفت ١٦ مليون جنيه (وهي ثروة ضخمة رهيبة في ذلك الوقت، ولقد كان أجر العامل يوميا حوالي القرش ونصف القرش) في سبيل القناة بخلاف ما أنفق كتعويضات في فصول قصتها المبكرة والمثيرة للمرارة والتي لا يتسع لها هذا المقام[٢]. وأن امتياز القناة قد أعطي أغلبه للشركة الفرنسية**!!**

وأما **عسكريًّا** فمنذ اللحظة الأولىٰ ولتوفير أعداد للحفر قضىٰ الخديوي سعيد علىٰ الجيش المصري فأنقص عدده من ستين ألفا إلىٰ ثمانية أو عشرة آلاف.

وكانت القناة حاضرة في كل كارثة حربية نزلت بمصر كما سنأتي لها بعد قليل.

وأما **سياسيًّا** فمنذ حفرت القناة صار يُنظر إلىٰ المسألة المصرية كأنها «هي مسألة قناة السويس، فكأنها اندمجت فيها، وتبدلت أوضاعها تبعا لهذا الاندماج... ففتح القناة يعادل في تأثيره الاستعماري غزوة نابليون بونابرت».

---

(١) أولج فولكف: القاهرة.. مدينة ألف ليلة وليلة، ترجمة: أحمد صليحة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م. ص١٤٨.

(٢) انظرها عند الرافعي في كتاب «عصر إسماعيل» بجزأيْه، وانظر مختصرا لها عند كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٦٨م. ص٥٧٥ وما بعدها.

ومنذ تلك اللحظة ومصر لم تزل فعليا تحت النفوذ الأجنبي، وهي مكلفة بحماية قناة السويس وضمان حرية الملاحة فيه، ولو كانت السفن العابرة تحمل مواد ملوثة أو مشعة أو سفن حربية تهدد المصالح المصرية أو العربية والإسلامية.. والحديث في هذا يطول وهو مشهور!

بل يقول الرافعي كلمة مريرة (كتبها ١٩٣٢) «لئن عادت القناة يومًا إلىٰ مصر فلا يمكن أن ننسىٰ أن مصر خسرت فيها ثمنا باهظا وتضحيات جسيمة، ويكفي أنها بذلت لها ١٦ مليون جنيه من أموالها، ثم حرمت ما هو أعز من المال، وهو الاستقلال، وعندما تسترد مصر استقلالها تامًا فستكون قد حرمت استقلالها بسبب القناة ردحًا طويلًا من الزمن، وهو حرمان لا يُعوَّض بمال»[1].

القناة.. أداة الاحتلال:

لقد كانت القناة هي العامل الأهم في هزيمة الجيش المصري بقيادة عرابي أمام الإنجليز بعدما خدع ديليسبس عرابي وأفهمه أنه من المستحيل أن تخرق بريطانيا قواعد القانون الدولي وتستعمل القناة في العمليات الحربية لأنها ممر مائي محايد، وبهذا عدل عرابي عن فكرة ردم القناة ليمنع التقاء الجيوش البريطانية القادمة من الهند في البحر الأحمر مع تلك القادمة من البحر المتوسط، ولو أنه فعل لتغير وجه التاريخ.

ثم كانت القناة من أهم العقبات في كل مفاوضات الاستقلال عن الاحتلال الإنجليزي حتىٰ إن الإنجليز في أواخر عهدهم انسحبوا من القاهرة وتمركزوا في منطقة القناة!

ثم كانت القناة سببًا في نكبة ١٩٥٦ حين اتخذ عبد الناصر قراره المجنون (وإن كانت الأحداث جرت بما جعلته مفيدًا نوعًا ما) بتأميم القناة وهو لا يملك

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: «عصر إسماعيل» ١/ ٢٠ وما بعدها، ١/ ٥٣ وما بعدها.

أي أوراق للدفاع عنها، ولولا أنه كان في الحضن الأمريكي آنذاك، وكانت أمريكا عازمة علىٰ إنهاء الوجود البريطاني في الشرق لما استطاع شيئًا.

ثم كانت القناة سببًا في احتلال إسرائيل لسيناء احتلالًا هادئًا ومستقرًا، بل بنت إسرائيل ساترًا ترابيًّا وخطًّا دفاعيًّا حربيًّا علىٰ ضفة القناة الشرقية، وكان كل الإنجاز المصري يتمثل في «عبور» القناة. ولو أنه لم توجد قناة لما خاطرت إسرائيل باحتلال مصر فإما أنها كانت مجبرة علىٰ التوغل واحتلال مصر كلها (وهذا في وقته في حكم المستحيل عليها بشريًّا وماليًّا وعسكريًّا) وإما توقفت قبل الحدود المصرية لئلا تجر مصر إلىٰ الحرب.. لكن القناة وفرت لها مانعًا مائيًّا ممتازًا تتحصن خلفه.

وبعد حرب أكتوبر وتوقيع معاهدة السلام كانت القناة هي المانع المائي الذي جعل سيناء منطقة مغلقة ومنفصلة عمليًّا عن مصر، مما سهَّل كونها منطقة عازلة، وأريد لها أن تبقىٰ منطقة عازلة لتكون حماية طبيعية لإسرائيل، ومن ثَمَّ عانىٰ سكان سيناء من الإقصاء والتهميش والظلم لنحو نصف قرن (منذ ١٩٦٧). ولو لم توجد هذه القناة لما كان ممكنًا بقاء سيناء بهذه العزلة والانفصال عن الجسد المصري، ولما كان ممكنا حرمانها من التعمير والتنمية والانتقال الطبيعي بين سكان سيناء وسكان وادي النيل.

والآن يبقىٰ التخوف قائمًا من مشروعات السيسي التي عنوانها توسيع وتعميق القناة لاستيعاب المزيد من السفن، بينما الواقع أنه مزيد من تعظيم العازل المائي هذا بما يعني أنه مزيد من عزلة سيناء والحفاظ عليها كمنطقة حماية لإسرائيل والسيطرة علىٰ سوق تهريب السلاح إلىٰ غزة عبر سيناء.. وكلها مصالح إسرائيلية!

فصل مرير مع الشرعية الدولية

لا يخفىٰ علىٰ أحد أن من أهم نكبات ثورات الربيع العربي هو تعلقها بالشرعية الدولية والمؤسسات الدولية والقانون الدولي وحسن ظنها في القوىٰ الكبرىٰ. وقد كان القوم في مصر قد خلا ذهنهم تمامًا من إمكانية الانقلاب العسكري، فهو-في تصورهم- أمر قد مضىٰ زمنه ولم يعد مقبولا في زمن الديمقراطية!! حتىٰ فَجَأَهم فجعلهم بين قتيل وجريح وسجين وطريد!

ثم ها نحن نعيش في أجواء الاحتفالات بمشروع التفريعة الجديدة لقناة السويس، وهي الاحتفالات التي تنهمر فيها علىٰ الناس سيول من الأكاذيب والخرافات تريد تزييف وعيهم وإقناعهم بأن ذلك المشروع -الذي كان ولا يزال شرًّا عليهم وعلىٰ بلادهم إلىٰ أمد غير منظور- هو باب الخير والسعادة!

وقد حاولنا بالوسيلة الوحيدة التي بأيدينا إزالة هذا الزيف التاريخي، ولذلك نروي في هذه السطور فصلًا من قصتنا مع الشرعية الدولية في مسألة قناة السويس[1]!

إنشاء دولة داخل الدولة:

كان الخديوي سعيد هو أول حاكم لمصر ذو ثقافة أوروبية، وهو أول من نشأ علىٰ حب قنصل فرنسا في مصر ورعايته، ومن هذه العلاقة نشأت المودة بينه وبين ديليسبس الذي لم يرع أن هذه الأسرة انتشلته من المجهول الذي صار إليه إلىٰ العالمية فغدر بهذه الأسرة وبهذه البلاد، واستغل ثقة سعيد فيه أسوأ استغلال، ولم يمت إلا وقد كان صاحب جريمة من أبشع جرائم التاريخ. وإن كان هذا لا ينقص ولا يعفي سعيدًا شيئًا من مسؤولياته.

---

(١) نشر هذا المقال بتاريخ ٨ أغسطس ٢٠١٥م.

من فرط ثقة سعيد في ديليسبس تركه يكتب عقد امتياز قناة السويس، ثم وقَّع دون أن يراها، فكان عقد الامتياز هذا أعجوبة القرن التاسع عشر، ومما جاء فيه:

١- منح الشركة امتياز حفر قناة السويس، وحفر قناة أخرىٰ للمياه العذبة تصل من النيل إلىٰ القناة، وإنشاء فرعيْن من هذه القناة العذبة يصب أحدهما عند السويس والآخر عند بورسعيد.

٢- تتنازل الحكومة للشركة مجانا عن جميع الأراضي المملوكة لها والمطلوبة لإنشاء قناة السويس والقناة العذبة وتوابعها، وهي مساحات شاسعة علىٰ طول القناة والترع المزمع إنشاؤها بعرض كيلومترين علىٰ الجانبين. تنازلت الحكومة عنها بلا مقابل، مع إعفائها دائما من الضرائب، وتنازلت أيضا عن جميع الأراضي القابلة للزراعة لتزرعها الشركة وترويها، مع إعفاء الأراضي الزراعية من الضرائب لمدة عشر سنوات تبدأ من تاريخ استثمارها.

٣- للشركة حق انتزاع الأراضي المملوكة للأفراد التي ترىٰ أنها تحتاجها في مشروع القناة مع دفع تعويض «عادل» لأصحابها.

٤- أصحاب الأراضي الواقعة علىٰ ضفتي القناة العذبة يدفعون للشركة حق المياه إذا أرادوا ري أراضيهم منها.

٥- للشركة، طوال مدة الامتياز (٩٩ سنة)، حق استخراج كل المواد اللازمة من المناجم والمحاجر الأميرية (الحكومية) لأعمال المباني وصيانتها وملحقات المشروع دون دفع أي رسم أو ضريبة أو تعويض. وتُعفىٰ الشركة من الرسوم الجمركية والعوائد عن جميع الآلات والمواد التي تستوردها من الخارج.

٦- مدة الامتياز (٩٩ عاما) منذ افتتاح القناة للملاحة البحرية، وبعدها تعود القناة إلىٰ الحكومة المصرية، وعندها تُعوِّض الحكومةُ الشركة عن جميع الآلات والمعدات المخصصة للمشروع بقيمة تقدر بالتراضي أو علىٰ تقدير

الخبراء. (وهذا شرط مثير للمشاكل فقد تبالغ الشركة في تقويم قيمة المعدات أو تسرف فيها لتعجيز الحكومة أو ما سوىٰ ذلك من العقبات).

٧- للشركة حق فرض ما تشاء من الرسوم علىٰ السفن التي تمر في القناة البحرية أو الترع والثغور التابعة لها (مع وضع حد أقصىٰ: ١٠ فرانك عن كل طن).

٨- (وفي مقابل كل هذا) تحصل الحكومة المصرية علىٰ حصة قدرها ١٥٪ من صافي الأرباح السنوية.

٩- يكون أربعة أخماس العمال من المصريين، وتتعهد الحكومة بمساعدة الشركة وتكليف موظفيها وعمالها في الدوائر الحكومية لتسهيل أمور الشركة. (وبدلا من أن يكون هذا الشرط فرصة توفير عمل للمصريين بأسعار تنافسية، فسَّرت الشركة هذا النص بأن الحكومة ملزمة بتوفير أربعة أخماس العمال بطريق السُّخرة ووضعهم تحت تصرف الشركة قهرا.. واضطر سعيد فوق تسخير الفلاحين إلىٰ إنقاص الجيش المصري من ستين ألفًا إلىٰ ثمانية أو عشرة آلاف مقاتل).

١٠- وأغفل العقد بندا يتحدث عن حق الحكومة في إنشاء تحصينات عند قناة السويس، ثم فُسِّر هذا الإغفال بأنه لا حق لمصر في إنشاء حصون عند القناة.

باختصار: كان هذا عقد إنشاء دولة داخل الدولة بتسهيلات غير مسبوقة**!**

ومع هذا فشل ديليسبس في جمع أصحاب الأسهم بعد المجهود المضني الذي بذله في أوروبا، والذي تنادت إليه بيوت المال في أوروبا، فأشفق عليه سعيد، فاشترىٰ ما لم يستطع ديلسبس جمعه من الأسهم، وهو حوالي ٤٤٪ منها، أي نحو نصف الأموال المطلوبة لأسهم الشركة**!!**

وقد عارضت انجلترا هذا المشروع، ذلك أنه يجعل خصومها أقرب منها

إلىٰ الهند، فبدلا من طريق رأس الرجاء الصالح الذي يجعل انجلترا الأقدر علىٰ الوصول البحري إلىٰ الهند، فإن مشروع القناة يجعل كل بلاد أوروبا واسطنبول بل وروسيا أقرب منها إلىٰ الهند، فما هو إلا أن تسلك سفنهم من البحر المتوسط إلىٰ الأحمر فتكون في المحيط الهندي.

وقد حاول سعيد استرضاء الإنجليز لتمرير المشروع فمنحهم امتيازا لإنشاء خط سكة حديد بين الإسكندرية والقاهرة، وهو ما كان يمانع فيه أبوه (محمد علي) ووافق علىٰ إنشاء البنك الأهلي (١٨٥٦م) وأعطاهم حق مرور جنود الجيش الإنجليزي في قلب مصر (من الإسكندرية إلىٰ القاهرة إلىٰ السويس) إذا احتاجوا لمحاربة أية ثورة إسلامية ضدهم في الهند. فانظر إلىٰ التفريط في أمن البلد بمرور الجيوش فيها ثم إلىٰ خيانة الدين بدعم الإنجليز علىٰ الهنود المسلمين.

ولم يشفع كل هذا للإنجليز، وإنما اضطروا للسكوت مؤقتا لأن فرنسا انضمت إليهم في حرب روسيا لمنعها من الهيمنة علىٰ الآستانة (حرب القرم)، ثم عادوا إلىٰ السعي ضد مشروع القناة وضد سعيد الذي أصابه الهمَّ والكآبة والمرض من سعي الإنجليز في عزله، فظل ينحل وينحف ويزداد ذبولا حتىٰ مات (١٨٦٣م) ولم ير مشروعه النور بعد!!

نزاع بين مصر وشركة القناة!!

ولما جاء بعده الخديوي إسماعيل، وهو صاحب ثقافة أوروبية أيضًا، لم يُفكر في إغضاب الأوروبيين وإنهاء المشروع، بل تعهد منذ البداية بإكماله، غير أنه سعىٰ في تحسين شروط ذلك العقد العجيب الغريب الذي وقعه سعيد مع ديليسبس، وهنا انتفض ديليسبس الذي كاد حلمه أن يزول بالكلية رافضا أي انتقاص أو تغيير في العقد. وشُنَّت حملة صحفية في أوروبا ضد إسماعيل ونصرة

للشركة ثم استقر الأمر بينهما علىٰ تحكيم الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث في هذا النزاع.

فماذا فعل بنا نابليون الثالث ممثل فرنسا الثورية التنويرية المتحررة؟!! وممثل الشرعية الدولية في هذا النزاع؟!!

قبل أن نرىٰ ماذا فعل نابليون دعنا نلقي نظرة علىٰ مطالب إسماعيل:

لقد طالب إسماعيل بخمسة أمور:

١- إبطال تعهد الحكومة بتقديم الفلاحين بالسخرة إلىٰ الشركة، خصوصًا وأن هذا الإلزام هو تفسير الشركة للبند الذي يقضي بأن يكون أربعة أخماس العمال مصريين بمعنىٰ أن الشركة تطلب العمال برواتب تنافسية حتىٰ تستوفي أربعة أخماس العمال من المصريين، فيما فسرته الشركة بعكس مقصوده وهو أن الحكومة ملزمة بتسخير العمال لمصلحتها. وقد قال إسماعيل بأن السخرة عمل لا يتفق مع مبادئ الإنسانية. وأن توفير الحكومة لهذا العدد الهائل (٢٠ ألفا علىٰ الدوام) يضر بالبلاد وزراعتها، واستعد أن يوفر منهم ستة آلاف علىٰ الدوام.

٢- إبطال ملكية الشركة للقناة العذبة (التي لم تكن قد حفرت منها سوىٰ جزء صغير) واستغلال وري الأراضي التي حولها (ولم يكن قد حدث من هذا شيء لأن القناة لم يكتمل حفرها بعد). مع تعويض الشركة عن أموالها في الجزء الذي حفرته. وتعهد الحكومة المصرية بإتمام القناة العذبة علىٰ نفقتها.

٣- إبطال ملكية الشركة لجميع الأراضي التي تحتاجها للمشروع والتي تستصلحها وإعفاؤها من الضرائب بل وإعفاؤها إذا استصلحتها زراعيا من الضرائب لعشر سنوات.

٤- إبطال حق الشركة في انتزاع الأراضي المملوكة للأفراد والتي ترىٰ أنها في حاجة إليها لإتمام المشروع.

٥- زيادة أجر العامل إلىٰ فرنكين في اليوم تعويضًا له عما يخسره من فلاحته وزراعته ومهنته.

ولمزيد من المرارة ينبغي أن يعلم القارئ أن نابليون الثالث هذا قد جاملته الحكومة المصرية في أكثر من موطن، أشهرها حرب المكسيك التي حاول فيها نابليون الثالث فرض سيطرته علىٰ الثورة الشعبية هناك فأرسل جيشه وأرسل إلىٰ «صديقه» الخديوي سعيد بطلب المساعدة فأمده «صديقه» بجيش مصري من ١٢٠٠ جندي ظل يحارب هناك أربع سنوات وقُتِل منهم ثلاثة أرباعهم بينهم قائدهم، ثم فشلت الحملة وقُتِل عميل الفرنسيين في المكسيك رميا بالرصاص، وعاد الجيش الفرنسي مهزوما ومعه الربع الباقي من المصريين والسوادنيين المساكين!

بهذا قضى نابليون:

وبعد كل هذا.. بماذا حكم نابليون الثالث؟

حكم بالآتي:

١- تدفع مصر للشركة تعويضًا عن العمال الذين لن توردهم للشركة (٣٨ مليون فرنك).

٢- تدفع مصر للشركة تعويضًا عن قناة المياه العذبة (١٦ مليون فرنك).

٣- تقدير الأراضي اللازمة للمشروع والتي هي من حق الشركة بـ ٢٣ ألف هكتار (الهكتار: ١٠ آلاف متر).

٤- تدفع مصر للشركة تعويضًا عن الأراضي التي اتضح أنها غير لازمة للمشروع (!!!!) ومساحتها ٦٠ ألف هكتار (٣٠ مليون فرنك).

وهكذا كان مجموع التعويضات المطلوب دفعها للشركة ٨٤ مليون فرنك (تساوي: ٣.٣٦ مليون جنيه)، وهذه التعويضات تساوي تقريبًا نصف رأس مال الشركة!

علىٰ أن هذه المأساة هي نصف الصورة فقط، فما زال ثمة تفاصيل أشد مرارة..

ففي ذلك الوقت الذي أصدر فيه نابليون حكمه لم تكن الشركة قد صارت بحاجة إلىٰ العمال، لقد جرت عمليات مناورة ومماطلة سياسية قذرة حتىٰ انتهىٰ دور العمال ولم يعد يمكن إلا استعمال الآلات في الجزء الباقي من العمل، ورغم هذا ستدفع مصر (١٦ مليون فرنك) تعويضًا عن عمال لم تعد الشركة بحاجة إليهم.

وتلك القناة العذبة -التي هي منحة من مصر أصلا- لم تدفع مصر تعويضا للشركة مقابل الجزء البسيط الذي حفرته، بل كان هذا التعويض مقابل ما قدرت الشركة أنها ستخسره من القناة، من أراضي زراعية وسفن تجارية ستعبر بها بل ومقابل حركة الصيد في هذه الترعة العذبة.. لقد قدرت الشركة حجم الأسماك التي ستصاد من القناة العذبة حين تُنشأ وحجم الضرائب التي ستأخذها من الصيادين وحجم السفن التي ستعبر بها، وجعلت كل هذا بأعلىٰ الأسعار، ثم أخذته من الحكومة المصرية!!

ثم أخذت كذلك تعويضات عن أراضٍ (هي بالأصل ممنوحة) اتضح أنها لا تحتاجها في هذا المشروع.

هكذا قضىٰ نابليون الثالث، وهكذا حكمت فينا الشرعية الدولية، وهكذا دفعت مصر ثمن القناة أرضا وأموالا وأرواحا وأمنا واستقلالا وكرامة أكثر من مرة.. وما زالت تدفع، وستظل كذلك إلىٰ سقوط الدولة العلمانية في مصر!

وتلك هي قصة فصل واحد من فصول القناة من الشرعية الدولية، سطرتها بأوجز عبارة ممكنة، وفي التفاصيل مرار كثير كثير، ومآس ونكبات، خشيت إن سردتها أن يطول المقال فينصرف عنه القارئ المتعجل[١].

---

(١) أما القارئ الصبور، فليطالع المزيد في هذه المصادر: =

المؤرخون الأجانب وقناة السويس

يصنع العسكر في مصر شعبًا من العبيد، لا يرون إلا ما يرىٰ الفرعون ولا يسمعون إلا ما يسمع، والبشر -إلا القليل منهم- أتباع من غلب[1]، ومن غرائب النفس البشرية أنها تُلبس قول القوي لباسًا من قوته وسطوته، فتصدق ما يقول مهما كان غريبًا، وقديمًا رُويت لنا قصة الملك الذي خدعه بعض حاشيته فأوهموه بقدرتهم علىٰ صناعة ثوب له من شعاع الشمس وضوء القمر، فانخدع واقتنع وخرج بين الناس عاريًا وقد تملكه الوهم بأنه يرتدي هذا الثوب المبهر، وسار بين الناس فلم يملك أحد أن يقول شيئًا حتىٰ صاح صبي برئ لم يفهم سطوة القوة بعد: انظروا إني أرىٰ الملك عاريًا! فسقط الوهم وانكشف كل شيء.

ذلك الوهم نفسه يسوقه السيسي وفئة العسكر بمشروع تفريعة قناة السويس الذي لا تبدو له بعد التدقيق أية فوائد إلا مزيد حماية لإسرائيل، بتوسيع القناة التي هي العازل المائي المشؤوم الذي فصل أرض مصر وعزل سيناء عن الوادي ومثَّل خطًا حربيًّا دفاعيًّا متقدمًا لإسرائيل، هذه القناة التي منذ

= ألبرت فارمان: مصر وكيف غُدر بها ص٢١٧ وما بعدها. (ط الزهراء للإعلام العربي).

عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل ١/ ٦٣ وما بعدها، ٩٣ وما بعدها (ط دار المعارف).

إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل ١/ ٣٤١ وما بعدها. (ط مدبولي).

جورج يانج: تاريخ مصر منذ نهاية عهد المماليك إلىٰ عهد إسماعيل ص١٩٦ وما بعدها. (ط مدبولي).

كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٥٧٥ وما بعدها. (ط دار العلم للملايين).

ريمون فلاور: مصر من قدوم نابليون إلىٰ رحيل عبد الناصر ص١٣٧ وما بعدها. (ط المركز القومي للترجمة).

(١) نشر هذا المقال بتاريخ ٦ أغسطس ٢٠١٥م.

نشأت تمثل واحدة من أبشع جرائم التاريخ الإنساني في حق الشعوب، وقد دفع الشعب المصري فيها ما لا يقدر بثمن: من دمائه وأمواله وحريته واستقلاله وكرامته وأمنه.. وما يزال يدفع، وسيظل كذلك!

سيظل كذلك حتىٰ تسقط الدولة العلمانية التي نشأت في مصر منذ مائتي سنة، وساعتها سيُسمح للصبي أن يصيح بما أراد ليكتشف ذلك الجيل كم كانت جريمة قناة السويس بشعة، وهو الجيل الذي لن يهدأ حتىٰ يسترد الثمن المناسب من دول الاستعمار البغيض!

لما كتبت مقالَيْن في موضوع قناة السويس وصلني سيل من الشتائم ولم يصلني رد علمي واحد، طبيعي أن عبيد الطغاة والعسكر لا يحبون التفكير ويكرهون من ينغص عليهم عبوديتهم، فأحببت أن أزيدهم رهقا بهذا المقال الثالث الذي يستعرض أقوال المؤرخين الأجانب عن هذه القناة وضررها علىٰ مصر، فتكون الحجة أبلغ، إذ ليس من بين هؤلاء إخواني أو حتىٰ مسلم!

ريمون فلاور:

ونبدأ بالبريطانيين الذين كانوا أكبر المستفيدين قاطبة من قناة السويس، فبرغم هذا لم يستطع أحد تحدث عن قصة القناة -فيما أعلم- من زاوية المصلحة المصرية إلا واعترف بأنها كانت ضررا علىٰ مصر.

فهذا ريمون فلاور، في كتابه «مصر من قدوم نابليون حتىٰ رحيل عبد الناصر» يعتبر أن هذه القناة هي «أكبر عملية نهب فاقت كل شيء»[1]، ويصف صاحب فكرتها ومنفذها فريدناند ديليسبس بقوله: «بكل تأكيد كان واحدا من أعظم مقاولي عصره، إذ أن حجم ما أنجزه كان خرافيا... إنه والد كافة المحتالين الذين يسلبون الناس أموالهم بعد كسب ثقتهم. فالشيء المؤكد أنه

---

(١) ريمون فلاور: مصر من قدوم نابليون حتىٰ رحيل عبد الناصر ص١٣٦.

منذ اللحظة التي خطط فيها لرحلته إلىٰ مصر، لم يكن في ذهنه سوىٰ هدف واحد هو أن ينتزع من صديقه الذي لا يشك فيه (الخديوي سعيد) امتيازا لاقىٰ كل من تقدم به الرفض»[١].

جورج يانج:

وهذا جورج يانج، في كتابه الذي ترجم جزء منه إلىٰ العربية وطبع بعنوان «مصر من نهاية عهد المماليك إلىٰ نهاية عهد إسماعيل» يروي قصة القناة الاقتصادية باختصار شديد فيصل إلىٰ نتيجة عجيبة مفادها أن الخديوي سعيد لو أنفق كل هذه الأموال علىٰ ملذاته وزخرفة قصره لكان خيرا للبلاد من إنفاقها علىٰ قناة السويس، يقول:

«وليس يخفىٰ أن تورطه (الخديوي سعيد) في مشروع قناة السويس هو الذي دفع مصر إلىٰ عقد أول قرض عام من بيت فريهلنج وجوشن (المالي) في لندن (١٨٦٢م) وكانت شروط القرض تنذر بالشر وقد بلغ مقداره ٣.٣ مليون جنيه (استرليني) وفائدته ٧٪ وثمن السهم فيه ٧٥٪ ولما أدركت سعيدا الوفاة (١٨٦٣م) بلغ مجموع ما علىٰ مصر من الديون الخارجية التي عقدت بشروط كهذه ١٠ ملايين جنيه، ولكن بعض الكتَّاب الإنجليز وبينهم لورد كرومر يقدرونها بثلاثة ملايين جنيه فقط ولكنهم يتناسون -علىٰ ما يظهر- مقدار الدين السائر.

ولما كان معظم هذه الديون إنما عُقِد للإنفاق علىٰ القناة لم يكن في فداحة هذه المبالغ الطائلة ما يمكن وقتئذ أن يُخشىٰ منه علىٰ مستقبل الأمة المصرية من الوجهة المالية. أما من الوجهة السياسية فربما كان يكون خيرا لمصر لو أن سعيدا أنفق تلك الأموال كلها في زخرفة حجرة الاستقبال. لأن امتياز قناة

---

(١) ريمون فلاور: مصر من قدوم نابليون حتىٰ رحيل عبد الناصر ص١٤٢.

السويس قد ترتب عليه أن مصالح بريطانيا في مصر بعد أن كانت مجرد إحساس معنوي غامض بما يُحتمل أن يكون لمصر من الأهمية في نظر سياسة الإمبراطورية البريطانية، قد تحولت إلىٰ اعتبارات مادية جدا لها ارتباط بالمسائل العسكرية والتجارية مما يؤثر أكبر تأثير في قوة بريطانيا البحرية وسيادة إنجلترا في الهند. ثم إن بريطانيا كانت إلىٰ هذه اللحظة قانعة بمنع الفرنسيين من أن تكون لهم السيطرة علىٰ القاهرة كما منعت من قبل سيطرة الروس علىٰ الآستانة. ولكن مصلحتها الحيوية صارت من الآن فصاعدا تتطلب انفرادها بالسيطرة علىٰ القاهرة دون سائر الدول الأخرىٰ»[١].

ويرىٰ جورج يانج أن الوقت الذي توفرت فيه عوامل نجاح المشروع كان أنحس وقت علىٰ مصر، يقول: «غرور الأسرة الحاكمة (أسرة محمد علي) وما تكدس تحت أيديها من موارد أنتجتها أعمال السخرة في مصر في خلال السنوات الأخيرة وما رأته من السهولة في عقد القروض الأجنبية إبان الأعوام الماضية كل ذلك ساعد علىٰ إنجاز المشروع في أنحس وقت بالنسبة لمصلحة الأجيال المصرية المقبلة»[٢].

ويعترف الرجل بأن القناة أهم أسباب بقاء الاحتلال الإنجليزي في مصر ولكنه يدافع عن موقف قومه ويحمل المسؤولية للفرنسيين أصحاب فكرة القناة فيقول: «وغير خافٍ أن ما للقناة من الأهمية العظمىٰ في سير العلاقات الدولية كان ولا يزال يعتبر إحدىٰ الصعوبتين الرئيسيتين اللتين تحولان دون حصول مصر علىٰ سيادتها التامة. أما الصعوبة الثانية فهي طبعا ما للمصريين من مصالح إمبراطورية في السودان. فالقناة إذن أهم عامل في سبيل وضع مصر تحت الإدارة البريطانية مدة ربع قرن كامل. لذلك نرىٰ من حق الإنجليز أن يعلنوا علىٰ

(١) جورج يانج: مصر من نهاية عهد المماليك إلىٰ عهد إسماعيل ص١٩٦ وما بعدها.
(٢) جورج يانج: مصر من نهاية عهد المماليك إلىٰ عهد إسماعيل ص٢٠٩.

رؤوس الأشهاد أنهم لم يلزموا مصر بحفرها»[١].

جالينا نيكيتينا:

وتنقل الكاتبة الروسية جالينا نيكيتينا في كتابها الذي ترجم بعنوان «قناة السويس ملكية وطنية للشعب المصري» -وهو كتاب تُرجم إلىٰ العربية وصدر في القاهرة ضمن حملة إثبات حق مصر في القناة- قول المؤرخ والناشر الإنجليزي المعروف إدوارد ديزي: «لم يحدث أبدا أن مُنِح امتياز يكفل مثل تلك المزايا للحاصل عليه، ويلقي مثل تلك الأعباء والتكاليف علىٰ عاتق من أصدره، مثل الامتياز الذي منحه سعيد باشا لشركة السويس»[٢].

ألبرت فارمان:

ونذهب إلىٰ رواية القنصل الأمريكي في مصر حينذاك، ألبرت فارمان، وقد وضع مذكراته في كتاب ترجم إلىٰ العربية ونشر بعنوان «مصر..وكيف غُدر بها»، خصص منه فصلا لمأساة قناة السويس، وبعد أن ذكر القصة المريرة في جانب الأموال وحدها قال في الختام:

«بالرغم من كل هذه التضحيات وبذل المال لم تحصل مصر علىٰ أية منفعة، فقد كلفت القناة مصر خسائر جسيمة أثَّرت علىٰ تجارتها، إذ كانت لها تجارة برية واسعة فقدتها كلية، وتمر السفن محملة ببضائع وفيرة خلال القناة التي تشق الصحراء شرق أراضيها الزراعية، ولكنها لا تعود علىٰ مصر بالفائدة كما كانت تمر خلال البحر الأبيض المتوسط»[٣].

واتخذ فارمان قصة قناة السويس المأساوية ليجمل بها وجه بلاده (أمريكا)

---

(١) جورج يانج: مصر من نهاية عهد المماليك إلىٰ عهد إسماعيل ص٢١٠ وما بعدها.
(٢) جالينا نيكيتينا: قناة السويس ملكية وطنية للشعب المصري ص١٨.
(٣) ألبرت فارمان: مصر وكيف غُدِر بها ص٢٣٦.

إذ هي صاحبة مأساة أخرىٰ في قصة أخرىٰ لقناة أخرىٰ هي «قناة بنما»، فيجعل بلاده خيرا للبنميين من فرنسا وإنجلترا للمصريين.

أولج فولكف:

ويقول أولج فولكف في كتابه «القاهرة.. مدينة ألف ليلة وليلة» عن ضرر القناة الاقتصادي: «كان حفر قناة السويس ضربة قاضية لتجارة الترنزيت في القاهرة. فلم يعد للقاهرة من وظيفتها السابقة كمركز للتبادل التجاري وتجازة الترانزيت إلا الشطر الأول»(١).

هذه خمسة أقوال جمعناها بغير مجهود كبير، من كتب في متناول اليد (جميع مصادر المقال متوفرة علىٰ الانترنت مجانا للتحميل)، ومن بحث عن المزيد جاءه المزيد المرير.. ولكن أكثر الناس لا يفعلون!

هل تضحي مصر بنفسها لمصلحة الأجانب

لم يكن غريبًا ما أثاره حديثي عن قناة السويس من هجوم كبير، لقد سارت سنة الناس أن يندفعوا لمهاجمة ما يثير استغرابهم، وفي مصر -ومنذ نحو قرن ونصف القرن- لم تسمح السياسة بمناقشة حقيقية لفوائد وأضرار قناة السويس، بل علىٰ العكس: صارت القناة منذ أنشئت واحدة من «المقدسات الوطنية» التي لا ينبغي الحديث عنها إلا بالإعجاب والتقدير. وينسىٰ الجميع أننا منذ حُفِرت القناة ونحن تحت الهيمنة الأجنبية المباشرة (كما في عصر الاحتلال الإنجليزي) أو غير المباشرة (كما في عصر الأسرة العلوية ثم عصر العسكر)، وأن كل الحكومات الوطنية التي حكمت مصر منذ عهد الفراعنة وحتىٰ عصر الخديوي عباس رفضوا تمامًا فكرة إنشاء قناة تربط البحرين الأبيض والمتوسط

(١) أولج فولكف: القاهرة ص١٤٨.

لما لها من أضرار بالغة علىٰ مصر وأهلها.

وفي جلسة مع بعض الأصدقاء الذين لم يُخفوا مفاجأتهم مما حكيتُ عن تاريخ القناة، كان السؤال الأبرز: فما العمل الآن؟ يستحيل طبعًا أن نفكر في ردم القناة، فكيف يكون الحل؟

وقبل أن أجيب علىٰ هذا السؤال سأروي قصة الجنرال عمر توريخوس رئيس بنما[(١)]!

قصة عمر توريخوس:

أصل القصة أن دولة بنما -في أمريكا اللاتينية، وهي الشريط البري الواصل بين الأمريكتين- أخرجت الرئيس الوطني عمر توريخوس، كان عسكريا وقاد انقلابا عسكريا وصل به إلىٰ زعامة البلاد، ولكنه لم يكن من تلك الانقلابات التي دبرتها المخابرات الأمريكية، كان وسطا بين الإصلاحية والثورية، لم يحاول أن يلبس ثياب جيفارا أو كاسترو أو يجهر بمعاداة أمريكا واستضاف شاه إيران عندما كان وجوده في أمريكا يثير المتاعب مع ثورة الخميني. ولكنه في ذات الوقت لم يَرْضَ أن يكون تابعا لها ولا رجلها في بنما، وكان يقظا لمحاولات سيطرة الشركات العالمية علىٰ موارد بلاده فلم يسمح باتفاقيات مجحفة بالفقراء وإن سمح بنوع اتفاقيات أفضل كثيرًا (كما روىٰ ذلك جون بركنز، رجل الاقتصاد الذي أعجب به ونفذ معه عددا من الاتفاقيات ممثلًا لشركة MAIN العملاقة، في كتابه: الاغتيال الاقتصادي للأمم).

إلا أن أهم إنجازات عمر توريخوس هو إصراره علىٰ استعادة بلاده للسيطرة علىٰ قناة بنما، التي تمر في أراضيها ولكنها تحت السيادة الأمريكية، وإغلاق المدرسة الحربية الأمريكية التي تقع علىٰ ضفاف هذه القناة ويجري

---

(١) نشر هذا المقال بتاريخ ١ أغسطس ٢٠١٥م.

فيها تدريب العسكريين الذين يُصَنَّعون فيها كعملاء لأمريكا ليكونوا فيما بعد حُكَّاما مستبدين لبلادهم وفيها تتدرب فرق الموت للقيام بالعمليات القذرة ضد المعادين لسياسة أمريكا، والقاعدة العسكرية الأمريكية «قاعدة الكوماندوز الجنوبية في المركز الحربي الاستوائي».

وقد خاض عمر توريخوس معارك سياسة مع أمريكا -مع الفارق الضخم في القوة- واستطاع أن يتوصل إلىٰ اتفاق مع كارتر لإعادة القناة وإغلاق المدرسة العسكرية الأمريكية بعد أن هدد أنه ربما يضطر إلىٰ تفجير سد جاتون علىٰ قناة بنما لتتوقف الملاحة في القناة، وعمل علىٰ حفر قناة جديدة بالتعاون مع اليابانيين. إلا أن ريجان -الذي خلف كارتر- لم يَرُقْ له ما قد كان، فأَصَرَّ علىٰ عودة الأمور كما كانت، وبالطبع كان هذا مستحيلا لدىٰ توريخوس، فكانت نهايته بالاغتيال في تفجير طائرته بتاريخ (٣١/ ٧/ ١٩٨١م). وتنصيب عميلهم «نورويجا» الذي لم يستطع هو الآخر تحقيق كل مطالب الأمريكان ولا النزول الكامل من السقف الذي وصل إليه توريخوس، فلم يتردد ريجان عن قصف بنما بالطائرات واختطاف نورويجا ومحاكمته في أمريكا في مشهد يكون به عبرة لكل من يفكر في الوقوف أمام الغول الأمريكي.

ما الحل؟ وما العمل؟

نعود إلىٰ سؤال: ما الحل؟ وما العمل؟

لقد رأينا كيف هدَّد عمر توريخوس بتفجير سد جاتون علىٰ قناة بنما ووقف الملاحة فيها إن لم تعد لسيادة بنما، ولم يجادل أحد في أن هذا عمل ثوري ووطني! فما من بلد وما من حركة جهاد وتحرر إلا وهي تنظر لمواردها في ضوء انتفاعها بها، فإن لم يكن نفعها لعدوها لم تبال بتدمير هذه الموارد، وهذه سنة مضطردة لا تتخلف. وقد سخر عبد الرحمن الرافعي -مؤرخ مصر الحديثة- سخرية مريرة من خدعة أن قناة السويس «خدمة للإنسانية»، وقال بأنه

لا توجد أمة تفرط في استقلالها وكرامتها خدمة للإنسانية!! فكيف وحقيقة الأمر أنها خدمة للأجانب الأعداء وليس للإنسانية؟!!

وتلزمنا أمانة البحث العلمي أن نقول ما نراه وافيا في موضوع الحل وإن كان بعضه يبدو بعيد المدىٰ.

وأول مراحل حل هذه المعضلة هو التوعية :

إذ يجب أن يزال هذا التراكم التاريخي الزائف حول منافع قناة السويس لمصر، وإبراز الحقيقة التاريخية الأصيلة التي نطق بها مؤرخون لا شك في وطنيتهم بل ومؤرخون أجانب لا مصلحة لهم من أن قناة السويس عمل يضر بمصر ضررًا بالغًا:

- إن علىٰ المستوىٰ الاقتصادي بحرمانها من أن تكون مقرا للتبادل التجاري وجعلها مجرد ممر بدلا من ذلك

- وإن علىٰ المستوىٰ العسكري بإيجاد مانع مائي يفصل بين أراضيها ويعزل أرض سيناء عن أرض الوادي وهو الضرر العسكري الذي عانت منه مصر واقعيا في ثلاثة حروب علىٰ الأقل (١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣) حتىٰ صار الإنجاز العسكري المصري الوحيد في تاريخ جيشها هو النجاح في «عبور القناة»، ويزيد هذا الخطر العسكري في ظل وجود إسرائيل واحتياجها لمنطقة عازلة (علىٰ نحو ما فصَّلناه في المقال الماضي)

- وإن علىٰ المستوىٰ السياسي الذي جعل مصر مركزا للتنافس الاستعماري منذ نشأتها، وجعل كل مفاوضات الاستقلال ثم كل اتفاقيات ما بعد الاستقلال ثم معاهدات الحروب تتوقف أو تتعثر أو نتنازل فيها عن صميم حقوقنا من أجل القناة وضمان أمان الملاحة فيها وإتاحتها لكل أنواع السفن مهما كانت تابعة لدولة معادية أو تهدد المصالح المصرية أو العربية والإسلامية أو تحمل مواد ضارة بالبيئة أو بالثروة المصرية.

لا يليق بحال أن تشرب الصفوة المصرية خدعة فائدة القناة وأن تتمسك بها باعتبارها مقدسا وطنيا، بل يجب أن يكون الشعب وقادته علىٰ وعي بخطورة هذه القناة وأضرارها وإن عجزوا عن الحل الشافي أو النهائي لمشكلة القناة. وأن ينتشر الوعي بوضع القناة وتاريخها وتأثيرها علىٰ البلاد بين الناس وفي المقام الأول بين ممثلي الشعب ونخبته وقادته.

وثاني مراحل الحل هو: التنمية:

وذلك ما سعىٰ إليه الدكتور محمد مرسي أثناء فترة ولايته، فلئن كان العجز قائما في تلك اللحظة عن إزالة القناة فلا بد من تعظيم وتكثيف الوجود البشري والعمراني والاقتصادي حولها، فهذا التعمير للقناة هو الذي يقلل أضرار وجودها ويعيد الاتصال بين سيناء والوادي، ولهذا السبب تحديدا يقف في وجه مشروع القناة كل كاره لمصر ومصالحها، بدءا بإسرائيل التي تلزمها قواعد الأمن أن تحافظ علىٰ سيناء جرداء خالية وصحراء معزولة، وقد حدثني أحد أعضاء لجنة الأمن القومي بالبرلمان المنتخب أن العسكريين المصريين كانوا يرفضون صراحة أي تنمية لمحور قناة السويس وأي زيادة في الوجود العمراني والبشري في سيناء بزعم أن هذا يعيق حركتهم العسكرية إن كان ثمة احتلال إسرائيلي لسيناء، وهذا كذب فج أبله، فإن أول ما يعيق الاحتلال هو الكثافة البشرية، خصوصا إذا كان الجيش معروفا ومشهورا بالهزائم والانسحابات بدون قتال حتىٰ إن مساحة سيناء العظيمة يبتلعها الإسرائيليون في ساعات!!

ولهذا يجب أن يخشىٰ المصريون جميعًا من أي محاولات توسيع للقناة أو زيادة لتفريعاتها، فإن هذا يزيد من حجم المانع المائي والانفصال بين الأراضي المصرية، ويصعب أكثر إمكانية عبور القناة في أي وقت قادم، لأن كل زيادة في عرض القناة تساوي استحالة أكثر لإمكانية عبورها وتحقيق مفاجأة كالتي كانت في لحظة العبور الأولىٰ في ١٩٧٣م.. وهذا التوسيع وزيادة

التفريعات هو ما يفعله عبد الفتاح السيسي الآن!

ولمزيد من بيان خطورة هذا العازل المائي يكفي أن تنظر إلىٰ إسرائيل التي تستطيع إقامة قناة في أراضيها بين البحرين المتوسط والأحمر، لكنها رغم كل ما تشيعه عن نواياها في هذا الشأن لم تفعله أبدا.

إلا أني أعود وأقول بأن محور التنمية هذا لن يتم إلا بعد امتلاك المصريون لسيادتهم علىٰ بلادهم وأن يكون رئيسهم وطنيا ومنتخبا ومعبرا عن مصالحهم، لا عسكريا انقلابيا جاء بدعم الخارج فهو يعبر عن مصالح العدو ويستميت في الحفاظ عليها.. وبيننا وبين الوصول إلىٰ هذا الرئيس المنتخب وامتلاك السيادة الحقيقية علىٰ البلد ثورة مريرة وجهاد طويل ومعاناة لا محيص عنها، فإن الحقوق تنتزع، وإن الغرب لن يفرط في الهيمنة علىٰ مصر بسهولة.

وثالث مراحل الحل: هو إزالة القناة وردمها:

وهذا حل تسوق إليه المعطيات التاريخية، وأول وآخر تفكير فيه كان للبطل أحمد عرابي، وهو آخر قائد وطني حقيقي للجيش المصري، وكل من تولىٰ القيادة العامة للجيش المصري منذ ذلك الوقت وحتىٰ الآن إما كان عميلا أو مغفلا أو ضعيفا، وقد حال السادات دون وصول رجل كسعد الشاذلي إلىٰ قيادة الجيش وأتىٰ برجله الضعيف أحمد إسماعيل ليكون طوع أمره وقد كان، وساهم في تدمير الجيش المصري في أكتوبر حتىٰ انتهىٰ النصر العسكري الذي تحقق أول أيام الحرب إلىٰ نصف نصر عسكري وهزيمة سياسية كاملة.

ويكاد يتفق المؤرخون أن عرابي لو أغلق القناة لما استطاع الإنجليز احتلال مصر بحال، ولو تخيلنا تاريخ مصر بدون القناة فلا شك في أن دماء غزيرة كانت ستُحقن وأموالا طائلة كانت ستُصان ووضعا سياسيا واقتصاديا آخر كان سيكون!

وتلزم أمانة البحث أيضًا أن أقول: إن هذا الحل تسوق إليه المعطيات

التاريخية، فهو حل من وجهة نظر تاريخية فحسب، ولكنه يحتاج بحثا جادا متعدد التخصصات: السياسية والعسكرية والأمنية والاقتصادية والاستراتيجية لمناقشة الفائدة أو الضرر من بقاء القناة أو إزالتها.

الباب الثالث

في أرض العثمانيين

قدر الله بحكمته أن نعيش في تركيا، وأن نرىٰ ونعامل إخواننا الأتراك، وأن نشاهد بالعيان ما كانت تأتينا به الكتب من أعماق التاريخ، فنرىٰ مواقع المعارك، والمساجد، والأسوار، والخطوط والزخارف. وأن نقيس ما كنا نقرؤه من كتب الأقدمين أو المعاصرين عن الأتراك وطبائعهم وطرائقهم في الدين والحياة.

وقد هيأت لنا الأقدار أن ننزل هذه الأرض وهي في تجربة نهوضها بقيادة رجب طيب أردوغان، وهي التجربة التي طالما تكلم فيها الساسة والمحللون والمثقفون والمفكرون، وكلٌّ يدَّعي فهما لها، حتىٰ كانت المعايشة أحسن وأثبت نظرا ودليلا من هذا كله.

وفي تركيا قرأنا ما فاتنا قراءته في العالم العربي من كتب كتبها الأتراك، لا سيما فيلسوف هذه النهضة: أحمد داود أوغلو، فكانت قراءة ما كتبه في تركيا أفضل في الفهم والتقييم والنظر مما لو كنا قرأناها قبل أن نشهد تركيا.

ثم عايشنا الانقلاب الفاشل، فكانت ليلة عصيبة علىٰ سائر الأمة الإسلامية، ثم أنقذ الله تركيا والأمة من هذا الانقلاب، فكان حدثا فاصلا فارقا، له ما بعده.

في هذه الفصل حاولنا أن نضع القارئ في الصورة، بما أمكنتنا به طاقتنا من الوصف والتصوير:

- من عبق تاريخ الأتراك.

- في فهم التجربة التركية.
- الفلسفة السياسية عند داود أوغلو.
- من آثار الانقلاب التركي الفاشل.

من عبق تاريخ الأتراك

قال الجاحظ عن الأتراك:

«في الحرب كاليونانيين في الحكمة، وأهل الصين في الصناعات، والأعراب فيما عددنا ونزلنا، وكآل ساسان في الملك والرياسة».

في هذا الفصل قطوف من تاريخ الترك، قبل وبعد الدولة العثمانية:

- من مآثر الأتراك في رمضان.
- الدولة العثمانية عند جلال كشك.
- الخطأ التاريخي للدولة العثمانية.

من مآثر الأتراك في رمضان

فتح عمورية:

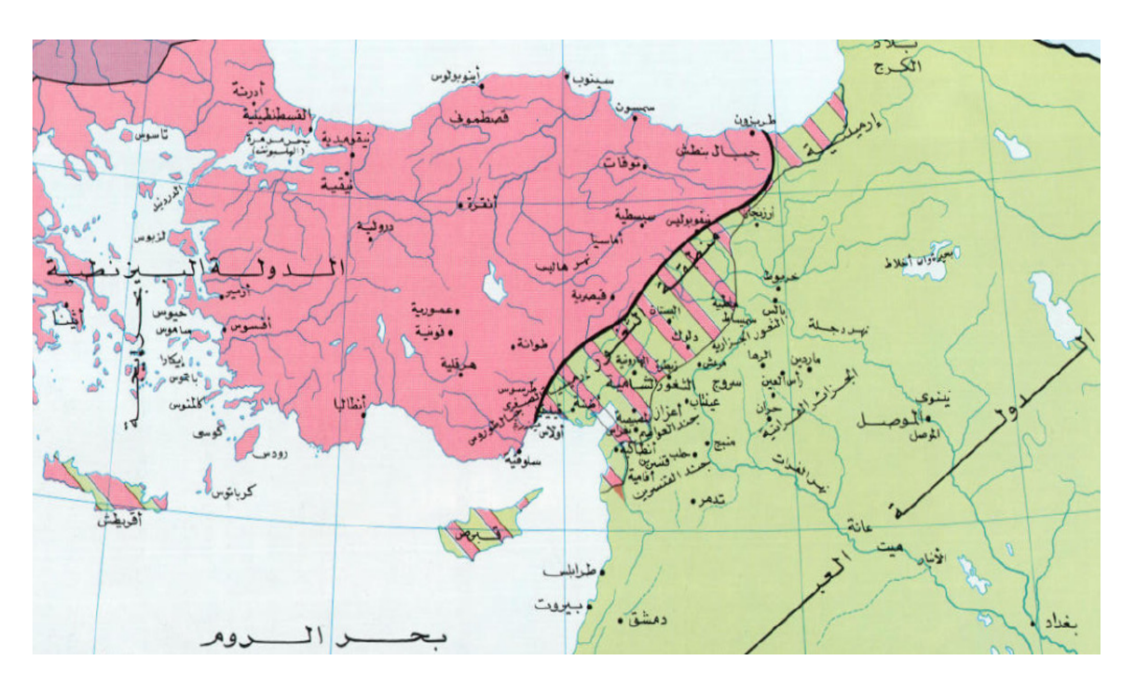
كانت أخطر التحديات التي يواجهها الخليفة المعتصم والتي ورثها منذ عهد المأمون هي تمرد بابك الخُرَمي في أذربيجان المتاخمة للحدود الإسلامية الرومية، فنشأ تحالف بين بابك وبين الروم الذين كانوا يستغلون انشغال الدولة الإسلامية ببابك فيهاجمون المناطق الحدودية، كما كانوا يمدون بابك بأسلحة وأحيانا بجنود، وكانوا يستقبلون جنوده المنهزمين من المعارك مع المسلمين.

وصلت رسالة من بابك الخرمي حين كان مُحاصرا في معقله «البذة» إلىٰ ملك الروم توفيل بن ميخائيل يقول له: «إن ملك العرب قد جهز إلي جمهور جيشه ولم يبق في أطراف بلاده من يحفظها، فإن كنت تريد الغنيمة فانهض

سريعا إلىٰ ما حولك من بلاده فخذها فإنك لا تجد أحدا يمانعك عنها»، وكان بابك يطمع في تخفيف العبء عليه لكي يضطر المعتصم إلىٰ إخلاء بعض قواته من حرب بابك لحرب الروم، وما إن وصلت الرسالة حتىٰ خرج توفيل في جيش من مائة ألف، فاجتاحوا حصن زِبَطْرة الحدودي ثم مدينة ملطية (٢٢٣ هـ)، وقتلوا كثيرا وأسروا أكثر حتىٰ بلغ عدد الأسيرات فحسب ألف امرأة مسلمة، ثم لم يكتف بهذا بل مارس أبشع التعذيب علىٰ من في يديه من الأسرىٰ فقطع آذانهم وأنوفهم، وسَمَل أعينهم!!

انزعج المعتصم وغضب جدًّا، لا سيما وقد وردت أنباء أن بين الأسرىٰ امرأة صارت تصرخ علىٰ المعتصم كأنه ميت «وامعتصماه.. وامعتصماه» ، فقام علىٰ الفور بتجهيز الجيوش التي لديه، وأعلن أنه سيقودها بنفسه، واستعد استعداد من يؤمن بأنه لن يرجع إلا منتصرًا أو شهيدًا فجمع القاضي والشهود فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقة وثلثه لولده وثلثه لمواليه، وخرج من بغداد (٢ جمادىٰ الأولىٰ ٢٢٣ هـ)، وخرج في الجيش أهل ثغور الشام وثغور الجزيرة والجزيرة الفراتية «إلا من لم يكن عنده دابة أو سلاح»، وأرسل المعتصم جيشا يتقدمه بقيادة عجيف بن عنبسة لإدراك مدينة زبطرة التي تتعرض لهجوم الروم، فلم يدركوا إنقاذها، فقد اجتاحها ملك الروم وخربها ثم عاد إلىٰ بلاده فرجعوا إلىٰ الخليفة الذي اشتد غضبه فسأل: أي بلاد الروم أمنع؟ فقالوا: عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الاسلام، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية.

تجهز المعتصم للحرب «جهازًا لم يجهزه أحد كان قبله من الخلفاء»، وأخذ معه من آلات الحرب والأحمال والجمال والقِرَب والدَّوَابّ والنفط والخيل والبغال والسلاح شيئًا لم يُسمع بمثله، وسار إلىٰ عمورية في جحافل أمثال الجبال.



(المنطقة الحدودية بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية – د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ص١٥٠)

كان الهدف النهائي اقتحام أنقرة وعمورية -أعظم وأحصن مدينتين في الامبراطورية البيزنطية بعد العاصمة «القسطنطينية»- وكان مركز العمليات عند نهر اللمس الذي يعبر علىٰ بلدة «سلوقية» القريبة من طرسوس، ووضعت الخطة بحيث يتوجه جيشان من طريقين مختلفين إلىٰ أنقرة، أحدهما بقيادة القائد التركي الإفشين ويخرج من سروج إلىٰ أنقرة عبر درب الحدث، والثاني هو الرئيسي بقيادة المعتصم ولكنه منقسم إلىٰ جيش أساسي وطلائع، الطليعة الأولىٰ يقودها أشناس والثانية يقودها وصيف (وكل هؤلاء القادة أتراك)، هذا الجيش الثاني سيتحرك منقسما من درب طرسوس ثم سيجتمع عند حصن الصفصاف.

وأدت أجهزة الاستطلاع عملها بكفاءة، فأنقذت طليعة أشناس من كمين قاتل لملك الروم الذي كان ينتظر عبورها نهر اللمس ليهاجمها عبر مخاضة في النهر لم تكن معروفة للمسلمين، لولا أن رسالة وصلت إلىٰ المعتصم فأرسلها

إلىٰ طليعة أشناس فأوقف بها تقدمها نحو حصن الصفصاف، وظلت الطليعة معسكرة عند منطقة تسمىٰ «مرج الأسقف» تنتظر وصول الإمدادات والمعدات الثقيلة كالمجانيق والتي كانت في مؤخرة الجيش.

وفي مرج الأسقف وصلت رسالة من المعتصم تُكَلِّف أشناس بأن يقوم باستطلاع خبر ملك الروم الذي لم يُعرف أين هو، فأخرج أشناس سرية من مائتي فارس تحرشت بحصن قرة وانقسمت إلىٰ ثلاثة مجموعات فوقع في أسرهم مجموعة من الروم قدموا معلومات غالية عن جيش الروم منها:

١- أن صاحب حصن قرة يعد كمينا للسرية، فسارع قائدها عمر الفرغاني بتجميع المجموعات الثلاثة في مكان جديد وخطة جديدة فأفلت من الكمين، ورجع إلىٰ طليعة أشناس ومعه الأسرىٰ.

٢- أن ملك الروم يعسكر منذ أكثر من ثلاثين يوما ينتظر عبور جيش المعتصم لنهر اللمس.

٣- أن ملك الروم فوجئ بجيش آخر -وهو جيش الإفشين- الذي بلغه وصوله وتوغله في أرض الروم حتىٰ صار في ظهره، فانطلق ملك الروم بقسم من الجيش لحرب الأفشين وترك علىٰ بقيته ابن خاله، فأرسل المعتصم عدة رسل -من طرق مختلفة- لتلحق الإفشين بهذه المعلومات وجعل لكل منهم عشرة آلاف درهم إن استطاعوا إيصال الكتاب، لكن أحدا منهم لم يدرك الإفشين الذي كان قد توغل بحيث استحال الوصول إليه.

ثم وصلت المعدات الثقيلة مع مؤخرة الجيش، وبدأ تحرك جيش المعتصم وطليعته التي يقودها أشناس نحو أنقرة، وتعرض جيش المعتصم لضائقة في الغذاء وأعلاف الدواب، فأوقع الله أسيرا من الروم بين أيدي طليعة أشناس فعرض عليهم أن يدلهم علىٰ أرض أقوات وعلىٰ مكان أهل أنقرة الذين هربوا منها مقابل تركه، فتم له ما أراد، وظفر الجيش بأرض مرعىٰ ثم بمكان

أهل أنقرة الهاربين منها فسُدَّ النقص في إمدادات الجيش الذي ظفر بكثير من الغنائم ، وظفر بما هو أغلىٰ من هذا.. ببشرىٰ انتصار الإفشين علىٰ ملك الروم!

لقد انطلق ملك الروم علىٰ رأس قسم من الجيش لملاقاة جيش الإفشين، ودارت معركة هائلة بينهما (٢٥ شعبان ٢٢٣ هـ) قرب منطقة تسمىٰ «لورله» انتصر فيها الروم أول الأمر ثم صمد فرسان المسلمين وأعادوا الهجوم بقوة حتىٰ هزموا جيش الروم ومزقوه تماما وصار لا يدري أحد منهم موضع الكتائب الأخرىٰ ولا حتىٰ أين ملك الروم فينحازون إليه ، فعادت فلولهم إلىٰ معسكر الجيش الرئيس عند نهر اللمس فإذا بهم يجدون الفوضىٰ ضاربة بأطنابها فيه وقد تنازع الأمراء مع ابن خال الملك الأمر ونشبت بينهم خلافات كبيرة، ولما عاد ملك الروم من هزيمته أمام الإفشين فوجئ بهذا الوضع القاتل، فقتل قريبه – الذي رآه مسؤولا عما حدث للجيش أو لعله قتله إرضاء للأمراء وطلبا لتوحدهم في القتال من جديد– وأرسل نداء عاما إلىٰ كافة المدن والبلدات أن لا يدخلوا إليهم رجلًا كان في الجيش هاربًا إلا جلدوه أو يرجع إلىٰ معسكر الملك ليباشر الحرب، وأرسل من فوره جزءا من الجيش إلىٰ أنقرة ليحفظوها قبل أن يأتيها المعتصم، لكن هذا القسم وصل إليها فوجد أن أهلها قد خربوها وهجروها وهربوا منها، فانطلق الملك يجمع شتاته ليسير نحو هدف المسلمين الثاني.. عمورية .

بعد ثلاثة أيام من وصول هذه المعلومات إلىٰ المعتصم، وصلت رسالة الإفشين تخبر بما جرىٰ وبالنصر الذي أنزله الله علىٰ المسلمين، وتؤكد أن مسار الخطة كما هي وأن التقاء الجيوش سيكون في أنقرة .

ومن أنقرة أعاد المعتصم هيكلة الجيش فجعله ثلاثة جيوش منقسمة إلىٰ كتائب، وعزم علىٰ تدمير كل ما بين أنقرة وعمورية من قدرات الروم الاقتصادية والعسكرية، فسلكت الكتائب طرقًا عديدة فبلغت في إنهاك الروم

وتخريب حصونهم أقصىٰ ما استطاعت ثم اجتمعت مرة أخرىٰ أمام الهدف الأكبر.. عمورية!

حاصرت الجيوش المدينة الهائلة التحصين (٦ رمضان ٢٢٣ هـ)، ذات السور الشاهق الذي يسبقه خندق عريض، فكانت خطة المعتصم صناعة مجانيق شاهقة بحجم ارتفاع السور وتكون واسعة بحيث تسع أربعة مقاتلين، وأما الخندق فقد أمر المعتصم كل جندي إذا أكل شاة أو غنما أن يحشو جلدها ترابا، ثم ترمىٰ كل هذه في الخندق، وكان المأمول أن يردم الخندق ثم تأتي الدبابة فتسير عليه حتىٰ تنقب السور، لكن رمي جلود الشياه كان يتم علىٰ عجل هربا من سهام الروم وحجارتهم فلم يكن ردم الخندق سهلا، ثم لم تفلح الدبابات في تسوية الجلود بل عَلَقت بها، ففشلت هذه الخطة .

لكن الله لا يخيب سعي المخلصين فما هو إلا أن سَخَّر الله لهم أسيرًا كان من المسلمين قديمًا ثم تنصر وتزوج في عمورية فلما رأىٰ جيوش المسلمين هرب إليهم، وكان أغلىٰ ما هرب به أن دلهم علىٰ موضع في المدينة خربته سيول قريبة ولم يكتمل بناؤه بعد إهمالا من الوالي، فلما جاءت هذه الحرب وخشي الوالي من ملك الروم بنىٰ السور بناء هشا بحيث يظهر كأن بناءه قد اكتمل علىٰ أن الحقيقة أن الحجارة ليست إلا واجهة لهذه المنطقة الضعيفة في السور .

اختبر المعتصم كلام الرجل فركز ضربات المجانيق عليها فبدأت في الانهيار، وتركز عليها دفاع الروم بطبيعة الحال، ولكن هذا الانهيار السريع غير المتوقع ضرب معنوياتهم في مقتل، فقرر والي المدينة مع القائد العسكري الذي أرسله ملك الروم أن ينفذ هجوما مفاجئا في الليل ليتخلص به من الحصار مع ما أمكنه من الجنود، وأرسلوا بهذا رسالة إلىٰ ملك الروم، لكن الرسالة وقعت في يد جيش المسلمين فتم تشديد الحراسة بالليل علىٰ الأبواب ففشلت خطة الهروب الخاطف، مع استمرار التركيز علىٰ الناحية المنهارة من السور حتىٰ

سقطت تحت وقع الضربات الدائمة .

انحصرت الحرب حول هذه النقطة حتىٰ انهارت دفاعاتها وعزم قائدها علىٰ التسليم وطلب الأمان بعدما تخلىٰ عنه القواد الآخرون، وقبل أن يتم الاتفاق علىٰ التسليم اقتحم المسلمون المدينة (١٧ رمضان ٢٢٣ هـ) فهرب الروم في كل وجه وشاع فيهم القتل والأسر في سائر الجهات وانهارت دفاعات المدينة جميعًا، وأخذ المسلمون من عمورية أموالًا لا تحد ولا توصف فحملوا منها ما أمكن حمله، وأمر المعتصم بإحراق ما بقي من ذلك، وبإحراق ما هنالك من المجانيق والدبابات وآلات الحرب لمزيد من إضعاف القوة الحربية للروم، ثم عاد راجعا (٢٣ رمضان ٢٢٣ هـ) .

وكان نصرًا عظيمًا باهرًا، قتل فيه الروم ثلاثين ألفًا وكان الأسرىٰ مثل ذلك، ومنهم ستون قائدًا، وبينهم واليها، كما جاء المعتصم بأحد الأبواب الفاخرة من عمورية إلىٰ بغداد فجعله في دار الخلافة ببغداد.

وهكذا انتصر الخليفة الغاضب لما وقع بالمسلمين من الأسر والقتل، وأثبت أنه قائد دولة يستحق أن يكون علىٰ رأسها وأنه مسؤول حقا عن حماية أهلها وتأديب أعدائها..

وهناك في بغداد، أنشد أبو تمام قصيدته الشهيرة التي خلد بها النصر:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَـاءً مِـنَ الكُتُـبِ   في حـدهِ الحـدُّ بـينَ الجِـدِّ واللَّعـبِ

بيضُ الصَّفائحِ لاَ سودُ الصَّحائفِ في   مُتُــونِهنَّ جــلاءُ الــشَّك والريَــبِ

القضاء على تمرد بابك الخرمي:

لما تولىٰ الخليفة المعتصم بالله العباسي منصب الخلافة كانت البلاد في وضع حرج، فثمة عدد من التمردات تضرب في أنحاء الدولة، أخطرها ثورة بابك الخرمي المستفحلة في أذربيجان وما حولها والتي شكلت تحالفا خطيرا

مع الروم، وثورة الزُّط في البصرة. وهذا إلىٰ جانب خطر الروم البيزنطيين الدائم علىٰ الحدود. كذلك كان وضع البلاط نفسه في حرج فلقد تضعضع حال القوة العربية من بعد نكبة الأمين علىٰ يد المأمون، ثم تضعضع حال القوة الفارسية بعد نكبة المأمون لبني سهل وانتقاله من مرو إلىٰ بغداد، «فكان المعتصم بحاجة إلىٰ عنصر عسكري جديد يسند سلطانه، فالتجأ إلىٰ عنصر بدأ يتوارد كرقيق إلىٰ البلاد الإسلامية قبله، كما أخذ الإسلام ينتشر في بلاده بصورة بطيئة، وذلك هو عنصر الترك»[(١)]، وقد «كانت المزية الكبرىٰ للأتراك متمثلة في قوتهم العسكرية مع خُلُوِّهم من الأفكار المتمردة كالشعوبية والعلوية والخارجية»[(٢)].

وقد حقق العنصر التركي مآثر خالدة في الجهاد والمعارك، وأطال في عمر الخلافة العباسية، وكتب صفحات من تاريخ مجيد ناضر، نستعرض في هذه السطور شيئًا منه.

■ ■ ■

في قرية فارسية اسمها «خرمة» بالقرب من أردبيل ظهرت الفرقة الباطنية التي نُسبت إليها فسُمِّيَت «الخرَّمية»، في (٢٠١هـ)، وقد بدأها جاويذان بن سهل (أو سرهك) الذي اعتنق مبادئ فارسية كالإيمان بإلهين للنور والظلمة، وتناسخ الأرواح، وأباح النساء وزنا المحارم والخمر وما إلىٰ ذلك[(٣)].

---

(١) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مطبعة السريان، بغداد، ١٩٤٥م. ص١٢، ١٣.

(٢) محمد إلهامي: رحلة الخلافة العباسية، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٣م. ١/ ٥٥٧.

(٣) المطهر المقدسي: البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر. ٤/ ٣٠، ٣١، عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م. (ص٢٥٢)، الغزالي: فضائح الباطنية، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت. ص١٥.

وحين مات جاويذان ورث بابك دعوته، ذلك أنه كان عشيقا لزوجة جاويذان، فرتب معها أمر إقناع أتباعه أن روح جاويذان «الإله» قد انتقلت إليه، وبدأ ثورته (٢٠١هـ) في جبل البدين في أذربيجان، ثم ظهر في «خرّمة»[١].

زعم بابك أنه من نسل فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني وخاطب أحلام الفارسيين في القائد الذي سيزيل دولة العرب ويعيد دولة الفرس، ثم إنه أباح قتل المخالفين ونهب أموالهم -وكان هذا تطورًا جديدًا في فكر المزدكية والباطنية[٢]- فكانت فرصة ممتازة للمجرمين وقطاع الطرق أن ينضموا إليه، كما كانت فرصة لكلِّ صاحب مذهب أو نحلة أو اتجاه مناوئ للدولة الإسلامية أن يسير في ركاب بابك، ولا ريب أن ثمة مظالم واقعة جعلت كثيرين من عموم الناس ينضوون إلىٰ حركته أيضًا، فلقد اتَّسع أمر بابك كثيرًا حتىٰ كانت الوفود تأتي إلىٰ أذربيجان تقدم ولاءها إلىٰ بابك، وبلغت دعوته مدنا بعيدة نسبية كأصفهان وغيرها[٣].

وقد كان الصراع بين الأمين والمأمون ثم اضطراب البلاد علىٰ المأمون بثورات العلويين ثم العباسيين السبب الرئيسي في إعطاء تلك الحركة فرصة في تطورها واستفحالها، كما ساهم -أيضًا- في قوة بابك تحالفه مع الروم الذين ساعدهم وساعدوه في الأخبار والاستطلاع، وكان جنود بابك إذا هُزِموا في معركة لجأوا إلىٰ أرض الروم.

■ ■ ■

(١) الطبري: تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م. ٥/ ١٣٩، وابن النديم: الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م. ص٤١٧.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص٤١٦.

(٣) المطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ١١٦، ونظام الملك: سياست نامه ص٢٨٦.

كان أول عمل سُجِّل للجند الأتراك هو قضاؤهم علىٰ تمرد بابك الخرمي الذي استمرَّ عشرين سنة ذهب فيها نحو ربع مليون مسلم، وهو رقم ضخم هائل في ذلك الوقت، وكان أمر بابك قد اتَّسع واستفحل ودخلت همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان في تبعيته (٢١٨هـ)[١] ويبدو أن زعماء هذه البلاد قد حسموا موقفهم بموت المأمون ورأوا أن الدخول في طاعة بابك إن لم يكن خيرا فإنه سيجنبهم شره.

وقد ظلت حرب بابك هي الشغل الشاغل للمعتصم والعمل الذي أمضىٰ فيه سنوات خلافته الأولىٰ، وقد أنفق علىٰ تجهيز الجيوش معه كل ما استطاع من الأموال، واهتم بتتبع أخبار الحرب حتىٰ أنشأ مراكز البريد علىٰ طول الطريق فكانت الأخبار تأتيه يوميًّا.

أرسل المعتصم جيشًا بقيادة إسحاق بن إبراهيم (٢١٨هـ) وولَّاه علىٰ منطقة الجبال، وحقق الجيش انتصارا علىٰ بابك وصلت أخباره (٨ من ذي الحجة ٢١٨هـ)، وقد قتل فيه كثيرًا من أتباع بابك حتىٰ اضطرَّ الباقون إلىٰ الانسحاب إلىٰ بلاد الروم، لكنه لم يكن انتصارًا مؤثرًا أو كبيرًا علىٰ مستوىٰ إنهاء التمرد، وعاد إسحاق إلىٰ بغداد فوصلها (١١ جمادىٰ الأولىٰ ٢١٩هـ) ومعه الأسرىٰ[٢].

ثم أرسل المعتصم جيشًا آخر (٢٢٠هـ) بقيادة أبي سعيد محمد بن يوسف فأحرز نصرًا آخر، وكان كسابقه غير مؤثِّر في إنهاء التمرد لكنه يرفع المعنويات ويهيئ النفوس في الجانبين لبدء تغير الأحوال، ثم أنعم الله علىٰ المسلمين فسخر لهم رجلًا يسمىٰ محمد بن البعيث، وكان حاكمًا لقلعتين في أرض أذربيجان، وقامت بينه وبين بابك علاقة وثيقة حتىٰ كان سرايا بابك تنزل بقلعة

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٠٦.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٠٦، ٢٠٧.

ابن البعيث فيضيفهم ويكرمهم، فحوَّل الله قلبه، فقام بعملية اغتيال كبيرة لسرية من سرايا بابك حين نزلوا بقلعته، وأسر قائدهم -واسمه عصمة- فأرسل به إلىٰ المعتصم، وكان هذا الرجل كنزًا معلوماتيًّا عرف منه المعتصم ما لا يقدر بثمن عن أرض بابك وجيوشه وطريقته في الحرب(١).

ثم عهد المعتصم (٢٢٠هـ) بقيادة الجيوش إلىٰ القائد التركي حيدر بن كاوس الأشروسني، الملقب بـ «الأفشين» الذي كان قد تعرّف علىٰ مناطقهم وطريقتهم في القتال التي غالبا ما كانت ليلًا وعلىٰ شكل غارات سريعة، ونصب كمائن في الفجاج بين المرتفعات، وقد استعد الأفشين خير ما وسعه الاستعداد، فأحكم العيون والاستطلاعات وتقوية الحصون وتأمين طرق الإمدادات، بحيث صار الطريق آمنًا ومنقسمًا إلىٰ مراحل، ويشرف علىٰ كل مرحلة مجموعة عسكرية، وقد كان من ثمار هذه الخطَّة أن سقط عدد من جواسيس بابك، وكانت طريقة الأفشين أنه يعطي الجاسوس ضعف الثمن الذي كان يأخذه من بابك مقابل أن يكون جاسوسًا للمسلمين(٢).

وأرسل المعتصم إلىٰ الأفشين مع القائد التركي بغا الكبير أموالًا جزيلة نفقة لمن معه من الجند والأتباع، وكاد بابك أن يهاجمها قبل أن تصل لولا أن جواسيس المسلمين في معسكر بابك أوصلت الخبر، فأنقذت الأموال بخطَّة مناورة وتمويه حتىٰ وصلت إلىٰ جيش المسلمين الذي يقوده الأفشين، وبفضل المعلومات التي جاءت بها العيون والنظام المحكم الموضوع لحراسة الطريق استطاع الأفشين مهاجمة بابك في جيشه وهو يحاصر قلعة من قلاع المسلمين، ودارت معركة مريرة استطاع فيها الأفشين إحراز أول نصر قوي علىٰ بابك وقتل

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، المكتبة المرتضوية، النجف الأشرف، العراق، ١٣٥٨هـ. ٣/ ١٩٩، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢١٠.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢١٠، ٢١١.

من أتباعه أكثر من مائة ألف في بعض التقديرات، واضطرَّ بابك إلىٰ الانسحاب إلىٰ عاصمته «البذّ» الحصينة منهزما[١].

واستمرت الحروب والوقائع بجيشي الخلافة اللذين يقود الأفشين أحدهما ويقود بغا الكبير الآخر، وقد جرت معركة هائلة بين بغا الكبير وبابك (٢٢١هـ) استطاع بابك فيها أن يهزم بغا الكبير ويقتل كثيرًا من جنوده، وكان الخطأ البارز أن بغا تصرف منفردا بجيشه دون خضوع للقيادة العامة للأفشين، غير أن معارك أخرىٰ بين بابك والأفشين استطاع فيها الأفشين هزيمة بابك، وقد استمرت تلك الوقائع حتىٰ دخل العام التالي (٢٢٢هـ) حيث أمد المعتصم الأفشين بجيش آخر، ومعه ثلاثون مليون درهم، واستطاع الأفشين اقتحام معقل بابك وعاصمة تمرده «البذّ» (٢٠ من رمضان ٢٢٢هـ) بعد حصار مرير ومعارك قاسية واجتهاد وجهاد وتعب! وحرر أكثر من سبعة آلاف أسير مسلم[٢].

وهرب بابك مع أهله وأولاده من البذ لكنه وقع في يد أمير بلدة اسمه سهل بن سنباط فخدعه سهل وادعىٰ أنه من الموالين لبابك حتىٰ أسره وأرسل به إلىٰ الأفشين، وصنع الأفشين استقبالًا شعبيًا لهذا الأسير الذي دوخ الخلافة الإسلامية (شوال ٢٢٢هـ)، وكتب إلىٰ المعتصم بما تم، فأمره أن يأتي به أسيرًا إلىٰ بغداد[٣] فوصلها (٣ من صفر ٢٢٣هـ) واستقبلهما هارون بن المعتصم (الخليفة الواثق فيما بعد) وأمر المعتصم بإركابه فيلًا؛ لكي يراه الناس في تشهير شعبي كالذي تم في أذربيجان، ثم أُحْضِر عند المعتصم فأمر بقطع يديه ورجليه وجز رأسه وشق بطنه (١٣ من ربيع الآخر ٢٢٣هـ)، ثم أمر بحمل رأسه إلىٰ خراسان «يُطاف بها كل مدينة من مدنها وكورها لما كان في نفوس الناس من

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢١١، ٢١٢.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٩٩، ٢٠٠، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢١٢ وما بعدها.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٢٩ وما بعدها.

استفحال أمره، وعظم شأنه، وكثرة جنوده، وإشرافه علىٰ إزالة ملك، وقلب ملة وتبديلها»[١]. وصَلَب جثته وعلقها في سامراء، وأرسل بأخيه عبد الله بن شروين إلىٰ نائب بغداد ليقتله هناك ويفعل به مثلما فعل المعتصم بأخيه[٢].

وكَرَّم المعتصم قائده الفذ البطل، فقلَّده وشاحين من الجواهر، وأمر له بعشرين مليون درهم، وولاَّه علىٰ السند، وأمر الشعراء أن يمدحوه، وهذا في ذلك الوقت يعني حملة إعلامية لتكريمه، فقيلت أشعار كثيرة حسنة، كما كافأ الجيش بعشرة ملايين درهم .. وبهذا انتهىٰ تمرد ذهب فيه ربع مليون مسلم[٣].

القضاء على الدولة البويهية:

عاشت الخلافة العباسية عصرها الذهبي في القرن الأول من تاريخها، مع المؤسسين والخلفاء العظماء كالمنصور والرشيد والمأمون والمعتصم، ثم تسلط عليها طبقة العسكر الأتراك فضعف مقام الخلافة وبدأت في الانحراف، ثم جاءت الطامة حين استولىٰ عليها البويهيون.

والبويهيون طائفة عسكرية شيعية انطلقت من طبرستان (جنوب بحر قزوين) ولم تزل تتوسع وتستولي علىٰ البلاد في ظل ضعف الخلافة العباسية حتىٰ استولت علىٰ العراق، ثم سيطرت علىٰ بغداد، فكانت تلك هي المرة الأولىٰ التي تنشأ فيها دولة علىٰ غير رغبة الخلافة في قلبها، وقد اعترف البويهيون -رغم تشيعهم- بالخليفة العباسي السني منعا من تهييج الناس عليهم باطراح شرعية الخليفة العباسي ومكانته وإن كانت مجرد شرعية اسمية مظهرية.

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٠٠، والمسعودي: مروج الذهب، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م. ص٤٤٤.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص١٤٢، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٣، ٢٣٤.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٠٠، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٤.

وقد اجتمعت في هذه الدولة المساوئ جميعها، مما جعل القرن الذي سادت فيه قرنًا عصيبًّا كئيبًا في تاريخ المسلمين:

١- فهي أولا طائفة عسكرية قضت علىٰ الجناح المدني المحافظ علىٰ توازن السلطة وحضارتها، وعُزِل الخليفة تماما عن تصريف الأمور بل صار يتلقىٰ راتبه المخصص له من الملك البويهي، وصار يُعزل لمجرد رغبة الملك البويهي في عزله أو في نهب أمواله حين يحتاج إلىٰ المال، ووقعت في هذا حوادث تفيض بالحسرة والألم والمهانة.

٢- وهي ثانيا طائفة شيعية عملت علىٰ نشر التشيع بين أهل العراق مما أنبت الفتن والنزاعات التي راح ضحيتها مئات الآلاف من النفوس ومئات الملايين من الأموال، وتمزقت الأمة مما أطمع فيها عدوها فبلغ منها ما لم يبلغه من قبل حتىٰ قال ابن تيمية: «وفي دولة بني بويه ونحوهم ... كان فيهم أصناف المذاهب المذمومة؛ قوم منهم زنادقة وفيهم قرامطة كثيرة ومتفلسفة ومعتزلة ورافضة وهذه الأشياء كثيرة فيهم غالبة عليهم؛ فحصل في أهل الإسلام والسنة في أيامهم من الوهن ما لم يعرف حتىٰ استولىٰ النصارىٰ علىٰ ثغور الإسلام وانتشرت القرامطة في أرض مصر والمغرب والمشرق وغير ذلك»[1].

٣- ثم بعد هذا كله لم يكن للبويهيين نصيب في جهاد العدو بل كانت سيوفهم مسلولة علىٰ أنفسهم أو علىٰ غيرهم يتنازعون الملك ويتنافسون علىٰ السلطان فزادت بهم الأمة ضعفا علىٰ ضعف حتىٰ وصف الذهبي هذا بكلمات مؤثرة قال فيها: «ضاع أمر الإسلام بدولة بني بويه، وبني عبيد الرافضة، وتركوا الجهاد، وهاجت نصارىٰ الروم، وأخذوا المدائن، وقتلوا وسبوا»[2]، فإن الثغور التي اجتهد المنصور والمهدي والرشيد والمأمون في بنائها وتعميرها وتحصينها

---

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوىٰ ٤/ ٢٢.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٣٢.

فقدها المسلمون في عصر بني بويه، ولولا بعض الدفع مما قام به سيف الدولة الحمداني، وأحيانًا كافور الإخشيدي لحقق الروم البيزنطيون انتصارات فارقة في الشام والعراق.

وهذه هي المرة الأولىٰ فيما نعلم التي تنشأ دولة تسيطر علىٰ المشرق فلا تستطيع حتىٰ وهي في أوج قوتها ألا تحقق انتصارات باهرة علىٰ الروم، فالأمويون هددوا القسطنطينية ذاتها أكثر من مرة، ثم جاء العباسيون فكانوا الأعلىٰ يدا في مواجهات الروم، وفي عصر سيطرة الترك كان الجهاد قويا حتىٰ وإن ضعف مقام الخلافة، ثم جاء البويهيون فلم يفعلوا إزاء الروم شيئا بل تلقوا الضربات في صمت أو تلقاها عنهم الحمدانيون في الشام وأحيانا نادرة في الموصل، ثم جاء السلاجقة فأوقعوا بالروم خسائر مزلزلة خالدة أشهرها معركة ملاذ كرد التي قادها ألب أرسلان، ثم جاء العثمانيون فكتبوا نهاية الدولة البيزنطية العتيقة!

البويهيون وحدهم كانوا سادة المشرق ولم يكن لهم أثر في جهاد الروم!!

وهم مع ذلك مسرفون في الاهتمام بالألقاب والمظاهر السلطانية، وإن كانت البلاد في أشد الحاجة إلىٰ المال، وسَمُّوا أنفسهم بالملك العزيز والملك الرحيم وملك الملوك، ونافسوا الخليفة في الرسوم والتقاليد، حتىٰ لقد أجبر أول ملوكهم في بغداد الخليفة علىٰ نقش اسمه علىٰ العملة إلىٰ جوار اسم الخليفة. و«لم يبق شيء لم يغتصبه البويهيون من الخلفاء العباسيين الذين عاشوا في عهدهم سوىٰ لقب الخلافة وما يتعلق به من مظهرية كاذبة»[1].

وكان إنقاذ الخلافة من هؤلاء البويهين علىٰ يد قوم من الأتراك.. أولئك هم: السلاجقة!

---

(١) د. وفاء محمد علي: الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين ص٦٠.

نبغ شأن السلاجقة في أواخر القرن الرابع الهجري، وما لبث أن ظهروا علىٰ حدود الدولة الغزنوية في ظل سلطانهم العظيم محمود الغزنوي، لكنهم لم يستطيعوا أن يصيروا قوة إلا بعد وفاته، إذ انتصروا علىٰ خلفه مسعود الغزنوي وصاروا بهذا قوة ناشئة فتية ورثت كثيرا من أملاك الدول القائمة في الجناح الشرقي للإسلام.

وسرعان ما تحول السلاجقة إلىٰ عاصفة عاتية، وانهارت أمامهم الممالك، وزحفوا غربا فقضوا علىٰ ما بقي من دول البويهيين، ووجد العباسيون فيهم المنقذ والأمل من تسلط أولئك، وانساح السلاجقة حتىٰ امتد سلطانهم إلىٰ قلب آسيا الصغرىٰ، ثم انقسموا إلىٰ ثلاث أقسام: قسم حكموا إيران والعراق، وقسم حكموا كرمان (في جنوب إيران) وقسم حكموا آسيا الصغرىٰ وهم الذين عُرِفوا بـ «سلاجقة الروم»، وكان لهم جهاد واسع وهائل مع الدولة البيزنطية، وهم الذين كان لهم الفضل في ولادة الدولة العثمانية -أقوىٰ دول الأتراك قاطبة وأوسعها أثرا- في آخر أيامهم.

ما يهمنا في سياقنا الآن أن العاصفة السلجوقية العاتية كانت ملاذ الخلفاء العباسيين، فاعترف الخليفة العباسية بطغرل بك (سلطان السلاجقة) منذ (٤٣٣هـ) وأرسل إليهم رسولا يناشدهم التقدم نحو العراق وإزالة سلطان البويهيين، وقد كانت الأحوال في العراق قد بلغت من التدهور مبلغا عظيما ونبغ فيها قائد يدعىٰ البساسيري بايع دولة العبيديين أحدث فتنة خطيرة بالسيطرة علىٰ بغداد والخطبة للخليفة العبيدي (الفاطمي) في إسقاط للخلافة العباسية وتقوية للدولة العبيدية (الفاطمية).

وما كان أسعد طغرل بك بهذه الرسالة من الخلافة -وهو الذي لم يزل ينتظر الفرصة المناسبة- فلم يكن إلا يسيرا حتىٰ تجهز، وأرسل وفدا إلىٰ الخلافة قبل قدومه فتلقته الخلافة بالإكرام والحفاوة، ثم وصل طغرلبك مع

موكبه الفخم وجيوشه الكثيرة إلىٰ بغداد (٢٥ رمضان ٤٤٧هـ) واستقبلته وفود الخليفة بالإكرام وأبدىٰ طغرل بك تعظيم الخلافة وقدرها واحترامها، ثم استقبله الخليفة فيما بعد وخلع عليه (٢٦ رمضان ٤٤٧هـ)، وكان قد خُطِب له في بغداد (٢٢ رمضان ٤٤٧هـ)، ثم خطب من بعده لأبي نصر البويهي، وهو ما معناه انتهاء الحكم البويهي وبداية الدخول في عصر السلاجقة، ثم استقر طغرل بك في دار المملكة (٢ شوال ٤٤٧هـ)، وأقيم حفل تنصيبه (١١ ذي القعدة ٤٤٧هـ).

وكعادة الدول، وكما قالت العرب: لا يجتمع سيفان في غمد، لم يلبث الحال إلا قليلا ووقع اشتباك في بغداد تطور إلىٰ تخلص طغرل بك من الملك البويهي، علىٰ غير رغبة الخليفة الذي توحي سياسته في تلك الأثناء بأنه أراد السلاجقة كدرع له وسند، وكقوة تحدث توازنا مع البويهيين لا كقوة تزيل البويهيين بالكلية وتستولي علىٰ الأمر، إلا أن الضعيف -ولو كان الخليفة- لا يملك إنفاذ رغباته، فسرعان ما أنهىٰ طغرل بك دولة البويهيين فقبض علىٰ أبي نصر البويهي آخر ملوك البويهيين في العراق (٣٠ رمضان ٤٤٧هـ).

وهكذا يجب أن يعلم الناس أن الشرعية وحدها لا تحكم .. بل لابد لها من القوة! وأن القوة الخالية من الشرعية أقدر علىٰ صناعة -أو حتىٰ شراء- شرعية لنفسها تحكم بها!

وترضية لخاطر الخليفة الذي لا شك أنه أصيب بأشد صدمة في ذلك الوقت أطلق طغرل بك بعض من قبض عليهم من الجند التركي في جيش الخلافة، لكنه أبقىٰ علىٰ البويهي محبوسًا واستولىٰ علىٰ أملاكه، وبدأ في السيطرة علىٰ أنحاء العراق ومراسلة أمراء الأطراف.

وباعتقاله انتهىٰ عهد أبي نصر بن أبي كاليجار بعد ست سنوات في ولاية العراق!

وبانتهاء عهده انتهت الدولة البويهية بعد مائة وثلاثة عشر عامًا!

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

ولئن كان أمر الخلافة لم يتحسن كثيرا تحت ظل السلاجقة، إلا أن أمر الأمة كان أحسن حالا بما لا يقارن من أمرها في ظل البويهيين، والحمد لله رب العالمين(١).

فتح بلجراد:

يمكن القول بأن مدينة بلجراد، عاصمة بلاد الصرب، كانت المقياس الصادق لأحوال الدولة العثمانية، فإذا كان العثمانيون في قوة ومنعة كانت بلجراد لهم، وإن كانوا في ضعف وتراجع كانت للصرب أو للمجريين أو للنمساويين.

ومن قبل ذلك جرت ثلاث محاولات كبرىٰ فاشلة لفتح المدينة، منها محاولة قبل فتح القسطنطينية نفسها! ثم أنعم الله تعالىٰ علىٰ المسلمين وفتحها عليهم في شهر رمضان (٩٢٧ هـ) علىٰ يد السلطان سليمان القانوني.

المحاولة الأولى:

تبدأ القصة حين كانت الدولة العثمانية في نهوضها الثاني، وكان السلطان مراد الثاني يتهيأ لفتح القسطنطينية، وقد كانت خطة الدولة العثمانية هي فتح كل ما حول القسطنطينية قبل فتحها، لذلك توغلوا في أوروبا وفتحوا كثيرًا من المدن ليقطعوا المدد عنها ما استطاعوا وليتمكنوا من حصارها بريا.

وقد حقق السلطان مراد الثاني بعد جهاد كبير السيطرة علىٰ مناطق واسعة في أوروبا إما بالحكم المباشر أو بالنفوذ والسيادة التي اعترف بها أمراء الأفلاق (الجزء الجنوبي رومانيا) والبغدان (مولدوفيا) والأرناؤوط (ألبانيا)، وغيرها

(١) للتوسع: انظر: محمد إلهامي: رحلة الخلافة العباسية، الجزء الثاني.

من الأنحاء.. مما جعل الخطوة التالية هي القسطنطينية.

في تلك اللحظة تمرد أمير الصرب جورج برنكوفيتش علىٰ السيادة العثمانية، فتوجه السلطان بجيشه إلىٰ بلاد الصرب فحاصر مدينة سمندرية لثلاثة أشهر حتىٰ فتحها، وفرَّ برنكوفيتش هاربا إلىٰ بلاد المجر، ثم حاصر بلجراد لستة أشهر إلا أنها استعصت عليه واستبسل جنودها في الدفاع عنها.

وكانت هذه الحرب هي مقدمة تحالف صليبي واسع دشَّنه ملك المجر، واشتركت فيه البابوية وبولندا وجنوة والبندقة والصرب والأفلاق والبيزنطيون وكتائب من الألمان والتشيك، أوقع بالعثمانيين هزائم كبيرة اضطرت السلطان مراد لتوقيع معاهدة هدنة لعشر سنوات تنازل بمقتضاها عن الأفلاق للمجر وردَّ للصرب بعض المواقع واعترف بجورج برنكوفيتش أميرا علىٰ الصرب، إلا أن البابا دخل علىٰ الخط وحرض ملك المجر علىٰ نقض الهدنة واعتبرها فرصة ممتازة للقضاء علىٰ العثمانيين في أوروبا، وجدد ذكريات الحروب الصليبية، وجمعت أوروبا جموعها وهاجموا بلاد البلغار في لحظة عصيبة علىٰ الدولة العثمانية، وخاضوا مع العثمانيون معركة هائلة عند مدينة فارنا البلغارية أسفرت عن نصر مؤزر مبين للعثمانيين، وقُتِل ملك المجر ومندوب البابا وتشتت الحلف الصليبي. وخرجت المجر (التي نقضت المعاهدة) من معادلة القوىٰ الأوروبية المتصارعة لعشر سنوات علىٰ الأقل بعد هذه الهزيمة الساحقة.

المحاولة الثانية:

وكانت بعد فتح القسطنطينية، حيث سار السلطان محمد الفاتح إليها (١٤٥٥) لإنهاء وضعها كمركز للتمردات الصربية تنشط كلما عانت الدولة أي اضطرابات، وكقاعدة متقدمة للجيش المجري ضد الدولة، وكحاجز ضد فتح بلاد المجر.

ولم يكن الأمر داخل المدينة مستقرًا، فالصرب -وهم أرثوذكس-

خاضعون لحكم ملك المجر الكاثوليكي، وتثبت الروايات التاريخية كيف كان الأرثوذكس يفضلون سيادة المسلمين علىٰ سيادة الكاثوليك لما يتمتعون به من حرية دينية في ظل المسلمين لا يلقون شيئا منها في ظل الكاثوليك. ومع هذا فقد كان داخل بلجراد في تلك اللحظة واحد من أعظم أبطالهم التاريخيين: هونياد، الذي تجمع المصادر الإسلامية والنصرانية علىٰ بسالته وبطولته، واستطاع أن يصمد صمودًا هائلًا في وجه الجيش العثماني ويدير أمر الحصار حتىٰ رُفِع الحصار وعاد العثمانيون دون أن يفتحوها، إلا أنه أصيب بإصابات بالغة توفي منها بعد عشرين يوما فحسب!! وصدق الذي قال: النصر صبر ساعة!

وكان هونياد قد لقي قبل ذلك هزيمة قاسية أمام العثمانيين وفرَّ منهم حتىٰ اختبأ في بركة ماء لثلاثة أيام، فلما ظهر سلَّمه الصرب إلىٰ العثمانيين لما بينهم من عداوة المذهب، ثم أطلقه العثمانيون بشرط ألا يقاتل مرة أخرىٰ علىٰ أرض صربية (وهو المجري الكاثوليكي)، لكنه لم يف بعهده وحرمهم بهذا الدفاع التاريخي عن بلجرد من أن تكون في سلطانهم لستين سنة!

وما إن مات بعد انتهاء الحرب حتىٰ استسلمت الصرب للسيادة العثمانية مقابل جزية سنوية، ولكنها لم تدخل في أملاك الدولة العثمانية. وحين مات محمد الفاتح كانت جميع بلاد البلقان قد صارت في أملاك الدولة العثمانية ما عدا بلجراد وبعض جزر البحر المتوسط التابعة لجمهورية البندقية.

الفتــح:

ثم جاء الفتح علىٰ يد أعظم السلاطين العثمانيين، سليمان القانوني، وذلك حين أرسل سفيرا إلىٰ ملك المجر يطالبه بالجزية، وهناك رفض القصر استقبال السفير، ثم أخذوه فجدعوا أنفه وقطعوا أذنه وطافوا به المدينة ثم أطلقوه، وتقول روايات أخرىٰ أنهم قتلوه، فجهز سليمان القانوني جيشا هائلا قاده بنفسه وتوجه إلىٰ بلاد المجر، وجعل في مقدمة الجيش فرقة لفتح مدينة شابتس القريبة

من بلجراد، ففتحوها (٢ شعبان ٩٢٧هـ) ثم القت الجيوش وسارت إلىٰ بلجراد فضربت عليها الحصار حتىٰ انهارت دفاعات المدينة واستسلم الجنود المجر في (٢٥ رمضان ٩٢٧ = ٢٩ أغسطس ١٥٢١م) ودخلت الجيوش العثمانية إلىٰ المدينة المنيعة، عاصمة الصرب، التي عجز عنها مراد الثاني ومحمد الفاتح. وصلىٰ سليمان القانون الجمعة في بلجراد. وكان من الأخبار التي تهتز لها أرووربا لزوال الحواجز بين العثمانيين وبين بلاد المجر.

ولم يمض كثير وقت حتىٰ بدأ العثمانيون في حصاد ثمار الفتح، فقد انطلق الجيش العثماني إلىٰ عاصمة المجر (بودا بست) وقد انقلب الوضع وصارت بلجراد قاعدة عسكرية إسلامية متقدمة ضد المجر، وقاد سليمان القانوني جيشه وافتتح عدة قلاع علىٰ الطريق حتىٰ وصلوا إلىٰ وادي موهاكس، وهناك دارت إحدىٰ أكبر المعارك في التاريخ العثماني (معركة موهاكس: ٢٠ ذي القعدة ٩٣٢هـ = ٢٨ أغسطس ١٥٢٦م) والتي انتصر فيها العثمانيون انتصارا كاسحا أبيد فيها الجيش المجري وقُتِل ملكهم لويس، ودخلوا به عاصمة المجر نفسها (بودا بست) (٣ ذي الحجة ٩٣٢هـ = ١٠ سبتمبر ١٥٢٦م).

صحيح أن العثمانيين استولوا علىٰ عاصمة المجر، لكنهم فضلوا أن تكون في ظل سيادتهم لا أن يحكموها مباشرة، لما في بعدها الجغرافي وظروفها الاجتماعية من صعوبات وتكاليف، ولذلك فقد عهد بها سليمان القانوني لأحد تابعيه، وهو يوحنا زابوليا حاكم ترانسلفا (الإقليم الغربي من رومانيا) وانتخبه المجلس الهنغاري/ المجري، ولما تآمرت النمسا لخلعه جهز سليمان جيشا آخر ردَّ به زابوليا إلىٰ الحكم، بل وسار إلىٰ حصار فيينا ذاتها عاصمة امبراطورية النمسا وقلعة آل هابسبورج الأقوياء.

وهكذا كانت بلجراد فاتحة بوادبست التي كانت فاتحة فيينا، ولو أن سليمان القانوني خلفه سلطان قوي لتوقعنا أن يكون الآن تاريخ آخر.

حماية فلسطين:

هي مأثرة في زمن الأفول والغروب، فلقد أبىٰ المسلمون الترك أن يفرطوا في فلسطين، ومهما قيل في تقييم شخصية السلطان عبد الحميد فإن سيرته في ملف فلسطين إنما هي صفحة ناصعة جليلة، يزيد في نصوعها وجلالها أنه لم يأت بعده حاكم إلا وهو بين حالين: الإهمال أو الخيانة، والثانية أفشىٰ وأطغىٰ.

في مثل هذا اليوم (٢٦ رمضان ١٣١٠ = ١٣ إبريل ١٨٩٣) أكدت الخلافة العثمانية في وجه الضغوط الإنجليزية علىٰ قراراتها التي سبق أن أصدرتها لمنع اليهود من الاستيطان في فلسطين، وأوضحت أن ما أصدرته من فرمانات لمنع اليهود من الهجرة إلىٰ فلسطين ومنع بيع الأراضي لهم لا علاقة له بالاضطهاد الديني وإنما يستهدف «منع اليهود من الإقامة الدائمة في فلسطين»، وكان هذا التأكيد بمثابة رد جازم علىٰ احتجاجات واسعة اشترك فيها القنصل البريطاني نفسه وحولها إلىٰ أزمة دبلوماسية! ولم يستثن القرار العثماني أحدا من اليهود ولا يهود بريطانيا أنفسهم!

كان هذا القرار واحدًا من سلسلة المقاومة العثمانية الطويلة للوجود اليهودي في فلسطين، فلقد كانت بداية القصة مبكرة!

(١)

تبدأ القصة من الشعور المتجذر لدىٰ اليهود بأنهم في منفىٰ وغربة يلهبها حلم العودة إلىٰ الأرض المقدسة التي نُفُوا منها[١]، وقد نتج عن هذا الشعور محاولات متكررة فردية وجماعية، وما كان لمثل هذه المحاولات أن تنجح إلا بظهور حركة قوية تُدخل نفسها في سياق دولي وتضع نفسها في معادلة القوىٰ

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (الموجزة)، دار الشروق، مصر، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م، ١/ ٦٨ وما بعدها.

كخادم لبعض أطرافها، وهو ما تحقق أخيرًا بالحركة الصهيونية التي ما كان لها أن تنجح إلا في ظل انهيار الدولة الإسلامية (العثمانية في تلك اللحظة التاريخية) حين وضعت نفسها كرأس حربة للمشروع الصليبي[(١)]!

يتحدث كتاب «تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية» (ص٥٠٩ وما بعدها)، وهو مجموعة دراسات كتبها مؤرخون يهود، عن فرمان من السلطان العثماني سليم الأول (فاتح مصر) أو ابنه سليمان القانوني بمنع اليهود من الاستيطان في سيناء، ولا ندري بالضبط الظروف التي اضطرت الخلافة لإصدار هذا الفرمان، ولكن لا ريب أنه رُصِدت حركة استيطانية مبكرة في سيناء فووجهت بهذا الإجراء. ثم كان هذا الفرمان قانونا يستنجد به رهبان دير سانت كاترين لمواجهة أي محاولة استيطانية يهودية متكررة[(٢)].

هذه هي أول واقعة نستطيع رصدها في تاريخ الدولة العثمانية لمواجهة الحركة اليهودية نحو سيناء أو فلسطين.

(٢)

لم يتجدد الطموح في فلسطين إلا ين ضعفت الدولة العثمانية:

وأول ما يطالعنا في هذا الشأن بيان نابليون بونابرت زمن الحملة الفرنسية

---

(١) كان جعل اليهود رأس حربة للمشروع الصليبي، أو بتعبير المسيري «جماعة وظيفية للغرب»، من أركان دعاية الحركة الصهيونية، ونسبت ذلك لكل قائد غربي حتىٰ الإسكندر الأكبر. **انظر**: هنري لورنس: بونابرت والدولة اليهودية، ترجمة: بشير السباعي، دار مصر العربية، مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٨م. ص٤٥، ٥١.

(٢) انظر:

- يعقوب لانداو (تحرير): تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية، ترجمة: جمال الرفاعي وأحمد حماد، المركز القومي للترجمة، مصر، ٢٠٠٠م. ص٥٠٩ وما بعدها.
- إسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان، السعودية، ١٩٩٥م. ص٢٤٦ وما بعدها.

والموجه إلىٰ اليهود بأنه قد انفتح الطريق لهم أمام العودة إلىٰ عاصمتهم أورشليم، وتذكر بعض الوثائق كيف أن نابليون هو أول من فكر في استخدام اليهود كرأس حربه للمشروع الصليبي، يمهد بهم طريقه في الشرق. إلا أن بعض البحوث تشكك في كل هذا وتنسبه إلىٰ ادعاءات الصهيونية العالمية التي حاولت إيجاد مبررات ودلائل وسوابق تاريخية للتفكير الأوروبي في دولة يهودية بفلسطين، في إطار حثها بريطانيا علىٰ تبني مشروع الدولة اليهودية(١).

ثم زاد ضعف الدولة العثمانية أمام محمد علي الذي استطاع احتلال الشام، الذي خضع للحكم المصري بين عامي (١٨٣١ - ١٨٤٠)، وفي تلك الحقبة اتسع النفوذ الأجنبي في الشام كما هي سياسة محمد علي في فتح الأبواب للأجانب، وكان أبرز هذه المظاهر: السماح للأجانب بتملك وشراء الأراضي والسماح بالإقامة الدائمة والسماح بالنشاط والتبشيري، ثم كان أهم هذه المظاهر قاطبة: افتتاح قنصليات أجنبية، وقد كان من ضمن مهمات القنصليات الأجنبية في القدس حماية الأقلية اليهود (وكانت الأقليات في هذه الفترة شعار وسبيل التدخل في الشؤون العثمانية، فتكلفت روسيا بحماية الأرثوذكس وفرنسا بحماية الكاثوليك)، وكان أهم هذه القنصليات هي البريطانية التي كانت أقوىٰ دولة في العالم وقتها. وافتتحت في القدس عام ١٨٣٨م.

وفي هذه الفترة تأسس مشروع كبير لتوطين اليهود في فلسطين حمله موشيه مونتفيوري إلىٰ الباشا يقضي بتأجير من ١٠٠ إلىٰ ٢٠٠ قرية لخمسين سنة، مع دفع الأعشار مقدما وبزيادة ١٠ - ٢٠٪، وقد وافق الباشا فعلا، إلا أن تطور السياسة منع من اكتمال المشروع، إذ أُجبر محمد علي علىٰ ترك الشام والاكتفاء بمصر بعد مؤتمر لندن ١٨٤٠.

ويرصد تقرير فرنسي (من عميل يدعىٰ جول دي برتو مرفوع إلىٰ وزارة

---

(١) هنري لورنس: بونابرت والدولة اليهودية ص٥٢ وما بعدها.

الخارجية الفرنسية بتاريخ نوفمبر ١٨٤٠) يقول بأن بريطانيا إنما أصرت على تخلي محمد علي عن الشام بأنه تدبير منها لإنشاء دولة يهودية، ورصد التقرير وجود بعثة بريطانية برئاسة الدكتور «كايت» مؤلف كتاب عن «تحقيق النبوءات». ومنذ ذلك الوقت ظهرت فكرة الدولة اليهودية على الصحافة فكتبت التايمز مقالا بعنوان «سوريا وبعث اليهود» (١٧/ ٨/ ١٨٤٠)، وجاء في رسالة من السياسي البريطاني شافتسبري لوزير الخارجية بالمرستون (بتاريخ ٢٥/ ٩/ ١٨٤٠) أن أرخص وأضمن وسيلة لجعل سوريا منطقة بريطانية هي توطين اليهود[١]. وكانت بريطانيا تواقة لأن تكون لها أقلية تحمي مصالحها وتكون سبيلا لنفوذها الداخلي كما للروس مع الأرثوذكس والفرنسيين مع الكاثوليك.

(٣)

ثم كانت الأزمات الكبرى في هذا الملف حين وصل ضعف الدولة العثمانية إلى غايته، وكان السلطان عبد الحميد الثاني قد ورثها، في ظل التوحش الصليبي والأطماع اليهودية التي صارت علنية بقيادة تيودور هرتزل. وحيث كانت الخلافة العثمانية ضعيفة لا تقوى على حسم الأمور بالسيف فقد صارع عبد الحميد وبذل أقصى مجهوده على مستوى السياسة ومحاولة الدخول على خط التنافس الداخلي الأوروبي ليستعين ببعضهم على بعض.

ومن قبل عبد الحميد، أصدر السلطان عبد العزيز أمرا بتحويل القدس إلى «متصرفية» تتبع الخلافة مباشرة بدلا من كونها «سنجق» ضمن ولاياتها تخضع لإدارة محلية، ثم جاء عبد الحميد فأصدر قرارا (٢٥ ربيع الثاني ١٣٠٨ = ٧ ديسمبر ١٨٩٠) بثبيت وضع الأراضي في القدس كأراض أميرية يُحظر البيع

---

(١) رفيق شاكر النتشة: السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م. ص٨٣.

والشراء فيها، واشترىٰ كثيرًا من أراضي فلسطين من أموال الخزانة الخاصة للتضييق علىٰ تمدد الشراء الأجنبي، ورفض منح الجنسية العثمانية لعدد من اليهود، وأصدر عددا من الفرمانات والقرارات التي تحول دون بيع الأراضي لليهود في سائر الدولة العثمانية وفي فلسطين علىٰ وجه أخص. ورغم العرض السخيّ الذي تقدم به هرتزل لسد العجز في ميزانية الدولة، مع الدعم الإعلامي، وهو العرض المصحوب بضغوط أوروبية سياسية، إلا أن السلطان فضَّل أن يخلد في التاريخ، وقد فعل، وكان موقفه هذا -بالرغم من كل ما يُدان به في سياساته الأخرىٰ- صفحة ناصعة في تاريخه وتاريخ الدولة العثمانية وتاريخ الأتراك المسلمين(١).

---

(١) انظر:

- رفيق شاكر النتشه: السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ص٤٨ وما بعدها.
- أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتوك: الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٨ م. ص٤٤٨ وما بعدها.
- مروان عبد الرحمن أبو شمالة: الاستراتيجية الصهيونية تجاه مدينة القدس، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ٢٠١٢. ص١٠٨ وما بعدها.

الدولة العثمانية عند جلال كشك

كلما أطل علينا شهر ديسمبر[١] حمل معه ذكرىٰ رحيل الأستاذ العملاق والمفكر الكبير محمد جلال كشك، والذي توفي (٥ ديسمبر ١٩٩٣م) أثناء مناظرة مع العلماني نصر أبو زيد عن الكتاب الفضيحة لهذا الأخير «الإمام الشافعي وتأسيس الأيدولوجية الوسطية»، وكانت أظهر فضائحه أنه جعل الشافعي عميلا لبني أمية وهو الذي وُلِد بعد غروب دولتهم بعشرين سنة! وكان جلال كشك قد تعرض لهذا الكتاب بفصل في غاية القوة ضمن كتابه «قراءة في فكر التبعية» والذي كان آخر كتبه ونُشِر بعد وفاته رحمه الله.

لم يمت جلال بالسرطان الذي كان قد أصابه قبل وفاته بسنين وحدد له الأطباء في أمريكا ستة أشهر، ولكنه عاش بعدها سنين ليموت بأزمة قلبية في هذه المناظرة، فكانت ميتة شرف وحسن ختام لرجل ظل يكافح أعداء الأمة وينازلهم ويسحقهم ويكشف سوآتهم، وأحسب أنه لولا جلال كشك ما استطاع أحد أن يخدش مكانة محمد حسنين هيكل، رأس الثقافة والسياسة في عصره والذي ما يزال يحظىٰ بتقدير كبير في دائرة الإعلام العربي لا لشيء إلا لأنه من زعماء العصابة الإعلامية العربية ربيبة الاحتلال وخادمته.

من يقرأ في التاريخ الحديث يعرف أن جلال كشك يكاد يكون الوحيد الذي تصدىٰ لهيكل بكل عنف، وتحداه بكل قسوة، وصلت إلىٰ أن ينابذه علنا ويستفزه أن يذهب به إلىٰ المحكمة، وهيكل لم يحاول أن يرد أبدا، لكنه كان دائما يطلق صبيانه علىٰ جلال كشك ويدعمهم معنويا وقضائيا لينالوا منه،

(١) نشر هذا المقال بتاريخ ٢٥ ديسمبر ٢٠١٥م.

ولكن: ماذا يأخذ الكلاب من بين يدي الأسد!

طالت المقدمة، فسامحني أخي القارئ، ولكن جلال كشك بالنسبة لي هو أبي الروحي الذي لم أعرف مثله ولم أجد مثله حتىٰ ظهر حازم أبو إسماعيل فملأ بعض ذلك الفراغ، لقد كان جلال كشك عقلية فذة تنطلق من معرفة غزيرة موسوعية متعددة المشارب والاهتمامات يعبر عنها لسان ناري يُذَكِّر بلسان ابن حزم رحمه الله. ولقد كان كذلك لأن الإسلاميين -لظروف كثيرة ليس هذا موضع بيانها- يندر فيهم من يفهم السياسة والإسلام معا، كما يندر فيهم الثوري علىٰ بصيرة وفطنة، ولقد كان جلال كشك هكذا: طاقة ثورية مع قراءة بصيرة للتاريخ مع اعتزاز كامل بثقافته الإسلامية مع يقظة تامة للأوضاع والأحوال السياسية، ولهذا كانت كتبه -حتىٰ الصغير منها- وجبة فكرية وروحية دسمة!

صحيح أنه لا يمكن أن نصفه بالعالم في الشريعة لكنه كان عميقا في فهم النموذج الإسلامي وتميزه الحضاري عن النموذج الغربي وكان يضع يديه بكفاءة علىٰ نقاط الافتراق والتناقض. وصحيح أنه لا يمكن وصفه بالمؤرخ بالميزان الأكاديمي إلا أن ما لديه من فهم سنن التاريخ والجمع بين إدراك مساره العام والتقاط تفاصيله مع سعة الاطلاع في التواريخ يجعله في عداد عظماء المؤرخين، بل وجدت في كلامه من روائع هذا الفهم ما لم أجده في معظم من تشربوا التاريخ أكاديميا.

ونحن نستثمر حلول ذكراه، ونستثمر تخصص هذا الموقع في الشأن التركي، لنورد بعضا مما كتبه جلال كشك في شأن الدولة العثمانية والسياسة التركية.

(١)

ينادي جلال كشك علىٰ العرب بالحذر من المصادر التي يتلقون عنها التاريخ العثماني، وذلك في كتابه المكتوب في منتصف الستينات، أي في ذروة طغيان القومية العربية، وحيث لا يُرىٰ الأتراك إلا بعيون الكراهية والبغضاء، فيقول:

«حتىٰ نحدد العلاقة السليمة بين العروبة والإسلام، كان لابد للبحث أن يتناول بالتحليل تاريخ الدولة العثمانية، حيث كنا نحن العرب خلال القرون الأربعة الأخيرة، وحيث وصل التناقض إلىٰ أقصاه لأول مرة في تاريخنا الإسلامي والعربي.

والدولة العثمانية كانت العدو الأول لأوروبا الصليبية في نهضتها، اصطدمت بها عند بداية توسعها، وهددت الدولة العثمانية هذا التوسع وأوقفته، بل وغزت أوروبا في عقر دارها وحملة راية الإسلام إلىٰ أسوار فيينا، وارتبطت بعداوة أبدية مع روسيا القيصرية، إذ كان التوسع القيصري الروسي يصكدم بها ويتم علىٰ حسابها، ثم كانت هي الفريسة التي تقاسمتها الدول الأوروبية وتنازعتها.

من هنا كان يجب علىٰ المفكرين المسلمين والعرب أن ينظروا بعين الشك لكل ما وصلهم من تفسير أو تحليل لتاريخ الدولة العثمانية.. لأن مصادره هي العدو.. العد الذي نجح في رسم صورة مزرية لآخر ممثلي حضارة المسلمين. صورة كانت تهدف إلىٰ تذكية حماسة شعوبه لمواجهتها ولتبرير سلوكه الإجرامي ضدها وتآمره، بل تجاهره في تفتيتها وتمزيقها والتهامها عضوا عضوا وهي حية»[1].

(٢)

ويمضىٰ خطوة أخرىٰ إلىٰ الأمام فينادي بأن حديث الحق عن القومية العربية لابد أن يتذكر فضل العثمانيين عليه، وألا يكون تابعا أعمىٰ لحركات مسيحية كانت قد نبتت ضد الدولة العثمانية في الشام فاتخذت لافتة القومية العربية، يقول:

«قضية القومية العربية اللا إسلامية مرتبطة تمام الارتباط بقضية الدولة

---

(١) جلال كشك: القومية والغزو الفكري ص٢٩.

العثمانية؛ فهذه الحركات قد نبتت ضد الدولة العثمانية وفي الشام بالذات، وحجتها الوحيدة هي مقاومتها للسلطة التركية، ومن ثَمَّ كان التقويم السليم للدولة العثمانية ضروريا لتحديد طبيعة هذه الحركات.

وإذا أردنا أن نخرج بحكم موضوعي علىٰ الدولة العثمانية فيجب أن نفتش عن الحقائق بعيدا عن كتابات الأوروبيين وآرائهم، فالدولة العثمانية كانت آخر حاجز إسلامي في وجه صليبية أوروبا.. إنها هي التي منعت الغزو الصليبي للعالم الإسلامي علىٰ الأقل من بوابته الأمامية طوال ثلاثة قرون. وهي التي حالت دون احتلال الوطن العربي أربعة قرون كاملة، فمنعت فناءه القومي.

الدولة العثمانية هي التي انتزعت القسطنطينية وأسمتها إسلام بول بعد أن صمدت القسطنطينية للزحف الإسلامي قرابة تسعة قرون، فتركت الدولة العثمانية بفتحها جرحا داميا في كل صليبي أوروبي، لم يمحه إلا عودة الصلبان تطل من جديد في كنيسة آيا صوفيا بعد أربعة قرون تردد الآذان من مآذنها.

والدولة العثمانية هي التي طرقت أبواب فيينا وقهرت شرق أوروبا حتىٰ أصبح اسم «تركي» (وهو ما زال إلىٰ عهدنا هذا يعني «مسلم» عند العامة في أوروبا) مصدر رعب يخيفون به الأطفال. فمن الوجهة الصليبية البحتة، أي بالتفسير الذي يرىٰ في الصراع الديني أحد عوامل تكوين تاريخ العلاقات بين أوروبا والشرق.. بهذا التفسير نرىٰ أنه من الطبيعي جدا أن تكون الدولة العثمانية هدفا لحملات تشهير غير علمية وغير منصفة تهدف إلىٰ تلطيخ سمعة الإسلام وإثارة التعصب الديني عند مقاتلي أوروبا للهجوم علىٰ البرابرة: الدولة العثمانية واستئصال الإسلام الشرير!

وهذه الهستريا التشنجية هي التي حركت التضامن الأوروبي خلف كل انتفاضة مسيحية ضد الدولة العثمانية.. فالحرب الصليبية التي بدأت في القرن الحادي عشر، ثم حملت لواءها البرتغال وإسبانيا.. لتعم بعد ذلك أوروبا، هذه

الحروب الصليبية اصطدمت بموجة إسلامية جارفة، أنقذت الإسلام من أن تطويه الموجة المسيحية الزاحفة..

هذا اللقاء أو الصدام، أورث أوروبا الحقد والعداوة ضد الدولة العثمانية..

وإذا نحينا هذا المنهاج في التفسير واستبعدنا الدافع الديني تماما لنكون «شُطَّارًا» من أبناء العصر «المتنورين» فسنرىٰ أن الدولة العثمانية كانت منذ أواخر القرن الثامن عشر تمثل الفريسة المطروحة أمام الذئاب الاستعمارية للتقسيم والنهض والابتلاع.

كل التوسع الاستعماري كان يصطدم بها ويقتطع منها.. فرنسا في شمال إفريقيا وساحل الشام، انجلترا في جنوب الجزيرة العربية والخليج.. ثم مصر وإفريقيا فالعراق.. إيطاليا في طرابلس.. روسيا علىٰ طول امتدادها وتوسعها سواء في الولايات الإسلامية التي لجأت إلىٰ ضمها أو في البلقان حيث جرىٰ طرد المسلمين وإبادتهم..

كان من الطبيعي أن يبرر هؤلاء الذئاب حرصهم علىٰ تحطيم الدولة العثماية واقتطاع أجزائها.. تبرير ذلك بدافع إنساني وتقدمي.. لا بد أن تكون الفريسة رجعية وكريهة وغير جديرة بالبقاء حتىٰ تغدو عملية غزوها إنسانية رحيمة، ومن أجل تقدم البشرية وتحرير الشعوب البائسة من النير التركي.. رسالة الرجل الأبيض الذي حمَّلتْه الأقدار مسؤولية تحرير كل الجنس البشري.. تحريره من كل عبودية إلا عبودية السيد الأبيض واستغلاله.

من هنا يجب أن نتحفظ عندما يقول جلادستون أن السلطان عبد الحميد هو الشيطان، لأن جلادستون هو «إبليس عينه»، فهو الذي قضىٰ علىٰ استقلالنا..

لنرفض هذه الأحكام المسبقة والصورة الرهيبة التي تكتبها أقلام صليبية واستعمارية عن الدولة العثمانية فقد كانت هذه الدولة وما زالت هدفا ممتازا

لعمليات الغزو الفكري.. ولنحاول أن نتفهم ماذا كانت الدولة تمثل في التاريخ، وكيف قامت، ولماذا قامت، وكيف انهارت.

(٣)

ثم يمضىٰ خطوة أخرىٰ للأمام في كتابه التالي الذي صدر في مطلع السبعينيات «حوار في أنقرة»، فدافع عن الدولة العثمانية ضد اتهامات الأتراك الأتاتوركية، فمن ذلك أنه سُئل: هل تنكر أن الدول العربية فقدت عروبتها بالفتح التركي؟

قال: «العكس هو الصحيح، البلاد التي فتحها العثمانيون هي التي بقيت عربية؛ إسبانيا، البرتغال، صقلية، رودس، كريت، مالطة، وشرق وغرب ووسط أفريقيا، كلها كانت عربية وفقدت عروبتها لأن السيوف التركية لم تحمها.. الاستعمار الغربي الذي ظهر مع قيام الدولة العثمانية كامبراطورية كبرىٰ كان يحمل طابع الإبادة القومية.. ولو امتد الغزو الغربي من إسبانيا والبرتغال إلىٰ الشاطئ الإفريقي، ثم لو انتشر إلىٰ الشاطئ السوري لما بقينا عربا حتىٰ الآن.. بل لكُنّا شيئا شبيها بالمالطيين، أو حتىٰ كسكان أمريكا اللاتينية في أفضل الأحوال. الذي أبقانا عربا هم الأتراك والمدفعية التركية والأسطول التركي والدم التركي الذي دافع عن شواطئنا ثلاثة قرون حتىٰ نضجت عوامل المقاومة وتغير شكل الاستعمار الغربي، ولم يعد الاحتلال الغربي يحمل خطر الإبادة القومية التي كان يمثلها في القرن الخامس عشر أو السادس عشر»[١].

❁❁❁

(١) جلال كشك: حوار في أنقرة ص٢١، ٢٢.

الخطأ التاريخي للدولة العثمانية

من كان عربيا ولبث في تركيا شيئًا من الزمن عرف إلىٰ أي مدىٰ كان ترك الدولة العثمانية للسان العربي خطأ تاريخيًّا فادحًا، وقد ترتبت عليه آثار بعيدة ليس يمكن تلافيها في المدىٰ القريب ولا المتوسط، بل ولعل من الآثار ما لا يمكن تلافيه بحال[1]!

إن للأتراك عاطفة حارة، مع صلابة وبأس واستمساك شديد، وتكاد الحسرة تأكل القلوب حين تجد حاجز اللغة الرهيب هذا يفصل بينهم وبين العرب، فقليل من الترك من يفهمون العربية وأقل منهم من العرب من يفهم التركية، وهكذا يعيش الشعبان في فهم بعضهما والتعامل علىٰ الترجمات والمترجمين، وهو أمر يشبه حاجزا ضخما بين بحرين كبيرين لكنها لا يلتقيان إلا عبر قنوات معدودة وضيقة، فاجتماع القوتين ممتنع!

وحاجز اللغة هذا ليس مجرد حاجز تواصل، بل هو علىٰ الحقيقة حاجز حضاري ضخم يمنع كلا الشعبين من الاستفادة من أفكار الآخر وعلومه والاطلاع علىٰ تجديداته وآثاره في سائر ميادين الحياة.. ولقد كانت القسمة العربية التركية ركنا ركينا في سقوط الدولة العثمانية.

وقد أثار هذا الأمر انتباه العديد من المصلحين منذ لاحت في الآفاق ضعف الخلافة العثمانية وبوادر انهيارها، فلقد سجل جمال الدين الأفغاني في خاطراته كيف دخل عليه ذات يوم أديب تركي وهو يحمل كتابا فيه مذكرات ضياء باشا يقول فيها:

---

(١) نشر هذا المقال بتاريخ ٦ أكتوبر ٢٠١٥م.

«توغلنا في الفتوحات حتىٰ توسطنا كبد أوروبا ودخلنا فيينا واضطررنا للتخلي عنها وليس لنا ثمة أدنىٰ أثر أدبي أو مادي، وهكذا بالاستدلال سيكون حالنا في بقية تركية أوروبا مثل بلغاريا والفلاخ والبغدان والصرب والجبل الأسود وغيره من البلدان... أما العرب ففي كل ما فتحوه من البلاد، حربا كان أم صلحا، قد تركوا من الآثار الأدبية والمادية، ما لا يقوىٰ علىٰ ملاشاته الأدهار... والأغرب أن التركي والجركسي والأرناؤوطي وغيرهم من العناصر يستعرب متىٰ وجد أو سكن في بلاد العرب بأقرب الأوقات، ويمتزج في المجموع حتىٰ تخال أنه عربي قح، وأما في حكمنا فلم نستطع أن نستترك أدنىٰ فئة ممن حكمناهم من الأمم بكمال العدل الإسلامي والسماح التركي ولين الجانب».

فعَلَّق جمال الدين الأفغاني علىٰ هذه الظاهرة بقوله: «إن المرحوم ضياء باشا أشكل عليه الأمر لما اعتقد أن الأتراك قد شابهوا العرب تماما بمعنىٰ أنهم دخلوا في دين الإسلام، وجَرَوْا علىٰ سننهم بالفتوحات من حيث العدل ولين الجانب! ولكن قد فاته أن لكل دين لسانا -لغة- ولسان دين الإسلام «العربي». ولكل لسان آداب ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق وعلىٰ حفظها تتكون العصبية. فالأتراك أهملوا أمرا عظيما وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح -رحمة الله عليه- وأحبَّ أن يعمل بها السلطان سليم وهي قبول اللسان العربي، لسان الدولة وتعميمه بين من دان بالإسلام من الأعاجم ليفقهوا أحكامه ويمشوا علىٰ سنن الارتقاء بعلومه وآدابه ومكارم أخلاقه ومحاسن عوائد أهله. فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهري فقط بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه وذلك تمَّ ولا يتمّ إلا باللسان وهو أهم الأركان» وطفق الأفغاني يفسر فتوحات العثمانيين الأولىٰ بتقديم السلاطين العثمانيين الأوائل للعلماء العرب[1].

(١) جمال الدين الأفغاني: الآثار الكاملة (الخاطرات) ٦/ ٩٠.

يجدر التنبيه هنا إلىٰ أن نؤكد أن الأمر ليس عنصريا ولا عرقيا بحال، بل إن العربية -في المفهوم الإسلامية- هي عروبة اللسان، فمن نطق بالعربية فهو عربي، وفي الحديث «إنما العربية اللسان» وهو وإن ضعفه العلماء إلا أن معناه - كما قال ابن تيمية- «ليس ببعيد، بل هو صحيح من بعض الوجوه»[1].

لقد كان طبيعيا إذ لم تتعرب أن يتسارع فيها وتيرة التراجع العلمي، فلقد عمل الحاجز اللغوي علىٰ تضييق قنوات الاتصال العلمية بين الأتراك وبين العرب والتراث العربي، ومن ثَمَّ لم يكن سهلا إصلاح الحال إذ امتنع علىٰ الأتراك قراءة تراث ضخم بالعربية كما امتنع علىٰ العرب وعلماء المسلمين معرفة وفهم الأحوال علىٰ وجهها الصحيح لدىٰ الترك، وكان بالإمكان إذا تعربت الدولة وسقط حاجز اللغة أن يكثر المجتهدون عربا وتركا فيتمكنون من إنهاض الحركة العقلية التجديدية في علوم الدين والدنيا، إذ تستطيع كثرتهم أن تستوعب تطورات الحياة وما يدخل إليها من طوفان الجديد في كل يوم.

وهذا المعنىٰ انتبه له وصاغه ببراعة أستاذنا القدير جلال كشك رحمه الله حين قال:

«صحيح أن مدفعية الأتراك قد أبعدت سفن الفرنجة عن الشواطئ العربية.. غير أن الأمم لا تقوم علىٰ المدافع وحدها.. ولسوء حظنا كانت النهضة الحديثة لا تقوم علىٰ التفوق العسكري من خلال الأسلحة التقليدية وحدها.. بل تقوم علىٰ التطور الصناعي والعلمي الذي يضيف كل يوم سلاحا جديدا ومدفعا من عيار أقوىٰ وأبعد مرمىٰ.. والقوة العسكرية ما لم تصاحبها نهضة علىٰ جميع مستويات الأمة، سرعان ما تنقلب وبالا علىٰ الأمة ذاتها» وبرغم ما أنجزته القوة العسكرية العثمانية من تغييرات تاريخية فارثة إلا أنها «لم تجد حضارة خلفها تسندها وتطورها وتجدد دماءها»، «ولم يكن أمام الأتراك

(١) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٦١.

من سبيل للتطور الحضاري إلا تبني الحضارة العربية وتطويرها ولكنهم أضاعوا فرصتهم الوحيدة في التاريخ برفضهم اتخاذ اللسان العربي ومن ثم الفِكْر العربي.. وقد حاول السلطان سليم أن يجعل اللغة العربية لغة رسمية وكان هو مثقفا عربيا ويتقن اللغة العربية ويمارس لونا من الشعر العربي»[1].

لقد كانت الدولة العثمانية -كما يقول محمد قطب- «أول خلافة ذات لسان غير عربي، ولم يستعرب. واللسان العربي أمر له أهميته في فهم كتاب الله وفقهه. وقد كان عدم استعراب هذا اللسان مُعَوِّقا عن التفقه في هذا الدين رغم الحماسة الظاهرة له»[2]، ويسجل أنه كان بالإمكان المسامحة في هذا عند لحظة البداية، لحظة الضرورة، حيث الإسلام في حاجة إلىٰ دولة تحميه من الخطر ولو لم يكن لسانها عربي إلا أن الخطأ الكبير أن تستمر «دولة الخلافة» بغير اللسان العربي، يقول: «ولم يكن ذلك يؤثر في مبدأ الأمر، مع الإخلاص وصدق العزيمة، والعمل الجاد لتوحيد العالم الإسلامي، ووضعه تحت قيادة قوية موحدة تحميه من التمزق الذي كان يعانيه في أواخر الدولة العباسية. ولكنه علىٰ مرّ الأيام صار يؤثر، إذ أحس الشعب العربي، الذي ظل طيلة تسعة قرون علىٰ الأقل هو قلب الإسلام النابض، بلون من العزلة، وحكامه يخاطبونه بغير لغته، وبغير اللغة التي نزل بها الإسلام.. وظلت هذه العزلة تتزايد مع توالي الظروف السياسية التي أحاطت بالدولة العثمانية، حتىٰ تمكن الأعداء الماكرون من تمزيق جسم الأمة، وكانت قضية «الترك» و«العرب» من الأدوات التي استخدموها -بخبث- في التمزيق. ولو تصورنا أن دولة الخلافة قد استعربت، وتكلمت باللغة التي نزل بها هذا الدين، فلا شك أن عوامل الوحدة داخل الدولة كانت تصبح أقوىٰ وأقدر علىٰ مقاومة عبث العابثين. فضلا عما يتيحه تعلم

(١) جلال كشك: القومية والغزو الفكري ص١٧٧.

(٢) محمد قطب: كيف نكتب التاريخ الإسلامي ص١٨١.

العربية من المعرفة الصحيحة بحقائق هذا الدين من مصادره المباشرة: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مما كان الحكام والعامة كلاهما في حاجة إليه، علىٰ الرغم من كل ما ترجم إلىٰ التركية، وما أُلِّف أصلا بالتركية حول هذا الدين»(١).

ولقد ظل محمد رشيد رضا الذي يصحّ أن نسميه آخر المصلحين العظماء في عصر الدولة العثمانية، ظل يناصح الخليفة عبد الحميد -والدولة العثمانية في النزع الأخير- أن ينقذ الانهيار بأن «يجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية، ويجتهد في استعراب الترك أجمعين، ويؤلف منهم ومن عرب العراق ونجد والحجاز قوة عسكرية منتظمة ويقيم الشرع، فإذا هو فعل ذلك يكون له مُلْك عظيم وعز منيع، ويأمن غائلة الخارجين بدعوىٰ الخلافة»(٢).

وذهب يستفيض عبر مقالات مجلة المنار في الأمر، ويشرح كيف أن التعرب ينقذ الدولة ويصنع لها نفوذا بعيدا ويقطع الطريق علىٰ محاولات القوميات وتشوق البعض لقسمة الدولة بالدعوة إلىٰ «خلافة عربية»، فيقول: «إن غوائل اختلاف اللغة في الدولة لا تنكر، وإن فوائد توحيدها ووحدة الأمة بها لا تجهل، وإن رجحان العربية في الدين والعلم والسياسة لَهو أوضح وأظهر، فإنها هي التي تتوفر الدواعي علىٰ تعميمها؛ لأن الناطقين بها أكثر من الناطقين بغيرها، وإرجاعُ القليل إلىٰ الكثير أسهل من عكسه؛ ولأن للترك والكرد والألبان باعثًا نفسيًا يبعثهم علىٰ تعلمها؛ وهو الحاجة إلىٰ فهم كلام ربهم ﷻ وحديث نبيهم ﷺ وحكم سلفهم الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وكتب أئمتهم في التفسير والحديث والفقه وغيرها من علوم الدين -رحمهم الله- والوقوف علىٰ تاريخ دينهم. ومن الجهل أن يقال: إنهم يستغنون عن ذلك كله بالترجمة لما سنبينه في فرصة أخرىٰ، ولأن جعلها اللغة الرسمية هو الذي يزيل خطر تفرق الأجناس،

---

(١) محمد قطب: واقعنا المعاصر ص١٤١، ١٤٢.

(٢) محمد رشيد رضا: الدولة العلية ومكدونية، ورأي في الإصلاح، مجلة المنار، ٦/ ٤٣٣.

فإذا اتفق عليها المسلمون الذين يشاركون فيها غيرهم من الملل في البلاد العربية، لا يبقىٰ للروم والأرمن سبيل لطلب تعليم لغتهم في مدارس الدولة، ولا يكون لتعليمهم لها في مدارسهم خاصة تأثير في إضعاف الوحدة؛ ولأنها لغة حضارة سابقة وعلوم وفنون؛ ولأنها اللغة المشتركة بين جميع المسلمين ولأنه يمكن أن توسع دائرة نفوذ الدولة بنشرها في الممالك الشرقية التي يكثر فيها المسلمون: (الصين وجاوه والهند) من غير نفقة توازي عشر معشار ما تنفقه الأمم الغربية لنشر لغاتها، وتوسيع دائرة نفوذها وتجارتها في الشرق؛ ولأن الدولة تأمن بذلك من قيام دولة عربية تدعي الخلافة وتنازعها النفوذ في العالم الإسلامي بنفسها وبمساعدة بعض دول أوربا؛ ولأن في ذلك تحقيقًا لمقصد من مقاصد الإسلام العالية وهو محو العصبيات الجنسية وتوسيع دائرة الأخوة الإنسانية»[١].

ثم صار يقترح حلولا بديلة لتعايش اللغتين التركية والعربية إن لم يكن تعميم العربية ممكنا، لكن نداءات رشيد رضا ذهبت أدراج الرياح، وتبعته الدولة العثمانية جميعا، وجاءت دولة علمانية شنيعة زادت في المأساة مأساة فمنعت الكتابة بالحرف العربي فأضيف بهذا حاجز ضخم بين الترك وتاريخهم وتراثهم، ومعه أضيف حاجز أضخم وأكبر بين العرب والترك، وهو حاجز لا يزال يزيدهم رهقا!

---

(١) محمد رشيد رضا: الجنسيات العثمانية واللغتين العربية والتركية، مجلة المنار، ٢١/ ٥٠١ وما بعدها.

في فهم التجربة التركية

كثيرًا ما أشعر أن ثمة رغبة عارمة لدىٰ العديد من الأطراف العرب والمسلمين في عدم فهم التجربة التركية، ومعها رغبة أخرىٰ في إلباسها ثوبا مفصلا مسبقا. والواقع أن التجربة لا يمكن الاقتراب منها -لا أقول: فهمها- دون الإقامة لفترة في تركيا، والتعامل مع بعض الشرائح السياسية والاجتماعية، وهو ما تيسر لي بأسباب لا يد لي فيها، وكان هذا من فضل الله عليّ.

إن كثيرا من حواجز اللغة والثقافة ونمط التدين والوضع السياسي والاجتماعي تجعل الصورة غامضة، كما أن حركة الترجمة من العربية إلىٰ التركية وبالعكس ضعيفة، مما يجعل اللجوء إلىٰ الترجمات الإنجليزية حلا ضروريا مع ما له من آثار جانبية سيئة كذلك.

وفي النهاية لا أدعي أني وصلت إلىٰ مرحلة أطمئن إليها من فهم التجربة، ولكن الذي كتبته هنا هو ما أطمئن إليه، وهو ما لم أكتبه إلا بعد معاناة، وقد شهد لي عدد من الأصدقاء الأتراك بدقته، وهي شهادة يعتز بها من لم يتقن اللسان التركي بعد، وهي علىٰ كل حال تعطي -كما أتصور- مفاتيح فهم التجربة بشكل عام.

صورة مختصرة لفهم تركيا: واقعها وأزماتها

في خضم التحليلات عن الشأن التركي، والتي لا شك ستصيب كثيرا من المتابعين بالتشوش لغزارتها وكثرتها، فكرنا في أن نضع خريطة عامة وصورة مختصرة تكون كالتمهيد لكل ما سواها من التحليلات(١)، فالله المستعان.

أولاً: جذور تاريخية:

١- دخل جنس الترك في الإسلام مع فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي في العصر الأموي.

٢- بزغ نجم الأتراك في التاريخ الإسلامي منذ التحول السياسي الذي صنعه الخليفة العباسي الثامن المعتصم بالله، إذ استكثر من اتخاذ الجند الأتراك بعدما شعر بأن ولاء العسكر الفارسي ليس خالصا له.

٣- حمل القادة الأتراك عبء الجهاد وحققوا بطولات كبيرة، لكن لم تمض فترة طويلة إلا وسيطروا علىٰ الحكم وصار الخليفة في حكم الأسير التابع لهم فيما يُعرف بدولة الترك أو العصر العباسي الثاني.

٤- ولكن ضعف الخلافة العام ووقوعها تحت سيطرة «البويهيين» (عسكريون شيعة، سيطروا علىٰ العراق وفارس وطبرستان) لم ينته إلا بوجود دولة سنية قوية تركية أيضا هي دولة السلاجقة.

٥- حققت دولة السلاجقة إنجازات تاريخية عظيمة للمسلمين، أبرزها معركة ملاذ كرد في أواسط القرن الخامس الهجري، حيث استطاعت ولأول مرة

---

(١) نشر هذا المقال بتاريخ ٢١ يوليو ٢٠١٦م، في ظل انفجار التحليلات بعد المحاولة الانقلابية الفاشلة ١٥ يوليو ٢٠١٦.

أسر الإمبراطور البيزنطي، وحكمت مساحة هائلة تمتد من وسط آسيا وحتىٰ أواسط الأناضول، وتشمل فارس والعراق والشام.

٦- لما ضعفت الدولة السلجوقية انقسمت إلىٰ أربعة أجزاء، كانت دولة سلاجقة الروم التي تعيش في الأناضول هي الأطول عمرا، وهي التي حققت إنجازات مهمة في التصدي للحملة الصليبية الأولىٰ، ثم هي التي ولدت فيما بعد أقوىٰ دول الترك قاطبة: الدولة العثمانية.

٧- عند أواخر دولة سلاجقة الروم أعطىٰ سلطانها لجد العثمانيين ولاية علىٰ مشارف الدولة البيزنطية، فقام هذا الأخير بواجب الجهاد خير قيام حتىٰ لمع نجمه، وما إن اشتد ساعده حتىٰ كانت دولة سلاجقة الروم تتهاوىٰ، فورث قوتها وسيطر علىٰ أراضيها وبدأ وسلالته جهادهم الكبير الذي حقق حلم المسلمين المتأخر ثمانية قرون (فتح القسطنطينية)، ثم انساحت الدولة العثمانية تفتح الشرق الأوروبي حتىٰ توقفت أمام أسوار فيينا، وتولت حماية المسلمين في أربعة جهات: شرقا ضد أوروبا وشمالا ضد الروس وجنوبا عند خليج العرب وعدن والهند ضد الإسبان والبرتغال (الذين بدأوا الالتفاف علىٰ العالم الإسلامي في عصر ما يعرف بالكشوف الجغرافية) وغربا في البحر المتوسط ضد مطامع أوروبا في الشمال الإفريقي.

٨- وسقطت الدولة العثمانية الكبيرة بعد خمسة قرون وإنجازات ضخمة، وبعد مؤامرات كثيرة كان ختامها الحرب العالمية الأولىٰ، وتصعيد طبقة عسكرية علمانية نفذت في تركيا أكثر عمليات التحول إلىٰ الغرب شراسة وعنفا علىٰ يد مصطفىٰ كمال أتاتورك الذي ألغىٰ الخلافة واحتفظ بحدود تركيا الحالية ونزع الإسلام عن نظامها السياسي والاجتماعي.

وخلاصة هذا التاريخ أن الأتراك قوم لم ينقلهم من البداوة إلىٰ الحضارة إلا الإسلام، ولا يعرفون فكرة ولا انتماء حقيقيا غيره، وهو انتماء عميق لم

يستطع حتىٰ أتاتورك محوه من النفوس بل صار جزءا من الهوية الذاتية للتركي وإن لم يكن يصلي أو يصوم أو يشرب الخمر، وشعارات الدولة العثمانية وكثير من عاداتها حاضرة بقوة حتىٰ الآن. فالإسلام هو روح الأتراك وهويتهم العميقة التي تتجدد عند كل لحظة.

ثانيًا: تاريخ تركيا المعاصر:

١- بدأ الصراع في تركيا المعاصرة منذ ألغىٰ أتاتورك الخلافة وانسحب بحدود السلطنة إلىٰ حدود تركيا الحديثة ونفذ الحملة الشرسة لإخراج الإسلام من حياة الأتراك، وفي سبيل هذا سُفِكت دماء عشرات الآلاف من البشر، ومنذ تلك اللحظة اختفت تركيا من ساحة القوىٰ الدولية واتخذت موقف السياسة المعتزلة المنكفأة علىٰ أحوالها الداخلية.

٢- لكن موقع تركيا العجيب لا يسمح لمثل تركيا أن تكون معتزلة علىٰ الحقيقة، فتركيا تقع علىٰ:

- مضيق البسفور الذي هو المنفذ الوحيد للبحر الأسود إلىٰ العالم، أي أن روسيا العظيمة الحجم لا تستطيع الوصول إلىٰ المياه الدافئة (البحر المتوسط) إلا عبر البسفور، كما أن أحدا لا يستطيع غزو روسيا أو الوصول إلىٰ ساحاتها العظيمة من طريق البحر إلا من البسفور. والبسفور يتلوه مضيق جوليبالي أيضا (والذي كان مركز الأسطول البحري العثماني)، وهما معا الطريق الذي لا بد أن تسلكه السفن ذهابا وإيابا من وإلىٰ أوروبا.

- ملتقىٰ البحار الأربعة: الأسود والمتوسط ومرمرة وإيجة، مما جعل اسطنبول تتمتع بحياة جغرافية طبيعية تجعلها المدينة الأنسب لتكون عاصمة العالم.

- ملتقىٰ الصراع بين المشاريع الحضارية الكبرىٰ، وبدا هذا في وقوع تركيا

كخط النار الأول بين المعسكر الشرقي بقيادة الاتحاد السوفيتي والمعسكر الغربي بقيادة الأمريكان.

لكل هذا -وغيره مما لا مجال لذكره الآن- لم تستطع تركيا أن تنعزل، بل صارت جزءا من المعسكر الغربي والمخلب الأول له أمام الاتحاد السوفيتي، فدُعِمت دائما غربيا لتكون نموذجا للبلد التابع للغرب، وذلك من خلال إدخالها إلىٰ الناتو وربطها بالاتفاقيات العسكرية والأمنية لكن بغير إدخالها إلىٰ الاتحاد الأوروبي أو السوق الأوروبية المشتركة. ومنذ سقط الاتحاد السوفيتي أهمل الغرب تركيا إهمالا كاملا في هذه الملفات.

٣- ما نفذه مصطفىٰ كمال أتاتورك بتأسيس دولة قومية علمانية أنتج كثيرا من المشكلات الجوهرية في بنية الدولة؛ الأولىٰ مع الإسلاميين، والثانية مع غير المحسوبين علىٰ القومية التركية كالأكراد والعلويين والجيوب الباقية من الأعراق الأخرىٰ التي حفلت بها الدولة العثمانية. هذا فضلا عما ينتجه أي نظام عسكري من فساد واستبداد يصنع توترات عرقية ودينية واجتماعية، حتىٰ وُصِف الشعب التركي بأنه «الأمة الغاضبة» كما هو عنوان دراسة الباحث التركي كيريم أوكتم.

٤- كان الحل الأتاتوركي هو القهر والقمع بلا حدود، لكن ما إن ضعفت قبضة الأتاتوركية في مطلع الخمسينات وصارت تركيا نقطة صراع بين الشرق والغرب حتىٰ صُنِع لتركيا نظام جديد: ديمقراطية وتعددية حزبية كمظهر من مظاهر تبعيتها للنظام الغربي لكن تحت هيمنة عسكرية تمنع وصول الإسلاميين أو تنقلب عليهم إذا وصلوا، وحيث أن الإسلام هو روح تركيا فقد عرفت تركيا بأنها بلد انقلاب كل عشر سنوات، إذ وقع فيها انقلاب ١٩٦٠، ثم ١٩٧١، ثم ١٩٨٠ (وهو الأكثر دموية) ثم صار يتأخر قليلا فجاء ١٩٩٧ (بعد ١٧ سنة) ثم محاولة الانقلاب الأخيرة بعد ١٩ سنة (٢٠١٦م). وفي كل انقلاب يعود الجيش

لثكناته بعد ترتيب شأن السياسة بما يجعلها تحت الهيمنة العلمانية العسكرية.

٥- وأما بالنسبة للمحسوبين علىٰ غير العرق التركي فقد كان الحل نفسه: القمع والقهر وتنفيذ المذابح والقصف التي تصل إلىٰ مسمىٰ حروب الإبادة، ولذلك ظلت المشكلة الكردية مشكلة مزمنة، إذ العقلية التركية القومية العلمانية لا تعترف مجرد اعتراف بكون أولئك يمثلون أقلية لها حقوق، ثم إن وجودهم في أطراف البلاد ساعد علىٰ مزيد من مظالمهم بارتكاب المذابح أو بحرمان هذه المناطق من التعليم والصناعات ووسائل الحياة، بما جعل الانقسام العرقي معبرا أيضا عن انقسام طبقي، فشاعت فيهم الحرف والمهن البسيطة، كما ترسخت لديهم قوة غضب مكتومة تبحث دائما عن الانفجار.

ويقال ذات الكلام وإن كان أخف وطأة علىٰ الصراع السني العلوي، ففي تركيا أقلية علوية كبيرة، ووصف الصراع بالسني العلوي أو وصفه بالمذهبية فيه تجوز كبير، لأن الطرف «السني» ليس إلا علمانيا، لكن الهوية الموروثة هي ما تجعله يسمىٰ بالسني الحنفي.

فخلاصة التاريخ الحديث: أن تركيا تحولت إلىٰ ساحة ملتهبة بين الاتجاهات الحضارية الإسلام والعلمانية، وداخل العلمانية بين الاشتراكية والرأسمالية، وسياسيا بين العسكر والديمقراطية، وعرقيا بين الأتراك والأكراد ومعهم بقية الطوائف، واجتماعيا بين طبقة الحكم المتنفذة والكائنة حول العسكر والنخبة المدنية العلمانية وبين الجماهير القروية البسيطة المتدينة. (وذلك أن سائر التصنيع في المرحلة الأتاتوركية وما بعدها تركز في المناطق المدنية كأنقرة واسطنبول).

ثالثًا: المحيط التركي:

كان الخطأ التاريخي للدولة العثمانية أنها لم تتعرب وظلت لغتها التركية، وقد انتبه مفكروها لهذا الخطأ في مرحلة غروب الدولة وكيف أنهم لم يستطيعوا

كسب ولاء الشعوب المفتوحة في أوروبا الشرقية كما فعل العرب، وكانت نداءات المصلحين في اللحظات الأخيرة هو ضرورة تعرب الدولة العثمانية لكن كان الانهيار أسرع.

ومن آثار هذا أن المحيط التركي كله كان معاديا لتركيا، بعض ذلك موروث من العثمانيين وبعضه من فترة القومية الأتاتوركية، فجورجيا وأرمينيا وروسيا وبلغاريا واليونان تحتفظ بعلاقات عدائية مع تركيا الحديثة منذ زمن العثمانيين، فلما جاءت حقبة الدولة القومية زادت علىٰ ذلك عداوة العراق وسوريا (اللتان نشأت فيهما دولة قومية عربية تعادي الأتراك كذلك)، وأما إيران فهي تجمع العداوتين: العداوة القديمة منذ العهد الصفوي وهي العداوة التي زادت بتمكن ورسوخ المذهب الشيعي، والعداوة الحديثة القومية التي ترفع شعار القومية الفارسية أمام القومية التركية.

ولهذا فإن صانع السياسة التركي العلمانية لا يجد أمامه أي عمق استراتيجي لتركيا، ومن هنا قامت نظرية أحمد داود أوغلو علىٰ «تصفير المشاكل» ومحاولة تجاوز العداوات القائمة بإنشاء شبكات من المصالح الاقتصادية وما أمكن من العلاقات الثقافية لا سيما وقد جاء في المرحلة التي أهمل فيها الغرب تركيا تماما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

ليس هذا فحسب، بل إن المحيط التركي زاخر بالملفات الساخنة المستعدة للانفجار، فعند الحدود التركية تتركز مشكلات الأقليات والطوائف والعرقيات التي لطالما اضطهدت وأهينت في العصر الأتاتوركي، وأبرزهم الأكراد والعلويين، مما يجعل البيئة السياسية بيئة خصبة لصناعة المشكلات، إذ تستطيع الأطراف الدولية بقليل من المال والسلاح وربما بعض الدعم السياسي خلق مشكلة عويصة لصانع السياسة التركي. وقد حاول حزب العدالة والتنمية أن يخفف من هذه المشكلات ونجح في هذا كثيرا، إلا أن وجود أزمات تاريخية

عميقة جعل من السهل تجدد هذه النزاعات والمشكلات بمجرد وصول المال الإماراتي والسلاح الروسي وبعض الدعم السياسي الغربي للحركات الانفصالية الكردية.

لهذا كله فإن صورة الأوضاع التركية هي من أصعب وأعقد ما يمكن أن يقابل صانع السياسة، لا سيما إن كان إسلاميا تحدوه أشواق العثمانيين فيقابله واقعه الضعيف أمام القوىٰ الكبرىٰ، تحدوه أشواق أن يتفرغ للتأسيس والنهضة ولا يسمح له الموقع الجغرافي وما يفرضه من تحديات سياسية لا بعزلة ولا تفرغ، ينحو إلىٰ الانسجام الداخلي فتقابله التوترات والأزمات العرقية والمذهبية والفكرية وتراث أتاتورك العلماني القومي، يريد أن يتخذ لنفسه قاعدة جماهيرية من الإسلاميين لكن بغير أو برغم وجود قوة العسكر العلماني المتأهب، يحاول صناعة عمق استراتيجي له لكن يصطدم بحدود معادية وعندها بيئة متوترة.

ولهذا كله نقول: إن المعركة في تركيا قد بدأت ولم تنته، وإن كانت تركيا الآن في وضع جديد تماما، فهذا هو أول انقلاب فاشل علىٰ سلطة مدنية، وهذه هي أول سلطة مدنية استطاعت أن تمتلك من القوة ما تؤسس به لعهد جديد.

في فكر السياسة التركية

من الملاحظات التي تستحق المتابعة أن العالم العربي تكثر فيه التحليلات السياسية علىٰ حساب التحليلات الفكرية، ولا أكاد أتذكر محللين ذهبوا فقرؤوا التجربة التركية استنادا إلىٰ الأدبيات الفكرية التي جاءت في بعض خطابات أردوغان أو في مؤلفات أحمد داود أوغلو، بينما حظي هذا الجانب باهتمام أكبر في الدراسات الغربية. ينصب الاهتمام العربي علىٰ تحليل الموقف سياسيا ولحظيا ويغيب عنه وصل هذه المواقف بامتداداتها الفكرية، وتحليل ما إن كانت نتاجا طبيعيا لها أم هي إكراهات ظرفية أو لعله ثمة مساحة من الخداع والفجوة تقوم بين الأصول الفكرية والتطبيقات السياسية.

في هذا الفصل نحاول إلقاء ضوء علىٰ هذا الجانب الفكري لدىٰ الساسة الأتراك، لا سيما وهم يمثلون اتجاها مغايرا لنظام الجمهورية التركية المستقر منذ تسعين عاما.

معارك المصطلحات في الواقع الإسلامي:

ألقي[1] القبض علىٰ أحمد عرابي بعد هزيمته أمام الجيش الإنجليزي، ومن بين أسئلة الاستجواب الطويل الذي استغرق عدة أيام، وُجِّهت له تهمة رئاسته لـ «الحزب الوطني» ووجه بورقة وُجِدت عند بعض الضباط فيها قول عرابي وتوقيعه بأنه «رئيس الحزب الوطني»، ثم سُئل: «ألم تعلموا أنه بالممالك المنتظمة ووجود الحضرة الخديوية بمقر الحكومة لا يجوز وجود أحزاب حتىٰ تمضوا تلك المكاتبة بصفتكم رئيس الحزب، فهل تَصَرَّحَ لكم من الحضرة

(١) نشر هذا المقال بتاريخ ٢٢ سبتمبر ٢٠١٥م.

الخديوية بذلك؟ وإن كان لم يَتَصَرَّح لكم فهل جَعْل نفسكم رئيسا لحزب داخل الحكومة لا يُعدّ عصيانا؟».

وكان من جواب عرابي قوله: «من المعلوم بداهة أن مصر مأهولة بأجناس مختلفة وعناصر متنوعة وكل عنصر منهم يعتبر نفسه حزبا كما أن أهل البلاد هم حزب قائم بذاته يُعتبر عند الآخرين منحطا عنهم ويُطلقون عليه لفظ فلاحين إذلالا لهم وتحقيرا، أولئك هم الحزب الوطني وهم أهل البلاد حقيقة...».

وقد اتخذ تيموثي ميتشل -المؤرخ المعروف- من إجابة عرابي هذه مثالا أراد أن يثبت به الطبيعة المتقلبة للغة في إطار مناقشته لسلطة اللغة والمؤلف وفلسفة الشيء، متأثرا بجاك دريدا[1]، إلا أن التفسير البسيط والمباشر للأمر هو أن عرابي أراد أن يهرب من التهمة فعمد إلىٰ تفريغ كلمة «حزب» من معناها المباشر الذي يعني تنظيما قائما في البلاد مضادا للسلطة إلىٰ معناها اللغوي الواسع الذي يجعل كلمة حزب تشمل كل جمع وطائفة وطبقة، حتىٰ أنها تشمل جميع الفلاحين أو جميع المصريين الرافضين للاحتلال.

وبهذه الإجابة التي لا تعتمد إلا علىٰ تلاعب بالمعنىٰ، نقل عرابي موقفه من كونه خارجا عن سلطة الدولة إلىٰ كونه ممثلا لمصلحة الشعب، وأن هذا ليس بدعا من الأمر، «لأن كل أمة من الأمم المتمدنة الراقية فيها أحزاب مختلفة قائمون بحفظ حرية بلادهم والمدافعة عن حقوقهم»[2].

وقد نجحت حيلة عرابي هذه -نظريا وعلىٰ سبيل الجدل- فلم يكررها المحقق كتهمة، ومن يقرأ محضر التحقيقات -وهو طويل- يرىٰ ويشهد أنه لا يتجاهل أمرًا إلا إذا أُفْحِم وأعوزته الحجة، أما في غير ذلك فهو يستمر في الإلحاح علىٰ المتهم ومحاصرته.

---

(١) تيموثي ميتشل: استعمار مصر ص٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) مذكرات أحمد عرابي ٢/ ٧٨٤ وما بعدها.

بعد هذه الواقعة بأكثر من قرن من الزمان، وفي تركيا، جاء حزب العدالة والتنمية، وهو يحمل ميراثا من التجارب التاريخية وفي بيئة حاكمة ترىٰ أن «العلمانية مقدسة» وترىٰ أن الإسلاميين يضادونها، وقد نفذوا العديد من الانقلابات العسكرية ومن أحكام حل الأحزاب الإسلامية.. فكان الحل عندهم شبيها بما فعله عرابي.

يقول محمد زاهد جل -وهو باحث مقرب من الحزب- بأن حزب العدالة والتنمية قد «قدَّم مقاربة جديدة لمفهوم العلمانية، تعبر عن المضامين الصحيحة داخل هذا المفهوم وتبعد عنها المضامين الأخرىٰ، فهو لم يجعل من العلمانية الأوروبية معياره ولا نموذجه ولا محرابه، ولم يجعل من العلمانيين الغربيين قدوته ولا أئمته ولا وعاظه، وإنما فهم أن العلمانية هي أنها الدعوة إلىٰ العلم وتحرير تفكير الإنسان وعقله، ورفض الأفكار التي تلغي حرية الإنسان وتحرمه من عقله وتمنعه من اتباع العلم واكتشاف الحياة وتسخيرها لمصلحة الإنسان والناس والبشرية جمعاء.

إن حزب العدالة والتنمية بحسب هذه المقاربة التي يقدمها لمفهوم العلمانية يرفض من يحصر العلمانية علىٰ معنىٰ الإلحاد أو رفض الدين أو رفض المتدينين في الحياة العامة أو الفصل بين الدين والدولة، أو الفصل بين الدين والحياة، إنما أراد أن يفرض تصورا خاصا للعلمانية قد لا يكون موجودا في الحاضر ولا في التاريخ، فالجميع لم يمكن التخلص من الفكرة الدينية، وعلىٰ فرض وجوده في التاريخ، فهو تصور لا يقصده المسلمون ولا يسعون إليه، وهو ليس مما يسعىٰ إليه العقلاء ولا العلماء ولا الأحرار.

وبناء عليه فهو يرىٰ أن كل دعوة إلىٰ العلمانية علىٰ أنها فلسفة ضد الدين الإسلامي ينبغي أن يعلم أنها ليست علمانية صادقة ولا حرة ولا عقلانية ولا عالمة، وإنما هي تصورات مستوردة عن علمانيات قاصرة أو جزئية أو تاريخية

بظروفها وزمانها ومكانها الخاص، وهي ليست جديرة بأن تكون فلسفة منقذة في مشروع النهوض العربي الحديث، في مقابل علمانية مؤمنة تملك مقومات المشروعية العلمية والعقلية للنهوض بالدول العربية الناشئة في ربيع الحرية والعقلانية والعلم.

علىٰ هذه الأسس، استطاعت التجربة التركية الحديثة أن تخوض تجربتها مع معركة جدل العلمانية، وهي تؤمن بالدين والإسلام دون تناقض بينهما ولا تعارض، وأن تقيم نهضتها وتخطط لتنميتها، وبالأخص في عهد حزب العدالة والتنمية، في توظيفه لتلك المضامين التي قدمها نحو هذا المفهوم، كقوة فكرية تنهض بمقومات المجتمع التركي المسلم دون اصطناع معارك بينهما لتوهم أن الإسلام يقف ضد التقدم والتنمية والعقل»[١].

وهكذا كان الحل هو تفريغ اللفظ من معناه المستقر لحساب معنىٰ آخر مقصود، مما يجعل المعركة السجالية الكلامية أكثر إرباكا وتعقيدا وأبعد عن التهمة.. كأنما هي أقرب إلىٰ التورية والمعاريض الذي أبيح اللجوء إليه عند الضرورة والاضطرار.

بعد هذا بنحو عشر سنوات، كانت المعركة الكلامية في مصر -عقيب ثورة يناير- تدور هي الأخرىٰ حول مصطلح «الديمقراطية»، وفيما يبدو أن جميع من في الساحة السياسية يقبل الديمقراطية، إلا أن الجميع أيضا يدرك أن معناها عند قوم ليس كمعناها عند الآخرين.. فأما الإسلاميون فهم يعبرون عنها باعتبارها وسيلة وأداة للكشف عن «الإرادة الشعبية»، وهي الطريقة التي وصلت إليها التجربة البشرية لتحقيق اختيار الحاكم وعزله، لذلك صدَّر حزب الحرية والعدالة -الذي انبثق عن جماعة الإخوان المسلمين- برنامجه السياسي بعبارة «الشورىٰ هي جوهر الديمقراطية» في محاولة لإفراغ معنىٰ الديمقراطية (وهي

---

(١) محمد زاهد جل: التجربة النهضوية التركية ص٨٩ وما بعدها.

اللفظ الغربي) ليوضع فيه «الشورىٰ» التي هي القيمة الإسلامية.

وكان أبسط تعبير عن هذه الفلسفة هي العبارة البسيطة الدقيقة والعميقة للشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل، إذ ما كان يُسأل عن الديمقراطية حتىٰ يقول: «الديمقراطية حلال ما لم تحل حراما أو تحرم حلالا». وهو بهذا يجعلها وسيلة محكومة بالإسلام.

إلا أن خصوم الإسلاميين أصروا -في إطار هذه المعركة السجالية- علىٰ أن الديمقراطية ليست صندوقا فقط وإنما هي منظومة قيمية، وهي ليست مجرد وسيلة وإنما ثقافة، وهم في هذا مصرون علىٰ أنها جزء من المنظومة القيمية الغربية التي أنتجتها.

تلك ثلاثة أمثلة تاريخية قصدنا منها أن نقول الآتي:

أولًا: إن هيمنة المصطلحات في بيئة حاكمة تُلجئ المقهور المغلوب إلىٰ استعمال هذه المصطلحات المهيمنة وتحديد موقفه منها، وبمقدار ما تحظىٰ به هذه المصطلحات من هيمنة بمقدار ما يكون العجز عن التخلص منها، وحينئذ تجري معركة صراع حول معنىٰ هذه المصطلحات.

إن المعركة هي معركة المعاني، لكن جولة الصراع حكمت في بعض الأوقات بسيادة مصطلح بعينه، وفي عصور الدولة الحديثة فإن السلطة قادرة علىٰ ترويج مصطلحاتها عبر وسائل الإعلام ومناهج التعليم ومنافذ الثقافة، مما يجعل التعامل مع المصطلح ضرورة لا فكاك منها.

ثانيًا: إن تحديد الأحكام الشرعية في المصطلحات الملتبسة التي سادت في مثل هذه الأجواء، مثل العلمانية والديمقراطية والأحزاب والحرية والانفتاح ... إلخ، لا يمكن أن يتم إلا بعد فهم مقصد القائل به، إذ المصطلح في نفسه لم يعد معبرا عن معنىٰ محدد، ولا حتىٰ كونه صدر ضمن سياق فلسفي بعينه أو في بيئة ثقافية بعينها، لم يعد تعريف أهل المصطلح له هو الحاكم في بيان الحكم

الشرعي، لأن مدلول المصطلح ومعناه قد انتشر، ورُوِّج له بمعان أخرىٰ لأغراض مختلفة، ثم تلقاه كثيرون ففهموا منه معاني متباينة. فلا بد من تحرير المعنىٰ الذي يقصده قائله به قبل أن يُنظر في حكمه الشرعي، وبطبيعة الحال فسيختلف الحكم الشرعي مع كل قائل، فنفس المصطلح قد يقصد به قائله أشد الكفر وقد يقصد به قائله مقاصد الشرع.

هذا مع التشديد والتأكيد وبيان أن الأصل هو استعمال الألفاظ التي لا شبهة فيها ولا تحتمل المعنىٰ الملتبس، وأن لا يُلجأ إلىٰ هذا الالتباس إلا في حالات الضرورة -لغرض الإفهام والإفصاح، أو تحت ضغط الواقع الأكيد- وقد أمر الله تعالىٰ عباده بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ [البقرة:١٠٤] لأن اليهود كانوا يقولون «راعنا» وهم يقصدون معنىٰ «الرعونة» لا «المراعاة»، ووجهم ربنا إلىٰ لفظ لا يلتبس وهو «انظرنا».

فلسفة الديمقراطية عند أردوغان:

يرىٰ(١) هيجل في فلسفته الجدلية أن الفكرة تلد نقيضتها، ثم تتصارع الفكرة ونقيضتها حتىٰ يتولد من صراعهما فكرة ثالثة، بعد فترة تلد هذه الثالثة نقيضتها وتتصارع معها.. وهكذا!

لقد كنا في العالم العربي محرومون حتىٰ من صورة وهيئة وهيكل النظام الديمقراطي، ليس لدينا سوىٰ طلاءات شكلية بالية ومكشوفة ومفضوحة: انتخابات أو استفتاءات يفوز فيها الرئيس الأوحد والذي يتعفن في الحكم لربع قرن أو ثلاثة عقود أو أربعة حتىٰ يأتيه الأجل أو انقلاب أو احتلال. ومن ثمَّ كان الشوق عظيما للديمقراطية التي يتغير فيها الرؤساء وتتبدل فيها مواقع الأحزاب وتختلف فيها نسبة الفوز في البرلمانات عند كل انتخابات!

---

(١) نشر هذا المقال بتاريخ ١٨ أغسطس ٢٠١٥م.

ما كان للشعوب العربية أن تكتشف عيوب الديمقراطية إذ هي ترسخ في وحل الاستبداد المطلق، إنما يتأهل لاكتشاف عيوبها من كانت تجري عليه أحكامها، تماما مثلما يتوق العرب لرؤية الدولة القوية ذات المؤسسات المحترفة التي تحتكر القوة وتنظم المجتمع، ولن يتأهل لاكتشاف عيوب الدولة الحديثة وأنظمتها إلا من عاش فيها، ولهذا فإن تيار نقد الدولة الحديثة إنما يتفجر من الغرب حيث هناك تجري أحكامها فيمكن اكتشاف عيوبها.

إن الديمقراطية في جوهرها وغايتها شوق إنساني عام، إذ قيمة أن يختار الناس حاكمهم وأن يراقبوه وأن يعزلوه هي قيمة إنسانية قديمة دارت حولها معظم الفلسفات الإنسانية شرقا وغربا، بينما تطبيق هذا المفهوم واستحداث قيمه الجزئية وآليات تنفيذه هو تطبيق غربي في العصور الحديثة، وهو متأثر ومصبوغ بصبغته القيمية وأفكاره الفلسفية الأخرىٰ.

إن الديمقراطية كإجراءات وآليات محتاجة دائما إلىٰ محتوىٰ قيمي وفكري وثقافي، ولهذا فإنها آلت في الغرب إلىٰ أن تكون في خدمة الطبقة الرأسمالية الغنية (ويراجع في هذا كتاب جريج بالاست: أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها) كما أنها في عالمنا الإسلامي تؤول دائما إلىٰ الأحزاب والشخصيات المناهضة للغرب (ويراجع في هذا كتاب صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات). إذ ما زال عالمنا العربي لم يتعلمن ولم يتحدثن -من الحداثة- إلىٰ الحد الذي يجعله خاضعا تماما لتحكم الطبقة الرأسمالية. وهذا ما يجعل الديمقراطية غير مسموح بها علىٰ الحقيقة في بلادنا، فإن أفلتت تجربة أو أخرىٰ جاءت الانقلابات العسكرية كما في باكستان وتركيا والجزائر ومصر، ولم يفلت من هذه المعادلة سوىٰ غزة التي امتلك فيها الإسلاميون قوة عسكرية تصدت لمحاولات الانقلاب.

لم أكن أعرف تلك النزعة الفكرية الفلسفية عند أردوغان قبل قراءة نص

خطابه في ختام ندوة «الديمقراطية»، والتي أقامها في اسطنبول في أعقاب انقلاب فبراير ١٩٩٧ علىٰ حكومة حزب الرفاه بزعامة أربكان، وكان أردوغان وقتها عضوا في الحزب ويتولىٰ رئاسة بلدية اسطنبول الكبرىٰ.

في هذا الخطاب شرح أردوغان معنىٰ احتياج الديمقراطية لمحتوىٰ فكري وقيمي، وأن هذا المحتوىٰ إن لم يكن نابعا من الشعب فسيكون مستوردا من الخارج، وساعتها لن تكون الديمقراطية إلا وسيلة لتحقيق مصالح النخبة، وساعتها سيجيزون لأنفسهم الانقلاب عليها إذا اخترقت مصالحهم.

استمرت الندوة ليومين من النقاش الفكري المعمق حول الديمقراطية، وجاءت كلمة أردوغان في ختامها فوضعته في مصاف المفكرين لا السياسيين.. أنقل منها هذه الفقرة:

«إن أي مجتمع من المجتمعات حين يقيم ويطور ديمقراطية تستهدف المثل العالمية يجب أن يضيف أحكام قِيَمه ومعتقداته وعاداته وتقاليده باعتبارها خميرة الثقافة السياسية لهذه التجربة الديمقراطية.

الديمقراطية -بهذه الصورة- يمكن لها أن تخرج من دائرة المناقشات المجردة وتتحول إلىٰ نظام قابل للتطبيق. وبهذه الصورة فقط يمكن للمجتمع أن يزداد ثراءً، بل وتبتعد الديمقراطية عن كونها (إشكالية نخبوية).

بهذا يمكن للمجتمع أن يعمق وعيه بالديمقراطية، ويحولها لإحدىٰ واجبات الحياة اليومية، ويغذي بها قناعاته الثقافية. ويكون لهذه الخلفية الثقافية إسهاماتها الكبيرة للوصول بالديمقراطية إلىٰ مصافّ العالمية.

هناك اتصال مباشر بين هذا الموضوع وبين مفهوم سيادة القانون الذي يحتاج إليه أي مجتمع من المجتمعات بقدر احتياجه للخبز والماء. ولو لم يُعمّق الشعب فكرة الديمقراطية أو تم الحكم في هذه الديمقراطية علىٰ أنها برنامج خاص بالنخبة التي تدير البلاد؛ ففي هذه الحالة ستقوم النخبة الحاكمة

بتضييق حدود الديمقراطية وتفسرها بالمصلحة العامة العليا للوطن، وهو تفسير يستأثرون هم وحدهم بالتعامل معه.

في هذه الحالة تخرج الدولة عن كونها دولة قانون وتصبح عبارة عن قانون الدولة وتظل قابعة في مرحلة الشتات والتيه عن جادة الديمقراطية الحقيقية.

ومن أجل إمكانية تحقيق سيادة القانون بالمعنىٰ الحقيقي يجب أن يتحول الدستور من كونه إطارا يُملي فيه النخبة الحاكمة آراءهم علىٰ الشعب إلىٰ إطار من نتاج الشعب، ويملي فيه هذا الشعب علىٰ الدولة ما يرغب فيه. والطريقة الوحيدة لإيجاد دستور متفق عليه أن يكون هذا الدستور هو اختصار للقانون.

ولو لم يكن الدستور من نتاج المجتمع، ولو لم يكن في الإطار الذي يُملي فيه هذا المجتمع علىٰ الدولة ما يرغب فيه، فستفقد الديمقراطية كل جاذبيتها، وتكون قد اختزلت في الانتخابات فحسب.

وفي هذه الحالة لن تكون هناك أي آلية تمنع أن يتم إبعاد أي حكومة جاءت بالطرق الشرعية عن وظيفتها بشكل ديمقراطي ووفق رغبة الناخبين الذين يمثلون إرادة الشعب. وإن حدث هذا، فإن المجتمع سوف يفقد كل إمكاناته في ما يتعلق بحقه في الحصول علىٰ الحرية والعدالة.

إضافة إلىٰ ذلك، فإن هذه الأجواء تهيئ لمن لديهم شغف الحصول علىٰ السلطة بانتهاج طرق غير ديمقراطية للوصول إليها. ومما لا شك فيه أن ذلك أمرٌ غير مرغوب، وله تأثيرات سلبية علىٰ المجتمع بأسره.

وبذلك، فلو أن تشكيل الدستور كان نتيجة مناقشات حرة داخل المجتمع، وكان نتيجة توافقية لهذه المناقشات، فإن القانون سيطبق في إطار الديمقراطية وسيقوم في الوقت ذاته بحمايتها.

وبهذا، فإن تغير الحكومة من خلال الانتخابات من دون استخدام العنف

وقبول الجميع لنتائج الانتخابات من دون أي شروط أو قيود يُعدّ واجبا أخلاقيا لا غنىٰ عنه.

إضافة إلىٰ ذلك، فإنه لن تكون هناك أي مشقة ملقاة علىٰ الشعب في الانصياع لهذا الواجب الأخلاقي. فحين تتغير الحكومة من خلال الانتخابات، فإن الحزب الذي يأتي إلىٰ السلطة، أيا كانت الأصوات الحاصل عليها، فلن يتمكن من المساس بالحقوق والحريات الأساسية»[١].

لقد كان أردوغان منتبها إلىٰ أن النظام الديمقراطي في تركيا هو صورة نظام أو هيكل نظام، غايته الحقيقية خدمة مصالح الطبقة النخبوية العلمانية فحسب، وقد كرر إدانة هذا الوضع في مواقف مختلفة، منها في خطاب له ألقاه بعد صدور الحكم عليه بالسجن عشرة أشهر بعد خطبته الشهيرة التي استشهد فيها بأبيات شعر إسلامية، صرح فيه بأنه لا معنىٰ للديمقراطية إذا كان القضاء مُسَيَّسًا:

«إن الديمقراطية في وطننا تُختزل وباستمرار في صورة الانتخابات. والحقيقة أن الديمقراطية ليست فقط مجرد انتخابات، وإنما تعني أيضا استقلالية القاضي والقضاء. ولو تم المساس بهاتين الحريتين، فستصبح الديمقراطية نظاما ديكتاتوريا متسترا خلف مظهر ديمقراطي»[٢].

بل لقد استمر أردوغان يؤكد هذه الفكرة وتوابعها حتىٰ بعد أن تولىٰ السلطة، وقد رجعت إلىٰ كتاب «مقتطفات من خطب رجب طيب أردوغان» فوجدتُ هذا الأمر بمثابة الثابت في تفكيره، يكرره في أماكن وأزمان ومناسبات مختلفة، سواء أكان خطابا جماهيريا أم نخبويا، سواء أكان عند انتخابات أو في أوقات استقرار.

■ ففي خطاب له بأنطاليا ١٦/ ٥/ ٢٠٠٣: «الديمقراطية ليست موجودة

---

(١) حسين بسلي وعمر أوزباي: قصة زعيم ص٢٣١.
(٢) قصة زعيم ص٢٤١.

لخدمة السياسي، بل السياسي هو الخادم للديمقراطية».

■ وفي خطا بديار بكر ١٨/ ٧/ ٢٠٠٣ «الدولة يجب عليها أن تكون خادمة لا محالة، لذلك نحن مقررون ومصممون علىٰ أن نطهر ديمقراطيتنا من العيوب».

■ وفي خطاب أمام مجلس الشورىٰ للإدارات المحلية ٦/ ١٠/ ٢٠٠٣: «نحن نهدف لإعادة تنظيم البنية الإدارية من جديد وفق المعايير العالمية الديمقراطية. تلك البنية المتعبة البالية، المغلقة عن المجتمع والتي تتجاهل حقوق الإنسان».

■ وفي خطاب أمام الاجتماع الاستشاري الثالث ٢٧/ ٩/ ٢٠٠٤ «إن طابعنا الديمقراطي هو دليل علىٰ أخذنا المجتمع مركزا لسياستنا».

■ وفي خطاب بأزمير ٢/ ٢/ ٢٠٠٧ «إن عددا من المسؤولين الحكوميين الذين يحاولون تشكيل عصابات عن طريق مخالفة القانون من أجل قِيَم يعتبرونها مقدسة. هؤلاء بحد ذاتهم هم أركان الدولة العميقة ضمن الدولة الحقيقية».

■ وفي خطاب أمام الاجتماع الاستشاري الحادي عشر ٢٥/ ١١/ ٢٠٠٧ «عندما نقول ديمقراطية نعني بها سيادة إرادة الشعب من دون قيد أو شرط».

■ وفي خطاب لدىٰ اجتماع الكتلة البرلمانية ٢٩/ ١/ ٢٠٠٩ «كلما نضجت الديمقراطية في تركيا، وكلما اقتربت الدولة من الشعب، وغادرت القوالب الصلبة بنيتنا. سيُرىٰ حجم المشاكل التي ضخّمناها في أعيننا لسنوات طويلة، وسنكتشف كم كانت مشاكل صغيرة».

■ وفي خطاب بالاجتماع الاستشاري ٢١/ ١١/ ٢٠٠٩ «السياسة هي فن الإحساس بشعور الأمة، وهي رؤية ما تراه الأمة وسماع ما تسمعه الأمة»[١].

---

(١) عبد الرحمن تيغ وآخران: مقتطفات من خطب رجب طيب أردوغان ص٩٨، ١٠٠، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ٢٨٥.

حقوق الإنسان في فكر السياسة التركية:

رغم ما يبدو أول الأمر من بساطة الكتابة في مسألة «تميز تركيا في حقوق الإنسان»[١]، إلا أن الواقع بخلاف ذلك، وذلك أن ملف تقدم تركيا في حقوق الإنسان من الملفات التي تواطأ الجميع علىٰ كتمانها، وكان شيخنا محمد الغزالي يقول: «ما رأيت أحدا تواطأ الناس علىٰ هضمه كالحقيقة».

إن الدراسات والتقارير الغربية لا تركز علىٰ حقوق الإنسان كما هو المتوقع -ولو زَعْمًا- بقدر ما تركز علىٰ النموذج التركي من حيث خطورته علىٰ أوروبا، ومدىٰ عودته إلىٰ هويته الإسلامية، ومدىٰ الرضا العلماني والعسكري عن نموذج حزب العدالة والتنمية. بل حتىٰ التقارير الحقوقية الغربية -وقد طالعت عددا مما صدر في السنوات الأخيرة- تشبه المنشورات ضد السياسة التركية.

وفي المقابل فإن الدراسات العربية تركز علىٰ رصد ومتابعة النموذج التركي في السياسة والاقتصاد والتأثير علىٰ العالم العربي والموقف من القضايا العربية، ولا تحفل بمسألة تطور وضع حقوق الإنسان في تركيا، اللهم إلا الأطراف المعادية لتركيا فإنها تهتم بهذا الجانب مستخدمة إياه في تشويه ومهاجمة السياسة التركية في حقبتها الجديدة.

هذا الذي تجاهلته -أو زيفته التقارير- كان يخالف واقعا عشته بنفسي لعام ونصف في تركيا، وعاشه معي ملايين المهاجرين والمطاردين من العالم العربي، ولذلك كان الحصول علىٰ الحقيقة الموثقة بالأرقام من خلال دراسات ميدانية أمرا عسيرا، حتىٰ أنني استعنت ببعض الأصدقاء الأتراك والعرب العاملين في مجال الإعلام التركي للحصول علىٰ دراسات معمقة عن تطور

(١) ورقة بحثية ألقيتها في المؤتمر العلمي المنعقد علىٰ هامش مهرجان «شكرًا تركيا» الذي نظمته الجاليات العربية في إسطنبول، بتاريخ ٢٣ إبريل ٢٠١٦م.

حقوق الإنسان في تركيا، وكانت الإجابة مخيبة للآمال كذلك.

عندئذ ذهبت إلىٰ البحث عن معنىٰ حقوق الإنسان في فكر وفلسفة حزب العدالة والتنمية، وفي أبرز النصوص المكتوبة المعبرة عن هذا التفكير.

إن كل زعماء العالم -حتىٰ أشدهم طغيانا وانتهاكا لحقوق الإنسان- يتغنىٰ بحقوق الإنسان، ويدرج في خطاباته وتصريحاته عبارات محفوظة مكرورة مملولة، لكن ما وجدته في الأدبيات الفكرية للحزب يعبر عن فكر ورؤية وعمق لا عن مجرد زخارف ومحسنات كلامية.

إن العمق الذي يكتبه فيلسوف الحزب ورئيسه الآن، أحمد داود أوغلو، يذهب حتىٰ يحلل البنية التي تحكم الإنسان في النظام السياسي، ولذلك جاءت كتبه كدروس معمقة في نقد النموذج الغربي الذي ظاهره الحفاظ علىٰ حقوق الإنسان بينما حقيقته التحكم بالإنسان والتسلط عليه. وإثبات تفوق النموذج الإسلامي الذي سلب الإنسان حق التسلط والتحكم بالإنسان.

ففي كتابه «الفلسفة السياسية» يعزو تناقض النموذجين الغربي والإسلامي إلىٰ أن الأول دائما وفي شتىٰ تصوراته الفلسفية -القديمة والوسيطة والحديثة- الفوارق بين الله والإنسان، فمنح الإنسان سلطة إلهية مما ترتبت عليه آثار بعيدة في النظام السياسي، بينما حرص النموذج الإسلامي علىٰ التوحيد الذي يجعل الإنسان مفارقا لله ولا يمكن أن يحوز سلطة إلهية مما كان له آثاره الهائلة في النظام السياسي. ويجدر النظر إلىٰ أن هذا الكتاب صدر عام ١٩٩٣م، أي قبل وجود حزب العدالة والتنمية بقرابة العقد من الزمن.

وفي كتابه «العالم الإسلامي في مهب التحولات الحضارية»، والذي صدر قبل ميلاد الحزب بثمانية أعوام، يرصد داود أوغلو كيف أنه «في الحضارة الغربية يتولد الاختلال الأخلاقي من اعتمادية المعرفة علىٰ مؤسسة السلطة، والتي بدورها تعمل داخل إطار استبدادي بسبب قدرة مراكز القوىٰ علىٰ إنتاج

معرفة مناسبة كافية لتوليد نظام قيمي ملائم يعمل لمصالحها الذاتية»[١].

وفي كتابه الأهم «العمق الاستراتيجي»، والذي يرسم فيه مستقبل الدولة التركية، يؤسس لنظرة نحو الإنسان يقول فيها: «أكثر العناصر حساسية في الانفتاح الاستراتيجي للدولة هو العلاقة المشروعة بين الإرادة السياسية لمركز النظام وبين العنصر البشري المؤهل للمجتمع المدني. وإذا أردنا التعبير عن ذلك بتعبيرات تُستخدم كثيرا في الوقت المعاصر فإنه يمكن وصف هذه العلاقة بنقطة الالتقاء بين «عمق الدولة» و«عمق الأمة». إن الدولة التي لم تصل إلىٰ عمق الأمة، ولم تحقق معه وحدة روحية نابعة عن نظام القيم المشتركة، لن ينتج عنها إلا صورة سيئة للقوة. إن أهم بعد للعلاقة المشروعة بين العنصر البشري والنظام السياسي هو عنصر الثقة؛ فالدولة التي لا تثق بعنصرها البشري لا يمكنها الانفتاح علىٰ آفاق استراتيجية، بحيث تضع أهدافا تكتيكية لتحريك القوىٰ الكامنة للمجتمع، أو أن تستخدم الوسائل المناسبة لهذه الأهداف في التوقيت الصحيح والمناسب»[٢].

هذه الرؤية العميقة لجوهر حقوق الإنسان ومدىٰ توفرها في بيئة النظام السياسي القائمة، موجودة أيضا منذ قديم عند مؤسس الحزب وزعيمه رجب طيب أردوغان، ففي كلمته التي ألقاها في ختام مؤتمر الديمقراطية (١٩٩٧م) نظَّر لضرورة أن يضيف المجتمع «أحكام قِيَمه ومعتقداته وعاداته وتقاليده باعتبارها خميرة الثقافة السياسية لهذه التجربة الديمقراطية»، وعندئذ تخرج الديمقراطية من كونها ثرثرة نخبوية بل ووسيلة من وسائل الاستبداد والتسلط النخبوي علىٰ المجتمع لتكون روحا حقيقية يؤديها المجتمع كواجبات يومية، ويغذي بها قناعاته الثقافية[٣]، أما اختزال حق الإنسان في مجرد شكل وهيكل

---

(١) العالم الإسلامي في مهب التحولات الحضارية ص١٣٠.

(٢) العمق الاستراتيجي ص٥٨.

(٣) حسين بسلي وعمر أوزباي: رجب طيب أردوغان.. قصة زعيم ص٢٣١.

الانتخابات فمآله إلىٰ أن ينتج «نظاما ديكتاتوريا متسترا خلف مظهر ديمقراطي»[(١)].

نحن هنا أمام تحليل أعمق لمسألة حقوق الإنسان، إنه في جوهره نقد للنموذج الغربي الذي يصطنع شكلا آخر من العبودية والتحكم ثم يلبسها ثوب الحرية ولافتة الديمقراطية وعنوان الانتخابات، وهو نقدٌ يُبنىٰ عليه رؤية أخرىٰ مفادها علاقة صحيحة سوية بين الدولة والأمة، أو بين «عمق الدولة وعمق الأمة» بتعبير داود أوغلو. وهذا المعنىٰ يتردد كثيرا في خطابات وكلمات أردوغان، لكننا نكتفي هنا بأقواها في الدلالة:

١- «لا يمكن لدولة إنسانها ضعيف أن تكون قوية».

ديار بكر - ٢٤ يونيو ٢٠٠٧

٢- «بالنسبة لنا كل إنسان خاص، وكل إنسان غال وقيّم. لكل إنسا الحق في امتلاك الفرص والحقوق التي يستحقها».

اجتماع الكتلة البرلمانية - ١٣ مايو ٢٠٠٨

٣- «الإنسان أساس كل شيء. ولذلك يجب أن تصنع السياسة من أجل سعادة الإنسان وراحته، سلامته وطمأنينته».

مؤتمر حزب العدالة والتنمية - ٣ أكتوبر ٢٠٠٩

٤- «الإنسان أولا، ومن ثَمَّ تأتي الدولة. وليست الدولة هي الأولىٰ ليأتي الإنسان بعدها».

الاجتماع الاستشاري - ٢٢ نوفمبر ٢٠٠٩

٥- «في هذا البلد ستنهار البنية الإقطاعية بالتأكيد، ويجب عليها أن تنهار وأن تنحط، لأننا لا نقبل عبودية الإنسان للإنسان. وخصوصا في قيمنا

---

(١) المصدر السابق ص٢٤١.

الحضارية، لا عبودية لدينا لغير الخالق. ولهذا السبب: إن السيادة للأمة دون قيد أو شرط».

سيرت - ٦ مايو ٢٠٠٥

٦- «الحقائق، الحقوق والحريات لا تتغير وفقا للأشخاص. الحقيقة هي حقيقة في كل زمان ومكان».

اجتماع رؤساء المقاطعات - ٢١ مارس ٢٠٠٨

٧- «يجب علينا جميعا أن نعلم أننا متساوون كأسنان المشط في القاسم المشترك بيننا وهو الإنسانية، سواء منا الشرقي والغربي، المسلم والمسيحي، المتدين والعلماني، الغني والفقير، الأبيض والأسود».

أمريكا - ٧ ديسمبر ٢٠٠٩

بقيت نقطة، وقد أجلتها إلىٰ نهاية الورقة لأنها ذات دلالة في منهج التعامل الغربي مع حقوق الإنسان في تركيا، وهي: القضية الكردية.

إن القضية الكردية حاضرة في كل دراسة أو تقرير عن الحالة التركية، وكثيرا ما حضرت في الماضي من بوابة حقوق الإنسان، وبغير شك فإن الأكراد عانوا كثيرا لنحو قرن من الزمن، وكانوا من الفئات التي سحقتها السياسات القديمة، إلا أن السياسات الجديدة مثلت تحولا كبيرا في التعامل مع الملف الكردي، غير أن التقارير الحقوقية لا تأبه كثيرا لما تحقق وتركز علىٰ ما لم يتحقق بعد، وبالعموم، فإن الدراسات الغربية عن تركيا تنظر إلىٰ القضية الكردية كمدخل لعدم استقرار تركيا لا كمدخل لاستقرارها بتعديل الأوضاع السيئة الموروثة. ولذلك فهي تمر علىٰ التحسن بعبارة أو بضع عبارة، بينما تفرد باقي الصفحات لرصد المخالفات مع مساحة من التعنت والتعسف ظاهرة وواضحة.

إن مسألة حقوق الإنسان في تركيا هي من الحقائق الواضحة التي يعد

البحث عن أدلة وجودها تعسف، كقول الشاعر:

ولــيس يــصح في الأذهــان شيء   إذا احتـــاج النهـــار إلى دليـــل

أو كقول الآخر:

فقد تنكر العين نور الشمس من رمد   وينكـر الفـم طعـم المـاء مـن سـقم

فالدليل هو ملايين المهاجرين المتدفقين علىٰ تركيا من سائر أنحاء العالم الإسلامي، فكلٌ منهم دليلٌ علىٰ الواقع، فضلًا عما لقيه هؤلاء من ضيافة وحسن ترحاب من إخوانهم الأتراك، وليس يعرف طعم الأمن إلا من ذاق الخوف. والحق أن منح الخائفين الأمان لا يقل بحال عن منح الجائعين الطعام ومنح الظامئين الشراب، بل لربما يزيد، إذ جوهر تميز الإنسان عن الحيوان هو شعوره بهذا الأمن الذي يعيد إليه شعوره بإنسانيته التي ما هاجر وترك بلده إلا لأنها سُحقِت أو كادت تُسْحق وتموت!

ولهذا أردد مع جميع إخواني: شكرا تركيا..

فوارق جوهرية
بين التجربتين العربية والتركية

لم تكن فرحة أنصار حزب العدالة والتنمية في تركيا بالفوز بأقل من فرحة العرب والمسلمين، في تركيا وخارجها، بهذا الفوز نفسه. بل نقول: فرحة العرب تزيد، فإن منهم اللاجئ ومنهم المطارد ومنهم من فقد الأمل في الحكام جميعا ولم يعد ينظر بعين الأمل إلا إلىٰ أردوغان.

وحيث ذهبت السكرة وجاءت الفكرة، فإنه ليس أسوأ من الهزيمة إلا الفشل في قراءة أسباب النجاح[1]، وإذا كان يُقال: للنجاح آباء كُثُر، فإن تفرق نسب النجاح بين الآباء لم نستطع أن نعرف أصله وسببه، ولم ندرك أين يكمن معدنه وجوهره.. فإن كل ذي رأي يمدُّ سبب النجاح إلىٰ رأيه ويبحث فيه عن هواه.

ولتهذيب وضبط القراءات المتعددة للتجربة التركية نكتب هذه السطور:

١- العسكر الترك والعسكر العرب:

بداية فإن الشبه الأساسي بين تركيا والبلاد العربية هو في كونهما حُكِما بأنظمة استبدادية، ومثلما يرىٰ العسكر أنفسهم في العالم العربي أصحاب الدولة وأنها ملكهم يرىٰ العسكر الترك ذلك، فعسكر تركيا يرون أنهم مؤسسو الدولة الحديثة وأصحاب الانقلاب علىٰ الإرث العثماني «المتخلف» وأصحاب معركة التحرير واستنقاذ البلاد من أنياب معاهدة سيفر التي كانت تقضي عليها

(١) هنا دُمج مقالان نشرا بتاريخ ٣ نوفمبر ٢٠١٥، ١٠ نوفمبر ٢٠١٥، في الفترة التي تلت فوز حزب العدالة والتنمية التاريخي في الانتخابات البرلمانية المعادة.

عمليا، ويفتخر العسكر حتىٰ الآن بإنجاز لم يكونوا قد وُلِدوا حين تمَّ، هذا لو تجاوزنا كل ما يثار من إشكاليات حول كونه إنجازا.

ورغم هذا الاتفاق فإن الفارق الكبير أن العسكر الترك كانوا منذ ظهرت آفاق التحديث ذوي رأي وسياسة، فحين بدأت سياسة ما يُعرف بالتنظيمات أو الإصلاحات في الدولة العثمانية كانت بدايتها في الجيش، وفي الجيش تكونت الحركات التي انقلبت فيما بعد علىٰ الخلافة العثمانية، ومنذ تأسيس الجمهورية والجيش هو من يحكم بسياسة علمانية واضحة وصريحة اشتبكت مباشرة مع نظام الخلافة ومع المجتمع المسلم، فالعسكر التركي يرث ميراثا علمانيا هو من أسسه ورعاه وصار ذا خبرة في معاركه.

بينما العسكر العرب جهلاء بلا فكر ولا رؤية ولا لهم دور في بناء دولهم ولا خاضوا معارك تحرير حقيقية يمكنهم أن يستمدوا منها شرعيتهم أو يفهموا بها معنىٰ الصراع الحضاري، بل إن عامة سيرتهم هو أنهم ورثوا البلاد من احتلال أجنبي سابق، هذا الاحتلال هو من قام بمهمة المواجهة مع المجتمع المسلم ونظامه ومؤسساته ثم قهر البلاد والعباد ثم أورثهم إياها جاهزة ممهدة قد استقرت فيها العلمانية علىٰ مستوىٰ النخب.. فكانت سيرة العسكر العرب في بلادهم أسوأ من سيرة الاحتلال نفسه.

ولذلك فبقدر ما يتصرف العسكر العرب تماما كأذيال للغرب بلا أدنىٰ رؤية ولا فكر، بقدر ما يرىٰ العسكر الترك أنفسهم أصحاب عقيدة ورأي في وضع تركيا وخياراتها ومصيرها! ولذلك آثار بعيدة علىٰ التعامل مع المدنيين!

٢- المشهد الديمقراطي:

بينما وقعت عدد من البلاد العربية تحت نمط الحكم الشيوعي، كانت تركيا واقعة تحت نمط الحكم الغربي الرأسمالي، وكانت تركيا خط دفاع متقدم للمعسكر الغربي بوجه المعسكر الشرقي، وكان من ضرورات هذا الصراع أن

يقوم في تركيا «مشهد ديمقراطي» يحتوي علىٰ أحزاب وتعددية وانتخابات نزيهة، فيما يغيب هذا المشهد بالكلية عن البلاد العربية فيكون استبدادها فجًّا غليظًا متوحشا لا يتجمل ولا يتزين.

من هنا فرضت الرغبة الغربية أن يكون في تركيا أحزاب وانتخابات نزيهة وسلطة تُتَداول، مع الاحتفاظ للعسكر بحقهم في «تصحيح مسار الديمقراطية» إن جاءت علىٰ خلاف العلمانية، لذلك لا تعرف تركيا تزوير الانتخابات، بل تعرف تداول السلطة وتعدد الأحزاب والتنافس الحقيقي علىٰ مواقع الحكومة، ولكن في ذات الإطار الغربي الذي يجعل الناس تحت سقف العلمانية وحكمها ويطحن المجتمعات التقليدية غير المعلمنة ويهمشها ويزيحها إلىٰ أطراف المجتمع.

بينما ظل العالم العربي محكوما بجثة عسكري أو ملك حتىٰ يتعفن، بلا أحزاب ولا مشهد ديمقراطي ولا تداول سلطة ولا انتخابات نزيهة، ولئن كان ثمة انقلابات عسكرية فإنها ليست لحماية العلمانية بل هي صراع أجنحة داخل العلمانية نفسها، وهو صراع ممدود إلىٰ حبل أصله في الخارج.

٣- الحركة الإسلامية: احتواء وممارسة:

وكان من آثار هذا علىٰ الحركة الإسلامية أن اختلفت اتجاهاتها بين تركيا والعالم العربي، ففي العالم العربي حيث الأفق السياسي منغلق تماما اتجهت الحركة الإسلامية إلىٰ المواجهة المسلحة مع الأنظمة أو ظلت تدور تحت السقف السياسي المسموح به، وفي كل الأحوال ظلت الحركة الإسلامية بعيدة تماما عن السلطة الحقيقية ودهاليزها وفهم خريطتها، فأعلىٰ ما حققوه أن تكون لهم حكومة بلا صلاحيات تحت ظل سلطة تسيطر علىٰ المال والعسكر والأمن (مراكز القوىٰ الحقيقية لأية سلطة) بينما كانوا نزلاء السجون وضيوف المشانق كثيرا وطويلا.

بينما كان الحال علىٰ النقيض في التجربة التركية، فبرغم الانقلابات العسكرية الكثيرة (حتىٰ لقد وصفت تركيا بأنها بلد الانقلاب العسكري كل عشر سنوات) إلا أن الإسلاميين هناك وصلوا إلىٰ السلطة غير مرة ضمن حكومات ائتلافية، كما تولوا بلديات مهمة بصلاحيات حقيقية، ولذلك كانوا ممارسين بالفعل للسلطة وأقدر علىٰ فهم خريطتها والتعامل معها. ومن ناحية أخرىٰ كانوا دائما تحت احتواء النظام إذ لم يبدُ منهم أي محاولة حقيقية للتحول نحو السلاح ومواجهة النظام القائم بالخروج عليه.. كانت العملية الديمقراطية (نصف الشكلية) تستطيع دائما استيعاب الطاقة الإسلامية ومنعها من الذهاب نحو أن تكون ضد النظام. إلا أن العملية الديمقراطية ذاتها سمحت بوصول من وضع نفسه الآن في موضع يبدو معه أنه صار عصيا علىٰ الانقلابات العسكرية وأنه يستطيع أن يحمي تجربته مما شهدته التجارب السابقة.

٤- العلمانية الشعبية:

ليس سرا أن تركيا كانت تجربة لبناء «الإسلام المعتدل» أمريكيا، وهو الإسلام الذي يمنح الناس حرية العبادة الشعائرية والتعبير عن الرأي بينما تبقىٰ الخيارات الحضارية الكبرىٰ رأسمالية غربية علمانية تامة. وأغلب الظن أن ما فعله أردوغان عبر هذه التجربة قد جعلت الأمريكان يعدلون عن تكرار هذه التجربة، بدليل ما فعلوه في مصر مع الإخوان الذين أعلنوا بوضوح أنهم يتوقون لتطبيق النموذج الأردوغاني.

لكن ثمة فارقا كبيرا يجعل تطبيق التجربة عسيرا في البلاد العربية، فمما لا يُنتبه له في الشأن التركي أنه قد جرت عملية ضخمة لتحويل الأتراك وفصلهم عن جذورهم، وقد استمرت هذه العلمانية لثلاثة أرباع القرن تعمل بكل شراسة وهي تملك إمكانيات السلطة المركزية الضخمة.. إلا أن أصعب ما جرىٰ في هذا السياق هو تغيير اللغة الذي شمل حروفها وكثيرا من ألفاظها كذلك، فهنا

صارت القطيعة بين الشعب التركي وتراثه قطيعة كبرىٰ تبدو عملية علاجها مستحيلة.. فإذا وضعنا هذا مع عامليْن آخريْن هما (عدم تعرب الدولة العثمانية، وكون التدين التركي صوفيا) أمكن أن نتصور مدىٰ الفجوة التي حدثت بين الإسلام كما هو في مصادره الأصلية وبين الإسلام كما أرادت له السلطة العلمانية أن يكون.

لقد أثمر كل هذا نجاحا ملموسا للعلمانية داخل الشعب التركي (لا طبقة النخبة)، فصار طبيعيا جدا أن ترىٰ في تركيا من يحافظ علىٰ الصلوات الخمس في المسجد ثم ينتخب حزب الشعب الجمهوري العلماني الأتاتوركي، وأن ترىٰ من لا يشرب الخمر ويكرهها ولكنه يتخوف بجد من أن الإسلاميين قد يمنعونها فهي حرية شخصية (والحرية الشخصية مقدسة)، وأن ترىٰ متحجبة متمسكة بالحجاب لكن سلوكها في حجابها لا يختلف عمن تعتنق العلمانية!

هذه النماذج لا تكاد توجد في العالم العربي، بل الناس في أرض العرب منقسمون إلىٰ مسلمين وطبقة علمانية متغربة، وإن كانت أفكار العلمنة تزحف رويدا رويدا في بلادنا فتكتسب جمهورا جديدا من الطبقة الوسطىٰ، إلا أن نجاح العلمانية في عالمنا العربي شعبيا لا يمكن أن يقارن بنجاحه في تركيا.

ولست أعني هنا أن عموم الشعب التركي صار متعلمنا، إطلاقا، فما يزال الترك من أصلب الناس إسلاما وحمية للدين، وإنما يكثر التشوش في مسائل العلمانية والحكم ومساحة الدين بالنسبة للسلطة، وثمة مناطق -مثل اسطنبول وأنقرة وإزمير وبعض المدن الساحلية- صارت العلمانية فيها نمطا معتادا، حتىٰ يُسأل الشاب هناك: من تنتخب؟ فيقول: حزب الشعب الجمهوري. فيقال له: لماذا؟ فيقال: هذا تقليدنا في العائلة!

٥- صراع الهوية:

قال عمر بن الخطاب: العرب مادة الإسلام، فإذا عزَّ العرب عزَّ الإسلام،

وإن ذل العرب ذل الإسلام.

إن إحدىٰ أهم الحقائق التاريخية الكبرىٰ أن العرب لا يملكون شيئا غير الإسلام، به كان مبتدأ أمرهم وبه بلغوا عزهم وصنعوا حضارتهم، وهم حين يأملون في بعث نهضتهم فليسوا يجدون غير الإسلام راية وشعارا وسبيلا، بل هم لا يعرفون غيره في باب الحضارة، بخلاف الحضارة الغربية -مثلا- التي تمتد جذورها «الحضارية» إلىٰ ما قبل المسيحية: فلسفة اليونان وحضارة الرومان!

وما يهمنا -في سياقنا هذا- أن آثار حقبة الاحتلال الأجنبي للدولة العثمانية اختلفت بين العرب والترك، فمن الصحيح أن الاحتلال غذّىٰ ودعم القومية العربية عند العرب والطورانية عند الأتراك، لكن العرب لم يجدوا في النهاية سوىٰ الإسلام قومية لهم وفشلت فكرة القومية العربية المعادية للدين وتحولت إلىٰ استبداد سلطوي بلا جذور فكرية ولا شرعية اجتماعية.

بينما كان النجاح أعلىٰ من هذا في التجربة التركية، فقد عمل أتاتورك علىٰ إنشاء هوية جديدة خُلِق لها تاريخ جديد ولغة جديدة، فقد تولت ابنة أتاتورك بالتبني كتابة تاريخ جديد لتركيا، وكانت هي نفسها تلميذة في جنيف للمؤرخ الأنثروبولوجي يوجين بيتارد صاحب نظرية أن التاريخ هو صراع الأجناس العليا مع الأجناس الدنيا، فصَدَرَ عنها تاريخ عنصري يرىٰ الترك جنسا أعلىٰ، موجودا منذ قديم الزمان في منطقة الأناضول، وله لغة عليا قديمة أخذت منها سائر اللغات، وصارت المهمة تنقية اللغة مما دخلها من العربية والفارسية.. ونشأ جيل يظن نفسه أصل البشر وأعلاهم جنسا وأشرفهم لغة، ولا يرىٰ للإسلام فضلا عليه.

لم يحدث هذا في التجربة العربية، فالقليل من حكام العرب -مع كل فجورهم- من استعلن بالكفر في مواقف محددة وقليلة، وظل خطابهم العام هو احترام الإسلام أو حتىٰ الدفاع عنه شكليا وعلنيا.

كانت الحركة الإسلامية في تركيا تصد عن نفسها تهمة الخروج عن العلمانية، بينما كان الحكام العرب يصدون عن أنفسهم تهمة الخروج عن الإسلام.

ولا يُعقل أن تبدأ التجربة العربية المنتصرة في مسألة الهوية، من حيث بدأت التجربة التركية المهزومة في مسألة الهوية.

٦- بنية السلطة:

كان من آثار «المشهد الديمقراطي» الموجود في التجربة التركية والغائب عن التجربة العربية أن اختلفت بنية السلطة في كليهما:

في العالم العربي يبدو واضحا أن الرئيس هو الإله بالنسبة للدولة، يقضي ما يشاء ويفعل ما يريد، والدولة كلها مجندة لتنفيذ رغباته مهما كانت غير طبيعية.. لذلك يتخيل العرب أن الوصول إلىٰ موقع السلطة في دولة كتركيا يساوي أن الرئيس قد تمكن منها وصار يستطيع أن يفعل ما يريد، فكيف إذا قضىٰ في السلطة أكثر من ١٢ عاما؟!!

الحقيقة بخلاف هذا، فالنموذج التركي منذ الخمسينات يسمح بديمقراطية شكلية قد تصل إلىٰ تغير منصب رئيس الحكومة وأن يصعد إليه إسلاميون، وفي لحظة حرجة يأتي الانقلاب العسكري.. حتىٰ النظام العلماني في تركيا لا يحكم تركيا بمجرد وجوده في السلطة بل من خلال تنظيم سري له العديد من الأذرع، لذلك أطلق وصف «الدولة العميقة» علىٰ الوضع التركي.

الديمقراطية التركية أقرب إلىٰ التنافس علىٰ «جزء من السلطة» بينما الأجهزة النافذة التي لا تخضع لانتخابات وأهمها: الجيش والشرطة والقضاء والجهاز الإداري تمثل الثقل الرئيسي في جسم السلطة.. وهذا الثقل الرئيسي قادر دائما علىٰ الانقلاب علىٰ نتائج الديمقراطية التركية.

هذا بالإضافة إلىٰ دور وسائل الإعلام (ووسائل الإعلام في أي نظام رأسمالي تكون جزءا قويا من السلطة ولكنها لا تخضع للشعب ولا تعبر عنه بل تعبر عن

ممويليها.. وفي عصرنا هذا فالممولون يؤولون في النهاية للغرب والأمريكان).

فالخلاصة أن السلطة في تركيا لا تشبه السلطة في العالم العربي من حيث شموليتها.. ومع هذا فإن تركيا بلد التنظيمات السرية، ويجري تحت سقف الأحداث المعلنة معارك عديدة بين هذه التنظيمات.

بينما يبدو وضع العالم العربي وكأن السلطة فيه احتكرت الوجود وصادرت ما سواها، أو لنقل: إن هذا الجانب ما يزال مظلما مغلقا لا يُعرف عنه الكثير في العالم العربي، ولا يمكن أن يُعرف بدقة ما إذا كانت السلطة هي التنظيم الأوحد، أم هي الجزء المعلن من تنظيمات سرية حاكمة وخفية.

ولئن كان النظام الديمقراطي التركي سمح باشتباك بين الإسلاميين وهذه السراديب السرية، فإن غياب هذه الديمقراطية في العالم العربي يجعل الأمر مختلفا وأكثر صعوبة.

٧- التغيير من داخل النظام:

ذكرنا أن من آثار المشهد الديمقراطي في النظام التركي: احتواء الحركة الإسلامية، إذ ظل السبيل الديمقراطي مفتوحا أمامها حتىٰ لم تفكر في مواجهة النظام من خلال حركة جهادية أو ثورة، ويكاد يختفي من التاريخ التركي الحديث قصة تجربة جهادية (مع وجود أفكار جهادية ولها انتشار ليس بالقليل بين الإسلاميين الأتراك). بينما انسداد السبل في العالم العربي لم يجعل من وسيلة للتغيير سوىٰ الخروج علىٰ النظام ومصادمته.

صحيح أن الحركة الإسلامية التركية نجحت في لحظة ما -بعد محاولات عديدة- بالإمساك بزمام السلطة، إلا أن التغيير لم يزل بطيئا، وهو تغيير من لم يتمكن من مفاصل الدولة الرئيسية بعد، ربما يبدو الآن عصيا علىٰ الانقلاب عليه لكنها أيضا عصية عليه، ومن يعش في تركيا يعلم أن جهاز الدولة ليس مستجيبا للتوجه السياسي حتىٰ الآن، بل هو معرقل له في كثير من الأحيان.

وتبدو المقارنة واضحة مع إيران، تلك التي جاء فيها التغيير جذريا وحاسما وبعد ثورة كبرىٰ، إذ لم يمض وقت طويل حتىٰ خلصت إيران ومفاصلها للملالي، فلذلك كان نمو القوة الإيرانية -رغم ما واجهته من حروب استغرقت نحو عقد من الزمن- أسرع وأفضل من غيره، فالتوسع الإيراني السياسي والثقافي (القوة الناعمة) هائل إذا قيس بكل العالم السني ومعهم تركيا أيضا. فلا تزال يد النظام التركي مغلولة عن أن تفعل عشر ما يفعله الإيرانيون من دعم المد الشيعي في أنحاء العالم.

وهكذا لكل شيء تكاليفه: فالتغيير من داخل النظام أقل كلفة بشرية ومادية ولكنه أبطأ كثيرا وحافل بالعثرات ويشترط نظاما يسمح بهامش من التغيير. بينما التغيير الثوري الجذري أعنف وأقسىٰ وهائل التكاليف لكنه نتائجه أرسخ وأسرع وأقوىٰ وهو الحل الوحيد في ظل نظام لا يسمح بأي هامش للتغيير ولا لديه أي مساحة للاحتواء.

لكل ما سبق، يحتاج العرب إلىٰ التأمل طويلا في التجربة التركية، لا علىٰ سبيل الاقتداء بها، بل علىٰ سبيل الاستفادة منها، ومن الاستفادة أن تُعْرَف مواطن الاتفاق ومواطن الافتراق، وأحسب أن التجربة التركية ضائعة بين من يتجاهل نجاحها وبين من لا يرىٰ غيرها. والفوارق التي بين التجربتين هي علىٰ الحقيقية تمنع من تكرار هذه التجربة أو الاقتداء بها في المحيط العربي، فيبقىٰ أن نستفيد منها.

علىٰ أنه ينبغي هنا أن نكرر علىٰ معنىٰ قديم لمن يحب الاقتداء بالتجربة التركية، وهو أن العدو يقرأ التاريخ أيضا، إذ يحسب الكثيرون أنه إن نجحت خدعة مرة أو طريقة مرة أنها قد تصلح في كل مرة، يحسبون العدو غافلا عن قراءة التجارب ويكرر ذات أخطائه!!

تركيا في دراسات عربية وغربية

قصة زعيم

- **اسم الكتاب**: رجب طيب أردوغان.. قصة زعيم.
- **المؤلف**: حسين بسلي - عمر أوزباي.
- **المترجم**: د. طارق عبد الجليل.
- **دار النشر**: الدار العربية للعلوم ناشرون.
- **سنة النشر: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م.**
- **عدد الصفحات: ٤٣٠.**

وهو الكتاب الوحيد الذي تُرجم من التركية إلىٰ العربية -فيما أعلم- عن شخصية أردوغان، ألفه اثنان ممن عملوا معه في رحلة الصعود منذ كان رئيسا لشعبة اسطنبول في حزب الرفاه! وهما: حسين بسيلي وعمر أوزباي. وترجمته إلىٰ العربية جيدة.

تكمن قيمة الكتاب في أن مؤلفيه شهود عيان، وهم ممن اقتربوا من أردوغان وفريقه منذ وقت مبكر، ولذلك كانت لديهم الصورة الداخلية للتطورات وأجواء اتخاذ القرارات وعلاقات بأطراف القصة، مما مكَّنَهم من إدراج شهادات شهود العيان الذين حضروا مواقف تفصيلية.

ويكمن جمال الكتاب في اعتمادهم أسلوب القصة المحكية دون أساليب النظر والبحث والتحليل الأكاديمي، وقد حرصوا علىٰ أن يبدؤوه بداية تشويقية بقصة اغتيال استهدفت أردوغان منذ كان مرشحا لرئاسة بلدية اسطنبول الكبرىٰ

لتدفعه للتنازل عن الترشح. كذلك خاتمته التي وقفت عند قصة اغتيال أخرىٰ في سرت، وكانت تستهدف إنهاء حياته لئلا يصعد إلىٰ منصب رئيس الوزراء بعد رفع الحظر القانوني علىٰ ترشحه وممارسته السياسة.

ويمكن اختصار الكتاب كله في أن أردوغان رجل من عامة الشعب وفقرائه، نهض بعزمه وإرادته وإخلاصه ليدخل ميدان السياسة، وفي ذلك الميدان واجهته عقبة كبرىٰ: هي عقبة النظام العلماني الفاسد المتكبر عن الشعب المنصرف عن مصالحه والمتركز علىٰ مصالح الطبقة الحاكمة. وفي إطار هذه العقبة كان منذ شبابه المبكر عضوا في الحزب الإسلامي (الذي دائما ما يُحلَّ ثم يعود باسم جديد وشعار جديد) وفاعلا فيه، وفي مسيرته داخل الحزب واجه عقبتين؛ الأولىٰ: هي نمط القيادة الفردي المستبد الذي يمارسه أربكان حتىٰ ليستحيل معه إحداث إصلاح أو تعديل في سياسة الحزب وطريقته بل إن نمط القيادة الأربكاني يتوجس خيفة من وجود قيادات شابة تفكر بطريقة مختلفة ولهذا كثرت بينهما التوترات. والثانية: هي التشدد والانغلاق في مخاطبة الجماهير والسعي إليهم والتمسك بأمور تنفر الناس منهم وتعزلهم عنهم وتعطل طاقاتهم المكنونة خصوصًا الطاقة النسائية.

هذه العقبات الثلاثة هي التي ولَّدت -بعد كثير من الصراعات- حزب العدالة والتنمية في صيغته تلك التي يراها البعض من الخصوم والمؤيدين «إسلامية متنكرة بفعل الاضطرار» ويراها البعض من الخصوم والمؤيدين قد خرجت عن وصف الإسلامية.. ولذا ليس غريبا أن يكره البعض ذلك الحزب لما عندهم من الإسلام ويكرهه الآخرون لخروجهم عنه.

هذه التجربة الثرية الحافلة بالمصاعب لم تعرض في الكتاب كما ينبغي!

يكمن العيب الأساسي للكتاب في كونه كتابا دعائيا عاطفيا لا عمق فيه ولا تحليل ولا محاولة رصد حقيقية لكافة عوامل النهوض أو الأزمة، ولا كيف

جرىٰ حلها، بل الأزمات دائما تنشأ لمحاولة ماكرة شريرة، وتُحَلَّ لما لدىٰ الزعيم من صدق وثقة وإخلاص وعزم وتصميم... إلخ! وهذا نمط من التأليف ربما ينجح في إضفاء الصفات العظيمة والأسطورية علىٰ الزعيم لكنه لا يفيد في باب رواية التاريخ والتعلم من التجربة، بل هو علىٰ الحقيقة مضطر لأن يحذف من رواية التاريخ ما قد يُظَنُّ منه الإساءة للزعيم أو إظهار بعض ضعفه أو خطئه أو تنازله!

ولذلك، يخرج القارئ للكتاب في أحسن الأحوال متمنيا أن يبقىٰ أردوغان حيا أبدا أو أن تُرزق أمته رجلا مثل أردوغان، بينما يغيب عنه تماما منهج الرجل في الاختيار والترجيح ومواجهة العواصف السياسية، فمتىٰ يصبر ويسكت، ومتىٰ يتقدم ويغامر، ومتىٰ يتراجع وينسحب.. إن نمط الكتاب يجعل الصبر والسكوت أدبا وخلقا، ويجعل التقدم والمغامرة شجاعة وإقداما، ويجعل التراجع والانسحاب (إن وُجد، وقليل ما هو) حكمة وبعد نظر!

ولذا كان هذا النمط من التأليف قليل الفائدة في ميزان التاريخ وإن كان كبير الفائدة في ميزان الدعاية!

ومن آثار هذا أن الكتاب عبر علىٰ مواقف مفصلية بسرعة، بل وأغفل بعضها تماما، فيما أطال الوقوف أمام مواقف أخرىٰ عاطفية وإنسانية وخصص مساحة واسعة لنقل مقاطع من خطب أردوغان وتصريحاته وقضية سجنه وأيامه في السجن! وخصص مساحة طويلة نسبيا لإنجازات أردوغان الاقتصادية والعمرانية في بلدية اسطنبول، وفي الحديث عن إعجاب الناس به وتأثرهم الشديد بخطاباته وثقتهم الوافرة فيه ودموعهم التي تسيل دائما حين يسمعونه، وعن خطاب له أصرَّ فيه علىٰ خلع السترة الواقية من الرصاص مع وجود تهديدات بالاغتيال، وقصص إفطاره في رمضان مع الفقراء والمعدمين بل انتبه الكتاب لقصة طالبة صغيرة ترسل له رسالة في سجنه فيهتم أن يرد عليها بنفسه

(من بين مئات أو آلاف الرسائل) وكيف كان أثر هذا علىٰ الفتاة الصغيرة.

وأما المواقف التي عبر عليها بسرعة فمنها ذلك النمط الجديد الذي اعتمد عليه حزب التنمية والعدالة في الاعتماد علىٰ «قاعدة رجال الأعمال الشباب» بدلا من الاعتماد بالكامل علىٰ الجماهير والظهير الشعبي كما كان الحال سابقا في تجارب الأحزاب الإسلامية. وكان الأحرىٰ الوقوف أمام هذا التحول وبيان أسبابه بعمق، لتفيد منه الحركات الإسلامية. ولست أحسب السبب إلا أن نقاش هذا الأمر مُضِرٌّ في باب الدعاية ومخالف لعاطفة الجماهير.

ومن تلك المواقف التي عبر عليها بسرعة هو تلك الترتيبات مع أوروبا وأمريكا في شأن برنامج الحزب الاقتصادي، إذ لم يقل الكتاب سوىٰ أن البرنامج الاقتصادي للحزب بعدما وُضِع في تركيا انطلق أصحابه في جولات خارجية.. ثم أغفل مطلقا حقيقة ما دار في هذه الجولات اللهم إلا أن البرنامج حقق إعجابا وثقة (بالطبع!)

كذلك من المواقف التي عبر عليها بسرعة هو ذلك التحول من «الإسلامية الصريحة» إلىٰ حزب يجمع إليه كل المواطنين، حزب يتخلص من «العبء الأيديولوجي»، فبرغم أهمية وجوهرية هذه المسألة إلا أن الذي قيل فيها قليل مُبتسر، أريد به ألا يؤذي العلمانيين ولا الإسلاميين، فكان العبور السريع هو الطريق الأسلم!

أما المواقف التي أغفلها مطلقا فكثيرة، وأهمها ما يخص الوضع الدولي، فلقد سار الكتاب سيرة من يتعامل مع تركيا وكأنها ملف داخلي بحت، لا علىٰ أنها في بؤرة صراع عالمي، وأهم ما يمكن أن نضرب به مثلا علىٰ هذا هو: ما الثمن المدفوع لقاء أن يوافق حزب الشعب علىٰ رفع عبارة «الأفعال الأيديولوجية والتحريضية» من المادة ٧٦ من الدستور ووضع عبارة «الأفعال الإرهابية» وهو ما ترتب عليه رفع الحظر السياسي عن أردوغان، مما جعله يقفز

مباشرة إلىٰ موقع رئيس الوزراء! لقد كان الأولىٰ (بميزان التاريخ لا بميزان الدعاية طبعا) أن يتوقف أمام ملابسات تلك اللحظة العصيبة، وما جرىٰ فيها من مساومات في ملف حرب العراق وملف الجيش التركي وملف الانضمام إلىٰ الاتحاد الأوروبي!

إن أردوغان زعيم يفتخر به العالم الإسلامي، ويتعلق به ملايين في الشرق والغرب، سواء أَحَبَّ ذلك الأتراك أم كرهوه وسواء فهموه أم لم يفهموه، وما يزال المسلمون لما هو معروف من سوء حالهم يتوقون إلىٰ زعيم ويتعلقون بكل من يبدو منه أدنىٰ بادرة لتحقيق هذه الزعامة، ولو كان مطاردا ومختفيا كابن لادن والظواهري والبغدادي، ولو كان لا يملك من القوة سوىٰ مال وإعلام كأمير قطر، ولو كان لم يبدُ منه سوىٰ بادرة ضئيلة لتغير السياسية كالملك سلمان.. فكيف إذا كان من بدت زعامته علىٰ رأس دولة قوية وناهضة مثل تركيا، ينطق بالكلام القوي ويتخذ المواقف الجريئة في المحافل الدولية؟! ثم كيف بهم بعد أن تعلقوا بأمل قوي مع ثورات الربيع العربي ووصول محمد مرسي إلىٰ الرئاسة في مصر مما هيَّج الأحلام وجعلها في عنان السماء؟!

إن الأمة تحتاج من يسطر لها التجربة التركية بصدق وعمق، لتستفيد وتتعلم، بما في هذه التجربة من إخفاقات ونقاط ضعف واحتمالات تهديد.. كما يحتاج الأتراك أنفسهم هذا، ولذلك فإن تقزيم تجربة أردوغان في كتاب أقرب إلىٰ الدعائية لم يكن عملًا موفقًا ولا سديدًا.

تركيا.. الأمة الغاضبة

- **الكتاب**: تركيا.. الأمة الغاضبة (Angry Nation; Turkey since 1989).
- **المؤلف**: كِرِم أوكْتِم (Kerem Oktem).
- **المترجم**: مصطفىٰ مجدي الجمال.
- **تقديم**: د. عاصم الدسوقي.
- **الناشر**: دار سطور، القاهرة.
- **الطبعة**: الأولىٰ.
- **عدد الصفحات**: ٢٨٦.
- **سنة النشر**: ٢٠١٢م.

كان من حسن حظ المؤلف أن دفع بكتابه هذا إلىٰ المطبعة قبيل اندلاع الثورات العربية، أو لعل هذا من سوء حظه، إذ ما من مؤلف إلا ويودُّ لو صدقت توقعاته وتحليلاته وبقيت علىٰ مرّ الزمان، ولذا لا يحب المؤلفون أن تتغير ساحة بحثهم بما يأتي فيها بجديد لتظل مؤلفاتهم صالحة لتحليل وتفسير الظاهرة أطول فترة ممكنة. فمن هنا كان من سوء حظ المؤلف أن تغيرت ساحة بحثه بعد شهور من صدور الكتاب. أما حسن حظه فمن جهة أخرىٰ، ذلك أنه لو أمسك شهورا لما كان الكتاب قد صدر بحال! فالمؤلف الذي بدا حريصا ومتحرجا وهو يكتب تاريخ سنوات (٢٠٠٧ - ٢٠١٠) باعتبارها مضطربة ولم يزل غبارها بعد، كيف به حين تجتاح المنطقة عاصفة الربيع العربي ثم عاصفة انقلاباته وحروبه الأهلية فيتغير كل المجال الحيوي المحيط بتركيا وهي موضع بحثه؟!

علىٰ أية حال فإن إنتاج المؤلف بعد هذا الكتاب اقتصر علىٰ الشأن التركي وصار متخصصا فيه، فقد شارك في كتب «معركة تركيا مع الحداثة» (٢٠١٠)، و«إمبراطورية أخرىٰ.. عقد من سياسة تركيا الخارجية تحت حزب العدالة والتنمية» (٢٠١٢)، و«تركيا ما بعد القومية» (٢٠١٣). وهو زميل باحث في مركز الدراسات الأوروبية، كلية سان أنتوني، حاصل علىٰ الدكتوراه بكلية الجغرافيا جامعة أكسفورد (٢٠٠٦)، يهتم بمسائل القومية والعرقية وحقوق الأقليات، وهو الآن أستاذ دراسات جنوب شرق أوروبا، والشأن التركي.

صدر الكتاب في نسخته الإنجليزية ضمن سلسة (Zed) للتاريخ المعاصر، وهي سلسلة ترصد التاريخ منذ عام انهيار الاتحاد السوفيتي (١٩٨٩م)، إلا أن المؤلف أصرَّ علىٰ أن يبدأ من الانقلاب العسكري عام (١٩٨٠م) مفسرا هذا بأن هذا الانقلاب هو تحول تركي مبكر نحو اعتناق الليبرالية والتخلي تماما عن آثار الاشتراكية واليسار، ثم إنه قضىٰ نحو ثلث الكتاب في مقدمة تاريخية منذ إسقاط الخلافة وتأسيس الجمهورية العلمانية وحتىٰ الوصول إلىٰ لحظة انقلاب (١٩٨٠م).

أول ما يطالع المرء من الكتاب مقدمة للمؤرخ المصري د. عاصم دسوقي، ولكنها مقدمة متغربة حتىٰ النخاع، متغربة أكثر بكثير من الكتاب نفسه! ولم يكن الكتاب بحاجة إليها إذ لم تضف إليه جديدا ولم تلق ضوءا عليه، بل يوحي خروجها عن موضوع الكتاب وقضاياه أن صاحب التقديم لم يقرأه أصلا.

يقسم الكتاب التاريخ التركي إلىٰ عقود، وهي قسمة تكاد تكون مستقرة، ذلك أن تركيا قد عرفت الانقلابات العسكرية كل عقد، حتىٰ وصفها راينر هيرمان في كتابه «تركيا بين الدولة الدينية والمدنية» بأنها بلد الانقلاب كل عشر سنوات، وكعادة الانقلابات فإنها تقطع الطريق علىٰ مسار طبيعي لتعيد العجلة إلىٰ الخلف. مع التركيز بقدر أوفر علىٰ فترة الدراسة (١٩٨٠ - ٢٠١٠م) حيث

يسير بتمهل منذ عهد تورجت أوزال ويرصد التغييرات الواسعة التي أنجزها بين فوزه برئاسة الوزراء ثم انتخابه رئيسا حتىٰ وفاته المفاجئة (١٩٨٣ - ١٩٩٣م)، ثم يعتبر عقد التسعينيات «العقد الضائع» الذي ارتدت فيه تركيا تحت هيمنة «الدولة الحارسة» عن إصلاحات أوزال، ثم يبدأ بعدئذ عقد العدالة والتنمية.

يمثل الكتاب وجهة نظر غربية للوضع التركي، فهو موجز للتاريخ التركي من زاوية غربية، ومقدمة للقارئ الغربي، وحيث كان المؤلف متخصصا في مسائل القومية والعرقية فإن الكتاب جاء يركز بشكل أكبر علىٰ «قهر» الجمهورية التركية العلمانية للأقليات، وخصوصا: الأكراد والعلويين والأرمن وبقايا اليونانيين واليهود ومن علىٰ شاكلتهم. فطفق الكتاب يهتم بهذه المسائل ويتتبع تفاصيلها بشكل كوَّن صورة واضحة عما عانته هذه الأقليات طوال عهد الجمهورية التركية العلمانية.

كذلك اهتم الكتاب بمسألة العلاقة بين كل من تركيا والاتحاد الأوروبي من جهة، وتركيا واليونان من جهة أخرىٰ، وقد تداخل الملفان أحيانا حين كانت عقبة قبرص تمثل أزمة أمام انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي، وهنا أيضا قدَّم الكتاب صورة جيدة عن تطور العلاقة التركية الأوروبية، وكان مهتما دائما بتأثير السياسة التركية الداخلية والخارجية علىٰ العلاقة مع أوروبا.

عالج الكاتب كثيرا من القضايا بحيادية، وكان مستوعبا وذا رؤية لكثير من التفاصيل، وكان طرحه في العموم موضوعيا، ولم يبد إعجابه بأحد إلا تورجت أوزال صاحب الإصلاحات الاقتصادية الواسعة، وبأحمد داود أوغلو الذي اعتبر أنه استطاع تطبيق نظريته السياسية الجديدة «العمق الاستراتيجي» أثناء توليه وزارة الخارجية وأنه استطاع فتح آفاق واسعة أمام تركيا بانفتاحها علىٰ العرب والبلقان والشرق الآسيوي إلىٰ الحد الذي جعل التركي يستطيع الانسياح والاندماج والتأثير في فضاء واسع مما يرسم خريطة سياسية جديدة تنكمش فيها

مساحة نفوذ أوروبا وأمريكا.

ويختم الكتاب بقراءة في سيناريوهات المستقبل هو أقرب إلىٰ النصائح والتوصيات منه إلىٰ الرصد والتوقع، وهو يرجو أن يتمكن حزب الشعب الجمهوري العلماني الكمالي من تطوير نفسه ليكون منافسا قويا وحقيقيا لحزب العدالة والتنمية فيتحقق بذلك شرط الديمقراطية التي تشترط وجود حزبين مختلفين معبريْن عن جماعات وطوائف اجتماعية مختلقة. كما أنه لا يستبعد عودة العسكر مرة أخرىٰ ولكن في هذه المرة لن تبقىٰ تركيا موحدة بل سينفصل عنها الجزء الكردي، إلا أنه يرجح استمرار سيناريو الليبرالية مع ما سماه «الوصاية الإسلامية» ويعني بها التوجه الإسلامي لحزب العدالة والتنمية.

يتميز الكتاب بأنه مجهود بحثي محترم ويقدم صورة واضحة لملفات تغيب عادة في الكتابات العربية عن الشأن التركي كملف الأكراد والأرمن والعلويين.

ويؤخذ علىٰ الكتاب بعض أمور أهمها:

١- أنه لم يعط «الدولة العميقة» حقها من الاهتمام والتتبع، فلقد كان حجم استعراضه لقوتها وتأثيرها وشبكاتها أقل بكثير مما ينبغي للفاعل الرئيسي في التاريخ التركي المعاصر.

٢- كما بدا من المؤلف انحيازات فجة إلىٰ العلمانية والموقف الغربي في عدد من القضايا، منها لهجته لدىٰ الحديث عن الإسلاميين؛ فهم مثيرون للمخاوف ومرتكبون للجرائم بخلاف لهجته الأرفق كثيرا باليساريين رغم إثباته لعدد من الجرائم التي ارتكبوها إلا أنه يغلفها بالثورية وبالمناخ المناهض للإمبريالية. ومنها: تفهمه للموقف الأوروبي المنافق والمتلاعب بتركيا في مسألة انضمامها للاتحاد الأوروبي وكيف كانت تختلق الحجج والمعاذير وتبتكر السوابق التاريخية لمنع تركيا من دخول الاتحاد الأوربي، فهو وإن أثبت

هذه المواقف إلا أنه يعتذر بالمخاوف الأوروبية الناتجة عن أحداث ١١ سبتمبر ونحوها. بل إنه تفهم حكم المحكمة الأوروبية ضد طالبة كلية الطب التركية ليلىٰ شاهين والتي منعت من دخول امتحان السنة الخامسة لارتدائها الحجاب فقررت رفع القضية للمحكمة الأوروبية إلا أن المحكمة انحازت لعلمانية الدولة ضد حريتها الشخصية واختياراتها الدينية وأيدت حكم المحكمة التركية بحرمانها من الامتحان.. هنا يبدو الرجل المتسامح الذي حوَّل كتابه أحيانا إلىٰ منشور مدافع عن الأقليات وحقوقهم إلىٰ «متفهم لقرار المحكمة» النابع من الإسلاموفوبيا!!

٣- إن الكتاب وإن كان مجهودا بحثيا رصينا إلا أنه يكاد يخلو تماما من المصادر، إذ لم يثبت المؤلف سوي مصدرين أو ثلاثة، بالإضافة إلىٰ لقاءاته المباشرة مع بعض الشخصيات، وليس من بينها شخصيات ثقيلة كذلك. وهذه مخالفة لشرط أساسي من شروط البحث العلمي قُصِد بها -ضمن ما قُصِد- محاكمة الكاتب إلىٰ مصادره في الدقة والأمانة وصحة المعلومة.

وفي كل الأحوال يظل الكتاب كتابًا مفيدًا جديرًا بالقراءة.



التجربة النهضوية التركية

- **الكتاب**: التجربة النهضوية التركية: كيف قاد حزب العدالة والتنمية تركيا إلىٰ التقدم؟
- **المؤلف**: محمد زاهد جُل.
- **دار النشر**: مركز نماء للبحوث والدراسات - السعودية.
- **سنة النشر**: ٢٠١٣م.
- **عدد الصفحات**: ٢٤٠.

رغم مُضِيّ ثلاثة عشر عاما علىٰ بدء تجربة أردوغان وحزبه «العدالة والتنمية» في تركيا، وبرغم ما أسفرت عنه هذه التجربة من تغير كبير في تركيا: سياسيا واقتصاديا وثقافيا، ومن تغير في المشهد السياسي في الشرق الأوسط، وبرغم ما حققه أردوغان من شعبية عالية في الأوساط العربية.. برغم كل هذا إلا أن الكتب المتوفرة عن هذه التجربة في لغة العرب قليلة للغاية، وأقل منها تلك التي كتبها أتراك في رصد وتقييم هذه التجربة.

من هنا يأخذ هذا الكتاب الذي بين أيدينا أهميته، إذ مؤلفه باحث تركي يتقن العربية، وهو مقرب من حزب العدالة والتنمية، فهو إن لم يكن أحد المساهمين في التجربة ولو بقدر قليل فإنه في الحد الأدنىٰ شاهد عيان عليها، فيكون لروايته قيمة إضافية.

ويزيد في أهمية الكتاب أن مؤلفه صرَّح في مقدمته بأنه قَصَد إلىٰ تأليفه لأن «مرحلة الربيع العربي نفسها تحتاج إلىٰ الدراسات العميقة التي تفهم التجربة النهضوية التركية في كافة مجالاتها»، إذ أن أسباب إخفاقات المحاولات العربية

إنما كان «لافتقاده الرؤية المتكاملة للمشروع النهضوي، ولافتقاره إلىٰ إخوة صادقين يشاركونه المعاناة والرغبة الصادقة بتحقيق نهضته دون طمع ولا خداع ولا غدر ولا دوافع استعمارية ولا هيمنة امبريالية ولا عولمة مستعلية ولا شركات عابرة للقارات متوحشة، وإنما بأخوة مؤكدة ومصالح مشتركة ومنافع متبادلة».

ولمحاولة تحقيق هذا الهدف قَسَّم المؤلف كتابه إلىٰ تمهيد وأربعة فصول وخاتمة.

يستعرض **التمهيد** لما سَمَّاه المؤلف «مفتاح النهضة التركية»، ويقصد به «الهوية الإسلامية» للشعب التركي، إذ هي المفتاح الذي أصرت التجربة العلمانية التركية علىٰ اطراحه بل ومحاربته ففشلت دائما في صناعة نهضة، فما من نهضة لشعب إلا وكانت «الهوية» حاضرة فيها. ولقد كان حزب العدالة والتنمية مستوعبا لهذا المعنىٰ كما كان وريث المحاولات الإسلامية الممتدة عبر القرن السابق.

ويستعرض الفصل الأول **الأسس الفكرية للنهضة التركية**، وهو فصل تاريخي يلقي الضوء سريعا علىٰ تجربة الإصلاح التركية منذ أواخر العصر العثماني وتأسيس الجمهورية، ومختصر هذا الفصل أن الدولة العثمانية ثبت ضعفها وفشلها في أواخر عمرها ولم يكن من بديل عن إصلاحات جذرية إلا أن الذي انتصر في النهاية هم العلمانيون فأسسوا الجمهورية علىٰ يد مصطفىٰ كمال أتاتورك، وبهذا التأسيس نبتت مشكلات الهوية في المجالات كافة؛ ففي باب السياسة والدستور تفاقمت إشكاليات الديمقراطية والأحزاب -كوسيلة تمثيل شعبي- مما جعل الديمقراطية نفسها موضع صراع كبير بين الشعب وبين الدولة، يختار الشعب من يمثله فيقوم الجيش بانقلابات عسكرية تعيد الدورة من جديد. كما تفاقمت مشكلة العلاقة بين الدين والدولة، ومن منهما يسيطر

علىٰ مساحة الآخر أو يهيمن علىٰ مساحات التداخل بينهما، وقد أثمر كل هذا إشكاليات اقتصادية، فالاقتصاد جزء من السياسة التي هي رؤية شاملة، كما أثمر مشكلات في التعامل مع العرقيات والطوائف التركية التي انعكست آثارها علىٰ انسجام الشعب التركي وحقوق الإنسان.

كما يستعرض الفصل الثاني **الرؤية التربوية والتعليمية** للنهضة التركية، وكيف أدرك حزب العدالة والتنمية أن التعليم جزء لا يتجزأ من الهوية ومن أسباب التنمية، وهو حين أدرك هذا فإنه استدرك فشل العثمانيين حين لم يستطيعوا إنتاج إصلاحات تتلافىٰ سقوطهم وفشل العلمانيين حين اعتنقوا الهوية الأوروبية وأنزلوا تطبيقاتها علىٰ التربية والتعليم، ثم إنه أكمل مسيرة المحاولات الإسلامية لمقاومة العلمانية منذ عدنان مندريس معتقدا أن التعليم هو ركن أساسي في صناعة الإنسان التركي الذي هو محور النهضة المنشودة.. وطفقت باقي المباحث تستعرض فقرات من برنامج الحزب في شأن التعليم، كما استعرضت بالأرقام إنجاز الحزب في مجال التربية والتعليم: المدارس والجامعات والبحث العلمي.

وفي الفصل الثالث حديث عن **النهضة الاقتصادية** التركية، وشمل هذا الفصل الإنجازات الاجتماعية والقانونية القضائية أيضا، وقد احتشد هذا الفصل كذلك بوصف رؤية الحزب لهذه المجالات وبإنجازاته -مدعومة بالأرقام- في هذه الأبواب، مع التأكيد في كل باب علىٰ استيعاب الحزب لموقع تركيا وإمكاناتها الاقتصادية وما تستطيع أن تقوم به من استثمار لتاريخها وجغرافيتها وثقافتها في صناعة النهضة.

ويتناول الفصل الرابع **العلاقات الدبلوماسية والسياسة الخارجية** التركية، وكيف أن تركيا وضعت نفسها في الحضن الأوروبي تماما منذ تأسيس الجمهورية، وكانت أوروبا تحتاجها -لموقعها الفريد- لتكون ضمن خطوطها

الدفاعية الأمامية ضد الاتحاد السوفيتي وحلف وارسو مما جعل انضمامها إلىٰ حلف الناتو وعلاقتها بإسرائيل تحصيل حاصل. إلا أن أوروبا أعرضت عن تركيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ولم تعد ترحب باقترابها، ومن ثم كانت رؤية حزب العدالة والتنمية تعتمد علىٰ فتح العمق الجغرافي والإسلامي لنفسها، لتكون ذات بيئة إقليمية آمنة، ولتكون موضع اعتماد وركن أساس في استقرار المنطقة، مع تطويع سياستها الخارجية لتناسب البيئة السياسية المتغيرة. وأفرد المؤلف مبحثا في هذا الفصل لرصد تأثير التجربة التركية علىٰ العالم العربي، وهو من أفضل مباحث الكتاب وأطولها، ورأىٰ أن التجربة التركية تفيد العرب في تقديم نموذج لحكم يجمع بين الإسلام والمعاصرة، إلا أن هذا النموذج تعترضه ثلاثة مخاطر: خطر الصراع الداخلي: بين الإسلاميين والعلمانيين وبين الأقليات غير المسلمة خصوصا والثورات لا تتحمل الاختلافات والشقاقات وتحتاج إلىٰ الاتفاق، وخطر الفراغ الدستوري الذي هو ضرورة ديمقراطية والتي لم يستطع أردوغان -كما يقول المؤلف- أن يحسمه رغم تسع سنوات من حكمه، وخطر التخويف الدولي الآتي من العالم الغربي.

ثم تأتي الخاتمة لتطرح سؤال «**كيف يمكن الاستفادة عربيا من التجربة التركية**» وفيها نصائح عامة مجملة تتركز في خمسة؛ الأول: امتلاك رؤية واضحة تعتمد علىٰ جعل الشعب فوق السياسيين لا تابعا خاضعا لهم، والثاني: أن السلطة خدمة لا مغنم وأن يكون هذا بالعمل والإنجاز لا بالشعارات، والثالث: محاسبة المسؤول عما أنجزه مما وعد به وجعل هذا شرطا لبقائه في السلطة، والرابع: العمل المؤسسي وفق خطط مدروسة لا العمل العشوائي، والخامس: وصول النهضة إلىٰ كل أنحاء الوطن لا تركزها في منطقة بعينها أو في طبقة بعينها.

لقد كُتِب هذا الكتاب في أواخر عام ٢٠١٢، حين كان الربيع العربي في واحدة من أفضل لحظاته، تبدو الثورات جميعها سائرة في طريق النجاح، وقد

تولىٰ حكم مصر رئيس إسلامي لا يخفي رغبته في اقتفاء التجربة التركية.. ولا ريب أنه لو كتب الآن في ظل الخريف العربي -بعد سلسلة الانقلابات- وربما الخريف التركي أيضا بعد الأزمات التي حاصرت أردوغان لكان سيكون علىٰ منوال آخر.

وهنا أول ما نأخذه علىٰ الكتاب: أنه أراد تقديم تجربة نجحت في ظل استقرار سياسي، وداخل نظام الدولة الحديثة ومؤسساتها ليكون دليلا لتجارب ثورية تقوم بالأساس علىٰ كسر هذه النظم التي لم تسمح ولا بعشر معشار ما سمحت به العلمانية التركية طوال تاريخ الجمهورية.

إلا أن المأخذ الأهم الذي ننقد به الكتاب هو أنه لم يقدم حتىٰ هذه التجربة..

لا ريب أن تقييم المرء لكتاب إنما يعتمد في الأساس علىٰ توقعاته منه، فإن جاء محققا لتوقعاته مجيبا عن إشكاليته أو كان أعلىٰ منها كان المرء منبهرا، وإن كان دون ذلك كان القارئ محبطا.. ولقد كنت مع هذا الكتاب من المحبطين!

فالكاتب باحث مقرب من حزب العدالة والتنمية، وعلىٰ اطلاع بما لا يطلع عليه العامة من الدهاليز، وكنت أتوقع أن يأتي تحليله للتجربة التركية عميقا ومهموما بالمفاصل والخطوات المهمة والكبرىٰ.. إلا أن هذا لم يكن.

لقد كانت المساحة الأطول مرصودة لسرد إنجازات حزب العدالة والتنمية في كافة المجالات، فتحول معظم الكتاب إلىٰ نشرة إخبارية أو تقريرا حكوميا عن الإنجازات، لأنه مجرد سرد للبرنامج ثم سرد للأرقام.. لذلك فمن أراد أن يقرأ «حصاد» التجربة التركية فسيجد في هذا الكتاب بغيته.. لكن من أراد أن يفهم ما وراء هذه النجاحات فسيعود محبطا لأن سر النهضات ليس في نصوص البرامج ولا في ظواهر الأرقام. وحتىٰ ما كان في الكتاب من التاريخ أو من أثر التجربة التركية علىٰ العالم العربي كان الكلام عنه سريعا ومختصرا وإن

كان لا يخلو من عمق ورصانة. وجاءت الخاتمة بنصائح نظرية وسريعة أيضا يمكن لكل صحفي أو متابع أن يكتب مثلها، فهي أقل من المنتظر من رجل مقرب من الحزب ويعرف دهاليزه.

إن الكتاب في مجمله دعائي لا تحليلي، وهذه المشكلة أقابلها للمرة الثانية في كتاب تركي يعرض للتجربة التركية[١] مما يحمل علىٰ الظن بأن الأتراك أنفسهم غير واثقين في استقرار نجاحهم ولذلك يسيطر عليهم التسويق له بدلا من تقديمه كتجربة يستفاد منها.. وهذا الكتاب يعترف أن المعركة الديمقراطية لم تنته بعد حتىٰ بعد تسع سنوات من التصدر للحكم.

ومن العيوب الخطيرة للكتاب، وهو عيب كذلك في كتاب قصة زعيم، هو تجنبهم التام للحديث عن الخارج وتأثيراته في التجربة التركية، إنهم يسوقونها كتجربة محلية بحتة قامت ونجحت لمجرد قدرتها علىٰ التعامل مع الشعب.. وهذا الخطاب هو خطاب صحفي دعائي، بينما في ساحة السياسة يكون العامل الخارجي أقوىٰ بكثير من العامل الداخلي، خصوصا في منطقتنا الإسلامية الواقعة تحت الهيمنة الغربية منذ قرن علىٰ الأقل. ولئن شئنا إنضاجا حقيقيا للفكر الحركي الإسلامي فلا بد من أن يُعرض هذا الباب في التجربة بأمانة وعدل رغم خشية التشنيع عليه ممن يزايدون أو لا يفهمون طبائع الحكم والسياسة وموازين القوىٰ.

ومن المدهش في هذا الكتاب: الاعتماد علىٰ مصادر عربية لا تركية، فالكاتب تركي ومقرب من الحزب وسياسته، إلا أنه ينقل عن المصادر العربية التي كتبت عن الشأن التركي! حتىٰ المصادر التركية ككتاب داود أوغلو «العمق الاستراتيجي» ينقل عن ترجمته العربية لا عن الأصل التركي، وهي مسألة غريبة جدا، إذ لا يحتاج العرب أن يقرأوا في شأن التجربة التركية أقوال المحللين

(١) الكتاب الأول كان: رجب طيب أردوغان.. قصة زعيم.

والدارسين العرب، وإلا فإن هذا مبذول سهل المنال، إنما يطلبون عند التركي بضاعة لا يجدونها عند العربي، لكن الذي حدث هو أننا ذهبنا إلىٰ الكتاب فوجدنا بضاعتنا رُدَّت إلينا!

نجم الدين أربكان

- **اسم الكتاب**: نجم الدين أربكان ودوره في الحياة السياسية التركية ١٩٦٩ - ١٩٩٧م.
- **المؤلف**: منال الصالح.
- **تقديم**: د. عماد الدين خليل.
- **دار النشر**: الدار العربية للعلوم ناشرون.
- **سنة النشر**: ٢٠١٢.
- **عدد الصفحات**: ٣٤٢.

ليس ثمة شخصية فيما أعلم وأرىٰ تحظىٰ بتقدير وإعجاب بين الإسلاميين في تركيا كشخصية نجم الدين أربكان، ولا يكاد يكون مجلس أو مؤتمر أو محاضرة فيتحدث فيها واحد من الإسلاميين الأتراك إلا ويذكر كلمة سمعها من أردوغان أو موقفا أثَّر فيه معه، حتىٰ لا يكاد الواحد منهم يقول: «معلمي» أو «أستاذي» إلا ويتوقع السامع أنه سيقول بعدها: نجم الدين أربكان.

وبرغم هذا، فإنه لم يكتب كتاب عن أهم شخصية إسلامية تركية باللغة العربية إلا هذا الكتاب الذي بين أيدينا، والذي صدر بعد وفاة أربكان رحمه الله، وسائر ما كتب بالعربية -فيما أعلم- كان يتناول أمر أربكان في سياق البحث دون إفراد له بالبحث والتفسير.

ومما يثير الأسىٰ أن وفاة أربكان جاءت في وقت انشغل فيه العالم العربي بشأنه، فقد انتقل إلىٰ رحمة الله يوم ٢٧ فبراير ٢٠١١، أي بعد شهر من خلع زيد العابدين بن علي وبعد أسبوعين من خلع مبارك وفي أول أيام ثورات اليمن

وليبيا وسوريا، فغاض خبر وفاته في خضم الأمواج التي انهالت علىٰ عالم العرب، ولئن ارتجت اسطنبول بموته وعاينت يوما مشهودا مهيبا في جنازته فإن العرب لم يفرغوا من شأن أنفسهم ليبلغ فيهم الخبر قدره الذي يستحق.

رفعت المؤلفة منال الصالح، وهي عراقية والمعلومات المتاحة عنها شحيحة، عن العرب إثم خلو مكتبتهم من سيرة زعيم تركيا الإسلامي في حقبتها العلمانية، وخطت هذا الكتاب المحترم الممتاز عن شخصية وسيرة نجم الدين أربكان، وقد بذلت فيه مجهودا متميزا وعزيزا، إذ رجعت إلىٰ نحو مائتين وخمسين مرجعا بين كتب عربية وإنجليزية وتركية، منشورة وغير منشورة، وبعض الوثائق الأرشيفية، ثم بالمقابلات الشخصية التي أجرتها مع نجم الدين أربكان نفسه وعدد من الشخصيات الإسلامية التركية.

ولقد جاء الكتاب ثريًا نافعًا كالغيث إن شاء الله لا يصيب قارئًا إلا انتفع به وأخذ منه بخير، ولست أبالغ إن قلت إن قراءة هذا الكتاب بعين بصيرة وتأمل غير متسرع يجعل قارئه علىٰ علم جيد بالتاريخ التركي المعاصر وطبيعة الدولة العلمانية في تركيا بعسكرها وقضائها وأحزابها -وصراعاتهم واتجاهاتهم- وإعلامها وطبقاتها الاقتصادية وتوزيع الأعراق والميول والتوجهات فيها، كما يجعله علىٰ علم بأزمة الحركة الإسلامية في تركيا وكيف التمست طريقها لمنازلة هذا النظام العلماني العسكري العتيد الذي اجتمعت فيه شر العلمانية وشر العسكر، وكيف كان موقع تركيا من الساحة العالمية فاعلًا حاضرًا ومؤثرًا طول الوقت علىٰ سياستها الداخلية، وكيف استفادت الحركة الإسلامية من هذه البيئة السياسية التي كم اجتمع فيها من التناقضات.

جاء الكتاب في خمسة فصول؛ الفصل الأول خلفية تاريخية عن السياسة التركية وموقفها من الإسلام من بداية الحقبة العلمانية وإلىٰ ما قبل ظهور نجم الدين أربكان، وهذا تاريخ نصف قرن منذ عهد أتاتورك وحتىٰ نهاية عقد

الستينات، وموقف هذه الحكومات من «المسألة الدينية» كما تعبر المؤلفة عن «الحالة الإسلامية»، وكيف تفككت القبضة العلمانية الأتاتوركية لتصل إلىٰ فصل جديد تماما في عهد عدنان مندريس.

وتحدث الفصل الثاني عن شخصية نجم الدين نفسه: نسبه ونشأته ودراسته وقيمته العلمية كمهندس مبتكر أراد أن يستثمر علمه في نهضة بلاده ثم مساره كرجل اقتصاد ورئيس لاتحاد الغرف الصناعية والتجارية حيث صُدِم في موقعه هذا بأن السياسة لا تسمح بالنهضة العلمية بل تحاربها، وكيف أسفر هذا عن يقينه في التحول والدخول إلىٰ ساحة السياسة، فأسس أول أحزابه (حزب النظام الوطني)، استعرضت نشوء الحزب وبرنامجه وشعاره وقاعدته الشعبية ولماذا سمحت السلطة بوجود حزب إسلامي، ثم دخول أربكان انتخابات البرلمان مستقلا عن مدينة قونية، ثم إغلاق الحزب مع انقلاب العام (١٩٧١م).

وسرد الفصل الثالث عقد السبعينات وفيها كان أربكان يقود الحالة الإسلامية عبر حزب السلامة الوطني، واستطاع أن يحقق نجاحات ملموسة جعلته شريكا حاضرا لا يمكن تشكيل حكومة بدونه، فإما أن يتحالف معه اليسار أو اليمين لتشكيل الحكومة أو تجرىٰ الانتخابات مرة أخرىٰ فتسفر عن ذات النتيجة، حتىٰ خُتِمت هذه المرحلة بانقلاب كنعان إيفرن (١٩٨٠م)، واستعرضت المؤلفة باقتدار مسيرة حزب السلامة وظروف تشكل الحكومات الائتلافية وناقشت السياسة الخارجية التركية وكيف أثر فيها -أو لم ينجح في التأثير- وجود حزب السلامة الوطني الإسلامي.

ثم جاء الفصل الرابع ليعرض تاريخ أربكان منذ (١٩٨٠ - ١٩٩٥م) حيث عاد إلىٰ الساحة السياسية بحزب الرفاه، وشهدت تلك الفترة تطورا حافلا بالتفاصيل مع وجود شخصية تورجت أوزال العجيبة والتي استطاعت أن تكون نقطة وسط مثيرة للتأمل بين كل أطراف الساحة السياسية، وفي هذه الفترة تأثر

حزب الرفاه وحقق نتائج أقل لكنه في نهايتها ضرب بقوة حيث لم يعد فقط شريكا في ائتلاف الحكم بل سيطر رجاله علىٰ البلديات بما فيها أهم محافظتين: أنقرة واسطنبول، وصار يبشر بنمو غير مسبوق للحالة الإسلامية في تركيا.

وختمت المؤلفة كتابها بالفصل الخامس الذي يركز بتفصيل علىٰ ثمرة هذه الرحلة الطويلة؛ إذ وصل نجم الدين أربكان إلىٰ أن يكون رئيس الوزراء لمدة أقل من عام واحد (٢٩ يونيو ١٩٩٦ - ١٨ يونيو ١٩٩٧م) وجرىٰ عليه الانقلاب الناعم -الذي يحلو للباحثين أن يسمونه: انقلاب ما بعد حداثي- في (فبراير ١٩٩٧م)، فاستعرضت الائتلافات الحكومية ثم الحكومة الائتلافية برئاسة أربكان وسياساته الداخلية والخارجية والترصد الداخلي والخارجي لتجربته من خلال الأحزاب والصحافة العلمانية وفوقهم العسكر وكذلك الاتحاد الأوروبي والأمريكان. ولذلك كان هذا الفصل هو أطول فصول الكتاب وأحفلها بالتفاصيل.

لقد أخذت المؤلفة بمنهج العرض والوصف دون أن يكون لها رأي تحليلي ووجهة نظر أو خلاصة جامعة تفسيرية لشخصية نجم الدين، ولكم وددت لو فعلت، إلا أن ذلك ليس بعيب، فإنما هو اختيار للباحث كما أنها طريقة يحبها طائفة من القراء: أن يُعرض الأمر دون ظهور آراء وشخصية المؤلف. صحيح أنها لا تخفي إعجابها وانحيازها لأربكان -وهذا حق صميم لكل باحث- إلا أنها عرضت كثيرا مما يُنْتَقَد به فكان ذلك موضوعية تُحمد عليها.

وودت كذلك أن تكمل المؤلفة مسيرة الكتاب منذ ما بعد ١٩٩٧ حتىٰ وفاة أربكان فإن فيها الكثير مما يحتاج إلىٰ كشف ومناقشة وتحليل، لا سيما وهو يفتح باب النقاش الطويل عن الفارق بين أربكان وتلاميذه، إلا أن هذا أيضا ليس بعيب يؤخذ علىٰ الكتاب، فإنه لا يقع في مجاله الزمني الذي حُدِّد له.

ما يؤخذ علىٰ الكتاب هو تسويته بين المصادر، فالكاتبة لكثرة مصادرها – وهذا أمر جيد– كانت تحشد في الموقف الواحد وجهات النظر المتعددة المختلفة، وقد لا ترجح بينها أو قد تفسر ما حدث بأنه مجموع ما سبق، بينما كان يستلزم الأمر في أكثر الأحيان أن تقدم رواية شاهد العيان علىٰ غيره، ورواية الخبير بالشأن التركي عن الصحفي، ورواية ذي البحث والدراسة عن صاحب المقال أو الكتاب التجاري، فيكون لكل رواية ثقلها ووزنها في التفسير وفي الترجيح كذلك.

أسوأ ما يُمكن أن يُعامل به الكتاب أن يُقرأ كسيرة بطل ينبغي النظر إليه بإعجاب، رغم أن نجم الدين بطل يستحق الإعجاب لا شك، وإنما ينبغي أن يُقرأ كسيرة تجربة إسلامية في ظروف بالغة القسوة تحت نظام عسكري علماني بدأ في غاية الشراسة والتوحش ثم اضطر لظروف عالمية أن يتجمل بصورة نظام ديمقراطي ويستوعب وجود تيار إسلامي محصور في ثوابت علمانية حمراء يُجبر علىٰ الاعتراف بها والتزام حدودها. ساعتها تكون التجربة مفيدة وملهمة، وساعتها يتبدىٰ أكثر عظمة وصلابة نجم الدين أربكان ودوره في الحالة الإسلامية في القرن العشرين. يتبدىٰ كصورة مسلم مخلص مكافح يبحث عن حل فيدركه أو لا يدركه أو يدرك بعضه ويفلت منه بعضه، لا كصورة معيار يُقاس إليه ويُحاكَم عليه فإن هذا يضرّ مقامه ومكانته قبل أن يضر من يحاول الانتفاع والاسترشاد بتجربته.

تركيا في توقعات جورج فريدمان

لم يترجم للعربية بعد كتاب «المائة عام القادمة» للمحلل الأمريكي الشهير جورج فريدمان، وذلك رغم مرور سبع سنوات علىٰ صدوره (صدر ٢٠٠٩م)، وبرغم شهرة صاحبه كمحلل -ويعتقد الكثيرون أنه ليس محللا بل مخطط وموجِّه- للسياسة الأمريكية، إذ هو مدير واحدة من أهم وأشهر المؤسسات العاملة في مجال المعلومات والاستخبارات وهي مؤسسة ستراتفور (توقعات استراتيجية)، وأخيرًا: برغم أهمية الكتاب علىٰ الأقل لقراءة كيف يفكر الأمريكان في مستقبلهم.

ملخص الكتاب أن القرن القادم هو العصر الأمريكي، وأن أمريكا ليست في أفول كما يشعر الكثيرون داخلها، كذلك فإن الأعداء التقليديين للأمريكان كالصين وروسيا لا يمثلون أي خطر في المستقبل القريب، بل ولا يتوقع منهم أي خطر، فالصين إقليم معزول جغرافيا من الناحية البرية إذ يمنعه عن التمدد الجبال في الغرب والسهول من الشمال، ثم إنها ضعيفة علىٰ مستوىٰ القوة البحرية، ثم إن اقتصادها يعاني من أزمات دورية وهي الأزمات التي يتوقع معها أن تستهلك القوة الصينية أو حتىٰ تمزقها داخليا. والروس لم يعودوا كما كانوا أيام الاتحاد السوفيتي مهما حاولوا أن يستعيدوا هذا الدور.

وفي نفس الوقت يلفت النظر إلىٰ أن قوىٰ أخرىٰ ستبرز وتسطع في هذا القرن هي: اليابان وتركيا وبولندا والمكسيك، مع خفوت وذبول في قوة الاتحاد الأوروبي، ومع بقاء القوة الأمريكية مهيمنة علىٰ العالم، وقد أخذ يعرض يعرض بالأرقام تفوقها الهائل عمن بعدها في سلم القوة.

ثلاث من القوىٰ الصاعدة ستستفيد من الانهيار الثاني للروس، وهي تركيا واليابان وبولندا، إذ يتوقع فريدمان أن روسيا ستحاول توسيع قوتها مرة أخرىٰ بحلول منتصف العقد الثاني (٢٠١٠ - ٢٠٢٠) لكنها ستفشل وستنكمش، وساعتها ستتمدد تركيا علىٰ حساب روسيا إلىٰ حد التوغل العسكري في القوقاز وستغلق علىٰ الروس الملاحة في مضيق البوسفور، كذلك فإن اليابان ستطمع في روسيا الغنية بالخامات الأولية اللازمة لاستمرار الصناعة والتقدم الياباني، ثم بولندا التي ستبرز كقوة إقليمية في شرق أوروبا لتتمدد هي الأخرىٰ علىٰ حساب الروس.

لقد صدر الكتاب في (٢٠٠٩م) أي قبل اندلاع الثورات العربية، إلا أنه توقع أن تكون المنطقة العربية بحرا من الفوضىٰ، وسيجعلها هذا نهبا لكل طامع، وستبلغ من التمزق حدًا يتجاوز التوقعات، وهذا التمزق نفسه هو حقيقة النجاح الأمريكي في الحرب علىٰ الجهاديين، لأن الأمريكان لم يستهدفوا القضاء علىٰ الإسلام بنصر عسكري، وإنما استهدفوا منع انبعاث المارد الإسلامي مرة أخرىٰ، وحيث ظلت المنطقة العربية ممزقة فإن هذا الهدف قد تحقق.

ثمة ثلاث دول مرشحة لأن تلعب دورًا في العالم الإسلامي: مصر وتركيا وإيران، إلا أن ضعف مصر وانهيار اقتصادها يسحبها من هذه المنافسة، كذلك فإن ما تعانيه إيران من عزلة جيوسياسية وحجم العداء بينها وبين العرب وضعف اقتصادها وانشغالها بتأمين نفسها ضد صدام أمريكي يحرمها كذلك من هذا الدور، فليس يبقىٰ إلا الأتراك!

يقرر فريدمان أن الأتراك هم من سيستفيدون واقعيا من هذا التمزق الحاصل في المنطقة العربية، وسيكون هذا عاملًا من عوامل صعود القوة التركية، التي ستجد نفسها عمليا قائدة للعالم الإسلامي، بل يتوقع فريدمان أن الاضطرابات التي ستحصل في مصر ستدفع تركيا إلىٰ إنزال قواتها للسيطرة علىٰ

قناة السويس، ذلك أن مصر لا يتوقع أن يكون لها أي دور في القرن القادم بل ستظل في موقع التبعية لغيرها كما كانت في القرن الماضي، لكن في القرن الجديد لن تكون الهيمنة علىٰ مصر أمريكية أو روسية فحسب، بل قد تكون تركية.

تعتمد تركيا في بزوغ قوتها علىٰ عدد من أسباب القوة؛ فتركيا التي حققت المركز السابع عشر ضمن الاقتصاد العالمي سيستمر نمو اقتصادها بثبات حتىٰ يصير ضمن أقوىٰ عشر اقتصادات في العالم، كما أن موقع تركيا الجغرافي من أهم أسباب قوتها إذ يجعلها متصلة بالعالم العربي وإيران والقوقاز وأوروبا، كذلك فإن الأتراك كانوا تاريخيا قيادة للعالم الإسلامي، ثم إن الجيش التركي هو أقوىٰ جيوش المنطقة. لكن التمدد الحقيقي للأتراك سيكون بعد فشل الروس في استعادة دور الاتحاد السوفيتي، وهو الأمر الذي ستحاوله روسيا لتعيش المنطقة في ظلاله صورة مصغرة من أجواء الحرب الباردة، وستكون تركيا حينئذ من طلائع إسقاط هذه المحاولة الروسية، فإذا تم هذا، فإنها سترث ما كان تحت النفوذ الروسي فتكثف وجودها العسكري في آسيا الوسطىٰ وتتوغل في القوقاز لضمان أمنها القومي من خلال قوات عسكرية متقدمة، وستتولىٰ توسيع تجارتها في أنحاء المنطقة كما ستغلق المضايق في وجه الروس لتأمين نفوذها في البلقان من العبث الروسي.

وبهذا ستكون تركيا عمليًا قائدة العالم الإسلامي، كما يرىٰ فريدمان، وعندئذ ستبذل تركيا كل طاقتها من خلال قوتها الناعمة في تحسين صورتها لما عساه يكون نفورًا عربيًا من القيادة التركية للمسلمين لما ترسب لديهم من حكم الدولة العثمانية، وفي هذا السياق ستقدم تركيا نفسها للعرب باعتبارها زعيمة لتحالف إسلامي لمواجهة الهيمنة الأمريكية.

يتوقع فريدمان أن أمريكا لن تعارض هذا التمدد بل ستطمئن له باعتبار تركيا حليفا موثوقا به، كما أن النفوذ التركي في الخليج العربي (الفارسي) هو أفضل لها

من السيطرة الإيرانية، لكن استمرار التمدد التركي في مصر والجزيرة العربية والخليج والمحيط الهندي سيجعل التقاءها مؤكدا باليابان التي ستبزغ هي الأخرىٰ بقوة اقتصادية كبرىٰ ناتجة عن استثمار أزمات الصين وروسيا، إذ ستستفيد من أزماتهما في العمالة وفي وفرة المواد الأولية التي تحتاجها.

حينئذ سيشكل التحالف التركي الياباني قوة خطيرة تصطدم بالقوة الأمريكية والتي ستتحرك لمحاصرة اليابان من خلال دعم الصينيين والكوريين، ومحاصرة الأتراك من خلال دعم البولنديين والكتلة الشرقية وإثارة «القومية العربية» مرة أخرىٰ. لكن المزية المتوفرة هنا للأمريكان هي أنهم قد استطاعوا التفوق بفارق كبير في برامج الفضاء مما سيجعلهم قادرين علىٰ مراقبة ومعاقبة تركيا واليابان من خلال الفضاء التي ستحتوي حينها علىٰ منصات إطلاق صواريخ موجهة. وعندئذ يظهر الصدام بين القوتين: الأمريكية وحلفائها من جهة، واليابان وتركيا من جهة أخرىٰ مما سيتسبب في حرب عالمية ثالثة.

الكتاب علىٰ صغره يحتوي كثيرًا من التفاصيل، وهو مثير للتحليل والتعليق، إلا أن المهم في سياقنا الآن أمران:

الأول: غياب تفسير السؤال الذي يتبادر إلىٰ الذهن: لماذا تترك أمريكا تركيا حتىٰ تصبح ذلك المارد الكبير الذي يناطحها؟ ولماذا تستثنيها من إثارة الفوضىٰ والتمزق في هذه المنطقة؟ إن فكرة الاطمئنان إلىٰ كون تركيا حليفا تبدو ساذجة للغاية.

والثاني: هو غياب إسرائيل عن خريطة المستقبل التي يرسمها الكتاب، فهل كان هذا غياب مقصود أم أن المؤلف يرىٰ إسرائيل دولة تافهة لا تملك إمكانية أن تصنع شيئا ذا بال في المستقبل؟

يراودني الشعور أن هذان الأمران لم يَغِيبا نسيانًا ولا سهوًا، وإنما غُيِّبًا قصدًا! وهو ما يستدعي التفكير في مقاصد هذا الغياب، وهل كان ثمة توصيات

لم يُرد لها أن تنشر؟ لا سيما وثمة تقارير أخرىٰ مختلفة ترسم بعض التوصيات في تمزيق تركيا وتعظيم دور إسرائيل في المنطقة.

غنيٌّ عن القول أن توقعات فريدمان تخالف غيرها من التوقعات الأمريكية الأخرىٰ التي ترسم مشهدًا مختلفًا تمامًا لطبيعة الخرائط القادمة، ولئن كانت توقعاته تبدو قد تحققت حرفيًا في النزول الروسي إلىٰ العمق العربي فإنها تبدو وقد طاشت تمامًا في مسألة العلاقة الأمريكية الإيرانية، وهي المسألة التي كانت عمودا صلبا في رؤيته لبزوغ القوة التركية.

في كل الأحوال يظل الكتاب جديرًا بالقراءة، ولعل مترجمًا ينهض لترجمته للقارئ العربي فيكون له بذلك أجر إن شاء الله!

كيف تنظر الدراسات الغربية إلى التجربة التركية

كنت مهتما في الأيام الماضية بمطالعة المصادر الغربية ورصدها للتجربة التركية، وقد قرأت أو طالعت حوالي عشرين دراسة أجنبية ما بين كتب أو تقارير مراكز بحثية وعدد لا أتذكره من المقالات، منها ما هو مترجم ومنها ما قرأته بالإنجليزية ومنها ما اهتممت أن أقرأه في الإنجليزية بعد قراءته مترجما لمزيد فهم ودقة. وقد كنت غنيا عن هذه الكلمات لولا أني أتخذها سببا ومدخلا لموضوع السطور القادمة الذي أرىٰ أنه أهم موضوع تحتاجه الساحة الإسلامية!

علىٰ ما بين هذه الدراسات -وعامتها قد كُتِب قبل ٢٠١١، أي قبل اشتعال الثورات العربية- من خلافات في زاوية النظر والتوصيف والتوقعات المستقبلية، فإنها تتفق بشكل غريب علىٰ مسألة واحدة تطرحها دائما كسؤال ملح وحاضر، هو: هل تخلىٰ حزب العدالة والتنمية عن أصوله وأفكاره الإسلامية؟ أم ما يزال يخفي هويته تحت غطاء سياسي نفعي (براجماتي) ويسعىٰ بصبر لأسلمة تركيا أو إعادة الخلافة العثمانية؟!

القليل النادر من هذه الدراسات من اطمأن إلىٰ أن سياسة العدالة والتنمية لا تمثل خطرًا كبيرًا، لكن أغلبها ظل علىٰ مكانه في الشك والترقب ومحاولة التفتيش في الخبايا والنوايا.

ورغم النقلة الهائلة التي أحدثها حزب العدالة والتنمية في تركيا لا تكاد الدراسات الغربية تركز إلىٰ علىٰ إجراءات بعينها، هي الإجراءات المتعلقة بالهوية الإسلامية، ولا تكاد تخلو واحدة من تحليل أغراض الحزب حين سعىٰ

لتمرير قوانين تضيق علىٰ شرب الخمور أو تسمح بارتداء الحجاب أو تسوِّي بين خريجي مدارس الأئمة والخطباء مع خريجي التعليم العادي، لقد حظيت هذه القوانين الثلاثة -من بين آلاف مشروعات القوانين التي طرحها الحزب عبر ٨ سنوات في الحكم- باهتمام خاص.

كذلك لا تخلو دراسة من المقارنة بين خطاب ولهجة أردوغان وجول وداود أوغلو مع لهجة أربكان السابقة، والدراسات الأكثر تفصيلا تهتم أيضا برصد تدرج أربكان في إخفاء هويته الإسلامية وتدرجه في قبول العلمانية من لحظة (حزب النظام الوطني - ١٩٧٠، وهي الأشد وضوحا وقوة) حتىٰ لحظة (حزب السعادة - ٢٠٠١، وهي الأخف وضوحا والأهدأ لهجة)، ورصد ما إن كان أردوغان هو امتداد لأربكان بشكل أكثر خفاء أم هو بالفعل قد تغير واعتنق القيم الغربية أم هو نمط جديد يسعىٰ لدولة علىٰ المقاييس الغربية ولكن بهوية ثقافية عثمانية؟

وترصد الدراسات بشكل خاص تطور مسألة الهوية لدىٰ الشعب التركي من خلال الإحصائيات التي تسأل: هل ترىٰ نفسك تركيا أم مسلما بالدرجة الأولىٰ؟ كيف ترىٰ الآخرين: غير أتراك أم غير مسلمين؟ كيف تصنف الناس في البيئة المحيطة بك: إخوة في الدين أم إخوة في الوطن؟ هل تريد دولة تطبق الشريعة الإسلامية؟ ما معنىٰ الدولة الإسلامية من وجهة نظرك؟ هل ترىٰ أن حزب العدالة والتنمية يسير بالبلاد إلىٰ أن تكون دولة إسلامية؟ إذا أعلن حزب العدالة والتنمية أنه إسلامي ويسعىٰ لتطبيق الشريعة فما موقفك منه؟ لماذا تؤيد حزب العدالة والتنمية: لأنه متدين أم لأنه ساهم في ارتفاع مستوىٰ المعيشة؟.. وهكذا!

وهم حريصون علىٰ محاولة فهم «ماذا يعني الإسلام في حياة المواطن التركي: وهل هو مجرد اختيارات شخصية كالحفاظ علىٰ الصلاة والامتناع عن

شرب الخمر وارتداء الحجاب؟ أم أن للإسلام تأثير علىٰ سياسة الدولة ونظامها وعلاقاتها الداخلية والخارجية؟»، ومن أطرف ما حرصت هذه الإحصائيات علىٰ رصده استطلاع موقف غير المسلمين الأتراك، وهم لا يمثلون سوىٰ ١٪ من الشعب، وانتهت الإحصائية إلىٰ أنهم ورغم كون العسكر لم يفرقوا في الاضطهاد بين أصحاب الأديان ورغم كونهم حظوا بفرص غير مسبوقة تحت ظل العدالة والتنمية إلا أنهم في النهاية يرون أن معيشتهم في ظل دولة علمانية أفضل منها في ظل دولة إسلامية.

وتعد مسألة الانضمام إلىٰ الاتحاد الأوروبي مهمة في رصد الفارق بين سياسة أردوغان ونظريات أربكان، إذ كان الأخير يرفض الانضمام للاتحاد الأوروبي ويراه ناديا مسيحيا، بينما أردوغان رغم كل ما تبديه تركيا من تعنت يظل حريصا علىٰ الانضمام. لكنهم يتفقون كذلك علىٰ أن هذا ربما يكون طريقته التي يستعمل فيها الغرب ليتمم إصلاحات ديمقراطية في تركيا يحجم بها نفوذ وسلطة العسكر، فيكون قد ضرب عصفورين بحجر: قضىٰ علىٰ خصومه بيد الغرب وشروطهم الديمقراطية، ثم فضح الاتحاد الأوروبي وتعنته في ضم دولة مسلمة إلىٰ ناديه.

وعامة تلك الدراسات تنظر بحياد أو لا مبالاة إلىٰ الانقلابات العسكرية المتتالية في تركيا، ولا تصفها بأنها جريمة أو تأخذ منها موقفا أخلاقيا، فإن لم تبرر لها لم تهاجمها، كأن الانقلاب العسكري إجراء سياسي طبيعي من حق الجيش أن يتخذه ضد النظام المنتخب.

والنادر جدا من اعترض عليها ورأىٰ أنها مخاوف مبالغ فيها وأن الانقلاب علىٰ أربكان إنما كان لدوافع أيديولوجية إذ لم يكن بوسع أربكان أن يهدد النظام العلماني بعد شهور ولا بوسع الفتاة المحجبة أن تهدد النظام العلماني إذا دخلت الجامعة بحجابها.

يحظىٰ بالتركيز أيضًا مسألة الأقليات، لا سيما الأقلية الكردية والأقلية العلوية، وهنا تظهر الضمائر والأخلاق فجأة فيتحدثون بلسان أخلاقي مبين عن جرائم الدولة وعن اضطهاد الأقليات وعن حقوقهم المهدورة. كذلك ثمة اهتمام خاص بالظهير الاقتصادي والاجتماعي للتيار الإسلامي، وعلام يعتمدون في الأموال وما هي المناطق التي تصوت لهم، وكيف بدأ نمو هذه الشركات الإسلامية «المال الأخضر» وأين تتركز وأنشطتها؟ وكذلك كيف ظهرت هذه الطبقات والفئات الاجتماعية التي لم تنفذ العلمانية الكمالية إلىٰ قلوبها وعقولها وظلت تصوت للإسلاميين، وكيف انتقلت من القرىٰ لتظهر في العواصم والمدن الصناعية.

ومنذ ظهر في الأفق داود أوغلو كوزير للخارجية حتىٰ لقي كتابه «العمق الاستراتيجي» موضع اهتمام خاص، فكتاب أوغلو صريح في أن موقع تركيا الجغرافي وثقلها التاريخي يفرضان عليها أن تكون دولة عظمىٰ، وأنها فقدت هذه العظمة يوم أن تخلت عن هويتها وتاريخها وأريد فرض ثقافة مخالفة عليها، وأنه لا بد من أن تعيد تركيا نشر مظلتها علىٰ ما انحسرت عنه من أراضي الدولة العثمانية وإن بشكل سياسي ثقافي اقتصادي اجتماعي، إذ إما أن تكون تركيا قوة عظمىٰ وإما أن تكون جسرا يتلاعب بها وعليها الأقوياء.

والخلاصة النهائية أن الهوية هي المعركة الحاضرة الظاهرة، المعركة القائمة الدائمة، المعركة التي تدور حولها التحليلات والدراسات.. وأن العلمانية وأصحابها كذابون منافقون إذا حاولوا تصوير الأمر علىٰ أنه خلاف مادي حول برامج النهوض الاقتصادي والعدالة الاجتماعية والعلاقات الخارجية، فكل هذه فروع عن أصل هو الهوية والرؤية الشاملة، فإذا اختلفت الرؤية والهوية اختلف كل هذا. والعلمانيون أنفسهم في مصر وتركيا يفضلون النظام العلماني الفاسد الذي يقهر البلاد والعباد علىٰ نجاح نظام إسلامي وإن

نهضت به البلاد وارتاح معه العباد. بل والغرب الذي يدعي العلمانية هو نفسه الذي يفتش في كل تجربة عن مضمونها الكامن خلفها، ويسعىٰ للبحث عن الإسلام الكامن خلفها، حتىٰ وإن كان لسانه وظاهره لا يدل علىٰ هذا.

ما كان أغنانا عن هذا كله إلا لأن كثيرا ممن فينا تركوا كتاب الله والتمسوا كتاب الغرب يقرأون منه، ولو أنهم قرأوا كتاب الله لعلموا أن كل الصراع الدائر في هذه الدنيا والذي يهيمن علىٰ الأرض هو صراع الحق والباطل، صراع الإنسان عبد الله مع الشيطان ومن أضلهم وأغواهم، صراع لا يقوم فيه شئ مقام العقيدة (الهوية)، لو قرأنا كتاب الله لعلمنا أن البشر ينقسمون بناء علىٰ عقائدهم، فهناك أولياء الرحمن وهناك أولياء الشيطان، الذين آمنوا والذين كفروا، وعلىٰ هذه القسمة سيكون مصيرهم: فريق في الجنة وفريق في السعير.

ولعلنا إن لم نفقه هذا من كتاب ربنا أن نفقهه من كتاب الغرب الذي لم يقنع من تجربة تركيا بنهوض اقتصادي ولا بعلمانية ظاهرة بل أخذ يسلط الأضواء والمجاهر ليستبين: هل خلف هذا إسلام مستتر يسعىٰ بصبر للعودة من جديد، أم قد استطعنا بالفعل هزيمة الإسلاميين في تركيا وصاروا مثلنا قلبا وقالبا؟!!

الفلسفة السياسية عند داود أوغلو

- **اسم الكتاب**: الفلسفة السياسية.
- **المؤلف**: د. أحمد داود أوغلو.
- **المترجم**: د. إبراهيم البيومي غانم.
- **تقديم**: د. محمد عمارة.
- **دار النشر**: مكتبة الشروق الدولية.
- **سنة النشر**: الطبعة الثانية، ٢٠٠٦م.
- **عدد الصفحات**: ٧٧.
- نشر الأصل الإنجليزي لهذا الكتاب في عام ١٩٩٣م، بعنوان (Alternative Paradigms: The Impact of Islamic and Western Weltanschauungs on Political Theory) ومعناه «النموذج البديل: أثر التصورات الوجودية الإسلامية والغربية علىٰ النظرية السياسية».

بدون أي انتقاص من عقلية أحمد داود أوغلو المثيرة للإعجاب في هذا الكتاب، إلا أنه وبعد قراءة هذا الكتاب يزداد اليقين في أن العلمانية التركية الأتاتوركية كانت أقل شرا بكثير من العلمانية العسكرية التي هيمنت علىٰ الحياة العربية.

لقد سمحت العلمانية التركية للإسلاميين بالوجود السياسي وتأسيس الأحزاب ودخول البرلمانات والفوز بالبلديات وتولي رئاستها والمشاركة في الحكومة بل والوصول إلىٰ سدة الحكم (رئاسة الوزراء) ثم كان العسكر ينقلبون عليهم عند هذه النقطة. بينما كانت العلمانية العربية وحشا عنيفا دمويا

لا يعرف الرحمة ولا يعترف لغيره بحق الوجود أصلا وكان مجرد الاجتماع في حلقات تلاوة القرآن أو لصلاة قيام الليل تهديدا أمنيا خطيرا، وغاية ما حازه الإسلاميون في بيئة العلمانية العربية أن كانوا أقلية برلمانية بلا تأثير أو وزراء في حكومة بلا صلاحيات!!

إن ممارسة الإسلاميون الأتراك للديمقراطية مكنتهم من أشياء كثيرة منها نقد الديمقراطية وفهم فلسفتها، بينما ظلت ممارسة الديمقراطية حلمًا لدىٰ الإسلاميين العرب مما جعل كثيرًا من قضاياها محلَّ إرباك وارتباك فكري، خصوصًا في أجواء محاكم التفتيش الأمنية والإعلامية التي تحاول قهر الإسلاميين علىٰ القبول والتسليم بنموذج الديمقراطية الغربية جملة وتفصيلًا.

لقد تحدثنا سابقا عن فهم أردوغان للديمقراطية، لكننا اليوم مع وجبة فكرية دسمة من العقل السياسي لحزب العدالة والتنمية، المفكر وأستاذ العلوم السياسية أحمد داود أوغلو، والذي خلف أردوغان في رئاسة الحزب، وسيظهر بعد عرض الكتاب مدىٰ الفارق الضخم والأساسي بين نموذج أردوغان ونموذج الغنوشي، ففي حين انهار الغنوشي تمامًا أمام النظرية الغربية وطفق يستعمل كل طاقته في جعل الدين موافقا لها نجد داود أوغلو يفكك النظرية الغربية بثقة واطمئنان مثبتا تفوق النموذج الإسلامي علىٰ النموذج الغربي بل وعدم إمكانية التقاء النموذجين أصلًا، ولست أبالغ إن قلت إن كتاب داود أوغلو هذا هو في عمقه ينطق بما نطق به سيد قطب، الذي هو من زعماء «الأصولية، الراديكالية» الإسلامية كما يحب الكثيرون أن يصفونه.. مما يجعل أي تشابه بين الغنوشي وأردوغان -إن وافقنا جدلا وتنزلا علىٰ أن ثمة تشابه- إنما هو مجرد التقاء في الظواهر والقشور.

الكتاب صغير، ولكنه ثقيل، ولغته فلسفية صعبة، ومؤلفه ذو حظ واسع من الفلسفة الغربية، مع القدرة الواضحة علىٰ رد الفروع إلىٰ الأصول، وتجاوز

أوجه التشابه والاختلاف بين الاتجاهات الفلسفية حتىٰ يصل إلىٰ الأصل الذي يجمعها وتنطلق منه.

وحيث كانت لغة الكتاب صعبة، فإني في عرضه هنا سأسعىٰ ما وسعني إلىٰ تبسيطه، ولذا فلن ألتزم في هذا العرض بألفاظ المؤلف، وإنما سأعمد إلىٰ تقريب المعاني من عموم القراء، مع الاعتراف بأن هذا لن يرضي شريحة القراء المهتمين بالفلسفة، إلا أن هؤلاء علىٰ كل حال يفترض ألا يكفيهم عرض مختصر مبسط، فليكن التبسيط تشويقا لهم لقراءة الكتاب.

ينقسم الكتاب إلىٰ بابيْن؛ الأول: باب النظرية، والثاني: باب التطبيق. الباب الأول يشرح التناقض القائم بين الرؤية (العقيدة) الإسلامية والرؤية الغربية للعالم، والباب الثاني يرصد آثار هذا التناقض في مجال السياسة وما يتعلق بها من نظريات اقتصادية واجتماعية وثقافية.

يؤكد المؤلف علىٰ أن أساس التناقض بين الرؤيتيْن: الإسلامية والغربية نابع من أن الرؤية الإسلامية تنطلق من تصور عام للوجود جاء به الوحي، وبهذا كان الوحي هو المُحدِّد لنظرية المعرفة الإسلامية. بينما ظلت الرؤية الغربية تتأمل الوجود وتغير تصورها عنه وتستخرج منه تصورا جديدا مع كل تطور علمي أو فلسفي، ولهذا في تستخرج من الوجود نفسه تصورها عنه، أي أن نظرية المعرفة هي من نتائج التأمل والتفكير في الوجود.. وباختصار: فالرؤية الإسلامية تعتمد علىٰ الوحي، والرؤية الغربية علمانية تعتمد علىٰ العقل.

تقوم الرؤية الإسلامية علىٰ أن الله تعالىٰ هو الإله الوحيد، خالق الكون، والمهيمن عليه ومدبر أمره، وهو العليّ علىٰ خلقه والمتنزه عن كل نقص. ومن ثمرات هذه الرؤية أن المسلم يرىٰ نفسه عبدا لله، ومتحملا للأمانة (المسؤولية) التي عهد الله بها إليه علىٰ هذه الأرض، ولهذا فإن علاقته بالطبيعة وسيادته عليها هي سيادة نسبية محكومة بضوابط وأهداف عقيدته، فهو «مستخلف» وليس «مالكا» للأرض وما عليها.

ومن أهم ثمرات هذه الرؤية هذا الفصل الجازم الواضح بين الله وخلقه، فلا مجال أبدًا لأن يكون الإنسان أو غيره من المخلوقات إلهًا، ولا مجال لأن يكون الإله إنسانًا أو مخلوقًا آخر، فحتىٰ الرسل -وهم أكمل البشر- لا يخرجون عن كونهم عبادا وبشرا ولا يكونون أبدًا آلهة أو شبه آلهة. ويترتب علىٰ هذا أن يكون الله هو العليم الحكيم، بينما الإنسان معرض للجهل والنقص والخطأ، ولهذا يظهر الفارق واضحًا وكبيرًا بين التعامل مع القرآن (كلام الله الحق المطلق) والتعامل مع تفاسيره (التي كتبها بشر فهي معرضة للأخذ والرد)، أو بين نصوص الوحي (القرآن والسنة) وبين استنباطات الفقهاء واجتهاداتهم فيها. ومن ثمرات هذا أيضًا أن المسلمين يرفضون تمامًا أن يكون ثمة تعارض بين الوحي والعقل، ويرون أن العلاقة بينهما علاقة تكامل، فالوحي هو الحقيقة المطلقة والعقل هو الذي يجتهد في فهمه وتفسيره.

ومن هنا يُخطئ من يبالغ في تأثير الفلسفة اليونانية علىٰ الفلسفة الإسلامية، ذلك أن سائر مدارس الفكر الإسلامي تقوم علىٰ هذه الرؤية: لا إله إلا الله، والله هو الخالق المهيمن الحق العليم. ولكن الخلاف بين هذه المدارس هو في طريقة كل منها ووسائله لإثبات هذه الرؤية. فحتىٰ المعتزلة -الذين هم أول تفاعل إسلامي مع الفلسفة اليونانية، والذين نادوا باستقلال العقل البشري- لم يكونوا أبدًا علمانيين، إذ لم يفكروا في أن يُوَجِّهوا هذه الفكرة نحو إثبات تناقض العقل مع الوحي، ولم يحاولوا أبدا أن يرفعوا مقام العقل ليكون في مقام الله، مثلما فعلت العلمانية الغربية.

إن الرؤية الإسلامية الملخصة في كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» تثمر آثارًا فارقة علىٰ كافة المستويات، فهي تحدد معايير الحق والباطل بناء علىٰ ما جاء في الوحي، ومن ثَمَّ فإن سائر المجالات ترتبط بالقيم والتصورات الإسلامية، فمثلا: رغم الخلاف المشهور بين الغزالي وابن رشد في التعامل مع الفلسفة إلا

أنهما يتفقان تمامًا في سمو الشريعة وعظمتها وأنها تتفوق علىٰ كل القوانين الوضعية لكونها صادرة عن الإله العليِّ العليم الحكيم الذي لا يلحق به بشر!

بينما الأساس في الرؤية الغربية متناقض تمامًا مع هذا التصور، ذلك أن كافة الأحقاب الغربية -منذ الفلسفة اليونانية والعصر الروماني والعصر المسيحي وعصر النهضة- أزالت الفوارق بين الإله والإنسان، فهذا هو الأساس المشترك بينها جميعا وإن اختلفوا في التصورات.

ففي العصور القديمة كانت العقيدة تجعل من الآلهة بشرًا (كما في الأساطير اليونانية) وفي العصور الرومانية كان يمكن للأبطال والأباطرة أن يكونوا آلهة أو شبه آلهة، وفي المسيحية تجسد الرب في صورة بشر كما كان الإنسان ابنا للرب، وذلك من أظهر الأدلة علىٰ تأثر المسيحية بالتراث اليوناني والروماني[1] حيث انتشرت عقائد تعدد الآلهة وعقائد تجسدها في بشر فتكيفت المسيحية مع هذا المناخ، ثم ظهرت فيها مؤسسة الكنيسة الكهنوتية التي هي محل تجسد الرب، ثم جاء عصر النهضة وبدأ عصر الفلسفة الحديثة وهو العصر الذي لم يعترف بالرب وسعىٰ إلىٰ إنهاء هيمنته، واعتقد أن الطبيعة تفسر نفسها بنفسها وأنها ذات قوانين حاكمة يستطيع الإنسان بالعلم والعقل أن يكتشفها ويتحكم فيها ويسخرها، وبهذا وضعت الأفكار الحديثة الإنسان في مكان الإله وأوكلت إليه مسألة وضع التصورات الوجودية وما ينبثق منها أي أنها وضعت الإنسان في مكان الإله.

لما جاء كوبرنيكس باكتشافه أن الشمس -لا الأرض- هي مركز الطبيعة، انعكس هذا علىٰ وضع الفلسفة التي وضعت الطبيعة -لا الإله- في مركزها[2]،

---

(١) للقاضي عبد الجبار المعتزلي كلمة حكيمة في هذا المعنىٰ إذ لما وصف دخول الروم في النصرانية قال: «النصارىٰ ترومت ولم تتنصر الروم». تثبيت دلائل النبوة ص١٧٣.

(٢) هذه النقطة يشرحها بإمتاع ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة، وكيف أن اكتشاف =

ثم وضعت الإنسان في مركز الطبيعة، فصار الإنسان نفسه هو مركز الفلسفة. ومن ثم ظهرت علمنة المعرفة وأنسنة المعرفة وكافة ما انبثق عنها من فلسفات غربية.

وهكذا نجد أن الخيط الأساسي المتصل في كل الفكر الغربي هو إزالة الفارق بين الإله والإنسان، فإما أن الإله يتجسد بشرا أو في شيء من المخلوقات، أو أن الإنسان يكون إلها أو شبه إله أو إرادة إلهية، أو أن يزيح الإنسان الإله من موقع المركز ليضع نفسه إلها يستخلص من الوجود التصورات العامة والفلسفات المنبثقة عنه، ثم ما ينبثق عن هذه الفسلفات من نظريات سياسية واقتصادية واجتماعية، وما ينبثق عن كل هذا من أنظمة ومؤسسات وقوانين وتشريعات.

إلىٰ هنا انتهىٰ الباب الأول..

في الباب الثاني يرصد المؤلف خمسة آثار من تناقض الرؤية الإسلامية مع الرؤية الغربية في المجال السياسي هي:

١- مبرر وجود النظام السياسي

حيث أن الفلسفة الغربية لا تملك رؤية إلهية للوجود وإنما تعتمد علىٰ الاستقراء ومحاولة تأمل وفهم الواقع، فإن نظرتها إلىٰ الدولة انقسمت إلىٰ اتجاهيْن: اتجاه يحاول فهم «أصل الدولة» وينطلق منه، واتجاه يحاول تحديد

= كوبرنيكس لم يكن مجرد اكتشاف علمي بل كان صدمة للعقائد المسيحية، إذ أن تحول الأرض من كونها مركز الكون التي أنزل الإله عليها ابنه ليُصلب إلىٰ كونها مجرد كوكب عادي بين كواكب أخرىٰ تدور حول الشمس، هذا التحول جعل كل شعر المسيحية -كما يقول جوته- يتصاعد دخانا، ولهذا اتخذت الكنيسة منه هذا الموقف العنيف. انظر: ول ديورانت: قصة الحضارة ٢٧/ ١٣٨، ١٣٩.

«هدف الدولة» ليصل إليه.

فالاتجاه الذي يحاول فهم «أصل الدولة» يضعها ضمن تصوره الكلي الوجودي عن الطبيعة وقوانينها ونظامها، فكل تصور قائم علىٰ أن الطبيعة تستطيع تنظيم نفسها وتكييف نفسها وضع تصوره حول «أفضل وضع للدولة يمكن تطبيقه»، وهنا لا يبقىٰ مكان للقيم والوضع المثالي، إذ غاية الممكن هو فهم قوانين الطبيعة وإنشاء نظام سياسي منسجم معها، حتىٰ لو كان مخالفا أو مناقضا للقيم والأخلاق. وضرب المؤلف مثالا علىٰ هذا بأرسطو (إذ تقوم فلسفته علىٰ أن الإله صنع الكون ووضع فيه قوانينه ثم تركه كصانع الساعة) ويتفق معه هيوم وكانط (فالإله عندهما فكرة مجردة) ولذلك تتحد نتائج هذه الفلسفات مع نتائج الفلسفات الإلحادية كما عند هولباخ وديدرو. وكل فكرة تقوم علىٰ وجود قوانين طبيعية منفصلة عن الإله تسوق إلىٰ منهج سياسي لفهم هذه القوانين وتطبيقها كما هي لا لتوجيهها نحو قيم وأخلاق ومُثُل.

وأما الاتجاه الذي يحاول فهم «هدف الدولة» فقد بدأ بالبحث عن القيم التي ينبغي للدولة أن تحققها في الفلسفة الرواقية والأبيقورية الجديدة والمسيحية، لكن حيث كانت هذه الفلسفات وضعية وأرضية واصطبغت بنماذج امبراطورية كالامبراطورية الرومانية وممالك العصور الوسطىٰ ثم الحقبة الحديثة، فإن «الإنسان» هو الذي كان متحكما بوضع وصياغة هذه القِيَم والمثل، ولذلك نشأت علمنة المعرفة وأنسنة المعرفة، وصار مفهوم «السعادة الدنيوية» هو الهدف المحرك للنظام السياسي. ولذلك ظهرت فلسفات الفردية والليبرالية والبرجماتية والنفعية واللذة وغيرها.

بينما النظام السياسي الإسلامي منطلق من رؤية تعتنق أن الله تعالىٰ إله خالق عليم مهيمن مدبر لأمر هذا الكون، ويقوم كل النظام السياسي علىٰ هدف إرضاء الله وتطبيق ما أمر به، فالنظرية السياسية الإسلامية تعتمد علىٰ القيام

بالأمانة التي عهد الله بها للإنسان، والخضوع للنظام السياسي مرتبط بكون هذا النظام السياسي قائما علىٰ تنفيذ أوامر الله، والتي سيكون الحساب عليها في الآخرة، فالآخرة فارق ضخم بين الرؤيتين الغربية والإسلامية، إذ لا تحفل الرؤية الغربية بالآخرة ولا تضع لها أي اهتمام، بينما الآخرة أمر حاضر دائما في النظرية والتطبيق السياسي الإسلامي، ولذا لا يمكن الفصل بين الدين والدنيا ولا بين الأخلاق والسياسة ولا بين الحياة المادية والحياة الروحية. ولهذا فإن من مهمات النظام السياسي الإسلامي تهيئة الأجواء للارتقاء بالأخلاق وتقوية الإيمان والروحانيات.

والمجتمع في النظام الإسلامي هم المسلمون الذين كلفهم الله بالمسؤولية عن هذا الدين دون أي تفرقة بينهم، ولذلك لا يكون فيهم سلطة لرجال الدين علىٰ نحو الكهنوتية المسيحية، بل ويقاومون هذه السلطة كما يقاومون تسلط طبقة الطبقة الرأسمالية أو الاشتراكية أو التسلط والاستبداد باسم «سيادة الدولة» أو «سيادة القومية».

وهدف الدولة في النظام الإسلامي هو «تحقيق العدل»، والعدل مفهوم مركزي في الرؤية الإسلامية حتىٰ ليقول ابن تيمية بأن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة، ويتفق في هذا سائر الاتجاهات الإسلامية وفلاسفتها كالفارابي والماوردي والغزالي وابن باجه وابن طفيل. كما ويفترق النظام الإسلامي عن الغربي في ميله إلىٰ الجماعية في مقابل الفردية الغربية، والتأسيس لكون المسلم جزءا لا ينفصل ولا ينبغي له أن ينفصل عن المجتمع، ولا أن تتحقق أهدافه بمعزل عنه.

ومن أظهر الفوارق بين الرؤيتيْن أن النظام الإسلامي يطمح إلىٰ نموذج مثالي قد تحقق بالفعل في دولة النبي والخلفاء الراشدين، بينما النظام الغربي يطمح إلىٰ نموذج مثالي لم يتحقق أبدا، فقد ظلت نظريات المدن الفاضلة

أحلاما كما انهارت كل نظريات نهاية التاريخ، وهذا فضلا عن أنه ليس ثمة نموذج مثالي يحظىٰ باتفاق الفلسفات كما هو الحال في النظام الإسلامي المتفق علىٰ أن خير نموذج هو دولة النبي والخلافة الراشدة.

٢- شرعية السلطة السياسية

إن التشابه بين نظام الشورىٰ في الإسلام والبرلمان في الرؤية الغربية تشابه خادع، إذ ليس للأمرين نفس المهمة، وذلك من أسباب الفشل في تغريب المجتمعات الإسلامية، فالمسلمون لا يرفضون الديمقراطية من جهة كونها سبيلا لمشاركة الشعب في الحكم وإنما يرفضونها من جهة علمانيتها التي ترفض أو لا تبالي بالعقائد الدينية. ولذلك فإن شرعية السلطة السياسية في النظام الإسلامي تُسْتَمَدّ من كونها إسلامية أولا وقبل كل شيء. بينما الشرعية للسلطة السياسية في النظام الغربي تستند إلىٰ مجرد الاختيار الشعبي الممثل في مؤسسة البرلمان.

إن شرعية النظام السياسي عند أرسطو معتمد علىٰ منهجه في تصور الدولة في أفضل وضع ممكن ثم قياس مدىٰ قرب وبعد النظام السياسي عن هذه الصورة، بينما كانت الفلسفة المسيحية تعطي الشرعية للنظام السياسي طالما احتفظ الكهنوت بسلطته الدينية وذلك لأن المسيحية تفصل بين الحياة الدينية والحياة الدنيوية، وبهذا التقسيم مهدت المسيحية الطريق للعلمانية، وانقلبت السلطة السياسية علىٰ السلطة الروحية للكنيسة وبدأ عصر العلمانية الذي أعطىٰ الشرعية لأي نظام سياسي من خلال الفلسفات الأرضية التي وضعت بنفسها نظرياتها في المثل والقيم والأخلاق، وهي فلسفات اعتمدت علىٰ الإنسان أو العقل وأنتجت مفاهيم «النفعية، البرجماتية، الحفاظ علىٰ النفس، الحقوق الطبيعية للفرد، العقلانية».. وتولد عن هذه الفلسفات مفاهيم المشاركة السياسية

ومهمة البرلمان والدستور وغيرها من مفردات الحياة السياسية في الغرب.

علىٰ العكس من هذا فإن النظام الإسلامي منطلق من إيمان بوجود وحضور فاعل للإله في الحياة، وعلىٰ وحي يحدد القيم والأخلاق والمنطلقات، وعلىٰ شريعة جاءت مفصلة في أمور كثيرة، وكل هذا يمثل ثوابت راسخة للنظام الإسلامي، ثم إن كل هذا يعتنقه جمهور الناس الواسع، يعتنقه كل مسلم، وكل مسلم متحمل للمسؤولية (الأمانة)، والمجتمع الإسلامي مجتمع مفتوح أمام كل من يعتنق الإسلام، فهو مجتمع قائم علىٰ الانتماء للفكرة لا محدود بالانتماء العرقي أو القومي، ويخضع المسلمون لهذا النظام بقدر ما فيه من الطاعة لله ورسوله والقيام بأوامره، ويتعاونون معه فقط في المعروف، ويرون أنه لا يُطاع ولا يُخضع له إذا انحرف عن إسلاميته.

إن مبدأ الشورىٰ شرط إجرائي أساسي لشرعية السلطة السياسية في النظام الإسلامي، ولهذا فهو ليس مجرد ضمان لمشاركة الناس في السياسة، بل هو أداة لمنع الطغيان في الحياة السياسية الاجتماعية لارتباطه بالدين، ولهذا فهو خلاف فكرة البرلمان في النظام الغربي. ومن هنا تفشل كل محاولات النخب المتغربة في فرض نظام سياسي علىٰ النمط الغربي في المجتمعات الإسلامية.

٣- تعدد مراكز القوة

انعكس التناقض بين الرؤيتيْن الإسلامية والغربية في مجال النظام السياسي علىٰ مفهوم تعدد مراكز القوىٰ فيه، مثلما يقول سبينوزا «نظام الأفكار هو نفس نظام الأشياء».

لقد اختلف الفلاسفة الغربيون اختلافًا واسعًا في تحليل مفهوم القوة، فبعضهم ربطها بالأخلاق والغاية النبيلة مثل أفلاطون والرواقيون، وبعضهم لم

يبال بذلك وقد آل أمر هؤلاء إلىٰ مفهوم «القوة السياسية» التي استعملت منذ الامبراطورية الرومانية والتي يمثل ميكيافيللي نقطة فارقة في تطورها. ثم اختلفوا من جهة أخرىٰ في ما إذا كانت القوة هي «امتلاك قوة» أم هي القدرة علىٰ التأثير من خلال العلاقات. ولكن علىٰ الرغم من كافة الخلافات النظرية سارت تلك النظريات نحو دعم وجود مراكز متعددة للقوة في النظام السياسي، لأن النظام السياسي الغربي نفسه قائم علىٰ الفصل الصارم الاجتماعي والسياسي والديني، فهناك عائلة مالكة وطبقة نبلاء ورجال كنيسة، فالملوك يحتكرون المجال السياسي والنبلاء يحتكرون المجال الاقتصادي بالإقطاع ورجال الكنيسة يحتكرون المجال الديني. ثم أضيفت لهم طبقة جديدة مع التطور الصناعي الذي غير من خريطة القوىٰ الاقتصادية فأصعد طبقة جديدة من التجار وأصحاب المصانع والماليين. وفي ظل هذا الفصل الصارم بين المجالات والطبقات كانت الضمانة الوحيدة لبقاء نظام سياسي أحد أمرين نطق بكل منهما عدد من الفلاسفة، فبعضهم أراد توحيد مراكز القوىٰ في مركز واحد (وهؤلاء اختلفوا: أيهما أحق: الدولة أم الكنيسة) وبعضهم سعىٰ للتسليم بتعدد مراكز القوىٰ في النظام السياسي ورأىٰ هذا التعدد ضمانة لبقاء النظام متوازنا. إلا أن خلافهم هذا علىٰ الحقيقة كان خلافا حول المؤسسات والمنهج لا خلافا حول مفهوم القوة، فالحقيقة أن مفهوم القوة في ظل هذا النزاع بين مراكز القوة قد انفصل عن الغاية والأخلاق وتحكمت فيه رغبات الأطراف في توسيع نفوذها، ثم جاءت الحقبة العلمانية فرفضت ارتباط مفهوم القوة بالأخلاق كلية، وجاءت فلسفاتها تدعم استعمال القوة لتحقيق المنافع والأهداف بغض النظر عن أخلاقيتها وعدالتها.

بينما في النظام الإسلامي الذي يتمركز حول الإله الواحد العلي المهيمن علىٰ الحياة والذي سيحاسب الجميع في الآخرة، لم يمكن أن يظهر مثل هذا

التعدد في مراكز القوة داخل النظام السياسي، إذ الناس جميعا سواء وسواسية ولا يحتكر أحد أو طبقة مجالا بعينه، فبإمكان الجميع أن يكون من الأثرياء وبإمكان الجميع أن يكون من العلماء، وبإمكان الجميع أن يكون حاكما، وثمة أمر نبوي واضح «اسمعوا وأطيعوا ولو تأمَّر عليكم عبدٌ حبشي». ولذلك لم يكن في المجتمع الإسلامي إقطاع علىٰ نحو ما كان في التاريخ الغربي، كما لم تكن فيه مؤسسة دينية كهنوتية تتمع بصلاحيات واسعة كما هو الحال في الغرب، ثم لم يكن فيه أيضا قداسة لعائلة مالكة تستمد سلطتها من إرادة الرب كما كان لملوك أوروبا. لقد تركز نظر الرؤية الإسلامية حول فاعلية هذا النظام السياسي في القيام بالواجبات المنوطة به، وهي الواجبات الدينية التي صدرت عن الله، باعتباره القوة الوحيدة المطلقة والقوة الوحيدة التي تستحق أن تُطاع وتستحق أن تُرْهَب! ولذلك فإن التجاوب مع النظام السياسي إنما يكون فرعا عن تجاوب هذا النظام مع الإسلام نفسه ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]. ولهذا فإن النظام السياسي الإسلامي واحد غير متعدد مراكز القوىٰ.

ولهذا الاختلاف بين الرؤيتيْن آثار بعيدة من أهمها أن المجتمع الإسلامي يرفض ما يهدد «العدالة» ولو كان يحقق تطورا ماديا ضخما، كما أن صيغة التكافل بين أبناء المجتمع الإسلامي مرتبطة أصلا بكونهم سواسية وممسوكة بقيم دينية كالزكاة التي هي حق للفقراء في أموال الأغنياء، وتمثل «الحسبة» (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ضمير المجتمع المسلم وأداته ضد أي تهديد ينال من قيمه واستقراره.

٤- خطر تغول المركز

وهنا يأتي السؤال: إذا كان النظام الإسلامي لا يسمح بتعدد مراكز القوىٰ

في النظام السياسي، فكيف يفعل إزاء خطر تغول هذا المركز؟

إن الحل الإسلامي هنا هو إبقاء القِيَم قوية وحاضرة وفاعلة في المجتمع، مع حماية سيادة القانون والحرص علىٰ استقلال القضاء. وهذا كله بعد تشديدهم في الشروط التي ينبغي أن تتوفر في الإمام بحيث يكون أفضل وأكمل الأمة.

إن قيام النظام السياسي وشرعيته إنما تُسْتَمَدُّ من تطبيقه للإسلام، وهذا هو الأصل الكبير العام، والذي يُسْقِط شرعية النظام ومبرر وجوده إن هو خالفه، ولذلك ينزع العلماء حق الطاعة والخضوع لهذا النظام بانتهاكه لهذا الأصل. ومن آثار هذا أن جميع علماء المسلمين متفقون علىٰ استقلال القضاء عن النظام السياسي، لأنه الذي يحول دون تغول هذا النظام، فالقضاة وإن كان يعينهم الخليفة إلا أنهم مستقلون عنه بل هم نواب الأمة لا نواب الإمام، وليس للإمام أن يعزلهم دون سبب وجيه لأن الإمام نفسه لا حصانة له ضد أحكام القضاء.

ثم إن الوحدة في النظام السياسي لا تعني أي احتكار للقوة الاجتماعية والدينية، بل إن مسار التاريخ الإسلامي يشهد بأن التعددية الدينية والثقافية والاجتماعية كانت مزدهرة في ظل هذا «النظام السياسي الموحد»، والسرُّ الأهم في هذا أن القيم المُؤَسِّسَة للنظام الإسلامي أوصت بالحفاظ وحسن التعامل مع أهل الذمة، وذلك علىٰ العكس من الوضع الغربي الذي لم يشهد تسامحا وتعددية إلا في الحقبة الحديثة. ففي حين احتاج العالم الغربي إلىٰ وحدة تفرض النظام وتمنع الفوضىٰ لم يكن العالم الإسلامي محتاجا لهذا لأنه لم يكن يفصل بين الناس في طبقات وفوارق صارمة، ويمكن تشبيه الدولة الإسلامية بأنها «اتحاد يضم عدة ملل» في ظل مركز سياسي يمثل موطن القوة.

إن الفارق الأساسي بين النظامين الغربي والإسلامي كامنٌ في أن النظام الغربي نزَّاع إلىٰ فرض رؤيته علىٰ الجميع، وتقسيم مكونات المجتمع إلىٰ طبقات وفوارق فاصلة، بينما يسمح النظام الإسلامي بالتعدد الثقافي والديني

والاجتماعي والقانوني، إذ تستطيع كل ملة أن تعيش كما تريد وأن تطبق قوانينها علىٰ نفسها، ولذلك تتهدد هذه التعددية في ظل النظام الغربي بينما تزدهر في ظل النظام الإسلامي. ثم إن النظام الإسلامي باعتماده علىٰ رؤية دينية وتركز قوته في مؤسسة سياسية منبثقة من قيم إلهية كبرىٰ لا يسمح بتحول الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية للأقليات إلىٰ تهديد عام، وهو الأمر الذي تتخوف منه الرؤية الغربية فتنزع إلىٰ فرض رؤيتها الموحدة علىٰ جميع من تحكمهم. (فمثلا: الاقتصاد الإسلامي مؤسس علىٰ قيمة دينية مستقاة من الوحي هي: ينبغي أن يُنتَج كل ما يحتاج الناس إليه.. ومن هنا يتحرك الاقتصاد دائما إلىٰ جهة تحقيق مصالح الناس. بينما يتأسس الاقتصاد الغربي علىٰ قاعدة وضعية تقول: كل ما يُنْتَج ينبغي أن يُسْتَهلك.. ومن هنا يتحرك الاقتصاد دائما إلىٰ جهة تحقيق مصالح المُنْتِجين، ويلزم لمقاومة تهديد المجتمع أن تتدخل الدولة بفرض رؤيتها الاقتصادية القانونية علىٰ الجميع منعا لنشوء هذا التهديد من جماعات المصالح. وفيما يستحيل أن تتحول الدولة الإسلامية إلىٰ كيان رأسمالي لطبيعتها القيمية فإنه من السهل أن تتحول الدولة الغربية إلىٰ كيان رأسمالي).

إن مجرد وجود القِيَم والمعايير الدينية في النظام الإسلامي يقيده من كافة الآثار العلمانية الوضعية التي تجعل مركز القوة في النظام متغولا ومتضخما ولا يُمكن مقاومته.

٥- الثنائية والتعددية في هيكل النظام الدولي

تمخضت الفلسفات الغربية عن مفهوم سياسي أساسي هو مفهوم «الدولة القومية» والذي كان صلح وستفاليا إعلان عنه، بينما امتدت جذور هذا الفكر السياسي المحدد للهوية إلىٰ مدن اليونان القديمة وإلىٰ الإمبراطورية الرومانية (التي كانت دولة لا أمة عالمية)، وليس يُسْتَغْرَب في ظل فلسفة علمانية أرضية

أن تنقسم كل «أمة» إلىٰ «دولة قومية»، يكون لكل منها معاييرها وسياستها وبنيتها المستقلة. وفي هذه الحالة تتحدد الهوية لكل فرد من خلال الأصل العرقي أو مكان الميلاد. فمن وُلِد من أصل كذا أو في نطاق دولة كذا مُنِحَت له جنسيتها، واكتسب حق المواطنة فيها.

بينما يتناقض هذا مع المفهوم الإسلامي الذي يجعل الهوية (الإسلام) شيئا مُكْتَسَبًا، يمكن لكل إنسان أن يكتسب هذه الهوية بدخوله في الإسلام، ويكون انتماؤه للمجتمع الإسلامي هو انتماء طوعي، يختار فيه المرء نمط حياته وثقافته وسلوكه والتزامه بذلك. ولذلك فإن الأمة الإسلامية هي أمة انتماء ديني قِيَميّ أكبر بكثير من كونها انتماءا جغرافيا أو عرقيا أو لغويا. ثم يقبل أهل الذمة فيها ما تقدمه لهم من الهيمنة السياسية (وهي حماية لهم وليست اضطهادا) تحقيقا للقوة السياسية للأمة متمتعين بالاستقلال الديني والثقافي والقانوني في شؤونهم.

ولهذا يعرف الفقه الإسلامي مصطلح «دار الإسلام» و«دار الحرب»، ولا يعني هذا إعلان حالة حرب دائمة (فأكثر الفقهاء يرون أن الأصل في العلاقة بين الدولة الإسلامية وغيرها هو السلام لا الحرب)، وإنما هو تقسيم طبيعي ومنسجم مع الرؤية الإسلامية التي تحدد جغرافيا أين يستطيع المسلم أن يحيا في دولة تمثل رؤيته الإسلامية وأين تغيب هذه الرؤية. ومن الطبيعي كذلك ألا ينشأ هذا التقسيم في الرؤية الغربية لأنها لا تحفل أصلا بالتصور الكلي الكوني للوجود.

❊❊❊

الانقلاب العسكري الفاشل في تركيا

قال الشاعر:

وكلٌّ يـــدّعي وصـــلا بلـــيلى وليـــلى لا تُقِـــرُّ له بـــذاك

وفي واقعنا العربي ادعىٰ الغنوشي وحزب النهضة في تونس أنهم سيستلهمون تجربة أردوغان وحزب العدالة والتنمية في تركيا، وكذلك ادعاه الإخوان المسلمون في مصر، وقد كتبت كثيرًا في مقالاتي أو علىٰ حسابات التواصل أبين أن كليهما يسيران علىٰ النهج المناقض لأردوغان، وأنهما لا يأخذان منه شيئا علىٰ الحقيقة، لكني أختار من ذلك كله مقالًا واحدًا فحسب، كتب قبل الانقلاب التركي الفاشل (١٥ يوليو ٢٠١٦) بأعوام، ثم جاء هذا الانقلاب الفاشل فأسفر عن طاقة ثورية لدىٰ أردوغان لا يُقارن بها شيء لدىٰ مرسي أو الغنوشي، لقد بدا عزم أردوغان علىٰ ضرب الانقلابيين بكل حزم وصرامة بل ودون أي تهاون، بل سعىٰ في تفكيك نظام الدولة وفرض إجراءات تمنع تماما إمكانية انقلاب عسكري في المستقبل.

لا يتسع المقام في هذا الكتاب للحديث عن الانقلاب التركي الفاشل وآثاره، وإنما سأكتفي هنا فقط بهذا المقال الذي كتبته من قبل، ثم صدقته الوقائع، وبكلمة ألقيتها في مؤتمر في تركيا بُعيْد الانقلاب الفاشل لخصت فيها أهم الأفكار، ولعل الدراسة الموسعة للانقلاب تصدر في كتاب مستقل أو ضمن عمل بحثي قادم، والله المستعان.

بين أردوغان والغنوشي

سارت بين الشباب مقولة «الغنوشي مثل أردوغان»، أو «أردوغان مر بمرحلة الغنوشي».. فهل هذا صحيح؟!

كان لأخي الفاضل معتز عبد الرحمن مقال قديم جميل قال فيه: «مشكلة الإخوان أنهم يظنون أنهم وحدهم يقرأون التاريخ، يظنون أنهم سيكررون تجربة أردوغان التركية، ولا يعلمون أن التجربة التي قرأوها قرأها أيضا العسكر وأساد العسكر»

وفي ذات المعنىٰ قال الأخ الكاتب عمرو عبد العزيز ردا علىٰ شاب إخواني اتهمه بعدم الفهم «بل أعرف ما تريدون؟ أنتم تريدون الوصول للتوافق لكي تحققوا إنجازا اقتصاديا يحمل الشعب علىٰ أن يكون خلفكم ويدعمكم، حتىٰ إذا جاءت اللحظة المناسبة استطعتم قيادة هذا الشعب للنهضة والإصلاح والتحرر من الهيمنة العسكرية والأجنبية.. صدقني أنا أعرف هذا، ويعرفه أيضا العسكر، والمخابرات الأمريكية»!!

هذا المعنىٰ البسيط يمثل غيابه سرّ الغفلة التي تحاول تشبيه أردوغان بالغنوشي..

لا أدري من أين أتىٰ الاعتقاد بأن ما قبلته أمريكا من أردوغان قبل عشر سنين ستقبله الآن أيضًا من أي رافع لشعاره؟

ما الذي يحمل علىٰ الظن بأن أمريكا لم تغير خطتها القديمة في «صناعة إسلام معتدل» وصارت الآن أكثر قناعة بأن الإسلام ليس فيه اعتدال (إلا نموذج السلفية المدخلية وحزب النور، وهؤلاء لا يكونون في الحكم، بل مهمتهم تحويل الكفر إلىٰ إسلام والإسلام إلىٰ كفر)..

لكن ثمة فوارق أخرىٰ جديرة بالاهتمام..

أولًا: فارق النظام:

فالنظام العسكري العلماني التركي كان يسمح بعملية ديمقراطية كاملة، لكن لها خطوطا حمر، فبإمكان الإسلامي أن يعمل بالسياسية ويؤسس الأحزاب ويدخل البرلمان ويفوز بالحكومة.. فإذا بدا أنه تجاوز الخطوط الحمر تحرك العسكر للانقلاب عليه ثم عادوا إلىٰ ثكناتهم مرة أخرىٰ.. إنه نظام يسمح بالمناورة ويحب أن يسيطر علىٰ المفاصل والإطار لا علىٰ كل الحركة الداخلية.

بينما الأنظمة العربية في واد آخر، إنها الأنظمة التي لا تسمح حتىٰ بحلقات القرآن في المساجد، ولا بالاعتكاف في العشر الأواخر، ولا بارتقاء المنابر، ولا بأي شيء إلا تحت الإشراف الكامل لأجهزة الأمن.. نظم مغلقة لا مجال فيها للمناورة.

ولذلك استطاع أردوغان أن يتسلل متخفيا وأن يقدم تنازلات حتىٰ وصل.. بينما كان الغنوشي سيقضي بقية عمره في لندن لو لم تقم الثورة.

أردوغان تنازل في سياق نظام يسمح له بالحركة، وتحقق له التنازلات بعض النتائج.. بينما الغنوشي ظل طوال عمره يخاطب الهواء والفراغ، ويكتب أفكارا ما كان لها أن تنبت لولا أن اشتعلت ثورة علىٰ غير ما يتوقع الجميع، فهي التي حملته إلىٰ تونس!

أردوغان تنازل ليحصد، والغنوشي كان يتنازل مجانا حتىٰ حصد علىٰ حين غفلة.

(ونحن هنا لن نتناول ما إذا كانت التنازلات مقبولة أو لا، أو لها عذر أو لا، الحديث الآن عن فكرة التنازل نفسها، والحديث بالطبع عن التنازل الفكري الذي يساوي مداراة شيء من الدين أو التسامح مع ما يناقضه).

ثانيًا: فارق الثورة:

أردوغان بدأ الحركة في الجو الهادئ الرتيب، تحت النظام الراسخ المستقر، فكان كلما اقتنص خطوة لا يعود عنها ولو اهتزت الأرض، وقد مر بمنعطفات فارقة كثيرة، ولا أزال أتذكر مشاهد ثباته، ولست أنسىٰ مرة كان الحزب فيها مهددا بالحل القضائي وبدأت تسري همهمات بأن يستقيل الأعضاء قبل أن يلحقهم عقوبة عزل سياسي، فوقف قائلا وبقوة «هذه الأزمة ستعبر، ولكن من سينزل في هذه المحطة لن يسمح له بالركوب مرة أخرىٰ»..

وبالطبع أضرب المثال لمجرد المثال، لا أن هذا الموقف هو كل ما أعتمد عليه (ملحوظة لفئة التعليقات السطحية).

ومنذ تولىٰ أردوغان وهو يسير من تقدم إلىٰ تقدم، لا تزيده الأيام إلا ثباتا وقوة، ولا تستطيع أن ترىٰ له تنازلًا سياسيًا يهز مكانته أو يضعف من مهابته وموقفه إلا نادرًا جدًا.. ولا يعني هذا أنه في مأمن ولا أنه استكمل التمكن ولا أنه بعيد عن الخطر، فسيرتنا مع عدونا تخبرنا بأن وسيلة كالاغتيال والانقلاب العسكري ما زالت مطروحة.. ونحن هنا نرصد الماضي ولا نقيم تجربة أردوغان التي ما تزال لم تكتمل بعد.

بينما الغنوشي سياق آخر تمامًا..

الغنوشي جاءته ثورة من حيث لا يحتسب فوضعته زعيما شعبيا في تونس بين منافسين، ثورة تقلب المعادلة وتربك الأوضاع، لحظات فاصلة يستطيع كل قوي وذكي أن يغتنمها فيقفز بنفسه ومكانته وقوته أضعافا مضاعفة.. مراكز القوىٰ متفككة ومهترئة، والنظام القديم بين هارب ومشرد ويبحث عن مأوىٰ ومترقب، والوضع الدولي في حال أفضل للتفاهم والأخذ والرد (وضع معاكس تماما لأردوغان)

وإذا بالغنوشي منذ وضع قدمه في تونس وهو من تنازل إلىٰ تنازل (وهنا

نتحدث عن التنازل السياسي لا الفكري)، فبرغم الأغلبية الشعبية المستحقة جاء برئيس يساري، اليساري هذا لم يكن لديه أي حياء وهو يعلن «لن توضع الشريعة في الدستور وحاسبوني علىٰ هذا» (وهذا في لحظة كان مطلب الشريعة فيها في أعلىٰ ذروته، وكانت حركة النهضة تتمسك به كتمسك حزب النور عندنا بالشريعة أيام مرسي، ولم يكن اليساري هذا ذو صلاحية ولا له سلطة علىٰ اللجنة التأسيسية أصلا.. الرجل لم يعبأ بمن تنازلوا له).

الغنوشي الذي كتب عن الديمقراطية حتىٰ كُتب عنه كتاب بعنوان «ديمقراطي بين الإسلاميين».. نسي إله الديمقراطية واعتنق عبادة إله التوافق.

وبالرغم من أن الديمقراطية والتوافق نقيضان (الديمقراطية أصلا نظام لحل الخلافات سلميا لا للتوافق) إلا أن الغنوشي ضحىٰ بالديمقراطية (مشروعه الفكري) في سبيل التوافق لإرضاء المنافسين، وهو مبدأ غير ديمقراطي أصلا!

ومن رئيس يساري إلىٰ حكومة أولىٰ إلىٰ حكومة ثانية ثم إلىٰ حكومة تكنوقراط (حكومة علمانية لكنها ارتدت ثياب المتخصصين).. فتنازل عن منصب الرئيس، ثم استقالة حكومة وتخفيض الإسلاميين فيها، ثم عن الثانية، حتىٰ جاءت حكومة الأقلية فيها إسلامية..

وقاتل الله البرادعي الذي قال «وكأن ثورة لم تقم وكأن نظاما لم يسقط»..

خان الغنوشي الإرادة الشعبية وباعها ليشتري بها رضا النخبة، وبعدما جاءت به الثورة زعيما شعبيا من حيث لا يحتسب عاد هو بنفسه إلىٰ مقاعد المعارضة «حفاظا علىٰ الثورة».. أي ثورة؟!

تماما كالطبيب الذي ضحىٰ بحياة الأم والجنين لكي تنجح العملية!!

ما فائدة الثورة إذا لم تُمكن للشعب؟! والشعب قد عبر عن هويته الإسلامية في اختياراته الحرة؟!

وإذا اعتبرنا -حاشا لله- أن شعب تونس كفر، وصار لا يريد دينا، بل يريد ديمقراطية غربية كاملة، فحتىٰ فكرة الديمقراطية قد نسفت لصالح فكرة لقيطة اسمها «التوافق».. الديمقراطية في التحليل الأخير هي أن تحكم الأغلبية.

وهنا يبدو الفارق واضحا بين الغنوشي وأردوغان، هذا بدأ قويا وما زال يتقهقر.. وهذا بدأ ضعيفا وما زال يقوىٰ؟!

ثالثًا: فارق السياسة:

أردوغان لم يكن يضيع وقته في حوارات الأحزاب.. تلك الحوارات الخرقاء التي لا تنتهي ولا تثمر، ولا تسمن ولا تغني من جوع.. أردوغان تنازل أمام من يملك المفاتيح: الغرب والأمريكان.

وكان في نفس اللحظة يضرب الدولة العميقة بأعنف ما يمكنه لكي يكون الممثل الوحيد لتركيا أمام أي جهة، وهذا حق أي حاكم منتخب.. فأصبحت مسائل القبض علىٰ تنظيمات الدولة العميقة وإحالة قادة في الجيش والأجهزة الأمنية والقضاء والإعلام للتقاعد والتحقيق والمحاكمات - صارت أخبارا مطروقة نسمعها كل يوم.

بينما الغنوشي يمدّ خصومه بالدماء ليواصلوا الحياة، لا بل ليواصلوا التضخم وسحقه هو، فيعطيهم ما لا حق لهم فيه لا بالديمقراطية ولا بالمنطق ولا بالفطرة.. من أجل التوافق، وللحفاظ علىٰ الثورة!

وبينما يضرب أردوغان النظام القديم، لم ينشغل الغنوشي بضرب النظام القديم -وهو في أضعف حالاته بعد الثورة- فعاد وتجدد وترسخ مكانه.

فمن الذي يتنازل؟ ومن الذي يتقدم؟!

ومن ذا يسوي بين أردوغان والغنوشي..

إنما مثلهما كمثل الرجل العصامي الذي حفر في الصخر حتىٰ بنىٰ كيانه فتحمل وهو يبني بعض العنت والإهانات واضطر لبعض التنازلات والصفقات

حتىٰ وصل، كيف يستوي مع رجل جاءه خبر علىٰ حين غفله بأنه الوريث الوحيد لقريب ثري، فما إن جاءه الكيان حتىٰ صار يوزعه علىٰ خصومه كي يتجنب غضبهم باسم المحافظة عليه.. وقريبا يطردونه ولن يجد من يبكي علىٰ مثاليته وأخلاقه!!

والعجب العجيب أنهم يفرحون لإقرار دستور! ألم ينظروا كيف أقر الدستور في مصر منذ عام ثم لم يغن عنهم شيئا، بل جاءهم الانقلاب العسكري ليعلن في جملة واحدة «تعطيل العمل بالدستور».

فبأي شيء يفرحون؟![1]

---

(١) نشر علىٰ صفحتي بموقع الفيس بوك وعلىٰ مدونتي بتاريخ ٣١ يناير ٢٠١٤م.

من آثار الانقلاب التركي الفاشل على الشرق الأوسط

هذا نص كلمتي التي ألقيتها في مؤتمر «آثر محاولة الانقلاب في تركيا علىٰ العالم الإسلامي» والذي عقدته بلدية كوتاهية، واحتضنته جامعة Dumlupinar[(١)].

(١) مصائر تركيا بين انقلابين:

لئن ضعفت الدولة العثمانية في أواخر أيامها، وفقدت بعض أراضيها، إلا أنها ظلت قوة قائمة في الساحة العالمية، لكنها خرجت من ساحة القوىٰ العالمية وبدأت مسار الانهيار الكبير منذ الانقلاب العسكري علىٰ السلطان عبد الحميد الثاني (١٩٠٩م).

منذ تلك اللحظة انتصرت الإرادة الغربية علىٰ الإرادة الإسلامية في قلب عاصمة الخلافة الإسلامية، وبدأ حكم الاتحاد والترقي الذي افتتح عهده بالتخلي عن ليبيا بمجرد أن نزلها الإيطاليون في إعلان صريح أن الدولة العثمانية لا تهتم بهذا الإقليم، ثم نزل الاتحاديون بثقلهم في الحرب العالمية الأولىٰ مما استنزف المجهود العثماني حيث تحملت الدولة العثمانية العبء الأكبر في تلك الحرب، ثم هُزِمت مع حلفائها وبدأت تفقد البقية الباقية من أراضيها وصارت تُعقد الاتفاقيات لتقسيم تركتها.

ثم جاء الحكم الجمهوري الذي انتزع نفسه من الجسد الإسلامي الكبير،

---

(١) انعقد المؤتمر بتاريخ ٢٣- ٢٥ أغسطس ٢٠١٦م.

واكتفىٰ بأن يحكم المساحة الجغرافية الحالية لتركيا، وألغيت الخلافة الإسلامية، واتخذت إجراءات شرسة لمطاردة الإسلام، فانتهت الدولة العثمانية العظيمة إلىٰ قطعة جغرافية صغيرة من الأرض منعزلة علىٰ نفسها تقطع صلاتها مع المسلمين في الشرق الأوسط والبلقان وآسيا الوسطىٰ، وتنفض يدها من كل علاقة مع إفريقيا والهند وشرق آسيا.

يمكن اختصار هذا القرن الفائت كله في أنه صراع بين الإرادتين: الإرادة الغربية والإرادة الإسلامية في تركيا، فمنذ أتيحت الفرصة للشعب التركي ليعبر عن نفسه وهو يختار ممثلي الإرادة الإسلامية، وما إن يبدأ هؤلاء في العمل الجاد حتىٰ تتحرك الإرادة الغربية لتدبر انقلابا عسكريا يعيد تركيا من جديد إلىٰ الإرادة الغربية، وهكذا وقع في تركيا أربعة انقلابات في نصف قرن، حتىٰ عرفت بأنها بلد انقلاب كل عشر سنوات.

الآن فشل الانقلاب العسكري في تركيا، وكُسِرت تلك السلسلة العنيدة التي طالما كبلتها، وانتصرت لأول مرة منذ مائة عام إرادة الشعب التركي الإسلامية علىٰ إرادة العسكر العلمانيين، ولهذا فإن العالم الإسلامي يعيش استبشارا كبيرا أن يكون هذا الانقلاب الفاشل هو التصحيح التاريخ للانقلاب العسكري علىٰ السلطان عبد الحميد الثاني، لتبدأ دورة عودة تركيا كقوة عظمىٰ إسلامية، ويكون جيشها بالفعل هو جيش محمد الذي طالما كان مضرب المثل في القوة والبسالة والعظمة الإسلامية.

إن أخبار الانقلاب في تركيا تابعها كل العالم، لأن الجميع يعرف أن مصير هذا الانقلاب فارق في مسيرة النظام العالمي كله.

(٢) آمال الشعوب الإسلامية:

أطلق انتصار الشعب التركي علىٰ محاولة الانقلاب العسكري دفقة أمل كبرىٰ لدىٰ الشعوب الإسلامية، لقد رأوا بأعينهم كيف أن الانقلاب العسكري

أمر يمكن إفشاله وهزيمته، ولهذا صار كل قوم يفكرون في مصيرهم، فإن كانوا يعانون من انقلاب في بلدانهم (كما في مصر واليمن وليبيا إلىٰ حد ما) صاروا يسألون أنفسهم: لماذا نجح الانقلاب عندنا وفشل في تركيا؟ وصاروا يناقشون الأمر يحاولون أخذ العبرة والعظة والاستفادة في معركتهم القائمة ضد الانقلاب في بلدهم. وإن كانوا يعانون من استبداد عسكري علماني صاروا يناقشون التجربة التركية في كيفية القضاء علىٰ الدولة العميقة وتحقيق انتصار شعبي.

وهكذا بات المسلمون في مساء الجمعة هذا والقلق يقتلهم إذ يتابعون أخبار الانقلاب العسكري، ثم أصبحوا والاسئلة تثور في أنفسهم: كيف يمكن الاستفادة من التجربة التركية. إن هذا الأمل وحده مكسب عظيم في معركة تحرر الأمة الإسلامية، وأول من يشعر به ويقدره هم المكافحون في معركة التحرير.

إن نجاح الانقلاب العسكري في تركيا كان يعني انهيار آخر قلعة إسلامية في هذا العالم، لا يُتصوَّر حجم اليأس والإحباط الذي كان سيخيم علىٰ كل المسلمين بل وعلىٰ كل أحرار العالم إن نجح هذا الانقلاب، كان المشهد سيبدو قاتما مظلما: مشهد انتصار الشر في كل بقعة علىٰ سطح هذا الكوكب! مشهد ألم لا أمل فيه، وظلام لا شعلة فيه، وإن مجرد النجاة من هذا الإعصار من اليأس لنعمة كبرىٰ نشكر الله عليها.

(٣) ردود فعل الأنظمة العربية:

وعلىٰ قدر ما فرح المسلمون بفشل الانقلاب التركي علىٰ قدر ما نُكب حكامهم، أولئك الذين يحاربون كل تجربة ناجحة، وكل ثورة باسلة، وكل أمل في المستقبل.. يريدون أن يسود نموذجهم لكي لا تفكر الشعوب في ثورة، أو في تقدم، لا يريدون للناس أن يأملوا في وضع أفضل مما هم فيه، لا يحبون أن ترىٰ الشعوب نموذجا ملهما!.. لكل هذا فإن الأنظمة المستبدة -العميلة للغرب-

شاركت بالتخطيط أو التمويل أو حتىٰ بوسائل الإعلام في تشويه التجربة التركية ودعم الانقلاب العسكري.

كذلك فإن المعارضة العلمانية في البلاد العربية تمنت نجاح الانقلاب التركي، رغم أنه يفترض بهم أن يقفوا ضده، فتجربة تركيا هي نموذج واضح لتجربة متقدمة راقية، إلا أن العلمانية عندهم هي العداء للإسلام، وأهون عندهم أن يتولىٰ السلطة علمانيون مهما كان فسادهم ويعيش الشعب في الجحيم من أن يتولىٰ السلطة من يوصفون بالإسلاميين وإن حققوا لشعبهم التقدم والرخاء.. نار العلمانية أحب إليهم من جنة الإسلام.

وفي كل الأحوال فالمتوقع الآن هو الاستمرار في تشويه التجربة التركية وزعيمها رجب طيب أردوغان، ومضاعفة الحرب الإعلامية عليها، وستنتقل الأنظمة العربية إلىٰ مراحل أخرىٰ جديدة، منها:

أ- **دعم واحتضان جماعة جولن،** التي ستجد أمامها مساحة واسعة من الدعم المالي والإعلامي وفتح المقرات وإنشاء المدارس والهيئات التابعة لها في البلاد العربية المناهضة للتجربة التركية، وأبرزها: الإمارات ومصر، وستحاول تلك الدول استمرار الوجه الإسلامي لهذه الجماعة في احتواء الجماعات الإسلامية الشبيهة والرموز الدينية الشبيهة أيضًا، والمستهدف من هذا هو غسل سمعة هذه الجماعة وتحسين صورتها لدىٰ الشعوب العربية مقابل استعمالها في التمكين لهذه الأنظمة العربية وتطويع الشعوب لها، واستمرار تشويه التجربة التركية وقادتها. ولذا ستجدون في الأيام القادمة وسائل إعلام تفتح شاشاتها وصحفها لفتح الله جولن وكبار أتباعه، كما ستجدون عددًا من الهيئات التابعة لتلك الجماعة تنمو في البلاد العربية جهرًا أو سرًا.

ب- **دعم المتمردين من الأحزاب العسكرية الانفصالية في تركيا،** وذلك من خلال تقديم الأموال والخبرات العسكرية والتسهيلات الاستخبارية، إذ

حيث لم ينجح الانقلاب العسكري في الاستيلاء علىٰ السلطة فليكن البديل هو الاستمرار في زعزعة أمن واستقرار البلاد لمناكفة هذه السلطة وإشغالها بنفسها وحصار تمددها إلىٰ المنطقة العربية والإسلامية لتظل التجربة التركية مهددة بعدم الاستقرار فينعكس هذا بالسلب عليها في أنظار الشعوب العربية والإسلامية. ستجدون زيادة في دعم هذه الأحزاب المتمردة وستجدون ارتفاعا في سقف مطالبهم، وازديادا في قوة ووتيرة العمليات المسلحة، والهدف: إضعاف تركيا إن لم يكن تقسيمها من جديد مما يساهم في كسر قوتها المتنامية.

جـ- تمويل العمليات التفجيرية والتخطيط لها، وتسهيل تنفيذها، ثم نسبتها إلىٰ أي جماعة مسلحة إسلامية أو كردية أو حتىٰ يسارية، إذ أن اختراق هذه الجماعات مما احترفته أجهزة الاستخبارات العربية، والهدف من هذا أن تزيد معدلات إنهاك النظام التركي واستنزاف قوته حتىٰ يُفرض الاستسلام علىٰ السياسة التركية لتعود من جديد إلىٰ بيت الطاعة الأمريكي!

إن تركيا تحظىٰ بانحياز الشعوب وتعاطفها الهائل، وهي في الوقت نفسه تحظىٰ بعداء الأنظمة الحاكمة، وصحيحٌ أن تعاطف الشعوب لن يغني عنها كثيرًا في مجال المؤامرات الخطيرة، إلا أن تركيا تستطيع أن تستثمر هذه العاطفة وتحولها إلىٰ عمل حقيقي فعال. إن في تركيا الآن ملايين العرب والمسلمين اللاجئين إليها أو الذين فضلوا أن يعيشوا فيها علىٰ سائر البلاد في العالم، ولقد كان أولئك ضمن الذين نزلوا لمواجهة الانقلاب بأنفسهم ومنهم من استشهد ومنهم من أصيب. تستطيع تركيا أن تحول عاطفة هؤلاء إلىٰ أثر حقيقي من خلال أعمال ومنظمات وهيئات تستفيد من هذه الطاقة الهادرة في المشروع التركي الكبير.

(٤) وقفة مع الديمقراطية:

تبدو الديمقراطية في عالمنا الآن كصنم لا ينفع ولا يضر، من جاء

بالديمقراطية تزيحه الدبابات، ومن جاء بالدبابات لم يؤثر فيه التوسل بالديمقراطية؟

لقد كشف الانقلاب التركي عن أن كهنة الديمقراطية يمكنهم أن يعطوا الدروس في موضوع آخر تمامًا وهو «كيف تصنع انقلابًا ناجحًا علىٰ الديمقراطية»، فحتىٰ فرنسا نسيت حادثة نيس التي تعرضت لها قبل الانقلاب في تركيا بساعات، ودخلت علىٰ خط مطالبة أردوغان باحترام القانون والقضاء وتوفير حقوق الانقلابيين! فانضمت بهذا إلىٰ المعزوفة الغربية، هذه المعزوفة تثبت أن انتصار أردوغان في تركيا لم يكن انتصارا علىٰ حفنة من العسكريين، بل هو انتصار علىٰ العواصم الغربية التي تعاملت تمامًا وكأنها مهزومة تفتش في وسائل تحجيم المنتصر والتضييق عليه وإهدار مكاسبه!

لقد تابعتم جميعا التعليقات الأولىٰ علىٰ الانقلاب وكيف كانت ترحب به، لكن المثير للانتباه هنا هو توجه وسائل الإعلام الغربية التي طفقت تسأل خبراءها الأمنيين والعسكريين سؤالًا واحد: لماذا فشل الانقلاب في تركيا؟! والخبراء من جهتهم لم يقصروا في الإجابة، وكشفوا عن أمور «كان من المفترض» أن يقوم بها الانقلابيون كي ينجح انقلابهم! هل رأيتم كيف استطاع فلاسفة الديمقراطية أن يدرسوا مادة «كيف تصنع انقلابًا ناجحًا علىٰ الديمقراطية»؟!

نحن لو نظرنا في تاريخ الديمقراطية لوجدنا أن الغرب لم يحاول زرع الديمقراطية في بلادنا إلا لإضعاف البلاد الإسلامية بتغيير نظامها الاجتماعي والثقافي والحقوقي ودعم التمردات الانفصالية عن جسد الدولة العثمانية وإعطاء الأقليات الدينية والعرقية نفوذا أوسع بما يزيد من إضعاف السلطنة العثمانية ومن طموحات حركات الانفصال عنها وتقييد سلطة الخلافة لصالح رجالهم في مؤسسات الجيش والإدارة الحكومية.. بينما في مصر مثلا ركل

الغرب الديمقراطية وألغىٰ البرلمان كله ليثبت احتلاله، وظل البرلمان معطلا لعشرين سنة لم يهتم أحد فيها بالسؤال عن واجب الديمقراطية وحق الشعب المصري!

ولم تزل هذه سُنة الغرب معنا. فالغرب هو الذي يدعم ويرعىٰ بقاء الأنظمة المستبدة، ثم يُحاسبنا علىٰ أننا دول مستبدة ومتخلفة ولا ينضج فيها النظام الديمقراطي، ويأتي فلاسفته - وعملاؤه في الداخل -ليعطونا دروسًا في الديمقراطية والنظم الحديثة، رغم أنهم نتاج هذه السلطات المستبدة التي فتحت لهم الصحف والجامعات ومراكز الأبحاث وقنوات التلفاز، وهم أنفسهم لم يدعموا أبدًا أي حراك ديمقراطي ولم يُضبطوا متلبسين بالهجوم علىٰ المستبدين، وهم أنفسهم عند أي لحظة فارقة يصطفون إلىٰ جوار الاستبداد ضد رغبة الشعوب.

هل تحتاج بلادنا إلىٰ التحرر أم الديمقراطية؟ أو لنطرح السؤال بشكل آخر: هل يستطيع الحصول علىٰ الديمقراطية ضعيف؟!

إن بعض الأنظمة تبخل علىٰ شعوبها بمجرد برلمان منتخب حتىٰ هذه اللحظة، والأنظمة التي «تفضلت» علىٰ شعوبها ببرلمان إما أعطتهم برلمانا منزوع الصلاحيات أو برلمانا تصنعه هي بالتزوير، أي أن النظام في النهاية يزين نفسه ولا يفكر أبدًا في أن يكون خادما للناس ومعبرا عنهم!

ولقد حاولت الحركات السياسية سلوك ما هو متاح فوجدت الطرق أمامها مغلقة، البرلمان مزور أو منزوع الصلاحيات أو يحل في العام مرتين حتىٰ يرضىٰ عنه الأمير أو الملك، الصحافة حكر علىٰ المنافقين، القضاء يعمل في خدمة السلطة، وحتىٰ الثورات الشعبية التي تنفجر تُقابل بحميم النيران كما هو في سوريا وليبيا أو بالانقلابات العسكرية كما هو في مصر. فإذا تسلل رئيس في ظروف استثنائية كمصدق في إيران ومرسي في مصر ومندريس وأربكان

وأردوغان في تركيا، حوصروا بالضغوط من كل جهة ثم دُبرت عمليات الإطاحة بهم من السفارات الأجنبية. فكيف تأتي الديمقراطية؟ ومن ذا الذي يأتينا بها؟!

لم يفلت من كل هذا سوىٰ نموذجان: حماس في غزة وأردوغان في تركيا، ولولا أن لكليهما قوة مسلحة داخلية تدين بالولاء لهما ما أغنت عنهما الديمقراطية ولا أصوات الناس شيئا، ولكانا قد كررا مصائر مصدق ومندريس ومرسي.

الواقع أننا نحتاج للتحرر لكي نستطيع -إن أردنا- حماية الديمقراطية، ديمقراطيتنا التي تُعبر عنا ولا تخالف ديننا ولا قيمنا، أو إن أردنا صنعنا نموذجا آخر، فنحن أحرار ولنا حضارة زاهرة ونستطيع أن نبتكر من النماذج ما هو خير وأحسن لنا وللعالمين. ولا يكون ذلك إلا إن تحررنا حقًا وامتلكنا قرارنا. ودون ذلك حروب ودماء وأهوال، وتلك هي سُنة الدول عبر التاريخ، بما فيها تلك الدول التي تقهرنا الآن: لم تصل منها دولة إلىٰ هذا المكان إلا بعدما حاربت وكافحت وتحررت.

هكذا قال شوقي: فَقُلْ لِبانٍ بقولٍ ركن مملكة ... علىٰ الكتائب يُبْنىٰ الملك لا الكتب

(٥) ماذا نتعلم من تجربة الانقلاب في تركيا:

الحقيقة أن ما حدث في تركيا حافل بالدروس، لكني هنا أختار أهمها وأبرزها كي لا يطول الكلام. وأنا هنا في موقع الناصح الأمين لإخواني المسلمين عموما والأتراك خصوصًا، وهي شهادة ممن شهد انقلابين في ثلاث سنوات: مصر وتركيا، واقترب من الساحة السياسية المصرية اقترابا يمكنه من رصد الفوارق. في شهادتي هذه كلام ربما لا يعجب البعض من الأتراك أو من بقية الحضور، ولكن ديننا يعلمنا أن نشهد لله ونقول بالحق لا نخشىٰ لومة لائم.

أ- **القيادة رأس الثورة**: إن لحظة ظهور أردوغان حيًّا طليقًا هي لحظة إعلان أن الانقلاب لم ينجح (بعد)، فهي لحظة بداية المعركة، وكانت لحظة نجاح الانقلاب هي اللحظة التي سيظهر فيها أسيرًا أو قتيلًا، كما أن لحظة الإجهاز التام علىٰ الإنقلاب هي لحظة إظهارهم قادة الانقلاب مقيدين يُساقون إلىٰ الاعتقال! لحظة ظهور أردوغان حرا طليقا هي اللحظة التي تبعتها كل المواقف السياسية أو الميدانية، ورغم أن بن علي يلدرم ظهر قبله في اتصال هاتفي إلا أن ظهوره لم يكن ذا قيمة مؤثرة، فالحق أن الشعوب تسمع للزعماء لا لمجرد من يتولون المناصب العليا. من بعد لحظة ظهور أردوغان ظهرت بيانات الآخرين بما فيهم المعارضة السياسية (هذه المعارضة ظلت طوال سنين وحتىٰ أشهر ماضية تلمح للجيش بالتدخل!)، وهي تلك اللحظة التي ألقت الخوف في قلوب بعض الانقلابيين فتراجعوا فازداد الأمر ارتباكا وتدهورا.

ب- **قرار المواجهة**: لو ظهر أردوغان لمجرد أن يشرح أو يقترح حلا أو يدعو لوساطة أو يعلن موافقته علىٰ اقتراح لما حصَّل شيئًا شعبيًّا كبيرًا، لكن ظهوره كان قصيرًا وواضحًا وحازمًا: الدبابات التي في الشوارع لا تتبع الشعب، يجب تحرير المطارات، هذه محاولة انقلابية وكل المشاركين فيها سيدفعون الثمن، علىٰ الشعب النزول إلىٰ الشوارع والميادين وتحرير مطار أتاتورك.. هذه العبارات القصيرة (والتي لم تخل من عبارات عاطفية كالحديث عن محاولة قتله وقصف مكانه) هي التي نقلت الشعب من موقع المشاهد المشلول الذي لا يدري ماذا يحدث إلىٰ موقع الفاعل المتحرك المبادر المهاجم. قبل هذا التوضيح لزم الناس بيوتهم يترقبون ويتخوفون، ولا يدرون هل هذه الدبابات التي في الشارع انقلاب أم هي تابعة للرئاسة لإجهاض الانقلاب، وإن كانت هذا أو ذاك فماذا يكون دورهم الآن. قرار المواجهة هذا حرك الناس والطاقات جميعا، رسائل تصل من وازرة الاتصال إلىٰ هواتف المواطنين تدعوهم

للنزول، وزارة الأوقاف عممت علىٰ المؤذنين والأئمة فتح المساجد وإعلان التكبيرات، بلديات حركت سيارات المطافئ والنظافة تحركت لتحاصر ثكنات عسكرية أو لتقطع طرق إمدادات عسكرية أو لتقتحم مدارج طائرات في قواعد جوية [وكل هذا صنع شللًا في حركة الانقلابيين] وأناس يحاصرون الدبابات أو يغلقون الطرق بسياراتهم وأنفسهم أمامها أو أمام أي حركة من قاعدة عسكرية. هذا كله وغيره ما كان ليحدث لولا أن الناس وصل إليهم قرار المواجهة، فصار كلهم يبدع بما استطاع!

جـ- درس القوة التي تحمي الحق: لم يكن ممكنا حماية أردوغان ولا إنقاذه (وإنقاذ البلاد كلها من ورائه) لولا أولئك الذين اصطنعهم وكسب ولاءهم من المسلحين، مهما كان عدد الشعب في الشوارع والميادين فإنهم لا يصمدون أمام الرصاص والقذائف المنهمرة عليهم من المدرعات والدبابات والطائرات، هؤلاء القوات الخاصة منهم من كان في مقراته يصد هجوم الانقلابيين ومنهم من خرجوا إلىٰ الشوارع يواجهون جنود الجيش بالرصاص والتسليح الخفيف، ومنهم سيارات كانت تمشي في الشوارع تدعو الناس إلىٰ النزول وتعدهم بإمدادهم بالأسلحة. عند لحظة المواجهة المسلحة يكون المشهد قد اعتدل واتزن، صارت القوة أمام قوة، فكيف بقوة تحرص علىٰ المواجهة يقودها زعيم ما زال يسير الأمور ويتكرر ظهوره مقابل قوة قد ساد الارتباك صفوفها ووجدت نفسها أمام وضع لم تكن تتوقعه ميدانيا وسياسيا؟! وقد صدر فيما بعد تصريح يقول بالتفكير في صدور قانون بتسليح الشعب لمواجهة مثل هذه الأوضاع فيما بعد، ولو صدر هذا القرار فسيكون تاريخ استقلال تركيا الحقيقي. فالشعوب المسلحة هي التي لا يحكمها استبداد ولا يقهرها احتلال.

د- درس الحسم: إن الانقلابات هي الوجه الآخر للثورات، وحديث

الانقلابات والثورات هو في الحقيقة حديث الحرب نفسه، حيث لا يكسب طرف إلا بمقدار ما يخسر الآخر، وأي تهاون مع العدو قد يساوي انقلاب نتيجة الحرب كلها. وهذا ما فعلته سائر الانقلابات في الثورات الناجحة عبر التاريخ، وهو ما فعله بنا السيسي كذلك. لقد كانت الأوامر باعتقال أردوغان أو قتله في الحال، فتم قصف مقره ثلاث مرات واقتحمته قوة مكونة من ٤٠ جنديًا، وإطلاق النار عند أي محاولة مقاومة من الشرطة، وقُصِف مبنىٰ المخابرات ومقر القوات الخاصة، وكسرت الطائرات الحربية حاجز الصوت، ومات في الليلة الأولىٰ مئاتٌ إما بالرصاص أو بدهس الدبابات والمدرعات.. وكان لدىٰ الكل أوامر بإطلاق النار. ولأن الجميع يعرف أنها ضربة واحدة: حياة أو موت، فلقد كان فشل جزء بسيط من الخطة (اغتيال أردوغان) يساوي أن يفكر بعض من لم ينكشفوا بعد في التراجع وإعادة التموضع، وهو ما أدىٰ إلىٰ مزيد من تدهور الخطة وفشلها.

حفظ الله تركيا وشعبها، وجعل انتصارها هذا فاتحة انتصارات الأمة الإسلامية في المرحلة المقبلة، ونسأله تعالىٰ أن يحفظ شعوبنا وبلادنا وأن يخلصها من الاحتلال والاستبداد، وأن ينعم علينا باليوم الذي نكون فيه جميعا أمة واحدة في دولة واحدة لها قوة هائلة واحدة هي القوة العظمىٰ التي تنشر العدل والحق في هذا العالم الزاخر بالمظالم والجرائم.

الباب الرابع

قصة حزب العدالة والتنمية

مسيرة الإسلام في تركيا العلمانية

تركيا العلمانية

ليس من شيء يؤثر في تاريخ البشر كالحروب، فبالحروب وحدها تتغير المصائر وتتبدل موازين القوىٰ وتولد ممالك وتنهار أخرىٰ، وتاريخ كل أمة ينقسم إلىٰ فصول لا بد أن تكون مقدمته وخاتمته حروبا؛ فتلك حروب التأسيس أو التحرير، وتلك حروب الزوال والانهيار.

جرت هذه السُّنَّة علىٰ السلطنة العثمانية، كانت هزائمها المتتالية أمام الجيوش الأوروبية تزلزل القلوب وتحرك العقول بحثًا عن السر والسبب، وكانت الإجابة الحاضرة هي: فلنتعلم من الغالب (أوروبا)، فتخلصت السلطنة من جيشها القديم، وذراعه الضارب: الانكشارية، واتجهت نحو بناء جيش حديث كتلك الجيوش التي توقع بها الهزائم، ففتحت المدارس الحربية واستجلبت المدربين والخبراء الأوروبيين، فكان من ثمرات هذا أن نشأ جيل من العسكريين ذا تأثر وهوىٰ فكري غربي، أنبت فيما بعد الحركات العسكرية السرية التي انقلبت علىٰ السلطنة العثمانية وأسست الجمهورية التركية الحديثة

علىٰ النمط الغربي(١). ومن أهم طبائع هذا النمط الغربي هو القومية التي تتطابق فيها الحدود السياسية مع الحدود العرقية الدينية، وهذا وإن كان يصلح لإنهاء الحروب الأوروبية الطويلة إلا أنه كان مفجرا للأزمات في البيئة الإسلامية التي تعايش فيها عدد غير منحصر من الأعراق واللغات والأديان والملل في ظل النظام الإسلامي المختلف كلية والمناقض أساسا للنظام الغربي(٢). لقد اعتنق أتاتورك فكرة لا وجود لها وهي فكرة «الأمة التركية» التي لم تكن هوية ولا مطلبا شعبيا إلا أنه أصرَّ علىٰ خلقها وإيجادها(٣)، وعلىٰ هذا فلم يكن مناص من قهر البشر الكائنين داخل حدود «تركيا الحديثة» الجغرافية علىٰ قومية واحدة صارمة، حتىٰ وإن لم يتفق هذا بأي وجه مع الحدود الدينية واللغوية والمذهبية الطبيعية كأنها عملية «خلق السلالات القومية»، فعُرِّف المواطن التركي بأنه (LAHSÜMÜT) وهي الحروف الأولىٰ من: (علماني، حنفي، سني، مسلم، تركي)، فإن لم يكن الذي في هذه الحدود ضمن تلك القومية أو غير خاضع لها فهو عدوٌّ أو علىٰ الأقل: عدو محتمل(٤).

أسفر كل هذا عن آثار بعيدة، داخلية وخارجية؛ ففي الداخل سُحِقت كل حركة معارضة -لا سيما إن صدرت عمن لا يشملهم التعريف التركي كالأكراد أو العلويين- بعنف بالغ وصل حد المذابح والتهجير والإبادة، وفي الخارج

---

(١) كِرِم أوكْتِم: تركيا.. الأمة الغاضبة، ترجمة: مصطفىٰ مجدي الجمال (القاهرة، سطور، ٢٠١٢م) ص٦٤، ٦٦؛ Şherif Mardin: Religion and Secularism in turkey, in Albert Hourani [et al.] «The Modern Middle East» (Berkly and Los Angeles, University of California Press,1993), p. 351, 359-63,367-8.

(٢) في تفصيل هذا انظر: أحمد داود أوغلو: الفلسفة السياسية، ترجمة: د. إبراهيم البيومي غانم، (القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م)، ص٤٣ وما بعدها.

(3) Şherif Mardin: Religion and Secularism, p363.

(٤) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة (ص٤٩، ٧٠، ٧٢، ٧٩ وما بعدها).

نفضت تركيا يدها من كل ما للدولة العثمانية من ميراث وعلاقات مع بلاد البلقان أو البلاد العربية[(١)]، وبإلغاء الخلافة قُطِعت آخر رابطة سياسية بين الأتراك وسائر المسلمين.

كانت العقود السياسية الثلاثة الأولىٰ للجمهورية «ديكتاتورية في كل شيء فيما عدا الاسم»[(٢)]، فعند لحظة إعلان الجمهورية كان أتاتورك رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس حزب الشعب الجمهوري والقائد العام للجيش، لقد قامت «الكمالية علىٰ سياسات التحديث الملغومة التي لا تعرف الهوادة»[(٣)] ولا تفكر في تفاوض أو مشورة مع الشعب[(٤)]، والتي فاقت سطوة بطرس الأكبر بل كانت النموذج الأقسىٰ لمقولات ماركس وفيبر عن هدم وإزالة القديم[(٥)]؛ فلقد وضعت القوانين لتكون «أداة خلق مجتمع جديد»[(٦)]، فأغلقت المدارس الدينية وحل محلها تعليم رسمي علماني موحد (١٩٢٤)، ثم أغلقت تكايا وإخوانيات الصوفية ومُنِع ارتداء الطربوش (١٩٢٥)، وتغيرت العطلة الأسبوعية من الجمعة إلىٰ الأحد، وأُدْخِل التوقيت الأوروبي بدلا من التوقيت التركي المبني علىٰ الصلوات والتقويم الميلادي بدلا من الهجري، وفي أقوىٰ ضربة ثقافية حضارية حُظِر استخدام الحروف العربية واستبدل بها

---

(١) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٨٢، ٧٢.

(٢) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٧٢.

(٣) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٤٨، Ira M. Lapidus: A History of Islamic Societies (Cambridge: Cambridge University Press, 2014), p. 501-2.

(4) Angel Rabasa, F. Stephen Larabee: The rise of political Islam in Turkey (Santa Monica, RAND, 2008), p. 32.

(٥) إيان بوروما ومرجليت أفيشاي: الاستغراب.. موجز تاريخ النزعة المعادية للغرب، ترجمة: ثائر ديب (السعودية، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٨م)، ص١٢٤؛ Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 33.

(٦) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٧٥.

الحروف اللاتينية (١٩٢٨) مما أنشأ جيلا منقطع الصلة بماضيه وتراثه كله، واستبدلت القوانين العثمانية بالقانون الإيطالي، وأُلْغِيَ تعدد الزوجات والطلاق، وقُرِّر رُفع الأذان بالتركية بدلا من العربية في سابقة تاريخية (١٩٣٢م)[١]. لم تكن العلمانية التركية تعني فصل الدين عن الدولة بل إنتاج الدولة لدين يخدمها[٢].

وسعىٰ أتاتورك لكتابة تاريخ جديد لتركيا وعُهِد بالأمر لابنته بالتبني عفت عنان والتي كانت تلميذة في جنيف للمؤرخ الأنثروبولوجي يوجين بيتارد صاحب نظرية أن التاريخ هو صراع الأجناس العليا مع الأجناس الدنيا، فصدر عنها تاريخ عنصري يرىٰ الترك جنسا أعلىٰ موجود منذ قديم الزمان في منطقة الأناضول وله لغة عليا قديمة أخذت منها سائر اللغات، وصارت المهمة تنقية اللغة مما دخلها من العربية والفارسية[٣].

والنتيجة النهائية من بعد ما كانت تركيا أرض الخلافة الإسلامية التي تحرك الجيوش شرقا وغربا دفاعا عن الدين صارت «دولة قومية علمانية يتصادف فيها أن يكون الإسلام دين الأغلبية»[٤]، وهي الوحيدة التي يحفظ

(1) Lapidus: A History of Islamic Societies, p. 502-3; Binnaz Toprak: The Religious Right, in Albert Hourani [et al.] «The Modern Middle East», p. 630-1.

(2) Lapidus: A History of Islamic Societies, p. 509; Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 33; Binnaz Toprak: The Religious Right, p. 627, 633.

(٣) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٧٦ وما بعدها؛ Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 33, Şherif Mardin: Religion and Secularism, p. 366.

(4) Carl W. Ernest: Following Muhammad, Rethinking Islam in the Contemporary World (Chapel hill & London, The University of North Carolina Press, 2003), p. 136.

دستورها العلمانية ويستبعد الإسلام من أي دور[1]، وانقسمت تركيا إلىٰ «نخبة مدنية متغربة وجماهير قروية ريفية متمسكة بالإسلام»[2]، وبينما يلوح في خيال هذه الجماهير ثورة إسلامية، فإن تلك الثورة بالنسبة للنخبة «كقيام الساعة»[3]. علىٰ أن كل ما حدث لم يؤد إلىٰ إصلاح حقيقي، بل خلق «طبقة من الحداثة والأعراف والمعمار الأوروبي، والتي عملت علىٰ طمس ما تحتها من فقر وتخلف والكثير من التوترات العرقية والدينية»[4].

مات أتاتورك (١٠ نوفمبر ١٩٣٨م) وخلفه رفيقه عصمت إينونو الذي سار علىٰ دربه، إلا أنه اضطر -ضمن ما اضطر إليه من تغييرات في طبيعة النظام وخطابه- إلىٰ فتح باب التعددية الحزبية (١٩٤٦م) كجزء من انحياز تركيا إلىٰ المعسكر الغربي في عالم انقسم حينئذ بين غرب ليبرالي وشرق شيوعي[5]، فدخلت تركيا ضمن خطة مارشال لإعادة بناء أوروبا بعد الحرب (١٩٤٨م) وانضمت للمجلس الأوروبي (١٩٤٩م) وحلف الناتو (١٩٥٢م) وحلف بغداد (١٩٥٦م) الذي قُصِد به محاصرة الاتحاد السوفيتي جنوبا، واتفاقية الشراكة (١٩٦٣م) التي تمهد لدخول السوق الأوروبية[6].

أُجْرِيَتْ في عام (١٩٤٦م) أول انتخابات تركية، ثم أجربت انتخابات

---

(1) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism Between the Interests of State, Politics, and Society, (Frankfurt, PRIF, Report No. 78, 2007), p.1.

(2) Lapidus: A History of Islamic Societies, p. 535

(3) Binnaz Toprak: The Religious Right, p. 625.

(٤) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٧٩، Lapidus: A History of Islamic Societies, p. 503.

(5) Lapidus: A History of Islamic Societies, p. 505; Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 33.

(٦) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٨٥، ٨٦، ٩١.

(١٩٥٠م) وكانت أول انتخابات نزيهة، وفاز فيها حزب العدالة المحافظ بزعامة عدنان مندريس، وهو برلماني سابق بحزب الشعب الجمهوري، لكنه استطاع أن يدخل إلىٰ الأتراك من بابيْن: رفع سلطة الدولة عن الاقتصاد وكان هذا يناسب الطبقة الصناعية التي بدأت في البروز والتشكل، ورفع سلطتها عن الدين وتأييد المحافظة وإعادة رفع الآذان باللغة العربية، لم يكن التغيير كبيرا لكنه كان بداية توجه جديد، فأثيرت اضطرابات تزعمها اليسار وأججتها الدولة العميقة ثم ختمتها بانقلاب عسكري (٢٧ مايو ١٩٦٠م) أَعْدَمَ أَوَّلَ رئيس وزراء منتخب في تاريخ البلاد (١٦ سبتمبر ١٩٦١م)[١]!

بدأ عقد جديد شُرْعِنَت فيه هيمنة الجيش علىٰ النظام السياسي[٢]، عقد ظهر فيه سليمان ديميريل وريثا ونسخة مخففة لمندريس، فاز في انتخابات (١٩٦٥م) في وقت علا فيه المدَّ اليساري أنحاء العالم الذي ألهمته أسطورة فيتنام، فصار لليسار صوت عالٍ في الشارع وفي البرلمان كذلك، ووُلِد حينئذ حزب العمال -أول حزب يساري- ونشط الطلاب اليساريون في الجامعات واصطدموا بالإسلاميين ومؤيدي حكومة ديميريل وبدأت فترة من الاضطرابات الواسعة، وفي ذروة الاضطرابات أجريت انتخابات (أكتوبر ١٩٦٩) وفاز بها حزب العدالة للمرة الثانية، إلا أن هذا لم يوقف اليساريين من إشعال الشارع حتىٰ لقد قاموا باختطاف أربعة أمريكيين فكانت تلك هي القشة التي يحتاجها وينتظرها بل ويسعىٰ إليها العسكر لينفذوا انقلاب (مارس ١٩٧١م)، وقد رحب اليسار بهذا الانقلاب كعادتهم، ثم كانوا من ضحاياه كعادتهم أيضًا، وساعتها

---

(١) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٨٨، ٩١؛ Lapidus: A History of Islamic Societies, p. 505-6; Binnaz Toprak: The Religious Right, p. 633.

(2) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p.35-6; Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 13.

أدركوا أن الدولة العميقة لا تأبه للمتعاونين معها ولا لمرة واحدة[١].

وافتتح الانقلاب العسكري عقدًا آخر، زاد عليه فوق شرعنة هيمنة العسكر دستورا يخصم مزيدا من الحقوق والحريات، ولم تفلح الحكومات المتعددة في وقف تدهور الأوضاع (١١ حكومة: أطولها عمرا ثلاث سنوات، وأقصرها عمرًا شهر واحد)، برز في هذا العقد ثلاثة رجال إلىٰ جانب ديميريل: بولنت أجاويد زعيم حزب الشعب الجمهوري، ونجم الدين أربكان زعيم حزب السلامة الإسلامي، وألب أرسلان توركيش زعيم حزب الحركة القومية، ومع تنافر الأطراف وعجز كل طرف منها منفردا أو متحالفا مع الآخر عن السيطرة علىٰ الأوضاع انتهىٰ عقد السبعينات هذا إلىٰ اضطرابات أخرىٰ جديدة ساهم فيها وأشرف علىٰ كثير من فصولها جهاز الدولة العميقة لكي يدفع المشهد إلىٰ اللحظة المنتظرة: انقلاب عسكري آخر (١٩٨٠م)[٢].

كان انقلاب (١٩٨٠م) الأكثر دموية، إذ حبس وعذب أكثر من نصف مليون مواطن، ووضع نحو ٢ مليون تحت الاشتباه، وحكم بالإعدام علىٰ أكثر من خمسمائة نَفَّذ منها خمسين، ومنع نحو أربعمائة ألف من السفر، وطرد من البلاد ثلاثين ألف ناشط سياسي، وأسقط الجنسية عن ١٤ ألف تركي، وحظر النقابات، وكاد يقضىٰ تمامًا علىٰ الروابط والجمعيات[٣]، ومع ذلك فلأول مرة يبدو خطاب العسكر الأتاتوركي نحو الإسلام جديدًا ومتسامحًا ومعظمًا له، واعتبر هذا من ضرورات الحرب الباردة لمواجهة الشيوعية ومن ضرورات

---

(١) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٨٩، ٩١، ٩٤، ٩٦، ٩٧.

(٢) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٩٩ وما بعدها؛ Lapidus: A History of Islamic Societies, p. 506-7; Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 16.

(٣) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٤٣؛ Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 17.

احتواء المدّ الإسلامي بأسلمة «تقودها الدولة من فوق»[١] وتعيد تكييف الإسلام لصالح الدولة[٢].

قبض العسكر بأنفسهم علىٰ زمام الحكم لثلاث سنوات عجاف وضعوا فيها دستورًا استبداديًا منزوع الحريات حتىٰ جاءت انتخابات (ديسمبر ١٩٨٣م) بزعيم جديد هو تورجت أوزال فوق رأس حزب جديد هو «الوطن الأم» الديمقراطي المحافظ[٣]، وقد تُرِك هذا الحزبُ ليدخل الانتخابات كزخرف ديمقراطي مع حزبين تابعيْن علىٰ الحقيقة للعسكر فكانت المفاجأة أنه الذي فاز[٤]، وكان أوزال عضوًا في طريقة اسكندر باشا النقشبندية الصوفية[٥]، ويوصف بأنه «أول رئيس تركي يخفي إيمانه ويختلس الصلاة في القصر الجمهوري بعيدا عن العسكر»[٦]، كما حرص علىٰ صيام رمضان وحج البيت[٧]. ولقد توفرت ظروف عديدة صنعت مزيجا غريبا في السياسة التركية: إذ جاء الانقلاب بنمط اقتصادي ليبرالي صريح وفي مناخ دولي يحارب الشيوعية ولا يرىٰ بأسا في دعم وجود أوسع للإسلام في المجال العام لكن بغير

---

(1) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 17-9.

(2) William Hale, Ergun Özbudun: Islamism, Democracy, and Liberalism in Turkey, the case of AKP, (London and New York, Routledge,2010), p. xx.

(٣) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٠٨ وما بعدها، Lapidus: A History of Islamic Societies, p. 507.

(4) Heinz Kramer: A Changing Turkey, The Challenge to Europe and the United States, (Washington D. C., Brooking Institution Press, 2000), p. 25; Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 19.

(5) M. Hakan Yavuz, John L. Esposito: Turkish Islam and the Secular State: The Gülen Movement, (New York, Syracuse university press, 2003) p. xxvi; Heinz Kramer: A Changing Turkey, p. 64.

(٦) برنامج تحت المجهر: «العثمانيون الجدد»، قناة الجزيرة، بتاريخ ٢٦ يوليو ٢٠٠٧.

(7) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 20.

تأثير في السياسية (ولذلك وضع دستور ١٩٨٢ عتبة الـ ١٠٪ لدخول البرلمان منعا للأحزاب الكردية والإسلامية[١])، وأنشئت العديد من المساجد ومدارس الأئمة والخطباء في ذات الوقت الذي أنشئت فيه تماثيل أتاتورك بغزارة مع سياسات ورؤىٰ وخطاب قومي تركي عسكري عنصري[٢]، وقد استطاع أوزال -وهو كردي!- أن يكون كل هذا معًا وأن يكون -برغم كل شيء- ممثل الشعب الذي تلتقي عليه أطياف المحافظين والإسلاميين والقوميين أمام سطوة «الدولة العميقة» مثلما كان مندريس، لا سيما وقد استمر قائد الانقلاب كنعان إيفرين رئيسا للجمهورية[٣].

لقد وُضِعَتْ بذور الكثير من توجهات تركيا الحالية في هذا العهد الذي هو مزيج من انقلاب (١٩٨٠م) وسياسات أوزال[٤]: الليبرالية الاقتصادية التي ستؤدي إلىٰ نمو طبقات اجتماعية جديدة ذات ثقافة جديدة ستذهب لاحقًا إلىٰ تحدي الدولة[٥]، وتجديد بعث الصنمية الكمالية والقومية التركية القاهرة لما سواها[٦]، وتحسين العلاقات مع إسرائيل[٧]، وتوسيع الحريات وتعزيز عمل

---

(1) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 38.

(٢) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١١٢ وما بعدها؛ Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 37-8; Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 3.

(٣) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٢٠، ١٢٤؛ Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 39-40.

(4) Ömer Taspinar: Turkey’s Middle East Policies Between Neo-Ottomanism and Kemalism (Massachusetts Avenue, Carnegie Endowment for International Peace, Septemper 2008), p. 11.

(٥) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٤٣، ٤٤، ١٢١ وما بعدها؛ Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 20-1.

(٦) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١١٤ وما بعدها.

(٧) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٣٦.

الجمعيات وإنهاء احتكار الدولة للفضاء العام(١)، واستيعاب النمو الإسلامي(٢) بل والتعبير عن تركيا خارجيًّا بأنها إسلامية وأوروبية معًا(٣) وإحياء علاقاتها القديمة ذات الجذور العثمانية مع مسلمي البلقان ووسط آسيا(٤). وكلما تقدم الزمن كلما قويت مكانة أوزال علىٰ حساب العسكر، حتىٰ انتخب رئيسا للجمهورية (١٩٨٩م) وتسلم السلطة من قائد الانقلاب كنعان إيفرين.

عند مطلع التسعينات اختفىٰ ما تعودت عليه تركيا من انقلابات عسكرية، لقد كان العالم كله يحيا انقلابًا كاملًا بسقوط الاتحاد السوفيتي الذي ألقىٰ بظلاله علىٰ الوضع التركي؛ فمن ناحية أتاح لها التمدد إلىٰ جمهوريات وسط آسيا وإلىٰ بلاد البلقان، وقد كانت تحت النفوذ السوفيتي، ومن ناحية أخرىٰ كشفت لها عن نوايا أوروبا التي عاملتها بإهمال ولا مبالاة ورفضت انضمام تركيا إلىٰ الاتحاد الأوروبي مما جعل تحول تركيا إلىٰ الشرق أمرًا محتمًا(٥)، كما أن حرب الخليج (١٩٩٠م) والحملة الأمريكية علىٰ العراق -والتي أيدها أوزال، بالمخالفة لرغبة الجنرالات- نزعت فيما يبدو أنياب العسكر وشلَّت قدرتهم علىٰ التفكير في انقلاب جديد بل لقد أجبر رئيس الأركان علىٰ الاستقالة

---

(1) Yavuz, Esposito: Turkish Islam and the Secular State, p. xxv

(٢) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١١٣، ١١٤؛ Yavuz, Esposito: Turkish Islam and the Secular State, p. 1; Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 38-9.

(٣) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٣٢؛ Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 22.

(٤) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٣٣، ١٣٤؛ Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 75.

(٥) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٤٤، ٤٥؛ Lapidus: A History of Islamic Societies, p. 509-10; Samuel P. Huntington: The Clash of Civilizations, (New York, simon & Schuster ,2003) p. 145-7.

بعد مواجهة علنية مع أوزال[١].

خسر حزب الوطن الأم في انتخابات (١٩٩١م) ومات أوزال فجأة (١٩٩٣م) فيما يحسب البعض أنه اغتيال[٢]، فدخلت تركيا عقدا جديدا من الائتلافات الحكومية الضعيفة للأحزاب التي لم يستطع أي منها تشكيل حكومة مستقرة بمفرده، مما أنعش من جديد قوة «الدولة العميقة» التي تنمو في هذا المناخ، كان أبطال المشهد السياسي حينئذ: حزب الطريق القويم بزعامة سليمان ديميريل ثم تانسو تشيلار، وحزب اليسار الديمقراطي بزعامة بولنت أجاويد، وحزب الوطن الأم بقيادة مسعود يلماظ، ثم دخل إلىٰ الساحة حزب الرفاه الإسلامي بقيادة نجم الدين أربكان، وحزب الحركة القومية بقيادة ألب أرسلان توركيش. شركاء متشاكسون لا تكاد تجمعهم رؤية أو سياسة، وفي خلفية المشهد عسكر يملأ الأفق بحربه علىٰ «الإرهاب الكردي» ويجرّ الجميع إلىٰ طريقه وطريقته فيها حيث تتناثر علىٰ ضفاف الطريق عمليات القتل والاغتيالات المجهولة[٣]، وتضعضع ما أرساه أوزال من انفتاح ومساحة نفوذ، إلا ما يخص الليبرالية فقد زادت، وما يخص إسرائيل التي قويت العلاقة بها خصوصا في مجالات التسليح والأمن والتجارة وإلىٰ حد ما الثقافة والتعليم[٤].

ومن بين جميع الحكومات الضعيفة لم يجد العسكر حكومة ينقلبون عليها سوىٰ حكومة نجم الدين أربكان الائتلافية التي لم تقض سوىٰ ثمانية أشهر، فجاء انقلاب (فبراير ١٩٩٧م) الناعم الذي يحلو للمحللين أن يسمونه «انقلاب ما بعد حداثي» ظنًا منهم أن عصر الانقلابات الصريحة قد انتهىٰ! وخيمت علىٰ السياسة التركية أجواء حرب العلمانية العسكرية علىٰ الإسلاميين بدءًا من

(١) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٣٦، ١٣٧.
(٢) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٤٥.
(٣) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٤٣ وما بعدها.
(٤) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٥٣ وما بعدها.

مؤسساتهم المالية والإعلامية وحتىٰ حجاب النساء، واضطر أربكان إلىٰ الاستقالة (يونيو ١٩٩٧م) ولم يزد عمر حكومته عن سنة واحدة[١].

في السنوات الأربع التالية وصلت السياسة التركية إلىٰ مرحلة إفلاس شاملة، وأزمات طاحنة، وانهار الاقتصاد وتسارع التضخم واتسع حجم الفساد، وبدا فشل الحكومة ساطعًا مع الزلزال الهائل الذي ضرب مرمرة (أغسطس ١٩٩٩م) فقُتِل فيه ١٨ ألفًا (وقيل ٤٠ ألفًا) مع دمار هائل، وعجزت الحكومة عن التعامل مع الأزمة[٢]. كان كل هذا بمثابة التمهيد للتغير الكبير الذي ستشهده تركيا بقدوم حزب العدالة والتنمية.

يمكن إجمال الصورة العامة لتركيا العلمانية علىٰ هذا النحو:

طوال تاريخ تركيا الحديث، حتىٰ من بعد التحول نحو الديمقراطية والتعددية الحزبية (١٩٤٦م)، لم تكن الحكومة المنتخبة هي الحاكم علىٰ الحقيقة، بل إنها تقع تحت هيمنة أطراف غير منتخبة مثل الجيش والبيروقراطية والقضاء[٣]. ويمكن في مرحلة لاحقة أن نضيف إليهم «الإعلام»؛ إذ هو - خصوصا في المجتمعات الرأسمالية- بوق لمالكيه من ذوي الأموال وهم غير منتخبين، وهم به قادرون علىٰ التأثير وتوجيه الشعوب والضغط علىٰ الساسة[٤].

---

(١) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٧٠ وما بعدها؛ Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 27.

(٢) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٧٦ وما بعدها؛ Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 29.

(٣) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٤٨، ٨٧، Lapidus: A History of Islamic Societies, p. 505.

(٤) وقد بلغ تأثير الإعلام في المسار التركي حدًّ أن أيدين دوغان، وهو رئيس أقوىٰ مجموعة إعلامية تركية، جلس إلىٰ أردوغان في أول أمر الحزب وصرح له بأنه هزم ثلاثة رؤساء وزارة: تورجت أوزال وسليمان ديميريل وتانسو تشيلار، كلهم بدؤوا ضده لكنهم انتهوا إلىٰ الاستسلام له. انظر: حسين بسلي، عمر أوزباي: رجب طيب أردوغان.. قصة زعيم، ترجمة وتقديم: =

وإذن، فلئن كانت لحظة تأسيس الجمهورية تمثل ولادة الدولة التركية العلمانية فإن لحظة التحول إلىٰ التعددية هي لحظة إنشاء قشرة مدنية ديمقراطية شكلية تخفي تحتها ما اصطلح علىٰ تسميته فيما بعد: الدولة العميقة، الدولة الحارسة، الدولة الموازية .. إلخ. تلك التي تتكون من تحالف يضم حزب الشعب الجمهوري «والقيادة العليا للجيش والقضاء الأعلىٰ والبيروقراطية، والذين استمروا في النظر لأنفسهم باعتبارهم الملاك المستحقين للدولة»[١]، فكانت لهم هيئات سرية وعلنية لتنفيذ الأعمال القذرة، إذ كل شيء كان مسموحا به بمبرر «إنقاذ الدولة»، ولو كان قتل الآلاف وتأجيج الصراع بين المكونات المختلفة في تركيا لتوفير المبرر للانقلابات العسكرية[٢]، ولم تجد هذه الانقلابات أي معارضة حقيقية من الغرب الليبرالي الذي ضغط لإنشاء تعددية من قبل بل كان هذا هو النظام المفضَّل لديهم[٣]، في مشهد متكرر للنفاق وخيانة الشعارات.

وقد ظل التوجه نحو الغرب سياسة مستقرة لتركيا الحديثة في عهد جميع حكوماتها، وحتىٰ محاولات أوزال وأربكان لم تكن جذرية ولا ثورية، وهذا طبيعي ومُتَفَهَّم، إذ لم يكن بالإمكان غير هذا، ومثلما يُقال بأنها محاولات إسلامية أرادت النفاذ إلىٰ النظام العلماني المغلق من خلال منظومة الحريات الغربية، يقال أيضًا بأن المنظومة الغربية احتوت واستوعبت الإسلاميين الأتراك وأنشأتهم خلقًا جديدًا.

= د. طارق عبد الجليل، (بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١١م). ص٣٨٥، ٣٨٦.

(١) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٤٩، ٨٧.

(٢) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٥٠، ٥١، ٩٢.

(٣) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٨٧؛ Lapidus: A History of Islamic Societies, p. 505.

المحاولات الإسلامية

لئن وقع اختلاف في تأثير النظام العلماني علىٰ الإسلاميين وما إذا كان قد هَزَمَ الإسلاميين أو كانوا هم من تعلموا وتطوروا بالتجارب، فإن الثابت أن صورة الإسلاميين ونهجهم عند بداية تركيا العلمانية كانت علىٰ خلاف الصورة التي تكونت عند نهاية القرن العشرين.

لقد ظل الإسلام -بالرغم من كل قهر الدولة ومطارداتها- الهوية العميقة للأتراك، وقد جاهد الأتراك للدفاع عن هويتهم بقدر ما استطاعوا، فبالجهاد حينا، وبالسياسة أحيانا، وبالدعوة والتعليم في كل حين.

شهدت البداية مواجهات مسلحة ضد الجمهورية العلمانية عبر سلسلة ثورات لأتباع الطريقة النقشبندية خلال العشرينات والثلاثينيات وُوجهت جميعها بعنف لا رحمة فيه[١]، وكان أبرزها حركة الشيخ سعيد بيران الكردي (فبراير ١٩٢٥م) في شرق تركيا بجيش «قوامه ١٥ ألف مقاتل واستولىٰ علىٰ جزء كبير من ديار بكر والمحافظات المتاخمة لها... واستطاع الجيش احتواءها في مارس من ذات العام بالاستعانة بقصف جوي مكثف. وشُنِق الشيخ سعيد وأتباعه، وتم ترحيل الكثير من القبائل التي اشتركت في التمرد إلىٰ غرب الأناضول»[٢]، وبرزت في هذا السياق مقاومة لأتباع الطريقة التيجانية إذ كانوا يحطمون أو يلطخون تماثيل أتاتورك ويتحدون منع الأذان بالعربية وكانوا من الجرأة بحيث تظاهروا أمام المجلس الوطني[٣]!

---

(1) Binnaz Toprak: The Religious Right, p. 627, 632-3.

(٢) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٨١، ٨٢.

(3) Binnaz Toprak: The Religious Right, p. 637.

وظهر كثير من المقاومة الدعوية العلمية التي تقتصر علىٰ الوعظ ونشر الدعوة وتربية الأتباع والأبناء، وبرزت فيها أسماء علماء كبار منهم: الشيخ عاطف الإسكليبي الذي أُعْدِم بسبب كتاب ينكر ارتداء القبعة تشبها بالغرب وقد صدر قبل قوانين الزي الأتاتوركية، والشيخ سليمان حلمي الذي تصدىٰ سرًّا لتعليم اللغة والحرف العربي بعد قانون كتابة التركية بالحرف اللاتيني[١]، وأشهر هؤلاء قاطبة كان الشيخ سعيد النورسي صاحب الرسائل الذائعة «رسائل النور» والذي تحول أتباعه إلىٰ تيار كبير معروف[٢].

وما إن أتيحت الفرصة أمام تشكيل أحزاب سياسية حتىٰ ظهرت أحزاب إسلامية إلىٰ الساحة، كحزب حماية الإسلام الذي أسسه نجمي كوناش ومصطفىٰ أوزباك (١٩ يوليو ١٩٤٦م) غير أنه أغلق بعد ٢٣ يوم بذريعة مخالفة الدستور، وحزب المحافظين وأسسه الجنرال رفعت أيتل خان ولقي نفس المصير، وحزب الأمة الذي أسسه المارشال فوزي جقمق (٢٥ يوليو ١٩٤٨م) ولم يكن بأفضل من سابقيه، مما جعل اضطر الإسلاميين للدخول إلىٰ السياسة عبر الأحزاب العلمانية وخصوصا اليمينية التي لا تعادي الدين[٣].

وبالعموم فقد ارتخت قبضة الكمالية منذ الدخول في التعددية، وصارت مطاردة الإسلام في تركيا أقرب إلىٰ سلطة تطارد منافسيها السياسيين وتضطهدهم منها إلىٰ سلطة ذات مشروع عقدي علماني يطارد أعداءه الحضاريين، وإن ظلت العناوين والشعارات المرفوعة عقدية فكرية صارخة، وكان موقع تركيا في المعسكر الغربي يسمح بمساحة للإسلام كحائط صد ضد الشيوعية.

---

(١) د. هدىٰ درويش: الإسلاميون وتركيا العلمانية.. نموذج الإمام سليمان حلمي، (القاهرة، دار الآفاق العربية، ٢٠٠٨م) ص١٥٩ وما بعدها.

(2) Lapidus: A History of Islamic Societies, p. 508.

(٣) محمد زاهد جل: التجربة النهضوية التركية.. كيف قاد حزب العدالة والتنمية تركيا إلىٰ التقدم (بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، ٢٠١٣م)، ص٥٢، ٥٣.

لقد شهد عهد مندريس ما يشبه انقلابًا في صيغة الدولة العلمانية الكمالية إذ افْتُتِحَتْ في عهده مدارس الأئمة والخطباء وسُمح للأئمة بدروس تطوعية في المدارس وأقر رفع الآذان باللغة العربية وتخصيص دروس دينية في الإذاعة. وكان انقلاب (١٩٦٠م) محتاجا إلىٰ الوقوف ضد الشيوعية، فكان دستور (١٩٦١م) موصوفا بالليبرالية ويحفظ الحريات وحقوق التجمع مما أتاح فرصة واسعة أمام النمو الإسلامي(١) الذي صار يُغازَل من قِبَل الأحزاب التي باتت في حاجة إلىٰ دعم الجمهوري الذي يميل للإسلام أو كانت علىٰ الأقل حريصة علىٰ إثبات أنها لا تعادي الدين(٢)، وبهذا لم ينته ما أسس له مندريس من مساحة حريات ولم يُنقَض كل ما بناه، بل كان عهد سليمان ديميريل نسخة مخففة من عهد مندريس فيما يخص الساحة الإسلامية(٣).

لذلك ما إن انتهىٰ عقد الستينيات إلا وكان المزاج الإسلامي مهيمنًا علىٰ الساحة(٤)، فظهرت أحزاب إسلامية كحزب «الوحدة التركي» الذي أسسه الجنرال صدقي أولاي عميد الكلية الحربية (١٩٦٧م) وحزب «تحرير تركيا»(٥)، إلا أن هذه الأسماء انطفأت سريعًا، ولم يبق في الأفق سوىٰ اسم أول محاولة للزعيم الإسلامي القادم: نجم الدين أربكان، ذلك هو حزب النظام الوطني (يناير ١٩٧٠م)، وهو الحزب الذي صار يصارع النظام العلماني

---

(١) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٩٣؛ Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 35-6.

(2) Lapidus: A History of Islamic Societies, p. 509; Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 35-7; Binnaz Toprak: The Religious Right, p. 634.

(3) Hale, Özbudun: Islamism, Democracy, and Liberalism, p. xix,xx.

(4) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 13.

(٥) منال الصالح: نجم الدين أربكان ودوره في السياسة التركية ١٩٦٩ - ١٩٩٧ (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٢م) ص٤٨، ٤٩.

العسكري فيغلقونه فيعود باسم جديد، فكانت سلسلة أحزاب بدأت بـ «السلامة الوطني» ثم الرفاه ثم الفضيلة ثم السعادة.

ازدهر النمو الإسلامي في السبعينيات، وشهدا هذا العقد نموا كبيرا في الإقبال علىٰ كتب الحركة الإسلامية المترجمة من العالم العربي، وكانت كتب حسن البنا وسيد قطب والمودودي وغيرهم الأكثر رواجًا، وانتشرت المكتبات الإسلامية، وكثرت المجلات الإسلامية في تلك الفترة والتي كانت تتخذ من الأدب غطاءً لمضامينها الإسلامية(١)، ثم كان عهد أوزال فرصة ممتازة لنمو وتمدد الحركات الإسلامية بشتىٰ أطيافها، خصوصًا مع ازدهار قطاع الاقتصاد الذي كان ثمرة لما بدأ قبل ذلك من ظهور طبقة رجال أعمال في فئة من قدموا قديما إلىٰ العواصم جراء سياسات الدولة الأتاتوركية فسكنوا أطراف المدن الكبرىٰ أو كانوا قوة عاملة في مصانع الدولة، ثم صاروا فيما بعد ينافسون في القطاع المالي، وهم الذين سيُعرفون فيما بعد باسم «الموسياد» كما ستُعرف مناطقهم الصناعية باسم «نمور الأناضول»، فصار هؤلاء مددا للأحزاب الإسلامية كما صارت الأحزاب الإسلامية تدافع عنهم ضد حيتان المال والأعمال الأتراك أو الأجانب باعتبارهم طليعة الاقتصاد المحلي ضد الإغراق الأجنبي(٢).

ومثلما ظهرت أحزاب إسلامية تنافس النظام العلماني وتشتبك معه، ظهرت في أطياف هذا التيار الإسلامي جماعةٌ بدت أقرب إلىٰ الإسلام الذي تريده الدولة العلمانية، وهي جماعة فتح الله كولن التي هي طيف من التيار النورسي إلا أنها لم تكتف بالاستقامة الشخصية بل سعت لصناعة بيئة إسلامية

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٤١ وما بعدها؛ Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 22.

(2) Heinz Kramer: A Changing Turkey, p. 67-8; Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 20-1.

بالعمل الدعوي والتعليمي والاقتصادي وابتعدت عن العمل السياسي[١]، وقد فضلت هذه الجماعة ألا تواجه النظام بل أن تخادعه فسعت من جهة أخرىٰ إلىٰ اختراق مؤسسات الدولة وألزمت أفرادها الذين أهلتهم لهذا بالتخلي عن كل ما من شأنه أن يصمهم بالإسلامية فصار لها نفوذ كبير داخل جهاز الدولة، وهي في طريقها هذا تلقت دعما حكوميًا صريحًا أحيانًا كما تعرضت للمضايقات والضغوط أحيانًا أخرىٰ باعتبار مؤسساتها التعليمية والمالية رافدًا داعمًا ومساندًا للأحزاب الإسلامية، رغم أنها ملتزمة دائمًا بمعارضة هذه الأحزاب وكانت الحركة الإسلامية الوحيدة التي تعارض أربكان وتوالي الجيش والحكومة الرسمية ولم تعترض علىٰ انقلاب (١٩٩٧م)[٢]، ولهذا يُختلف في شأنها كثيرا وما إذا كان منهجها وسيلة ذكية اعتمدها الإسلاميون في تركيا أم أن النظام العلماني صنع بذكاء جماعة إسلامية وظيفية علىٰ صبغته ومثاله؟! وسيزداد هذا الاختلاف وتشتد إثارته حين تحقق هذه الجماعة أعلىٰ تأثير ونفوذ في نفس اللحظة التي ينجح فيها حزب العدالة والتنمية -تلاميذ أربكان- في أن يكون علىٰ رأس السلطة، إذ سيشن كل منهما علىٰ الآخر حربًا ضروسًا.

ومن عجائب المقادير أن تكون الجاليات التركية في أوروبا، وبالأخص ألمانيا، هي نقطة انطلاق للحركة الإسلامية التركية، ذلك أن قسما كبيرًا من قوة العمالة التركية هاجرت إلىٰ الغرب مع سوء الأحوال في تركيا واحتياج أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية إلىٰ العمالة، ثم مع وجود حرية في أوروبا لم يكن

---

(1) Yavuz: The Gülen Movement, in Yavuz, Esposito: «Turkish Islam and the Secular State», p. 19.

(2) Ihsan Yilmaz: Ijtihad and Tajdid by conduct, in: Yavuz, Esposito: «Turkish Islam and the Secular State», p. 226; Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 15-8.

يتوفر مثلها في تركيا، فكانت النتيجة أن أدىٰ ذلك كله إلىٰ نشاط الحركة الإسلامية في جاليات الخارج(١).

والحصيلة النهائية أن تركيا «في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين بدأت تشهد وعيًا متزايدًا لمن يوصفون بالمحافظين أو الإسلاميين أو من وُصِفت حركتهم بالصحوة الإسلامية، كان محورهم الأول: إعادة التوازن للعقل التركي الحديث بأن يتوافق مع نفسه وذاته بما يقنعه ويطمئنه، وبأنه لا يستطيع أن يعيش خارج تاريخه الذاتي ولو كان غير مشرف، فكيف به وهو ينتمي إلىٰ أعرق تاريخ وأشرفه، فكيف يتم فصله عن تاريخه وهويته بالقهر والكذب والإرهاب الأمني والسياسي»(٢)، لقد فشلت الكمالية أن تكون بديلًا للإسلام(٣)، ولهذا تأسف كاتب تركي معجب بأتاتورك -عند مطلع التسعينيات- بأن الكمالية تتشقق وأن الإسلام بات أقوىٰ شيء في تركيا وأن الكمالية لم تفهم موقع الإسلام من هوية الأتراك(٤).

إلا أن اللافت للنظر أن الديمقراطية والتعددية التركية -وإن كانت قشرة للدولة العميقة- استطاعت استيعاب المجهود الإسلامي داخلها، وبقدر ما ظلت الدولة العميقة تخشىٰ من اختراق أو اختطاف الإسلاميين للدولة عبر هذه الآلية، بقدر ما أمنت من تحول المجهود الإسلامي نحو الحركات السرية والقتال المسلح(٥).

---

(١) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٩١؛ Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 27-30.

(٢) محمد زاهد جل: التجربة النهضوية التركية ص٢٧.

(3) Binnaz Toprak: The Religious Right, p. 627, 632.

(4) Şherif Mardin: Religion and Secularism, p. 372-3.

(5) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 15, 35.

التجربة الأربكانية

هي أقوىٰ تجربة إسلامية في تركيا منذ دخولها الحقبة العلمانية وحتىٰ ذلك الوقت، حمل لواءها الزعيم الإسلامي الكبير: نجم الدين أربكان (٢٩ أكتوبر ١٩٢٦ - ٢٧ فبراير ٢٠١١م). وهي التجربة التي نشأ في رحمها حزب العدالة والتنمية.

يُعَدّ نجم الدين أربكان أول سياسي إسلامي في تركيا منذ دخولها الحقبة العلمانية، فلقد كان السياسيون خلافه علمانيون، ومن نُسِب منهم إلىٰ العاطفة الإسلامية كمندريس أو أوزال أو ديميريل إنما كانوا يعلنون اعتناق العلمانية وكانوا ليبراليين يفتحون المساحة لبعض المظاهر الإسلامية من منطلق الحريات، الحريات التي يستلزمها موقع تركيا كعضو في المعسكر الغربي الليبرالي ضد المعسكر الشرقي الشيوعي، وفي حين انتهىٰ مندريس نهاية درامية بإعدامه انتهىٰ أوزال نهاية نصف درامية بموت مشكوك فيه وانتهىٰ ديميريل نهاية عادية بذوبانه في النظام وأفول نجمه، ثم كانت الإثارة كلها متكثفة في الحياة الحافلة لنجم الدين أربكان! علىٰ أنه ينبغي أن نقول بأنه لولا راديكالية نجم الدين ما سطع نجم أوزال ولا أفل نجم ديميريل ولا ظل نجم مندريس ذكرىٰ تثير الشجون الإسلامية.

لقد كان نجم الدين أهم شخصية إسلامية في تاريخ تركيا العلمانية.

ينحدر أربكان من نسل أمراء السلاجقة، وُلِد في مدينة سنوب شمال تركيا، لأسرة متدينة يعمل أبوه قاضيًا، وتربىٰ في أحضان الطريقة النقشبندية، تخرج في كلية الهندسة باسطنبول محققا المركز الأول علىٰ دفعته (١٩٤٨م)، فعُيِّن معيدا فيها، ثم أرسل إلىٰ بعثة في ألمانيا (١٩٥١م) وهناك حصل علىٰ الدكتوراه من جامعة أخن (١٩٥٣م) وعمل هناك رئيسا لمهندسي الأبحاث بمصنع محركات

في مدينة كولون، وكانت له إضافات في صناعة المحركات، ثم عاد إلىٰ تركيا (١٩٥٥م) وترقىٰ في المراتب العلمية فكان أصغر أستاذ مساعد في جامعة اسطنبول وهو في سن السابعة والعشرين، ثم أسس مصنع «المحرك الفضي» (١٩٥٦م) لإنتاج محرك الديزل وكان في الثلاثين من عمره، ولم تزل شركته رائدة في هذا المجال، ثم تولىٰ منصب الأمين العام لاتحاد غرف التجارة والصناعة والبورصة التركية (١٩٦٧م) ثم صار رئيس الاتحاد عام (١٩٨٦م)، واستثمر هذا الموقع في خدمة الصناعة الوطنية والدفاع عمن تضررت مصالحهم الاقتصادية من المهمشين ورجال الأناضول، فاصطدم بالعلمانيين وحيتان الأموال والرئيس ديميريل الذي هاجمه أربكان، وتحت ضغوط إعلامية علمانية قوية أُجْبر علىٰ ترك الاتحاد وأسس أول أحزابه السياسية ليستمر في الدفاع عن مصالح أمته[١].

لم يكن تأسيس الحزب أول انخراطه بالسياسة، بل كانت بداية المشوار السياسي قديمة منذ تخرجه في الجامعة، إذ انضم إلىٰ حزب العدالة الذي كانت قيادته قد آلت إلىٰ سليمان ديميريل، ومع ظهور توجهه الإسلامي رفض ديميريل أن يضعه علىٰ قوائم انتخابات ١٩٦٩ خروجًا من الضغوط العلمانية، إلا أن أربكان ترشح مستقلا في مدينة قونية وفاز[٢]!

أسس أربكان حزب النظام الوطني (٢٦ يناير ١٩٧٠م)، وكان أول حزب إسلامي تعرفه الدولة التركية، إذ أظهر أربكان هويته بكل وضوح، وخطب في مؤتمره الأول قائلًا: «أمتنا هي أمة الإيمان والإسلام» وهاجم الشيوعيين والماسونيين وسيطرتهم علىٰ الإعلام والاقتصاد وقال: ليس أمامنا إلا العمل معا لنصل تاريخنا المجيد بحاضرنا الذي نريد أن يكون مشرفا»، لكن الحزب

(١) منال الصالح: نجم الدين أربكان ص٥٣ وما بعدها.

(2) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 14.

أغلق بعد عام وأربعة أشهر (٢٠ مايو ١٩٧١م) مع حظر ممارسة السياسة علىٰ أعضاء الحزب لخمس سنوات، فاضطر أربكان أن يغادر تركيا، ثم عاد بعد هدوء الأوضاع نسبيًا (١٩٧٢) ليدفع بعضَ الإسلاميين ممن لم ينطبق عليهم هذا الحكم لتأسيس حزب جديد: حزب السلامة الوطني (١١ أكتوبر ١٩٧٢م)، وخفَّف من لهجته الإسلامية وتبنىٰ «صورة أكثر واقعية [تبتعد عن] استخدام شعارات تنادي بالتوجه الإسلامي»[١]، فخاض انتخابات (١٩٧٣م) وفاز بـ ١١.٨٪ من الأصوات (٤٨ مقعدا) فحلَّ بذلك في المركز الثالث، واستفاد من الخلاف والانقسام بين الحزبين الكبيرين (حزب العدالة وزعيمه سليمان ديميريل ١٤٩ مقعد = ٢٩.٨٪ - وحزب الشعب الجمهوري وزعيمه بولنت أجاويد ١٨٦ مقعد = ٣٣.٣٪) فاضطر أجاويد أن يأتلف مع أربكان فحصل حزب السلامة علىٰ ٧ وزارات وصار أربكان نائبًا لرئيس الوزراء، وقد ساعدته الظروف الدولية وموقف الغرب من قضية قبرص في رفع صوته بمعاداة الغرب والتحرر منه والاتجاه نحو العالم الإسلامي وإبراز الهوية الإسلامية[٢]، لكن الحكومة الائتلافية سقطت بعد تأسيسها بتسعة أشهر، وبعد اختناق سياسي اضطر حزب العدالة أن يتحالف مع حزب السلامة، فصار أربكان نائبا لرئيس الوزراء، ولما جاءت انتخابات (يونيو ١٩٧٧م) تراجع حزب السلامة إلىٰ ٦.٨٪ (٢٤ مقعدا)، لكنه حافظ علىٰ موقعه في الائتلاف الحكومي بقيادة حزب العدالة بستة وزارات وبقاء أربكان نائبًا لرئيس الوزراء، وانهار الائتلاف ثم دخل في ائتلاف آخر مع حزب الشعب وانهار أيضًا كما هي الحالة المسيطرة علىٰ عقد السبعينات[٣].

(١) منال الصالح: نجم الدين أربكان ص٨٩.

(2) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 14-5.

(٣) لمزيد من التفاصيل، انظر: منال الصالح: نجم الدين أربكان ص٥٣ وما بعدها، ١٠٥ وما بعدها؛ Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 40-1.

دخلت الساحة الإقليمية كلها تطورًا جديدًا بالثورة الخمينية في إيران (١٩٧٩م)، وهي الثورة التي أعطت زخما لكل الإقليم، وكان من توابعها في تركيا أن ذهب وفد من حزب السلامة مهنئًا الخميني ثم أرسل الخميني رسالة إلىٰ أعضاء حزب السلامة متمنيًا لهم النجاح في إقامة دولة إسلامية في تركيا، وفي ذلك الوقت حشد حزب السلامة لمظاهرة ضخمة في مدينة قونية (٦ سبتمبر ١٩٨٠م) تقول بعض التقديرات بأنها بلغت ربع المليون احتجاجًا علىٰ القرار الإسرائيلي بضم القدس، ومع ما تمر به البلاد من أزمات واضطرابات، كانت المظاهرة مناخًا جامعًا اختلطت فيه الروح الإسلامية بالروح الاحتجاجية ورُفِعَت فيها شعارات تعلن الإسلام وترفض العلمانية، وهكذا بدا كأن أربكان سيكرر تجربة الخميني في إيران، ولا ريب أن تكرار التجربة جال بخيال الكثيرين من الإسلاميين وأعداءهم، ولهذا لم يكن الجواب إلا انقلابًا عسكريًا (١٩٨٠م) قاده كنعان إيفرن، فحلَّ الأحزاب وفرض الإقامة الجبرية علىٰ زعمائها[١]، أما أربكان فساقوه إلىٰ السجن ثم أطلق سراحه مع حظر من ممارسة السياسة لأربع سنوات[٢].

سُمح بتأسيس الأحزاب (١٩٨٣م)، فأسس أربكان حزب الرفاه (١٩ يوليو ١٩٨٣م) من موقعه في الظل والحظر، إلا أن الحزب لم يُسمح له بخوض انتخابات (١٩٨٣م) فذهبت أصوات قاعدة الحزب إلىٰ تورجت أوزال وحزب الوطن الأم، وهو ما أدىٰ إلىٰ نقصان أصواته في انتخابات (مارس ١٩٨٤م) إذ لم يحقق سوىٰ ٤.٤٪، وقد ذهب أربكان خطوات أخرىٰ نحو التقاطع مع العلمانية بدلًا من مصادمتها وصكَّ مصطلح «العلمانية الحقة» ويقصد بها التي

---

(١) منال الصالح: نجم الدين أربكان ص١٤٩، ١٥٠؛ Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 16.

(٢) منال الصالح: نجم الدين أربكان ص١٥٥ وما بعدها.

لا تعادي الدين ولا تهيمن عليه بل تقف منه علىٰ الحياد، وابتعد عن وصف حزبه بالإسلامي مغلفًا إياه بخطاب إصلاحي أخلاقي[١]. ثم أقر تعديل دستوري (سبتمبر ١٩٨٧م) رُفِع به الحظر عن الزعامات السياسية في السبعينات فعاد أربكان لقيادة الحزب جهرة[٢]، وخاض انتخابات (نوفمبر ١٩٨٧م) فحصل علىٰ نسبة ٧.٢٪، ثم انتخابات البلدية (مارس ١٩٨٩م) فحصل علىٰ نسبة ٩.٨٪، ثم انتخابات (أكتوبر ١٩٩١م) فحصل علىٰ نسبة ١٦.٩٪. وقد أظهرت هذه النتائج أن للحزب «قوة ناخبة قد تبلورت، ولكنها لم تتمكن من التعبير عن نفسها بشكل كامل»[٣]، ثم حقق الحزب ١٩٪ في انتخابات البلدية (١٩٩٤م) منها مقعدي رئيس البلدية لأنقرة واسطنبول فكان ذلك نقلة كبرىٰ للحزب ومستقبله السياسي[٤].

انهار التحالف الحاكم بين حزبي الطريق القويم بزعامة تانسو تشيلار وحزب الشعب الجمهوري بزعامة دينيز بيكال، فأجريت انتخابات مبكرة (ديسمبر ١٩٩٥م) فحصد الحزب ٢١.٣٨٪ (١٥٨ مقعدًا)، وفي ظل عجز الأحزاب الأكبر عن التفاهم صار أربكان نائبًا لرئيس الوزراء ثم رئيسًا للوزراء علىٰ رأس حكومة ائتلافية مع حزب الطريق القويم برئاسة تانسو تشيلار[٥]، وأرسل هذا الفوز صعقة كهربائية للعلمانيين وفي قلبهم العسكر حيث صارت

---

(١) منال الصالح: نجم الدين أربكان ص١٧٦ وما بعدها؛ Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 22-3.

(2) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 21.

(٣) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص١١٣.

(٤) منال الصالح: نجم الدين أربكان ص١٩٤ وما بعدها؛ Hale, Özbudun: Islamism, Democracy, and Liberalism, p. 4.

(٥) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص١٨٤؛ Lapidus: A History of Islamic Societies, p. 508.

تركيا لأول مرة تحت إدارة إسلامية[١]، وبعد فاصل قصير أطلق هؤلاء حملة سياسية لقلب النتائج، فعاشت تركيا صراعا علىٰ الهيمنة السياسية[٢].

جاء أربكان في وقت عصيب، كانت حملة العسكر علىٰ الأكراد مستمرة وهم يسحبون السياسة في طريقهم لتكون الحرب علىٰ الإرهاب هي الأولوية الأولىٰ أو حتىٰ المهمة الوحيدة، وكانت «الدولة العميقة» تدير هذه الحرب بمستوياتها السرية التي تشيع الاغتيالات والتعذيب وكافة ما هو غير قانوني، وفي نفس الشهر الذي تولىٰ فيه أربكان الحكومة (يونيو ١٩٩٦م) وقعت حادثة سوسورلوك التي بدأت تتكشف بها خيوط بعض هذه الأعمال القذرة وصارت تُنْشَر في الصحافة وتُواجَه بها الحكومة التي لم تكن تستطيع بحال أن تفعل حيال ذلك شيئًا[٣].

وفي سياق آخر ذهب أربكان في طريق تغيير تركيا، فاتخذ خطوات جريئة من أهمها: تأسيس مجموعة الدول الصناعية الإسلامية الثمانية[٤] تمهيدا لإنشاء سوق إسلامية مشتركة، واعتماد سياسة اقتصادية وطنية تغلق تركيا في وجه الاستثمارات الغربية وتمنع الاقتراض من الخارج[٥]، مما سيضرب مصالح الدول والشركات الكبرىٰ، وحاول إنهاء السير في طريق الانضمام للاتحاد الأوروبي كما حاول الترويج لاستعمال العملة الذهبية (الدينار الإسلامي)، إلا أن حزب الطريق القويم -شريكه في الائتلاف- أبلغه أن قضيتيْن غير قابلتين

---

(1) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 42; Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 25.

(2) Heinz Kramer: A Changing Turkey, p. 70.

(٣) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٦٣ وما بعدها.

(٤) وهي: تركيا، إيران، باكستان، ماليزيا، إندونيسيا، مصر، ليبيا، نيجيريا.

(5) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 23.

للمناقشة في تركيا: عضوية للناتو وصك الدينار[١]. ولم تفلح محاولاته التماهي مع السياسات المستقرة كمواصلته الدعم اللوجيستي للقواعد العسكرية الأمريكية في تركيا أو موقفه من مسألة قبرص أو ازدراد ما يجري في المسألة الكردية أو إبقاء العلاقات مع إسرائيل أو ابتلاع الحظر المفروض علىٰ الحجاب[٢]، لم يجد كل هذا وحدث ما هو متوقع.

في اجتماع دوري لمجلس الأمن القومي (٢٨ فبراير ١٩٩٧م) أُبْلغ أربكان ونائبته تانسو تشيلار من قبل هيئة الأركان بأن تركيا صارت تحت خطر الرجعية الدينية المهددة لوحدة البلاد، وقدموا قائمة بالإجراءات المطلوبة من الحكومة، وهي تتلخص في ضرب التيار الإسلامي: أموالًا وإعلامًا وتعليمًا، وإنشاء هيئة برئاسة نائب رئيس الأركان تشرف علىٰ التنفيذ، وبعد أيام من الضغط العنيف أجبر أربكان علىٰ الموافقة[٣]، وآثر الانسحاب كي لا يتطور الأمر إلىٰ انقلاب عسكري مباشر كما حدث في (١٩٨٠م)، وهكذا امتدت رئاسته للحكومة رسميًا ما بين (٢٨ يونيو ١٩٩٦ - ٣٠ يونيو ١٩٩٧م)، وكان الرئيس سليمان ديميريل ونائبته في رئاسة الوزراء تانسو تشيلار، وسبقه وتلاه في رئاسة الوزراء: مسعود يلماظ، ثم صدر قرار بحل حزب الرفاه (١٦ يناير ١٩٩٨م) وحرمان أربكان من العمل السياسي، وكان الحزب في ذلك الوقت يمتلك ٤ ملايين عضو[٤]

---

(١) لقاء مع أبو بكر ريغر، رئيس دار السكة الإسلامية العالمية، فيلم وثائقي «حركة الدينار»، قناة الجزيرة الوثائقية، ١٠ إبريل ٢٠١٤م.

(2) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 43-4; Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 26.

(٣) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٦٩؛ Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 27.

(٤) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٢٣٥؛ Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 44.

وبعضهم يقول بل ٤ ملايين من الرجال ومليونين علىٰ الأقل من النساء[١].

أسس أربكان حزبًا جديدًا، هو حزب الفضيلة، بمن لم يشملهم الحظر السياسي، وكان برئاسة صديقه محمد رجائي طوقان، واعتمد خطابًا أهدأ وأقل من خطاب الرفاه[٢]، لكن لم يحصل في انتخابات (إبريل ١٩٩٩م) سوىٰ علىٰ ١٥.٤٪ فصار في المعارضة ثم صدر قرار حله (يونيو ٢٠٠١م) باعتباره محاولة لإعادة حزب محظور[٣]، فأسس حزب السعادة (٢٢ يوليو ٢٠٠١م)، وهو آخر أحزابه، وما يزال يطرح نفسه كحزب إسلامي أصيل، ويجدد خطاب حزب السلامة الذي يعلي من شأن الأخلاق والقيم ويتبنىٰ معاداة التغريب ويرفض الانضمام إلىٰ الاتحاد الأوروبي[٤]، إلا أنه أفل نجمه وصار في عداد الأحزاب الهامشية.

ومهما كانت أسماء الأحزاب المختلفة فإن الفكر الإسلامي السياسي ظل كما هو، يُعرف بـ«الفكر الوطني» التي ترىٰ في أن أساس النهضة هو التمسك بالإسلام كهوية والاكتفاء بأخذ ما لدىٰ الغرب من تقنية فحسب مع اعتماد صناعة وطنية تؤسس لوجود حقيقي علىٰ الساحة العالمية ورفع سيطرة الدولة علىٰ الدين، وحيث كان الحزب ممثلا لهوية جامعة فقد جمع تحته أطيافا هي «تناقضات» من منظور العلمانية التركية، فاجتمع تحت سقفه عدد من الجماعات الإسلامية مع قاعدة شعبية من العمال والقرويين والتجار وأصحاب رؤوس الأموال الصغيرة من الفئات المحافظة، مع عناصر من البرجوازية الصغيرة وقاطني المدن والعاملين في جهاز الدولة، وكان جمهور الحزب هو

---

(١) لقاء مع عمر قورقمامز مستشار أربكان، قناة التركية (العربية)، بتاريخ ٢٧/ ٢/ ٢٠١١.

(2) Hale, Özbudun: Islamism, Democracy, and Liberalism, p. 5.

(3) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 27-8.

(4) Senem Aydin, Ruşen Çakır: Political Islam in Turkey, (CEPS Working Document No. 265, April 2007), p. 11.

تلك الجماهير القروية الريفية المتدينة المقهورة تحت سياسات العلمانية، ولذلك اعتبر الحزب نفسه ممثل «الأغلبية المقهورة»[1]، إلا أنه -وبعد إغلاق الرفاه- شهد حزبًا الفضيلة ثم السعادة تغيرًا في الخطاب والبرنامج نحو جهة أكثر ليبرالية وأقل معاداة للغرب[2].

ومن بين كثير من الإنجازات للحركة الإسلامية بزعامة أربكان، يعد الإنجاز الرئيسي لها هو نقل الكتلة الإسلامية من ساحة المقهور المغلوب الذي غاية أمله دعم وتأييد الأقل سوءًا بين الساسة إلىٰ ساحة الفاعل المتحرك الموجود في خريطة السياسة كبديل وخيار[3]، وهو ما فتح طريقًا أمام سائر طاقات المتدينين -والشباب خصوصًا- للبحث في مسائل الإسلام والسلطة والدولة، وتجارب الجماعات الإسلامية في العالم، وترجمة أدبياتهم، مما جعل فترة السبعينات فترة ازدهارٍ فكريٍّ إسلاميٍّ[4]، وتأسيسٍ لحالة إسلامية تعيد اكتشاف ذاتها وتسعىٰ لإعادة المجد القديم وتنظر للحقبة العلمانية في تاريخ تركيا علىٰ أنها حقبة انحدار وانهيار لا حقبة بعث جديد، وأن هذا الوضع يحتاج إلىٰ تصحيح[5].

حفلت حياة نجم الدين بأنواع المعاناة، وأولها معاناته من داخل الوسط الإسلامي، أول الأمر، إذ طُرِحَتْ ذات الإشكاليات المتعلقة بشرعية تأسيس حزب والدخول في ظل نظام غير إسلامي وانتهاج وسيلة الديمقراطية سبيلا[6]،

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٤٢؛ Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 40-2; Binnaz Toprak: The Religious Right, p. 635-8; Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 14.

(2) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 45.

(3) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 31.

(٤) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٤٢، ٤٣.

(5) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 40.

(٦) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٤١.

كما انقسمت قاعدة حزبه من النقشبنديين والنورسيين بعد تحالفه مع اليسار واليمين فاعتبروا التحالف مع الكماليين خيانة لمبادئ الإسلام[١]، مرورا بما تعرض له في مسيرته الطويلة من حصار وتضييق وإغلاق أحزابه ومحكاماته التي قضت عليه بالسجن أو بالإقامة الجبرية، وفي آخر حياته التي قضاها بين سجن وإقامة جبرية لم يستطع تلاميذه وإن كانوا في موقع السلطة أن يرفعوا عنه شيئا، إلا عفوًا صحيًا (٢٠٠٨م) وما كاد يتحرر من الحظر والسجن حتىٰ عاد بجلد عجيب وصبر دؤوب لرئاسة حزبه «السعادة» مرة أخرىٰ (٢٠١٠م) وهو في الرابعة والثمانين من عمره، لكنه لم يقض سوىٰ ستة أشهر حتىٰ وافاه الأجل.

وارتجت اسطنبول بجنازة هائلة حاشدة مهيبة، قصدها زعماء الحركات الإسلامية من كافة العالم الإسلامي، وقطع أردوغان زيارته لأوروبا ليشارك فيها وحمل نعش أستاذه، ومعه عبد الله جُل رئيس تركيا وقتها، وكان يوما مشهودا.

انتهىٰ أربكان إلىٰ السجن والحظر ولم يفلح حزبه الجديد في أن يجدد مسيرته، لكنه ظل يحظىٰ بتقدير عظيم داخل العالم الإسلامي جميعًا، ولقد توسط له الشيخ ابن باز عندما سجن لئلا يُعدم عبر الرئيس الباكستاني ضياء الحق[٢]، وأثنىٰ عليه الشيخ حازم أبو إسماعيل عند وفاته ثناء حارًا واعتبره من «علم كبير من أعلام الأمة»[٣]، وظل الشخصية الإسلامية التركية الأشهر في العالم الإسلامي إلىٰ لحظة بروز المواقف الإسلامية لأردوغان، فعندئذ سطع نجم أردوغان وسرق العيون من نجم الدين أربكان.

---

(١) منال الصالح: جم الدين أربكان ص٩٨، ١١٨.

(٢) د. عبد المحسن الزكري، مقطع فيديو، الرابط: https://goo.gl/2NLPnP

(٣) حازم أبو إسماعيل، مقطع فيديو، الرابط: https://goo.gl/w3P163

ظهور حزب العدالة والتنمية

أردوغـــان

ولد أردوغان (٢٦ فبراير ١٩٥٤م) في أسرة فقيرة تسكن حي قاسم باشا وهو من أفقر أحياء اسطنبول، وكان والده قبطانا بحريا قد استقر به المقام في هذا الحي مهاجرا من قريته ريزه في الشمال التركي علىٰ ساحل البحر الأسود، وظل أردوغان في حي قاسم باشا حتىٰ أتم دراسته الثانوية التي قضاها في مدارس الأئمة والخطباء إذ كانت تلك رغبة أبوه المعروف بالتدين حتىٰ كان أهل قريته يضعون عنده أماناتهم ويستودعونه أموالهم، وكان حي قاسم باشا من الأحياء التقليدية التي تسود فيها قيم وتقاليد المجتمعات الشرقية القديمة كقوة العلائق بين الناس وشيوع الحمية والمروءة والحسبة الاجتماعية[١]، وتشير بعض المصادر إلىٰ انضمامه لطريقة إسماعيل أغا النقشبندية الصوفية إلا أن بعض المقربين منه ينفون هذا وربما يكون النفي لكون الطرق الصوفية ممنوعة قانونا[٢]، وعمل أردوغان صغيرا في بيع الخبز (السميط) والماء للمساعدة في توفير المال ولشراء الكتب[٣]، وباختصار: فإن نشأة أردوغان وبيئته تدل علىٰ أنه نقيض للنظام التركي السائد، فهو ابن الطبقة التي طحنتها توجهات السياسة التركية العلمانية المدينية النخبوية.

أحب أردوغان كرة القدم وتنقل بين أكثر من نادٍ وفريق، وكاد يدخل إلىٰ

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٣.

(2) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 14.

(٣) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٢٧ وما بعدها.

مرحلة احترافها لولا الرفض القاطع لأبيه، ثم تخرج (١٩٨١م) في معهد علوم الاقتصاد والتجارة، والذي صار بعدئذ كلية الاقتصاد والتجارة بجامعة مرمرة، وعمل بعدها موظفًا في البلدية[١]، وتفتحت في كل تلك المراحل مواهبه وميوله القيادية، وكان كثير القراءة محبا للشِّعر، يروق له كثيرًا الشاعر الشهير محمد عاكف أرصوي صاحب الجهود الوافرة في الدعوة الإسلامية والملقب بـ «شاعر الإسلام» في تركيا[٢] وعميد الأدب الإسلامي في تركيا نجيب فاضل قيصاكورك وهو من أنصار النورسيين وقد سُجِن مرات وأغلقت مجلته الإسلامية وكان مندريس يُتَّهم بمساندته[٣].

بدأ أردوغان مسيرة نشاطه منذ الخامسة عشرة من عمره، فقد التحق وقتها عضوا باتحاد الطلبة الأتراك بمدارس الأئمة والخطباء الذي كان حينئذ في أخصب فتراته الثقافية والتربوية، وحين تفتح وعيه السياسي كانت الساحة التركية تشهد صولات المحاولة الإسلامية الأقوىٰ ورجلها الأشهر: نجم الدين أربكان، فحين كان أردوغان في السادسة عشرة من عمره كان أربكان يؤسس حزب النظام الوطني، وحين كان في السابعة عشرة أُغلق الحزب، ثم حين كان في الثامنة عشرة كان أربكان يعود إلىٰ ساحة السياسية بحزبه الجديد «السلامة» (١٩٧٢م)، وهو الحزب الذي التحق به أردوغان وشهد تطور مسيرته السياسية، ولم تمض أربع سنوات حتىٰ كان أردوغان رئيس جناح الشباب لحزب السلامة في اسطنبول (١٩٧٦م) بفوزه في الانتخابات الداخلية لشُعَب حزب الشباب،

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٠ وما بعدها.

(٢) عيسىٰ مصطفىٰ يوجار: محمد عاكف.. عصره وجهوده في الدعوة الإسلامية، رسالة دكتوراة لكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرىٰ، السعودية، بإشراف: محمد قطب، ١٤١٠هـ = ١٩٨٩/ ١٩٩٠م. ص٢٢٩ وما بعدها.

(٣) أحمد نوري النعيمي: النظام السياسي في تركيا، (الأردن، دار زهران، ٢٠١١م). ص١٧٠، ١٧١.

وهو فوز انتزعه وحيدًا علىٰ غير رغبة قيادة الحزب في اسطنبول[١]، وظل في موقعه هذا حتىٰ حظر العسكر الأحزاب (١٩٨٠م)، ثم تولىٰ رئاسة شعبة اسطنبول في حزب الرفاه ١٩٨٥[٢]، وترشح لانتخابات البرلمان ١٩٨٧ عن منطقة باي أوغلو وزيتن بورنو[٣]، ثم ترشح من تلقاء نفسه -وعلىٰ غير رغبة المركز العام ولا شعبة اسطنبول- لانتخابات المحليات ١٩٨٩ عن منطقة باي أوغلو التي لم تعط الحزب في الانتخابات الأخيرة سوىٰ ٣٪، وكانت قيادة الحزب تنظر بقلق لخسارة واحد من أهم كوادرها في الانتخابات المحلية بينما كان يرىٰ أنه يستطيع أن يحقق النجاح إن أُطْلِقت يده في إدارة الانتخابات بأساليبه التي يصفها أنصاره بأنها أكثر انفتاحًا علىٰ الشعب وأكثر أخذًا بالوسائل العلمية، وأسفرت الانتخابات عن خسارته بفارق بسيط عزاه بعض أنصاره إلىٰ تلاعب في الدفاتر والأرقام رفضت السلطات التحقيق فيه[٤]، إلا أن تقدمه علىٰ هذا النحو أثبت عمليًا نجاعة أفكاره وأساليبه وعزز من مكانته داخل الحزب، بل تذكر بعض التقديرات أن استعمال أردوغان للطاقة النسائية في الانتخابات جلب للرفاه مليون امرأة علىٰ مدىٰ ستة أعوام[٥]. وصار عضوا في الهيئة العليا لحزب الرفاه (أكتوبر ١٩٩٣م)[٦].

وفي (١٩٩٤م) كان أردوغان أقوىٰ شخصية في حزب الرفاه بعد أربكان، وكان يشرف من موقعه الحزبي -رئيس شعبة اسطنبول- علىٰ عدد من رؤساء

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٤٤ وما بعدها.

(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص١١٠.

(٣) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٥٠.

(٤) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٥٨ وما بعدها.

(5) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 24.

(٦) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص١٣٦.

البلديات التي فاز فيها الحزب في الانتخابات الماضية، وأنشأ لجنة في الشعبة لإدارة المحليات لتتابع أعمال البلديات وتجمع رؤساءها لتنقل الخبرات ويُبحث في حل المشكلات، ولما حان موعد انتخابات بلدية اسطنبول الكبرىٰ أيَّد ترشحه لها من داخل الحزب ٣٣٠٨ عضوا من بين ٣٩٩٣ كذلك أيده ٧٠٪ من جمهور حزب الرفاة[١].

ويعد فوز أردوغان بمنصب رئيس بلدية اسطنبول الكبرىٰ أقوىٰ انتصار لحزب الرفاه علىٰ مستوىٰ البلديات في أهم محافظة تركية، وقد حقق في منصبه هذا أقوىٰ نجاحات اقتصادية وإدارية شهدتها تركيا في تاريخها الحديث وتغير بها وجه اسطنبول وتخلصت من مشكلات مزمنة كالتلوث والقمامة والمياه والصرف الصحي والمواصلات وغيرها[٢]، فكانت نجاحاته -رغم الحملات الإعلامية العلمانية العاتية- رصيدًا كبيرًا في ميزانه وميزان حزب الرفاه، وصار أردوغان حديث الساعة في وسائل الإعلام. وقد حاولت الحكومة التركية تغيير وتبديل القوانين المنظمة لميزانيات البلديات للخصم من صلاحياته والموارد التي تحت تصرفه والقوانين المنظمة للإشراف علىٰ بعض القطاعات لتنقلها من يد البلدية إلىٰ يد الحكومة المركزية، ونشبت في هذا سجالات ومعارك سياسية وإعلامية عديدة، ثم أنشأت الحكومة هيئة لإدارة اسطنبول تنزعها عمليا من يد أردوغان وكاد الأمر يمضي لولا أن جاءت انتخابات (ديسمبر ١٩٩٥م) بما لا تشتهي سفنهم[٣]، إذ فاز حزب الرفاه فيها بالأغلبية (١٨٥ مقعدا) وصار أربكان هو رئيس الحكومة الائتلافية، فتوقف بهذا مشروع الهيئة، واستمر أردوغان بغير

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص١٣٠، ١٣٨، ١٣٩.

(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص١٦٤ وما بعدها؛ Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 24.

(٣) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص١٨٤ وما بعدها.

مضايقة من الحكومة فترة أربكان، ثم جاء الانقلاب العسكري الناعم (١٩٩٧م) فكان من تداعياته محاكمة أردوغان بتهمة إلقاء أبيات شعر دينية تحريضية في ديار بكر (١٢ ديسمبر ١٩٩٧م) وإغلاق حزب الرفاه، ثم عزل أردوغان بقرار محكمة من رئاسة بلدية اسطنبول (٥ نوفمبر ١٩٩٨م)، ثم مُنِع من العمل بالسياسة، ليُسدل الستار علىٰ تجربة دامت أربع سنوات وشهورًا[1].

سُجِن أردوغان ثلاث مرات؛ الأولىٰ بُعيْد انقلاب ١٩٨٠ لمدة أيام لتهمة التظاهر في ظل الأحكام العرفية، والثانية حين دخل في اشتباك لفظي مع رئيس المجلس الانتخابي لمحليات باي أوغلو إذ اتهمه أردوغان بالسُّكْر الذي أدىٰ إلىٰ التلاعب في النتائج فاتهمه بالتعدي عليه فحوكم وسُجِن لمدة أسبوع (١٩٨٩)، والثالثة بعد واقعة أبيات الشعر الشهيرة التي ألقاها ضمن خطاب شعبي في ديار بكر -(١٢ ديسمبر ١٩٩٧م) قبيل أيام من إغلاق حزب الرفاه- والتي اعتبرها خصومه دينية تحريضية، فحكم عليه بالسجن لعشرة أشهر وغرامة مالية، ثم خفف فسُجِن لأربعة أشهر، وكان وداع الناس له يوم سجنه دليل واضح علىٰ أن تركيا صار لها زعيم شعبي جديد[2]، ولما خرج من السجن كان علىٰ موعد مع مرحلة جديدة: انشق فيها عن حزب أستاذه أربكان وأسسوا معا الحزب الجديد: حزب العدالة والتنمية.

إذا تجاوزنا الصفات القيادية التي يتمتع بها الزعماء عادة كالقوة والذكاء والثقة والصبر والتأثير في الجماهير[3]، سنبصر في شخصية أردوغان عددا من

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٢٥٧.

(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٦٦ وما بعدها، ٢٣٧ وما بعدها، ٢٧٠؛ Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 31.

(٣) وصفته برقية للسفارة الأمريكية في تركيا (٢٠٠٤م) بأنه يتبنىٰ مواقف تتسم «بالزهو المتعجرف» ويمتلك طموحا لا حدود له ينبع من الاعتقاد بأن الله قد اصطفاه لقيادة تركيا، كما يملك «نزعة انعزالية متسلطة». كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٢٠١.

الصفات من أهمها:

- **تدينه**؛ فقد كان وفيا لتخرجه من مدارس الأئمة والخطباء حتىٰ أنه ألحق أبناءه الأربعة بها، ثم أكملت ابنتاه الدراسة خارج تركيا لئلا يتخلَيْن عن الحجاب، وتسفر كثير من عباراته في خطابات مختلفة عن أنه يطرح نفسه -أو حزبه- كامتداد للحقبة والأبطال العثمانيين وكخصم للحقبة العلمانية التي يحملها مسؤولية انحدار تركيا ويزدريها لاستخفافها بقيم الأتراك وتراثهم، وصرَّح غير مرة أمام سؤال العلمانية أنه «مسلم مخلص»، ويروي صديقه في السجن أنه كان يصلي الصبح في خمس وأربعين دقيقة، وأنه حين أُبْلِغ في السجن بمحاولة اغتيال وطلب منه أن يرتدي سترة واقية من الرصاص امتنع ثم صلىٰ ركعتين وقال: «هكذا ارتديت السترة الواقية الحقيقية»[1].

- **اهتمامه المبكر بالبُعْد الأممي**؛ فقد كانت اجتماعات شعبة حزب الرفاه في اسطنبول تتجاوز دائرتها الصغيرة فتناقش -أو تقيم فعاليات لمناقشة- الموضوعات المطروحة علىٰ الساحة السياسية محليًا ودوليًا مثل مشكلة الأكراد ومشكلات دول البلقان وحرب الخليج الثانية والقضية الفلسطينية والجمهوريات التركية المستقلة عن الاتحاد السوفيتي المنهار والانقلاب العسكري في الجزائر مطلع التسعينيات، وتناولت كلمته التي ألقاها قُبِيْل دخوله السجن أحوال المسلمين في كوسوفا[2].

- **اهتمامه بالتفاصيل الإنسانية الصغيرة** مثل حضور جنازة صديق ولو في وقت عصيب[3]، ومواصلة العلاقات مع من وقف إلىٰ جواره في انتخابات أو من سُجِن معه مرة أو سجَّان مدّ إليه يد عطف[4]، واهتمامه بقراءة الرسائل

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٢١٨، ٢٧٤، ٢٨٩.

(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٨٨، ٩٠، ١٠٥ وما بعدها، ٢٧٠، ٢٧١.

(٣) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٢٦٨، ٢٦٩.

(٤) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٦٣، ٦٧، ٧٠.

الواردة إليه مهما كانت غزيرة والرد عليها بنفسه ولو كان المرسل طالبة صغيرة، وحضور زواج فتاة عرف أنها أخَّرت زواجها حتىٰ يخرج من السجن(١).

وهو إلىٰ ذلك خطيب مفوه يهتم بالخطاب العاطفي ويستدل في خُطَبه بالشِّعر، ولما سألته مؤسسة الجناح النسائي في حزب العدالة والتنمية عماذا تقرأ أوصاها بأن تقرأ كتابًا في «بلاغة النبي»(٢)، وتكشف خطب أردوغان عن أفكار واضحة في قضايا فكرية مثل تطور مفهوم الإدارة في الواقع المعاصر، وفلسفة الديمقراطية وموقعها في النظم السياسية وإشكالياتها مع الخصوصيات الثقافية(٣).

قصة الخلاف مع أربكان

بدأ ظهور الخلاف بين أردوغان وأربكان في ذات اللحظة التي بدأ فيها بروز أردوغان، وحرصه علىٰ إدارة شعبة الحزب في اسطنبول بطريقة تخالف طريقة أربكان، ويبدو في الأفق مرحلتيْن متمايزتيْن في هذا الخلاف؛ الأولىٰ: كانت قيادة أربكان تنتصر ويبتلع أردوغان غضبه ورفضه، والثانية: كانت إرادة أردوغان تصر علىٰ مواقفها وتحسم الأمور لصالحها فيما بدا وكأنه استقلال فعلي عن قيادة الحزب، وإن حرص كلا الطرفين علىٰ نفي وجودها، وكان يدعم أردوغان في هذا نجاحاته التي يحققها في شعبة اسطنبول وفي إدارة بلدية اسطنبول الكبرىٰ مما يجعله ذا وزن ثقيل لدىٰ أعضاء الحزب وجمهوره ويجعل التفريط فيه مسألة في غاية الصعوبة.

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٢٧٦.

(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٨٨.

(٣) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص١٦٦، ٢٣١، ٢٤١. عبد الرحمن تيغ وآخران: مقتطفات من خطب رجب طيب أردوغان ص٩٨، ١٠٠، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ٢٨٥.

مع استبعاد تفاصيل جزئية صغيرة وقديمة[1] فإنه يمكن أن نحدد بداية المشكلات الحقيقية بين الطرفين في انتخابات البرلمان المبكرة (١٩٩١م)، إذ اتخذت قيادة الحزب قرارا بالتحالف مع «حزب الجبهة القومية» و«حزب الإصلاحيين الديمقراطيين» بغير تشاور مع شُعَب الحزب، ثم إنها قررت أيضا اختيار المرشحين لهذه الانتخابات في اسطنبول دون تشاور مع شعبة اسطنبول، وكلا الأمرين أزعجا شعبة اسطنبول، وحاولت الشعبة التوسط ومراجعة القرار إلا أن مساعيها فشلت بل ووصفها الأربكانيون بأنها محاولة انقلابية، ثم انتهىٰ الأمر إلىٰ نجاح محقق للحزب إلا أن شعبة اسطنبول -وقد دفعت أربعة أعضاء إلىٰ البرلمان من بعد ما كانوا عضويْن فقط- لم تشارك في هذه الفرحة اعتقادا منها بأنها كانت تستطيع تحقيق الأفضل من هذا بكثير وأن سوء اختيار المرشحين كان هو السبب، ثم زاد الطين بلة أن قيادة الحزب دعمت أن يكون ممثلها في البرلمان مصطفىٰ باش لا أردوغان برغم أن الثاني هو الأحق والأعلىٰ في الأصوات[2]. وأسفر كل هذا عن توتر واضطراب وشائعات تقول بأن أردوغان يستعد للسيطرة علىٰ الحزب والانقلاب علىٰ أربكان، واضطر أردوغان أن ينفي هذا علنا وبشدة، وأرسلت قيادة الحزب مبعوثا للتحقيق في أمور الشعبة ولقيت هذه الخطوة اعتراضات قوية من أردوغان وصحبه، ثم إن

---

(١) منها: أن أردوغان وهو في الرابعة والعشرين من عمره كان من ضمن المعترضين علىٰ أسلوب إدارة حزب السلامة الوطني بعد تراجعه في انتخابات البرلمان ١٩٧٧ عن نتائجه في ١٩٧٣ (من ١١.٨٪ = ٤٨ مقعدا إلىٰ ٨.٥٪ = ٢٤ مقعدا)، وقد تقدم المعترضون بقائمة انتخابية عام ١٩٨٧ في مؤتمر الحزب الرابع ضد قائمة أربكان، إلا أنهم خسروا. ومنها أن أربكان كان يرشحه في مناطق ليس للحزب فيها فرصة للفوز. ومنها: إصرار الحزب علىٰ وضع لجنة شرعية تقيم أساليب أردوغان في انتخابات محليات باي أوغلو التي أراد خوضها منفردا ليجرب أساليبه المخالفة لعموم تقاليد حزب الرفاه.

انظر: بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٥٥، ٥٦، ٥٨، ٦٠.

(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٩٠ وما بعدها.

المركز العام اعترض علىٰ القائمة التي أعدتها شعبة اسطنبول في الانتخابات الداخلية وفرضت استبعاد أسماء بعينها محسوبة علىٰ فريق أردوغان، ونجحت في هذا فزاد التوتر بين المجموعتين[١]، وقد جرت كل هذه الأحداث المتسارعة ما بين (أكتوبر ١٩٩١م) و(يناير ١٩٩٢م) ومنذ هذا التاريخ صارت شعبة اسطنبول تمارس استقلالًا فعليًا وتفعل «ما يحلو لها وتراه مناسبًا»[٢]، وظهر هذا إلىٰ العلن حين واجه رؤساء البلديات -التابعين لحزب الرفاه والفائزين حديثا في انتخابات بلديات اسطنبول (نوفمبر ١٩٩٢م)- أزمةً تخص عمالة مؤقتة ترهق الميزانية وتثير التمرد فاستقر رأي شعبة اسطنبول علىٰ إنهاء تعاقدهم وتعويضهم بينما رأىٰ المركز العام تثبيتهم إلا أن شعبة اسطنبول أنفذت رأيها[٣]، وحين توفي الرئيس التركي تورجت أوزال (إبريل ١٩٩٣م) اتخذت قيادة الحزب قرارا بدعم حسام الدين جين دوروك مرشحا للرئاسة ولم يُخْف أردوغان رفضه لاتخاذ أربكان قرارا كهذا دون مشورة، وأعلن أنه سيدعم المرشح لطفي دوغان «حتىٰ النهاية»[٤]، ثم جاء عام (١٩٩٤م) بأخطر المآزق بين الفريقيْن، وهي انتخابات بلدية اسطنبول الكبرىٰ، والتي كان بديهيا أن يترشح لها أردوغان رئيس شعبة الحزب، إلا أن المركز العام لم يكن يميل له وسعىٰ في الدفع بمرشح آخر، ونشبت أزمة مكتومة بين الفريقيْن، ففريق أردوغان يؤكد من خلال استطلاعات رأي أجراها -دون موافقة المركز العام- أنه لا بديل عن أردوغان، إذ أظهرت الاستطلاعات داخل ٣٢ شعبة من شعب حزب الرفاه في اسطنبول فوز أردوغان بـ ٣٣٠٨ أصوات من بين ٣٩٩٣ صوتا، وكشفت استطلاعات بين جمهور الحزب أن ٧٠٪ ممن سيصوتون للرفاه

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٩٩ وما بعدها.
(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص١١٥.
(٣) بسلي وأوزباي: صة زعيم ص١٢٠، ١٢١.
(٤) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص١٢٥.

سيصوتون لأردوغان. غير أن المركز العام دعم علي جوشقون، وهو شخص انضم حديثا للرفاه ليترشح علىٰ قوائمه لهذه الانتخابات، وهذا يدل علىٰ مدىٰ رفض المركز العام لأردوغان، لكن استطلاعات رأي شعبة اسطنبول كشفت أن من يعرفون أردوغان بلغوا ٧٠٪، مقابل ٢٢٪ فقط يعرفون علي جوشقون، ولم يكتم أربكان غضبه الكبير من هذه الاستطلاعات التي جرت بغير إذنه، والتي تجعله أمام الأمر الواقع كما تجعل شعبة اسطنبول أكثر تكتلا خلف أردوغان وأقرب إلىٰ أن تكون جناحًا مستقلًا من أن تكون فرعًا تابعًا، وبعد محاولات عديدة لعبت في ظلها وسائل الإعلام دور من يلقي البنزين علىٰ النار، وبعد تأخير إلىٰ اللحظة الأخيرة اضطر أربكان أن يقبل بترشح أردوغان عن حزب الرفاه لبلدية اسطنبول الكبرىٰ[١].

يرىٰ البعض أن سببًا رئيسيًّا في توتر الأزمة هو كون أردوغان يمثل زعيمًا بديلا لأربكان، وهو ما يتبدىٰ في قوة شخصيته واستقلاليته وابتكاره لأساليب جديدة وتحقيقه نجاحات مضطردة، لا سيما وأن أردوغان لم يكن في وقت ما مدعوما من قبل المركز العام كاختيار بل كان يخوض الانتخابات الداخلية في العادة ضد من يحظون برغبة المركز العام ثم يفوز[٢]. كذلك لم يكن الخلاف إداريًا أو علىٰ الزعامة فحسب، بل سجلت روايات الطرفين خلافات فكرية كذلك، ففريق أردوغان يصف زعيمه بأنه أكثر ديمقراطية وإيمانًا بالتنوع وأكثر انفتاحا علىٰ المجتمع، وهو متميز في استعمال كل الطاقات خصوصًا الشباب بما في ذلك الفتيات المتبرجات وأصحاب محلات الخمور كجزء من المجتمع واستخدام الموسيقىٰ مع ابتعاده عن المشكلات التي تتسبب فيها أمور شكلية كاللحىٰ والسراويل ونحوه[٣] بينما تبدو تقاليد أحزاب أربكان -في نظرهم-

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص١٣٨ وما بعدها.
(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص١٢١، ١٢٢.
(٣) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص١٠٨ وما بعدها، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٦، ١٣٧.

كجماعة إسلامية أكثر منها حزبًا سياسيًّا لكل أطياف الشعب(١)، ويعمل كجزء من فريق يخضع لمشورة المتخصصين في فريقه علىٰ خلاف نمط القيادة الفردية الزعامية الأبوية، ويقولون بأن أردوغان إذ بدأ نشاطه في اتحاد الطلبة الأتراك فإن ثقافته في العمل كانت بعيدة عن ثقافة البيعة والسمع والطاعة والزعامة الأبوية التي سادت في أحزاب أربكان(٢)، هذا بالإضافة إلىٰ الخلاف الفكري العام حول السياسة التي يراها فريق أردوغان بأنها «بعيدة عن الواقعية، تعتمد تمامًا علىٰ الخطب الحماسية والشعارات ومداعبة مشاعر الناخبين»(٣)، وهو الخلاف الذي فجره انقلاب (١٩٩٧م)(٤).

ونستطيع القول بأن أردوغان بفوزه برئاسة بلدية اسطنبول الكبرىٰ قد صار الرجل الثاني في الحزب -عمليًا، وشعبيًا- بعد أربكان، وما كان لسفينة يقودها اثنان مختلفان إلىٰ هذا الحد أن تستمر كما هي. إلا أن الضربة الفارقة جاءتهم من خارجهم: ذلك هو الانقلاب العسكري الناعم (١٩٩٧م) والذي قَلَبَ -مِن بين ما قَلَبَ- أوراقَ حزب الرفاه، ووضعها أمام اختبار جديد.

لقد حُلَّ حزب الرفاه وحوكم أربكان وأردوغان وحُظِر عليهما ممارسة السياسة، إلا أن الحكم علىٰ أردوغان بالسجن ضاعف بشكل هائل من تعاطف الجماهير معه، فهو المسجون ظلما لبيتي شعر يدرسان في المناهج بعد عطاء ونجاح غير مسبوق في اسطنبول بُعيْد انقلاب عسكري علىٰ حكومة إسلامية، ونستطيع أن نقول: إن هذه اللحظة كانت إضافة كبرىٰ لرصيد أردوغان الشعبي

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٥٦، ١٣٦.

(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٤٥، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٧، ١٥٨؛ Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 28.

(٣) عبد الله جُل لبرنامج تحت المجهر: «العثمانيون الجدد»، قناة الجزيرة، بتاريخ ٢٦ يوليو ٢٠٠٧.

(4) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 44-5.

وحجر زاوية في تأسيس زعامته التي سيرث بها أستاذه أربكان!

وفي سياق آخر كشفت ضربة الانقلاب عن تيار معارض داخل الحزب، وبرز هذا التيار عندما تشكل حزب الفضيلة ليرث حزب الرفاه، فظهرت لأول مرة مجموعة تريد إجراء انتخابات داخلية حقيقية ولا تنصاع لرغبة الزعيم نجم الدين أربكان التي كانت تدعم أن يتولىٰ رئاسة الحزب رجائي طوقان الذي يصفه أردوغان بأنه «شخص تابع ينفذ ما يأمره به أكثر من شخص ينمّي الكيان الجديد ويطوره» بل ويقول بأن الاستطلاعات والمشاورات التي جرت في حزب الرفاه قُبيْل إغلاقه كانت ترشح أردوغان ليخلف أربكان -في حالة حظره من ممارسة السياسية- بنسبة ٨٥٪، وقد كان فريق «التجديديين» -كالعادة في مثل تلك المواقف- يملك الكوادر والحماسة ولا يملك المال ولا النفوذ! وحيث كان أردوغان نفسه محظورًا من العمل السياسي، فإن فريق التجديد هذا اختار عبد الله غُل -رفيق أردوغان- ليرشحه رئيسًا للحزب أمام رجائي قوطان (مرشح أربكان)، ويعترف غُل بأن الأمر كان عسيرًا؛ إذ سيتعرضون لتهم الخيانة وشق الصف وإشعال الفتن[١]!

كانت تلك هي لحظة الانفصال الحقيقي، وقد صرح عدد من فريق أربكان بأن أولئك الشباب إن نجحوا فسيؤسس الأستاذ حزبًا جديدًا وسينسحبون معه إلىٰ الحزب الجديد، وهكذا صار واضحًا أن الفريقين لن يجتمعا. كانت هذه المنافسة العلنية «سابقة في تاريخ الأحزاب الإسلامية التركية»[٢]، ولما جرت الانتخابات، خسر التجديديون بفارق خمسين صوتًا (٥٧٠ مقابل ٦٢٠)، وشككوا في هذه النتيجة التي بُنيَت علىٰ تشويههم وعرقلتهم، وساروا في المسار المتوقع: تأسيس حزب جديد لهم، ولم يكونوا يعرفون أن خسارتهم كانت

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٢٨٩، ٢٩٦، ٢٩٧.

(2) Hale, Özbudun: Islamism, Democracy, and Liberalism, p. 5.

خيرًا لهم إذ اعتبرت السلطة أن حزب الفضيلة تحايلًا علىٰ القانون وامتدادا لحزب قد أغلق ومركزا لمناهضة العلمانية[١].

يقول أردوغان: «لو لم يغلق حزب الفضيلة لما كنَّا قد انفصلنا بسهولة أبدا»، ولكنه لما قيل له بعد فترة: أنت تتكلم مثل أربكان تماما، قال: «لو كنا نتحدث من نفس المنطق لكان معي هنا الآن»[٢]. ويبدو أن هاتيْن العبارتيْن يفسران أردوغان جيدًا، فهو رجل يهتم بالإصلاح من داخل النظام مهما كان حجم الخلافات، ولذلك استطاع أن يسلك الطريق داخل النظام العلماني التركي فيفهمه ويعيد تغييره وتوجيهه إلىٰ حيث يريد.

المؤسسون

لم يكن أردوغان وحده بطبيعة الحال، بل بلغ عدد الموقعين علىٰ عريضة تأسيس الحزب ٧١ عضوا، ثم انضم إليهم في اليوم نفسه ٥٣ نائبًا بالبرلمان ليصير عددهم ١٢٤ عضوًا[٣].

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٠١ وما بعدها.

(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣١٩، ٣٩٤.

(٣) بسلي وأوزباي: قصة زعيم (ص٣٢٣). وهذه قائمة الأعضاء المؤسسين كما أوردها موقع حزب العدالة والتنمية:

أحمد آقتاش، علاء الدين بويوكايا، علي آيدين دومان أوغلو، علي باباجان، علي إحسان أرسلان، علي يوكسل كاوشتو، عائشة بوهرلر، عائشة نور كورتوغلو، بينالي يلديريم، بولنت جديكيلي، برهان كوزو، جمال كاماجي، إيرول أوال، أرسن نظيف جوردوغان، فاتح رجب سراج أوغلو، فاطمة بستان أونسال، جولدال آقشيت، جورسوي أرول، جنيد زابصو، جبيبة جونير، خليل جانير دوغانلي، خليل أورون، خلوق آيبك، حسن مراد مرجان، حياتي يازجي، إبراهيم تشاجلر، إبراهيم ريحان أوزال، إلخان ألبيراق، إسماعيل صافي، عصمت أوشما، لوكمان أيوا، محمد علي بولوت، محمد بايزيد دينيز أولجن، محمد حلمي جولر، محمد أوزلك، محمد صايم تاكلوغلو، مولود جاويش أوغلو، محرمة بلما ساتر، معمر كاكي، =

كان علىٰ رأس المؤسسين صديق أردوغان ورفيق دربه عبد الله غُل، وهو أكبر من أردوغان بأربع سنوات، وُلِد (٢٩ أكتوبر ١٩٥٠م) في قيصري، من محافظات وسط الأناضول، ذات الطابع التقليدي الشرقي الإسلامي، لأسرة متدينة ومهتمة بالسياسة إذ كان أبوه مرشحًا برلمانيًا عن حزب السلامة الوطني (١٩٧٣م) فتأثر مبكرًا بزعامة نجم الدين أربكان، ودرس بمدارس الأئمة والخطباء في المرحلة الثانوية، ثم تخرج من كلية الاقتصاد جامعة اسطنبول (١٩٧٢م)، وحصل علىٰ الماجستير، وكانت رسالته للدكتوراه عن «تطور العلاقات الاقتصادية بين تركيا والعالم الإسلامي» (١٩٧٨م)، وعمل في بنك التنمية الإسلامي بجدة كخبير اقتصادي (١٩٨٣ - ١٩٩١م). انخرط في السياسة منذ بدأ أربكان في نشاطه السياسي (١٩٦٩م)، واعتقل بعيد الانقلاب العسكري (١٩٨٠م)، وانتخب عضوًا عن حزب الرفاه لمحافظة قيصرىٰ (١٩٩١م)، وصار عضوًا في لجنة العلاقات الخارجية في البرلمان في ذات الوقت الذي تولىٰ فيه منصب العلاقات الدولية لحزب الرفاه (١٩٩٥ - ٢٠٠٠م)، ثم وزير دولة للشئون الخارجية في حكومة أربكان القصيرة (١٩٩٦ - ١٩٩٧م)، وانتقل إلىٰ حزب الفضيلة من بعد ما أغلق حزب الرفاه ثم خسر في الانتخابات الداخلية أمام رجائي قوطان، ثم أغلق حزب الفضيلة، فانشق مع مجموعته عن أربكان وأسسوا حزب العدالة والتنمية، وبخلاف الأثر المباشر لنجم الدين أربكان، فلقد تأثر جول بالشاعر والأديب الإسلامي الكبير نجيب فاضل

= محرم كارسلي، محرم توزجوكان، مراد يالشنتاش، مصطفىٰ أونال، ناظم أكرن، نعمت باش، نور دوغان توبال أوغلو، نوراي أوال، نور الدين جانيكلي، عثمان نوري فيليز، ريحا دنماش، رمزية أوزتوبارك، شعبان ديشلي، سامي جوتشلو، سما كارابييك، سما رمضان أوغلو، سراب ياهشي ياشار، سليمان جوندوز، تامر أوزياويت أوغلو، طيار ألتيكيولاتش، ياشار ياكيش، ياسمين كومرال، زياد الدين ياجي.

والمفكر والأديب التركي المعروف جميل مريتش[١] وأستاذ الاقتصاد د. نوزت يالجين طاش الذي منحه الدكتوراه في الاقتصاد، ورجل الاقتصاد د. صباح الدين زعيم[٢].

وهو -بذلك- يشبه صاحبه من عدة وجوه، فكلاهما من البيئة الجغرافية والطبقة الاجتماعية التي تمثل نقيضا لما أريد لتركيا بل إن عجلة تركيا التحديثية جعلتهم من ضحايا تلك السياسات، ثم دراستهما في مدارس الأئمة والخطباء، ثم التقاؤهما في المناخ الفكري والحركي الإسلامي ضمن حركة الفكر الوطني، ثم دراستهما الاقتصاد، ثم الخلاف مع أربكان.

وبالإضافة إلىٰ أردوغان وجُل حوت أسماء المؤسسين شخصيات أخرىٰ، برز منها العديد في المناصب الحكومية التي قام بأمرها حزب العدالة والتنمية، من أهمهم:

- **بولنت أرينتش**؛ وهو شخصية ذات ثقل وظلت موضع تجاذب بين فريق أربكان وفريق أردوغان لحظة تأسيس الحزب[٣]، وله خلفية نقشبندية[٤]، وُلد في بورصة (١٩٤٨م) وينحدر من اللاجئين الذين قدموا من كريت في أواخر عصر الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ودرس الثانوية في مانيسا، وتخرج في كلية الحقوق جامعة أنقرة (١٩٧٠م)، ثم عاد إلىٰ مانيسا وعمل محاميًا فيها، كان نائبًا في البرلمان عن حزب الرفاه عن مانيسا (١٩٥٥م)، وانتقل بعد إغلاقه إلىٰ حزب الفضيلة، ومع الشقاق الحادث انحاز في النهاية إلىٰ

(١) ويشبهه البعض بطه حسين في العالم العربي، لأنه مفكر وأديب ومترجم ويتقن الفرنسية، وقد أنجز هذا برغم فقدان بصره.

(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٢٩٨ وما بعدها؛ http://www.abdullahgul.gen.tr

(٣) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣١٨، ٣١٩.

(4) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 14.

حزب العدالة والتنمية، وكان وقتها في الثالثة والخمسين من عمره، وفاز في انتخابات البرلمان (٢٠٠٢م) عن حزب العدالة والتنمية، وشغل فيما بعد منصب نائب رئيس الوزراء والمتحدث الرسمي للحكومة التركية.

- **علي بابا جان**: الذي تولىٰ ملف الاقتصاد في بداية الحزب، وكان حينئذ في الرابعة والثلاثين من عمره، وقام بجولاته الخارجية لصالح هذا الملف، وهو مهندس صناعي، وُلِد في أنقرة (١٩٦٧م) وتخرج في جامعة أنقرة محققًا المركز الأول علىٰ دفعته (١٩٨٥م) وحصل علىٰ بكالوريوس الهندسة الصناعية (١٩٨٩م) من جامعة الشرق الأوسط للتقنية بتفوق، ثم حصل علىٰ منحة فدرس وحاز الماجستير (١٩٩٢م) في إدارة الأعمال والتسويق من أمريكا وعمل بها لعامين في شركة تقدم استشارات لكبار المسؤولين التنفيذيين في البنوك، ثم عاد إلىٰ تركيا (١٩٩٤م) وأسس شركة نسيج، وكان مستشارا لرئيس بلدية أنقرة (١٩٩٤م)، وكان رئيس البلدية وقتئذ من حزب الرفاه، ثم ودخل عالم السياسة كمؤسس لحزب العدالة والتنمية، وانتخب في برلمان (٢٠٠٢م) عن حزب العدالة والتنمية، وصار أصغر وزير (٣٥ عامًا) إذ تولىٰ وزارة الاقتصاد والخارجية، وكان المسؤول المفاوض في انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي.

- **حلمي جولار**؛ وهو مهندس بقسم المعادن، وُلِد (١٩٤٦م) في مدينة أوردو التي تقع علىٰ ساحل البحر الأسود في شمال شرق البلاد، وتشتهر المدينة بصناعة البندق وبمناطق جذب سياحية، وتخرج في قسم التعدين من جامعة الشرق الأوسط للتقنية، عمل مهندسًا في الشركة التركية لصناعة الطيران وقاد فريق عمل في بحوث الفضاء، وكان في سن الخامسة والخمسين لحظة تأسيس الحزب، وصار بعدئذ وزير الطاقة وكان مسؤولًا عن إعداد المشاريع في فترة تأسيس الحزب وكانوا قد أعدوا ٣٠٠ مشروع قبل الانطلاقة، وخطط لبناء

ثلاث محطات طاقة نووية مع الاستثمار في الطاقة الكهرومائية بالإضافة إلىٰ تنمية قطاع التعدين(١).

علىٰ أنه لا ينبغي بحال أن يُغفل اسم رجل آخر في مرحلة التأسيس، وإن خلت منه قائمة المؤسسين، ذلك هو أحمد داود أوغلو الذي يُلقب بمهندس سياسات العدالة والتنمية، فهو بمثابة «المؤسس الفكري» للرؤية التركية، وقد كان حاضرًا منذ البداية وإن لم يكن في صدارة المشهد. وإذا ذُكِر حزب العدالة والتنمية فإنه يُثير في الذهن أسماء هؤلاء الثلاثة: أردوغان، عبد الله جل، أحمد داود أوغلو.

وهو مفكر استراتيجي وأستاذ للعلاقات الدولية، وُلِد (٢٦ فبراير ١٩٥٩م) في بلدة تاشكينت عند قمة جبال طوروس وهي تابعة لمحافظة قونية، درس الثانوية في اسطنبول، ثم تخرج في كلية الاقتصاد وكلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية، حصل علىٰ الماجستير في الإدارة العامة وعلىٰ الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة البوسفور، ودرَّس في تركيا بجامعة بوغاز ايتشي وفي الأكاديميات العسكرية وفي الجامعة الإسلامية العالية في ماليزيا، وهو يتقن أربع لغات: التركية والإنجليزية والألمانية والعربية، وقد تعرف علىٰ عبد الله جُل في الثمانينات، وعُيِّنَ مستشارا خاصا لرئيس الوزراء أردوغان للشؤون الخارجية (٢٠٠٢م)(٢)، فهو -إذن- كصاحبيه في الانتماء الاجتماعي وفي الدراسة وفي رؤية مستقبل تركيا ودورها وهويتها، إلا أنه يفارقهما في الخلفية السياسية والعمل الحزبي.

ولداود أوغلو عدد من المؤلفات أهمها ثلاثة: الفلسفة السياسية، العالم الإسلامي في مهب التحولات الحضارية، العمق الاستراتيجي:

---

(1) AK parti website: http://www.akparti.org.tr

(٢) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٢٥٠؛ AK parti website: http://www.akparti.org.tr

فأما كتابه «الفلسفة السياسية» فيتحدث عن التناقض الجوهري بين النظامين الإسلامي والغربي في السياسة، وكيف أن تناقض العقائد والتصور العام للوجود انعكس علىٰ النظم السياسية فأنشأت اختلافًا أساسيًا لا يمكن تجاوزه بين النموذجين، إذ لا يمكن التقاء العلمانية مع الإسلام، كما ويستحيل في الإسلام نشوء «قاعدة علمانية للمعرفة البشرية»[1]، ثم رصد خمسة مظاهر لهذا التناقض في النظام السياسي. ولقد كان في كتابه هذا أقرب شيء إلىٰ الإسلاميين العرب الموصوفين بالراديكالية والتطرف، حتىٰ ليكاد يكون سيد قطب التركي، إلا أنه افترق عن سيد قطب في اتساع معرفته بالفلسفات الغربية وفي هدوء عباراته وألفاظه.

وأما كتابه العالم الإسلامي في مهب التحولات الحضارية فيحمل علىٰ الفلسفة الغربية التي تنتج كل حين نظريتها عن «نهاية التاريخ» التي يتكثف فيها الغرور الغربي الذي يظن أن ما وصل إليه هو كلمة النهاية التي تطوىٰ بعدها صحيفة التقدم الإنساني، ويذهب إلىٰ القول بأن أزمة الفلسفة الغربية كامنة في القيم التي تعتنقها، ولهذا فلم يقدم التقدم العلمي أو الرفاه الاقتصادي العدل للبشرية ولا حتىٰ الأمان للإنسان الغربي نفسه، كذلك فإن انهيار الاتحاد السوفيتي لا يعني نهاية التاريخ بل يعني مجرد تحول في المراكز الحضارية التي تشهد محاولات لتحول آخر من الأطلسي (كمحور الحضارة الغربية) إلىٰ قلب أوروبا في إطار المحاولة الأوروبية للاتحاد ويبدو كذلك أن تحولا آخر يلوح في الأفق وهو المحور الآسيوي حيث الصين واليابان ودول جنوب شرق آسيا. غير أن هذا التحول نحو الشرق ليس مهما إلا بقدر ما تقدمه الفلسفة التي يطرحها هذا المحور. ثم يخلص إلىٰ القول بأن المرشح الوحيد لإحداث تحول حضاري حقيقي هو الإسلام الذي يملك من القيم والمبادئ ما يُمَكِّنه من طرح

(١) أحمد داود أوغلو: الفلسفة السياسية ص١٧.

رؤية جديدة ومنظومة مؤسسات وعلاقات قائمة علىٰ مبادئ وقيم وأخلاق مطلقة لا تملك معها أن تنشئ من المؤسسات والسياسات ما ينتهكها.

وأما كتابه «العمق الاستراتيجي» وهو أهم كتبه، والذي يعده الكثيرون أهم أدبيات حزب العدالة والتنمية، فينصب علىٰ إعادة تعريف موقع تركيا ودورها في العالم، وكيف أنها لا تملك -طبقا لنظريته في العمق الاستراتيجي- سوىٰ أن تكون قوة عالمية بحكم موقعها الجغرافي وتاريخها العريق وثقلها الثقافي شرط أن تتصالح مع هويتها وتعيد وصل ما انقطع من العلاقات العثمانية بمجالها الحيوي الذي هو عمقها الاستراتيجي، وهو يقرر أن أي نظرية استراتيجية تكون عديمة الكفاءة إذا طرحت «تناقضات في موضوعي الهوية والوعي التاريخي باعتبارهما عاملَيْن أساسيَّيْن في ضعف الاستعداد النفسي»[(١)].

وفيما بعد سيعمل داود أوغلو مستشارًا لأردوغان ثم سفيرًا ثم وزيرا للخارجية، وحينئذ سيتحول كتابه «العمق الاستراتيجي» من «أحلام أكاديمي مسلم» إلىٰ برنامج للتطبيق[(٢)]، فيتوسع النفوذ التركي في الشرق العربي والآسيوي وفي الشمال الروسي وفي الغرب البلقاني مما صنع أمام التركي مساحة فضاء واسعة للحركة والاندماج مع العالم أسهمت في رسم «جغرافيا جديدة تفقد فيها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي الموقع المركزي علىٰ الخريطة»[(٣)]، ومن اللافت للنظر أن أوغلو كان أقرب إلىٰ أوزال في تفكيره منه إلىٰ أربكان؛ وذلك أن أربكان كان يريد تحويل علاقات تركيا من الغرب إلىٰ الشرق بينما تقوم رؤية أوغلو علىٰ تمتين العلاقات بالغرب والشرق معا لتكون

---

(١) أحمد داود أوغلو: العمق الاستراتيجي.. موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية، ترجمة: محمد جابر ثلجي وطارق عبد الجليل (الدوحة وبيروت، مركز الجزيرة للدراسات والدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١١م) (ص٨٢).

(2) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 75.

(٣) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٢٥٥.

علاقات تركيا متوازنة لا مائلة نحو الغرب[1]. في سنوات قادمة سيصعد أوغلو إلىٰ موقع رئيس الوزراء ولكن في مناخ مضطرب متلاطم بعد ثورات وانقلابات وحروب أهلية عربية تقلب الأمور كلها رأسًا علىٰ عقب. إلا أن الثابت الذي سيستمر هو الحرص التركي علىٰ لعب دور فاعل في الإقليم والعالم، وهو ما يناقض مباشرة وتمامًا العقيدة الكمالية التي تريد دولة واحدة قوية في الداخل وتعتزل مشاكل الإقليم أو الخارج! وما ظنه البعض يومًا ما مجرد «أحلام أكاديمي مسلم» صار الآن توقعات استراتيجية منتظرة ضمن صورة العالم في القرن الحادي والعشرين[2].



(1) Ömer Taspinar: Turkey's Middle East Policies, p. 14; Aydin, Çakır: Political Islam in Turkey, p. 3.

(2) George Friedman: The Next 100 Years: A Forecast for the 21st Century, (New York, Double day, 2009), p. 144-8, 152.

التحديات الداخلية والخارجية

كغيره من الأحزاب، واجه حزب العدالة والتنمية تحديات التأسيس: الرؤية الفكرية، الكوادر، البرنامج، الأموال. وكان عليه أن يعبر هذه التحديات في ظل واقع تتنازعه التوجهات؛ إذ هو يحتاج أن يثبت عدم تخليه عن الإسلام داخل بيئة التيار الإسلامي، ويحتاج أن يثبت أنه لم يخرج عن علمانية الجمهورية أمام الدولة العميقة، ويحتاج أن يثبت أنه صورة جديدة من «الإسلام السياسي» الذي يمكن للغرب أن يتفق معه وأن يجربه ويعتمد عليه، وكأنه يقدم «إسلامًا جديدًا» ملتزمًا بالثوابت التي تطرحها «الحضارة الغربية». ولم يكن بوسعه تقديم خطاب مزدوج في عصر ثورة الإعلام والاتصالات، فلا مناص حينئذ من خطاب دقيق ومتوازن، ثم من تنازلات وتضحيات ببعض الأطراف عند لحظات فارقة لا بد فيها من الاختيار حين لا ينفع التوازن والبقاء في منطقة رمادية.

تحديات تأسيس الحزب

بدأت المجموعة المؤسسة بإقامة مركزين للبحوث السياسية والفكرية: الأول مركز مؤسسة دنجه للأبحاث في أنقره والثاني مركز الأبحاث السياسية في اسطنبول[1]، نوقشت فيهما -كما قال عبد الله جل- «جميع الأفكار دون تحفظ، بحثنا كيف نشكل حركة تجديد وإصلاح، واستعنا في سبيل ذلك بأصدقاء من الخارج لهم تجربة جيدة من أجل الوصول لتصور واضح لحركتنا الجديدة»، ويرىٰ بولنت أرينتش أن «أهم عوامل نجاح تلك المرحلة أننا لم نقص أي فكرة

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٠٦.

من النقاش أو الحوار، كان عملا جماعيا بكل ما في الكلمة من معنىٰ»[(١)].

١- الرؤية الفكرية:

لئن كانت الرؤية الفكرية أصعب شيء في تأسيس الأحزاب والجماعات والكيانات السياسية؛ إذ ينبني عليها سائر التوجهات والاختيارات، فلقد كانت في حالة حزب العدالة والتنمية أصعب؛ فالحزب تتنازعه جذوره الإسلامية مع ثوابت الدولة العلمانية التي يحرسها العسكر بقوة السلاح، وهذا كله تحت مظلة وضع دولي يثير حربًا علىٰ «الإرهاب الإسلامي» بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وهذه الحرب علىٰ وشك أن تشتعل عند أطراف الثوب التركي: العراق!

لقد أثار الأمر خلافًا بين المؤسسين، لكنهم خلصوا في النهاية إلىٰ هذه الهوية ذات المساحات الرمادية، ولذا فمن أراد رؤيتهم كإسلاميين وَجَدَ في أدبياتهم ما يدعم خطه، ومن أراد رؤيتهم كعلمانيين وجد ما يدعم خطه، ومن أراد إثبات ما في خطابهم من ارتباك وتناقض وجد ما أراد كذلك، ويعلن كثير من الباحثين[(٢)] أنهم نمط جديد ويجتهدون في ابتكار مصطلحات تعبر عنه.

يبدو أردوغان إسلاميًا عثمانيًا يطرح نفسه كنقيض للحقبة الجمهورية العلمانية حين يقول في خطاب تأسيس الحزب (١٤ أغسطس ٢٠٠١م) «تركيا لنا جميعًا. إن تركيا منذ عام ١٢٩٩م إلىٰ عام ١٩٢٣ كانت دائما تتولد منا نحن»[(٣)].

---

(١) برنامج تحت المجهر: «العثمانيون الجدد»، قناة الجزيرة، بتاريخ ٢٦ يوليو ٢٠٠٧.

(٢) كثير من الغموض أو الارتباك راجع أيضًا إلىٰ خلفيات الباحثين الفكرية، إذ الكثير يفهم الديمقراطية كنقيض للإسلام بغير اعتبار لما أفاض الإسلاميون في شرحه من تفريقهم بينها كفلسفة أو آليات، ونظرياتهم في تطبيق الإسلام في العالم المعاصر.

(٣) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٢٧.

ولكن يبدو مُنَظِّر الحزب، المفكر التركي أحمد أوزجان، متناقضًا حين يقول في مرحلة التأسيس: «تركيا يجب أن تتخطىٰ صراع الهيمنة والسيطرة الموجود بين الكتلة المسالمة والكتلة الكمالية. وعلىٰ إنسان الأناضول أيضًا أن يفرض علىٰ الساحة كادره الذي يُمَكّنه أن يحوي كلا الطرفين بداخله، والذي يخاطب الشعب بأكمله، **وله هويته الإسلامية الخالصة**، والذي ينتج ويعلن تجلياته الحقيقية»[(١)]. وهنا يبدو ثمة تناقض واضح بين قوله «يحوي كلا الطرفين» وقوله «هويته الإسلامية الخالصة». ومثل ذلك ما أورده مؤلفًا «قصة زعيم» عن رسالة من رجل أعمال إلىٰ صديق له في الحزب كان يسعىٰ بالصلح بين أردوغان وأربكان، جاء فيها: «ما يلزمنا من الآن فصاعدًا هو تشكيل حركة كتلة جامعة توافقية، الكتلة الحقيقية وليس مجرد حركة زمرة فقط»[(٢)]. وهو يقصد بالكتلة الحقيقية أي كتلة الشعب كله المسلم وغير المسلم المتدين وغير المتدين، ويقصد بالزمرة: الزمرة الدينية.

ومن المفهوم في عالم السياسة الحفاظ علىٰ مساحة من الغموض، كما في تصريح لعضو كبير بحزب العدالة والتنمية يقول: ليس المهم هو ما إذا كان الإسلام يؤثر في السياسة، ولكن «كيف» يكون هذا التأثير، فالتفسير الليبرالي للإسلام يؤثر في السياسة علىٰ نحو ليبرالي[(٣)]. كما أنه من المفهوم في عالم الصراع الإقدام علىٰ تفريغ الكلمات من دلالاتها المستقرة لتُطرح لها دلالات أخرىٰ فيكون في هذا النجاة من سيف الرقيب المترصد[(٤)]، وقد فعل الحزب هذا فجعل «من الشورىٰ ديمقراطية، ومن العلمانية حرية ومساواة، ومن المواطنة انتماءً وعطاءً، ومن الإجماع دستورًا»[(١)]، وحين قَدَّم «مقاربة جديدة

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٠٤.

(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٠٩.

(3) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 54.

(٤) محمد إلهامي: معارك المصطلحات في الواقع الإسلامي، تركيا بوست، ٢٢/ ٩/ ٢٠١٥.
http://www.turkey-post.net/p-76669

انتماءًا وعطاءًا، ومن الإجماع دستورًا»[١]، وحين قَدَّم «مقاربة جديدة لمفهوم العلمانية، تعبر عن المضامين الصحيحة داخل هذا المفهوم وتبعد عنها المضامين الأخرىٰ، فهو لم يجعل من العلمانية الأوروبية معياره ولا نموذجه ولا محرابه، ولم يجعل من العلمانيين الغربيين قدوته ولا أئمته ولا وعاظه، وإنما فهم أن العلمانية هي أنها الدعوة إلىٰ العلم وتحرير تفكير الإنسان وعقله، ورفض الأفكار التي تلغي حرية الإنسان وتحرمه من عقله وتمنعه من اتباع العلم واكتشاف الحياة وتسخيرها لمصلحة الإنسان والناس والبشرية جمعاء»[٢].

لقد تمسك الحزب بإصرار -علىٰ مستوىٰ الطرح الفكري- أنه يمكن الجمع بين كل ما يُظَنُّ أنه متناقض كما يقول أردوغان: «أنا حزبي محافظ ديمقراطي، محافظ أسعىٰ للحفاظ علىٰ عاداتنا وتقاليدنا وثقافة الأمة التركية، وأسعىٰ لتطبيق ديمقراطية قوية ومتطورة ولا تقل عن الديمقراطيات في العالم»[٣]، وكما يقول عبد الله جل: «ما نريد أن نقوله هو أن تركيا دولة مسلمة، وبالإضافة إلىٰ هويتها الإسلامية فإن تركيا دولة ديمقراطية وشفافة وعلىٰ وفاق مع العالم»[٤]. كذلك أصروا علىٰ أنهم ممثلي هذا التوفيق بين ما «اعْتُقِد» لفترة طويلة أنه متنافر كما يقول بولنت أرينتش: «سنشكل نموذجا يحتذىٰ في المنطقة في تطبيق الديمقراطية وتوسيعها من خلال هويتنا الإسلامية[٥]، ومن ثَمَّ قدَّم الحزب «نفسه علىٰ أنه نصف ليبرالي، وإسلامي معتدل، ولكنه ديمقراطي بالكامل»[٦]،

---

(١) محمد زاهد جل: التجربة النهضوية التركية ص١٦.

(٢) محمد زاهد جل: التجربة النهضوية التركية ص٨٩.

(٣) برنامج تحت المجهر: «العثمانيون الجدد»، قناة الجزيرة، بث بتاريخ ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٧؛ Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 47.

(٤) حوار مع عبد الله غل، برنامج حوار خاص، قناة الجزيرة، بتاريخ ٢٢/ ١١/ ٢٠٠٢.

(٥) برنامج تحت المجهر: «العثمانيون الجدد»، قناة الجزيرة، بتاريخ ٢٦ يوليو ٢٠٠٧

(٦) محمد زاهد جل: التجربة النهضوية التركية ص٧٢.

باختصار: قدَّم نفسه علىٰ أنه حزب ديمقراطي محافظ ينتمي -بمصطلح التصنيف الحزبي- إلىٰ «يمين الوسط» الذي يأخذ من اليمين هوية ثقافية ومن اليسار ميولا اقتصادية واجتماعية(١).

ولئن صَعُب علىٰ الكثيرين ابتلاع هذا التوجه وفهمه، فإن الذي كان سهلًا وواضحا وثابتا في رؤية الحزب وخطابه هو التخلي عن الخطاب المعادي للغرب الذي تبناه الإسلاميون سابقًا، وتبنىٰ خطابًا متسقًا مع ما يُطرح في المجتمعات الغربية(٢)، فلقد «أدركوا أنهم لن يستطيعوا تشكيل مستقبل البلاد إلا بإعادة النظر في علاقتهم مع الإسلام، وبإعلان الالتزام بالنظام العلماني الجزئي للجمهورية التركية، والتخلي عن الجوانب الأكثر ثورية في النزعة الإسلامية، وبخاصة فكرة «النظام العالمي العادل» أي الدولة الإسلامية العالمية. وبالرغم من امتداد جذور المؤسسين الأيديولوجية إلىٰ الإسلام السياسي، فإن معرفتهم بالحكم الجيد والخدمات العامة (التي اكتسبوها من عملهم في إدارة المجالس البلدية منذ التسعينيات) جعلتهم براجماتيين وأقرب إلىٰ ميراث حزب الوطن الأم بزعامة أوزال من الأيديولوجية الإسلامية لأربكان. ومن ثَمَّ فإن نظرتهم المعولمة ورؤيتهم للإسلام كمُلْهِم أكثر منه كهدف سياسي»(٣).

---

(1) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 50; Ümit Cizer: The Justice and Development Party, making choices, revisions and reversals interactively, in: Ümit Cizer: «Secular and Islamic Politics in Turkey», (New York, Routledge, 2008), p. 3.

(2) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. xv; Aydin, Çakır: Political Islam in Turkey, p. 1.

(٣) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٩٦؛ Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 46-7.

وما كان واضحًا بذات الدرجة أنهم نقيض للاستبداد واعتبروا «ما يفعلونه بمثابة إحياء جديد لكل الأحزاب التي تم غلقها، وبمثابة عودة الفكر الوطني و(عودة لمن قُهِروا) من السياسيين»[١].

لقد مثلت هذه الطريقة نمطًا جديدًا في السياسة التي يتصدرها إسلاميون، ما جعلها مسرحًا لابتكار الألفاظ والمصطلحات لدىٰ الباحثين لمحاولة التعبير عن الظاهرة، فوُصِفَت بأنها «سياسة مرتاحة» يمثل الدين فيها إلهامًا ثقافيًّا أكثر منه حضورًا فاعلًا في أجندة السياسة[٢]، وبأنها نسخة جديدة لإسلامية بلا إسلاميين[٣]، وبأنها سياسة «صديقة للإسلام»[٤].

٢- الكـوادر:

توحي روايات من كتبوا عن تجربة الحزب أنه لم تكن ثمة معاناة في مسألة الكوادر، ذلك أن شعبية أردوغان من جهة ثم إغلاق حزب الفضيلة من جهة أخرىٰ وفَّر للحزب كثيرًا من الكوادر ساعة انطلاقته[٥]، بالإضافة إلىٰ كوادر أحزاب اليمين الوسط كحزب الطريق القويم وحزب الوطن الأم الذين لم يعد لهم ممثل قوي في الساحة السياسية[٦]، بل إن عملية اختيار رؤساء فروع الحزب

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٠٣.

(2) Ian o. Lesser: Turkey: «Recessed» Islamic Politics and Convergence with the West, in Angel M. Rabasa ... [et al.] «The Muslim world after 9/11» (Santa Monica, RAND, 2004), p175.

(3) Menderes Çınar, Burhanettin Duran: The specific evolution of contemporary Political Islam in Turkey and its ‘difference’, in Ümit Cizer: «Secular and Islamic Politics in Turkey», p. 33.

(4) Ümit Cizer: The Justice and Development Party, p. 2.

(5) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 29.

(6) Aydin, Çakır: Political Islam in Turkey, p. 2.

بالمحافظات كانت تأخذ فترة طويلة لأن «المرشح لهذه الوظيفة لم يكن يكلف بتوليها إلا بعد أن يخضع لبحث وتقص جادين. وكان لا يُعانَىٰ من نقص في قاعدة البيانات» ويعتمد قبوله علىٰ استطلاعات الرأي السابقة بالإضافة إلىٰ مميزات الشخص نفسه[١]، وقد ضم الحزب يمينيين وقوميين وليبراليين بالإضافة إلىٰ أردوغان ورفاقه[٢] مما زاد في نفىٰ صفة «الإسلامية» التقليدية عنه، وألصق به أحيانا صفة كونه «ائتلافا من فصائل مختلفة لا حزبا متجانسا»[٣].

٣- البـرنـامج:

ابتعد البرنامج تماما عن ذكر صريح للإسلام ونصَّ علىٰ «الديمقراطية المحافظة» وقَبِلَ بالحداثة «إلىٰ حدِّها الأقصىٰ»، وكان ترجمة للهوية السياسية التي اعتمدوها بما تحتويه من غموض وأسئلة غير مجاب عنها بنظر البعض[٤]. إلا أن أمورا ميَّزت برنامج الحزب، أبرزها ما كان في جوهره ردًّا علىٰ بقية الأحزاب، فمن ذلك انحياز واضح نحو تجديد الدماء فيما يبدو أنه ردٌّ علىٰ ما جرت به عادة الأحزاب الأخرىٰ العلمانية والإسلامية علىٰ السواء، إذ حددوا مُدَدَ من يقوم بنيابة الشعب بحيث لا تزيد علىٰ ثلاث دورات، وبحيث لا يرأس الحزب شخص واحد أكثر من خمس دورات[٥].

واهتم البرنامج اهتمامًا خاصًا بالملف الاقتصادي الذي كان «واجب الوقت» وأكثر الملفات إلحاحًا، لما وقعت فيه تركيا من أزمة تضخم كبرىٰ أسفرت ضمن أمور أخرىٰ عن الانتخابات المبكرة، وقد تولىٰ هذا الملف علي

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٣٦.

(٢) برنامج تحت المجهر: «العثمانيون الجدد»، قناة الجزيرة، بتاريخ ٢٦ يوليو ٢٠٠٧

(3) Aydin, Çakır: Political Islam in Turkey, p. 2.

(4) Aydin, Çakır: Political Islam in Turkey, p. 2.

(٥) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٢٣.

باباجان، وهو رجل اقتصاد من عائلة لا تعمل بالسياسة ولم يتعرف علىٰ أردوغان إلا في مرحلة متأخرة، وكانت أبرز العوائق التي تواجههم وينبغي وضعها في البرنامج: الديون، صندوق النقد الدولي، السوق التركي المضطربة[1]. واختفىٰ من برنامجهم «الصناعة الوطنية الثقيلة» التي كانت في برامج أربكان وحلَّ مكانها مفهوم اقتصاد السوق الحرة الذي يأخذ بعين الاعتبار مصالح الطبقة الوسطىٰ[2]، وكان أبرز ما قاموا به في هذه الفترة أنهم روجوا لهذا البرنامج لدىٰ عدة جهات في الخارج: لندن ونيويورك[3] وحققوا بذلك عدة أهداف لا ريب أن أهمها التسويق السياسي قبل الاقتصادي لدىٰ هذه الجهات وعلىٰ رأسها صندوق النقد الدولي ومحاولة استشراف اتجاهات خارجية قد تؤثر في وضع الخطط والبرامج والخطاب السياسي.

وكانت من أبرز ملامح البرنامج وضع «خطة الأعمال العاجلة» التي تحدد برنامج الأيام الأولىٰ، فقد حضَّروا في فترة التأسيس «عشرات من المشاريع الإصلاحية الجاهزة للتنفيذ فورا»[4]، وكانت خطة طموحة أثارت دهشة بعض السياسيين، غير أنهم كانوا واثقين من قدرتهم علىٰ تنفيذها[5]، ولعل ذلك كان بأثر زياراتهم الخارجية المتعددة التي ساهمت في تسويق السوق التركية للاستثمار.

وأكثر ما لفت أنظار المراقبين في البرنامج هو الرغبة الصريحة الواضحة في الانضمام للاتحاد الأوروبي والتي تعبر عن مفارقة للفكر المعتاد للأحزاب

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٦٥ وما بعدها.

(2) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 29.

(٣) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٦٩.

(٤) برنامج تحت المجهر: «العثمانيون الجدد»، قناة الجزيرة، بتاريخ ٢٦ يوليو ٢٠٠٧.

(٥) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٧٠.

الإسلامية السابقة(١).

٤- الأمـوال:

فوض أردوغان صديقه رجل الأعمال جنيد زابصو في اختراق هذه فئة رجال الأعمال، ووعده بأن أي شخص سيأتي به منهم سيجعله في مجلس المؤسسين، وقد نجح جنيد في ضم عشرين منهم وُصِفوا بأنهم يساوون مليار دولار، كذلك كان الباب مفتوحًا أمام مساعدات «أصحاب المحال الصغيرة، ومن التجار، ومن المتبرعين» الذين يمثلون القاعدة الشعبية الكبرىٰ للحزب، مع الحرص علىٰ الابتعاد عن رؤوس الأموال التي تحاول شراء نفوذ سياسي(٢).

إلا أن أهم ما في الموضوع هو في كون الحزب قد طرح نفسه باعتباره ديمقراطيا محافظا يمثل يمين الوسط ومنشقًا عن الفكر السياسي الذي مثَّله أربكان، فلقد فتح هذا طريقًا أمام عدد كبير من رجال الأعمال المتدينين «الشباب(٣) الذين يمثلون رؤوس الأموال في الأناضول، وبمعنىٰ آخر كانوا من الطبقات الاجتماعية التي استهدفها انقلاب ٢٨ فبراير/ شباط ثقافيًا واقتصاديًا. وأراد هؤلاء الشباب التخلص وفي أسرع وقت ممكن من العبء الأيديولوجي الذي حمَّلتهم إياه (حركة الفكر الوطني) إذ رأت هذه الحركة أن هؤلاء الشباب يمنعون تحقيق مطالبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. كما أنهم كانوا علىٰ قناعة تامة بأنهم لن يحصلوا علىٰ أي نتيجة من الأرجوحة التي يحركها أصحاب السلطة لسنوات وفقا لمصالحهم. ولكل هذه الأسباب كانوا يشعرون بالحاجة إلىٰ كيان سياسي جديد يمنع الصدام بينهم وبين الحكومة

---

(1) http://www.akparti.org.tr/english/akparti/parti-programme

(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣١٢، ٣٣٧.

(٣) أبرزهم: مجاهد أرسلان، عمر تشاليك، فاروق كوجا، أحمد توبراق، يافوز سليم أراس. بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٠٧.

المركزية، ويضع في اعتباره حساسية الحكومة تجاه بعض الأمور من ناحية ومطالبهم من ناحية أخرىٰ»[١]. وكانت هذه الطبقة الناشئة من رجال الأعمال قد تجاوزت أعمالها الشركات الوسيطة لتصبح شركات كبرىٰ وصارت منظمتهم «الموسياد» (رابطة الصناعيين ورجال الأعمال المستقلين) الأكبر والأسرع نموًا في تركيا، وقد كانوا من داعمي حزب الرفاه إذ وجد كل طرف مصالحه عند الآخر[٢]، ويقسِّم بعض الباحثين هذا القطاع إلىٰ قسمين: الموسياد الذي صار يُحسب فيما بعد علىٰ العدالة والتنمية، وقسم آخر عُرف فيما بعد باسم «تحالف توكسون» وهو تابع لجماعة فتح الله كولن[٣].

وقد «كانت هناك أوساط -منها (جمعية توسياد) التي تمثل اتحاد رجال الأعمال الأتراك- علىٰ استعداد لدعم كيانات جديدة يمكنها أن تملأ الفراغ السياسي للحكومة المركزية، ويمكنها أيضا أن تجد إجابة للبحث عن هوية أكثر ليبرالية، وأكثر جماعية، ومستقلة في الوقت نفسه عن مفهوم الفكر الوطني الذي رجح أن يظل صامتًا حتىٰ يتلاشىٰ غضب انقلاب ٢٨ فبراير»[٤].

٥- القاعدة الشعبية:

صنع الحزب قاعدته الشعبية بالاستناد إلىٰ شبكتيْن مهمتيْن:

الأولى: الطريقة النقشبندية وهي أوسع وأقوىٰ الطرق الصوفية في تركيا ولها علاقات بالسياسيين منذ أوزال وحتىٰ أردوغان[٥]، وكانت تمثل القاعدة والمدد

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٠٧؛ Ömer Taspinar: Turkey's Middle East Policies, p. 13; Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 28.

(2) Heinz Kramer: A Changing Turkey, p. 67-8; ; Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 20-1.

(3) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 52-3.

(٤) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٠٨.

(5) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 13.

الشعبي الدائم لكل الأحزاب الإسلامية[١].

والثانية: هي جماعة الخدمة بزعامة فتح الله كولن وهي تنظيم دعوي يشبه في وجهه المعلن جماعات الدعوة والتبليغ في العالم الإسلامي التي لا تهتم بالسياسة غير أنها تفوقت عليها بشبكات إعلامية وتعليمية قوية وواسعة داخل وخارج تركيا وبأعضاء نافذين في كافة مؤسسات الدولة التركية، وهي تجديد لحركة سعيد النورسي انبعثت في مناخ الازدهار الإسلامي في السبعينات ونمت نموًا كبيرًا في الثمانينات حيث كان مناخ النظام العلماني يسمح بذلك لمواجهة اليسار والشيوعية، ثم انطلقت في التسعينات مع انهيار الاتحاد السوفيتي وانفتاح الساحات الآسيوية والبلقانية والعربية أمام المدّ الدعوي، وحيث عمَّ الفساد وضعفت قوة القانون كانت جماعة كولن تقدم مناخًا اقتصاديًا قائمًا علىٰ الثقة والالتزام مما مكَّنَها من بناء دوائر ومؤسسات اقتصادية يثق فيها المتعاملون معها[٢]، إلا أنها عملت بشكل براجماتي تمامًا في اختراقها لمؤسسات الدولة إذ لم يكن لديها بأس في أن تنزع أي صفة أو مظهر إسلامي عمن يتبعها في جهاز الدولة.

تحديات الوضع الإقليمي والدولي

لم تكن الخطابات ولا البرامج ذات تأثير -بطبيعة الحال- علىٰ فرقاء الداخل أو الخارج، وإنما ظلت ردود الأفعال كما هو المتوقع:

فأما داخل التيار الإسلامي، فلقد كانت التهمة الأبرز للحزب هو خروجهم عن الزعيم الإسلامي الكبير نجم الدين أربكان، وسعيهم في شق الصف الإسلامي وتمزيقه، ويجيب عبد الله جل: «لو كنا نحن السبب في انقسام

---

(1) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 14; Binnaz Toprak: The Religious Right, p. 638.

(٢) كرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٩٧.

الأعضاء وتناحرهم وفي حمل هذا التناحر إلىٰ المستقبل، فهل كنا لنجازف بتحمل المسؤولية علىٰ هذا النحو؟ وهل يستحق الأمر هذا؟ إننا لو بقينا بلا أي رد فعل تجاه أخطاء قائمة بدافع الخوف من تحمل المسؤولية لكان ذلك سيجعلنا في المستقبل أمام مسؤولية أكبر وعناء أكثر»[1]. واتُّهِمُوا كذلك بأنهم تحولوا إلىٰ نسخة علمانية إذ «باعوا تركيا للغرب وطرحوا أنفسهم كنموذج الإسلام المُعَدَّل الذي تريده أمريكا وصاروا اللاعب الرئيسي في موجة الليبرالية الجديدة، وأنهم علىٰ الحقيقة ثمرة من ثمرات انقلاب (١٩٩٧م)[2] في كسر التيار الإسلامي وتطويعه. وأمام هذه التهمة قال عبد الله غل: «إلىٰ أي مدىٰ كان مفهوم هذه السياسة التي انغلقت لها ثلاثة أحزاب علىٰ مدار ثلاثين عامًا سيستمر؟ هذه السياسة التي لم تحصل أبدًا علىٰ أي دعم انتظرته من الشعب، والتي لم تستطع أيضًا قراءة الاتجاه العام العالمي، وبالمناسبة لم تنجح في نقل ذلك إلىٰ تركيا»[3].

وأما بالنسبة للدولة العميقة وغلافها المدني من الأحزاب السياسية فلم تر في حزب العدالة والتنمية «إلا ذئبا في فروة الأغنام، إذ ينتهج نفس نهج الإسلام الراديكالي تحت قناع الإخلاص للسياسة الأوروبية»[4].

لكن الموقف الأهم من كل هذا هو الموقف الدولي، فلقد كان النظام العالمي الجديد -نظام القطب الواحد المتكون بعد انهيار الاتحاد السوفيتي-

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٢٩٧.

(٢) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٩٥ (تصريح لمحمد بكر أوغلو من حزب السعادة بتاريخ ١٣ يوليو ٢٠٠٩م)؛ Kenan Çayır: The emergence of Turkey's contemporary 'Muslim democrats', in: Ümit Cizer: «Secular and Islamic Politics in Turkey», p. 63.

(٣) برنامج تحت المجهر: «العثمانيون الجدد»، قناة الجزيرة، بتاريخ ٢٦ يوليو ٢٠٠٧.

(٤) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٩٦.

يعيش في ذلك الوقت أعظم لحظات قوته وشراسته أيضًا بعد أحداث سبتمبر ٢٠١١ وانطلاق الجيوش الأمريكية لتغيير الأنظمة بالقوة المسلحة، كما أن الهيمنة الغربية علىٰ السياسة التركية قديمٌ قِدَم عُمْر الجمهورية نفسها، وليس بوسع سياسي إلا أن يجد طريقه للتعامل معها.

ولقد زاد من صعوبة الموقف تلك اللحظة الزمنية التي وُلِد فيها الحزب، فلقد كانت شديدة التعقيد؛ فأبرز أحداثها: الانتفاضة الفلسطينية (٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م) التي استمرت لخمس سنوات علىٰ الأقل وما تطرحه من سجال الانتماء الإسلامي للحزب في مقابل العلاقة التركية المتينة مع إسرائيل، ثم أحداث (١١ سبتمبر ٢٠٠١م) وما طرحته من تداعيات الحرب علىٰ الإرهاب «الإسلامي» وما أسفرت عنه من حروب كالحرب علىٰ أفغانستان (أكتوبر ٢٠٠١م) وكَوْن تركيا عضوًا في حلف الناتو، والحرب علىٰ العراق (مارس ٢٠٠٣م) المجاور لتركيا مع تأثيراته الواسعة علىٰ تركيا وملف الأكراد. وكان يُنتَظَر من الحزب أن يقدم في كل هذه الملفات مواقف عملية تحظىٰ بالرضا الغربي أولا، ثم تفسير هذه المواقف وترويجها شعبيا أمام جمهور «إسلامي» وقوىٰ داخلية «علمانية».

قام الحزب بجولات خارجية في مساريْن: المسار الاقتصادي المسؤول عنه باباجان والذي سبقت الإشارة إليه، والمسار السياسي الذي تولاه أردوغان حيث قام بسبع عشرة رحلة خارجية شملت الدول الأربعة عشر أعضاء الاتحاد الأوروبي بالإضافة إلىٰ أمريكا وروسيا والصين، بالإضافة لزيارة أخرىٰ لكازاخستان من دول آسيا الوسطىٰ[١] وهي زيارة تؤشر إلىٰ اهتمام مبكر بالعمق التركي مع امتداداته العرقية. وكانت الزيارات بغرض التسويق السياسي للحزب الذي يوشك علىٰ إمساك السلطة أو أمسكها بالفعل، وتقديم مواقف في هذه

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٨٩، ٣٩٤.

القضايا، ومن البديهي أن يكون الحزب الجديد الناشئ هو الطرف الأضعف.

لا نحسب أنه بالإمكان الآن الحصول علىٰ معلومات بشأن ما دار في هذه اللقاءات، إلا أن المواقف المعلنة كانت السير بتؤدة وتمهل وبغير تغيير في السياسة الخارجية، فبرغم الانتفاضة لم يبادر إلىٰ إلغاء العلاقة مع إسرائيل ولا إلىٰ دعم المقاومة الفلسطينية وإنما حاول -بعد سنوات- الدخول في الملف كوسيط، واستمرت القوات التركية في مهمتها كعضو للناتو في أفغانستان، وخرج من مأزق العراق بحل وسط هو السماح باستخدام قاعدة إنجلريك دون استخدام الأراضي التركية في الحرب علىٰ العراق[١]، وظل موقفه من الملف الكردي كما هو ملف الدولة الكمالية ولكن بنكهة أوزال[٢]. وأيا ما كان الخلاف علىٰ تفسير هذه المواقف وتقييمها، فالثابت أن الحزب قد قدَّم نفسه كنموذج لإسلام «معتدل» (أو: ديمقراطية محافظة) يمكنه الالتقاء مع مصالح الغرب وأهدافه، فيوفر بديلا أفضل لديكتاتورية تنتج «الإرهاب» أو لديمقراطية تأتي بالإسلاميين «المتشددين»، وكان يُنتظر منه إثبات هذا بالمواقف بعد تقديمها كوعود وضمانات.

ولقد ظلَّ الحزب محلَّ اختبار ومحلَّ شكٍّ غربيًّا لسنوات طوال[٣]، إلا أن القراءة العامة لسياسة الحزب تكشف أنه استهدف تحويل كل تهديد إلىٰ فرصة؛ فمن ذلك:

١- أنه استثمر حالة ما بعد ١١ سبتمبر ليقدِّم نفسه بوصفه الإسلام المعتدل

---

(1) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 31.

(٢) لئن كانت الأيام قد كشفت كثيرًا من توجهات حزب العدالة والتنمية علىٰ هذه الملفات، إلا أننا الآن نسوق المواقف كما كانت في بدايتها عند تلك اللحظة.

(3) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. iii, xiii, 1, 3, 4, 31; Lesser: Turkey: «Recessed» Islamic Politics, p. 175.

الذي ينافي التطرف والإرهاب والذي يمكن التلاقي معه بشأن قيم الديمقراطية والحريات وعلمانية الدولة والليبرالية الاقتصادية ومن ثمَّ يجب دعمه وإسناده للتقليل من حالة التطرف ولإثبات أن الغرب لا يعادي الإسلام كدين أو المسلمين كأمة[1].

٢- أنه استثمر الرغبة القديمة المقيمة للسياسة التركية في الانضمام للاتحاد الأوروبي للقيام بإصلاحات هيكلية في مجال الحقوق والحريات التي تتيح فرصة أوسع لرفع المظالم عن الأكراد والأقليات من ناحية[2]، ومن ناحية أخرىٰ تدعم تقليم أظافر «الدولة العميقة» وفي القلب منها: العسكر التركي[3]، ونقد روايتهم ورؤيتهم للهوية والتاريخ التركي[4].

٣- أنه استثمر الرفض الغربي في الانضمام للاتحاد الأوروبي في فتح آفاق نفوذ وتأثير واسعة مع دول الشرق الآسيوي والشرق الأوسط، مما يساهم في الابتعاد التدريجي التركي عن «الهوية الغربية»[5]، كما يساهم في إنشاء خرائط سياسية جديدة تنكمش فيها القوة الأوروبية والأمريكية[6].

---

(1) Paul Wolfowitz: Fifth Annual Turgut Ozal Memorial (Lecture, March 13, 2002, Link) Ömer Taspinar: Turkey's Middle East Policies, p. 14; Ümit Cizer: The Justice and Development Party, p. 7.

(٢) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٩٢، ٢٠٥، ٢١٢ وما بعدها؛ Aydin, Çakır: Political Islam in Turkey, p. 3.

(3) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. xv, 2, 47; Lesser: Turkey: «Recessed» Islamic Politics, p. 175; Ömer Taspinar: Turkey's Middle East Policies, p. 13.

(٤) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٢١٧.

(5) Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. xiv.

(٦) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص٢٥٧.

«العدالة والتنمية» على رأس السلطة

ذهب تفكير المؤسسين إلىٰ وضع أردوغان في موقع القيادة الرسمية للحزب حتىٰ وهو محظور قانونا، وذلك لتتم لهم الاستفادة الإعلامية من اسم أردوغان المشهور في كل تركيا وخصوصًا في اسطنبول، ثم الاستفادة الإعلامية من أي تدخل للسلطات الحكومية إن أرادوا منعه من ممارسة السياسة، فيكون كل ذلك أقوىٰ في التسويق للحزب الجديد، ثم جاءهم حكم من المحكمة الدستورية لحالة مشابهة يقضىٰ بأحقية المحكوم عليه في «عضوية حزب سياسي»، فتم الأمر[(١)].

غير أنه لم تكد تمضي أربعة أشهر علىٰ تأسيس الحزب حتىٰ تحركت دعوىٰ قضائية ضد أردوغان لإقصائه من رئاسة الحزب (٢ يناير ٢٠٠٢) بحجة أنه محظور من العمل السياسي، ثم لم يمض أسبوع حتىٰ أصدرت المحكمة الدستورية حكما بإسقاط عضويته كمؤسس للحزب وأمهلت الحزب ستة أشهر للتنفيذ، وعلىٰ رأس الأشهر الستة استقال أردوغان من المجلس التأسيسي، فرُفِعت قضية أخرىٰ لإغلاق الحزب بذات الحجة ولكنها تأخرت في أروقة المحكمة حتىٰ حُكِم برفضها عمليا (٢٠ يناير ٢٠٠٣) في الوقت الذي كان الحزب فيه قد شكل الحكومة بالفعل. ولكن قبل هذا كانت قد أقيمت دعوىٰ أخرىٰ من قبل وكيل نيابة محكمة أمن الدولة العليا تطالب بإعدام أردوغان لمحاولة تعطيل الدستور لكنها رُفِضَتْ كذلك، وفي اليوم التالي مباشرة لإعلان الانتخابات المبكرة (٢ أغسطس ٢٠٠٢م) تقدم هذا الوكيل بدعوىٰ لإغلاق

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣١٧، ٣٢٤.

الحزب بدعوىٰ أنه «يقوم بأفعال من شأنها الإضرار بمبدأ العلمانية»[١]. وضمن سياق آخر -في ذات هذا اليوم ٢ أغسطس ٢٠٠٢م- كانت محكمة أمن الدولة بديار بكر ترفض الطلب المقدم من أردوغان لشطب الحكم بسجنه من سجلات القيد القضائي بعد تغييرات قانونية ليتمكن من الترشح للانتخابات المبكرة، إلا أن حكم الاستئناف وافق علىٰ طلبه وشُطِب اسمه، وما إن سمع النائب العام بهذا الحكم حتىٰ قطع إجازته وعاد مسرعًا فأعاد فتح القضية من جديد بسابقة قضائية، وأحالها إلىٰ دائرة بعينها فوافقت علىٰ إعادة فتح ملف القضية وإعادة اسم أردوغان إلىٰ قوائم الحظر من الترشح، ثم صار الأمر بيد اللجنة العليا للانتخابات التي قضت بعدم أحقية أردوغان في الترشح[٢].

وهكذا أسفرت المعركة القضائية عن بقاء الحزب وإقصاء مؤسسه وحرمانه من الترشح! فبقي المولود حيا وإن كان كُسِرَت ذراعه!

من المهد إلى المجد

في صيف ١٩٩٩ خطب مسعود يلماز -نائب رئيس الوزراء ورئيس حزب الوطن الأم- في حزبه بمناسبة تشكيل الحكومة الائتلافية فذكر بأن «تركيا تعيش الآن مشكلة نظام بكل ما تحمله الكلمة من معنىٰ... فالمشكلة ليست في هذا العنصر من النظام أو ذاك، إنما هي النظام نفسه»، وبلغت الأزمة بين أطراف النظام حدَّ أن ألقىٰ أحمد نجدت سيزار -رئيس الجمهورية- الدستور فوق رؤوس أعضاء مجلس الأمن القومي (١٩ فبراير ٢٠٠١)[٣]، ثم دخلت تركيا في

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٤٨ وما بعدها، ٣٥٧.
(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٥٧ وما بعدها.
(٣) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٥٤؛ كرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٨١.

«أكبر أزمة اقتصادية ومالية في تاريخ البلاد»[١]، إذ وصل حجم التضخم إلىٰ ٥٠٪ انهارت علىٰ إثره الكثير من الأعمال، وسُحِبت الكثير من الأموال المودعة في البنوك حتىٰ سُحب مبلغ ٧.٥ مليار دولار في يوم واحد، ثم لم تجد الحكومة حلا إلا أن ترفع الضرائب علىٰ الناس، وتزامن هذا مع إطلاق ٦٠ ألفًا مسجون في جرائم سرقة ونصب واغتصاب بقانون «إخلاء السبيل المشروط» فارتفعت نسبة الجريمة وزادت حالة الانفلات الأمني في البلاد. وحين كُلِّف الحزب القومي بتشكيل الحكومة الائتلافية لم يستطع حل المشكلات بل تعرض هو لنكسة في مبادئه حين دعم قانون إلغاء عقوبة الإعدام، وهو ما كان يُنقذ «عبد الله أوجلان» -الزعيم الكردي المتمرد والذي ألقي القبض عليه- من الموت، بالمخالفة لرغبة القوميين بالذات[٢]. ثم زاد الأمر سوءًا بأزمة صحية حلت برئيس الحكومة بولنت أجاويد فتوقفت اجتماعات الحكومة وأُلْغِيَت الزيارات الداخلية والخارجية وصار عمل الحكومة متوقفا. ولم يعد من مفرٍّ إلا الذهاب لانتخابات مبكرة، فأعلن هذا (١ أغسطس ٢٠٠٢م) وحُدِّد موعدها (٣ نوفمبر ٢٠٠٢م)[٣].

في تلك الأثناء كان حزب العدالة والتنمية قد أتم مرحلة التأسيس، وما إن أتمها حتىٰ بدأ في التطواف علىٰ المحافظات وإقامة المؤتمرات الجماهيرية، فبدأوا بقيصرىٰ (بلدة عبد الله غُل) ثم طرابزون وريزه وأرتيفين ومانيسا وبورصه وغيرها، وكان الاستقبال الجماهيري للحزب فوق المتوقع لحزب يبدو أنه وُلِد كبيرًا، حتىٰ كان يوصف كل اجتماع شعبي لحزب العدالة والتنمية

---

(1) Cemal Karakas: Turkey, Islam and Laicism, p. 29.

(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٥٤، ٣٥٥؛ كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٨٠ وما بعدها؛ Rabasa, Larrabee: The Rise of Political Islam, p. 48.

(٣) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٥٦.

بأنه «أكبر وأضخم اجتماع أقيم بهذه المدينة»، كما لفظتهم مدن أخرىٰ مثل شافشات وجناق قلعة، وقبيل الانتخابات كان الحزب قد أجرىٰ استطلاع رأي في عموم تركيا أفاد بأنهم سيصلون إلىٰ السلطة بهذه الانتخابات[١].

وتكشف أرقام هذه الانتخابات عن الأزمة في الواقع السياسي، فقد أبطل مليون ناخب أصواتهم وقالوا: لا للجميع، «وجاء برلمان ٢٠٠٢م لا يمثل سوىٰ ٤٥٪ من صوت الناخب التركي، فاز حزب العدالة والتنمية بـ ٣٦٪، وحصد نحو ٧٠٪ من المقاعد، بينما عند تأسيسه لم يكن الحزب أكثر من ٧٪ من الشارع التركي. ولكن فوز الحزب في ذلك الوقت ارتبط بالثقة في رئيس الحزب رجب طيب أردوغان»[٢].

و«في ضربة واحدة فقد ٩٠٪ من أعضاء البرلمان مواقعهم، كما فشلت كل أحزاب البرلمان السابق (الطريق القويم، الحركة القومية، الوطن الأم، اليسار الديمقراطي، الشعب الديمقراطي الموالي للأكراد) في تخطي عتبة الـ ١٠٪ اللازمة للتمثيل»[٣]، ولم ينجح سوىٰ حزب الشعب الجمهوري بقيادة دينيس بايكال في الحصول علىٰ ثلث مقاعد البرلمان بنسبة ٢٠٪ تقريبًا من الأصوات. وكان الفوز الكبير من نصيب المولود الجديد: حزب العدالة والتنمية الذي حظي ببقية مقاعد البرلمان بنسبة ٣٥٪، وهنا تبدو مفارقة التاريخ، فالعتبة التي وضعها العسكر لمنع الأحزاب الإسلامية من دخول البرلمان قد أثمرت سيطرة الإسلاميين الجدد علىٰ البرلمان والاستحواذ علىٰ حوالي ثلثي المقاعد.

يبدو أن هذا النجاح الكبير وغير المتوقع يدعم لمرة أخرىٰ مقولة فيكتور هوجو «ليس شيء أقوىٰ من فكرة حان وقتها»!

---

(١) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٣٨ وما بعدها، ٣٨٢.

(٢) محمد زاهد جل: التجربة النهضوية التركية ص٦٩، ٧٠.

(٣) كِرِم أوكْتِم: الأمة الغاضبة ص١٨٩.

أردوغان رئيسًا للوزراء

منذ الأيام الأولىٰ للفوز في الانتخابات كان عبد الله غل يصرح بأن وضع الحظر السياسي علىٰ أردوغان غير طبيعي ولا يليق بتركيا وأن من أولوياته العمل علىٰ تصحيح هذا الوضع[1]، وقد تمَّ هذا بتحالف مع حزب الشعب الجمهوري لتعديل الدستور بحذف عبارة «الأفعال الأيديولوجية والتحريضية» من المادة ٧٦ لتوضع مكانها عبارة «الأفعال الإرهابية»، وبهذا يزول الحظر عن أردوغان الذي كانت قضيته قضية «تحريض»، ثم إن اللجنة العليا ألغت انتخابات محافظة سيرت لما شابها من مخالفات قانونية، فكانت إعادة الانتخابات فرصة لأن يترشح فيها أردوغان، فيفوز ويصير عضوا بالبرلمان، ومن ثَمَّ يتنازل له عبد الله غل عن موقع رئيس الوزراء فتتشكل حكومة جديدة برئاسته ويأخذ فيها عبد الله غل منصب وزير الخارجية[2]، ويبدأ في تركيا من هذا اليوم (١٤ مارس ٢٠٠٣م) عصر جديد..

عصر حزب العدالة والتنمية..



(١) عبد الله غل، حوار لبرنامج «لقاء خاص»، قناة الجزيرة، بث بتاريخ ٢٢/ ١١/ ٢٠٠٢م.

(٢) بسلي وأوزباي: قصة زعيم ص٣٩٥، ٣٩٦.

خَاتِـمَة

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو سهو أو نسيان فمني ومن الشيطان، وقد أبىٰ الله أن يتم كتابًا إلا كتابه.

وأسأل الله تعالىٰ ألا تكون خاتمة اللقاء بالقراء الكرام، وأن يوفقنا لما فيه رضاه، وأسأله تعالىٰ أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ولا يجعل لأحد سواه فيها نصيبًا.

وأستقبل ملاحظاتكم وتعقيباتكم وإضافاتكم على بريدي

moha.elhamy@gmail.com